

جهاد اللغة العربية والإسلام ضد الصليبيين والمغول

صور اللغة العربية في جهاد الصليبيين والمغول

إن مدة الاجتياح الصليبي - المغولي لديار الإسلام، قرنين ونصف قرن من الزمان، من منتصف القرن الخامس إلى مطلع القرن الثامن الهجري (أي منتصف القرن الحادي عشر حتى مطلع القرن الرابع عشر الميلادي)، وتحديدًا من موقعة ملاذكرد عام ٤٦٢هـ - ١٠٧١م حتى موقعة شقحب ٧٠٢هـ - ١٣٠١م (ويمكن مدّها حتى فتح جزيرة قبرص عام ٨٢٩هـ - ١٤٢٦م)، هي مدة جديرة بالدراسة والبحث وجديرة بالاعتبار والتعليم؛ لأنها تمثل أحلك مدة في التاريخ الإسلامي على الإطلاق؛ ولأنها حقبة عصيبة هدّت وجود الإسلام بالاستئصال والزوال، وهدّدت لغة الإسلام، اللغة العربية، بالموت والانقراض (كما حصل ذلك في سقوط الأندلس عام ٤٩٢م؛ إذ حرّم بعدها التدين بدين الإسلام، وحرّم التواصل بـ استعمال اللغة العربية، فزال الإسلام وزالت العربية معاً بعد قرن واحد من زوال دولة الإسلام بالأندلس).

هناك سببان آخران يستدعيان هذه الدراسة ويستحقان عناء البحث؛ أولاً، إن هذه المدة تمثل عصر احتكاك وتصال وتأثير لحضارة المشرق الإسلامي العربي في همجية الغرب الأوروبي النصراني، وفي وحشية الشرق المغولي التتاري. وهذا الاحتكاك والاتصال والتأثير عميق الأثر وبالغ الخطر وبعيد النظر، وترتب عليه خيرٌ وشرٌ لأوروبا؛ كالتفكير العلمي الحر، وعصر النهضة الأوروبية، والإصلاح الديني البروتستانتي الأوروبي، وترتب عليه أيضاً هداية أحوال وتحولهم من أمة متوحشة إلى أمة متحضرة تدين بدين الإسلام، الدين الذي حاربوه ابتداءً، وتحالفوا والصليبيين لتفهمه، فقهرهم الله وهدهم، يدل ذلك، إلى الإسلام.

والسبب الآخر للدراسة والبحث؛ هو أن هذه المدة تمثل جذور الماضي لصورة الإسلام في أوروبا، ولنظرة الغرب التحديث للعالم الإسلامي اليوم، بل تمثل الخلقة التاريخية التي مهدت لأحداث الحاضر والمستقبل. فمن لا يفهم مدة الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي، لا يستطيع ولن يستطيع فهم الحملات الدعائية المستمرة لتشويه صورة الإسلام وسمعته، والاستعداد دونها سبب على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، ولا فهم أسباب الحملات الغربية المتأخرة والمتعاقبة على بلاد الإسلام، وتصيدي العثمانيين لها في جهادهم البطولي ضد تحالفات الغرب النصراني التي أدت من ثم إلى فتح القسطنطينية وما تبعها من مذّ التآثير الإسلامي العثماني في أسواق أوروبا، ولا فهم أسباب سقوط دولة الإسلام بالأندلس، ولا فهم محاولات الغرب الحديثة والحديثة لاستعمار (استخرا ب) العالم الإسلامي والسيطرة عليه وعلى ثرواته، مثل دخول الفرنسيين (الفرنجة) إلى الشمال الإفريقي وشرق العربي في سباق محموم مع الإيطاليين والإسبان (الرومان الكاثوليك) ومع الإنجليز البروتستانت (الأمريكان المنحدرين من نسلهم الأتجلوساكسوني)، ومثل محاولتهم اقتسام القارة السوداء كالكمعة بين الأوروبيين (وهكذا تسمى بالإنجليزية Scramble of Africa)، حتى إن الغزو الأمريكي على العراق بقيادة الرئيس بوش الابن عام ٢٠٠٣م قد سُمي بالحملة الصليبية العاشرة على ديار الإسلام!!!

وإذا كانت مدة الإسلام تمتد ١٤ قرناً من الزمان من تاريخ البعثة النبوية (وإن كانت جذور الإسلام تمتد إلى أقدم)، فإن هذه المدة الحرجة، قرنين ونصف قرن، تمثل ١٧.٨٪ من تاريخ الإسلام الكلي، فهي إذن بالفعل مدة جديرة بالدراسة والتعليم، وبالبحت والتقصي.

عندما ضعفت الخلافة العباسية الإسلامية (في أواخر عصرها) وتقطعت أوصالها إلى دويلات متناحرة في زمن ضعف الأمة الإسلامية إيماناً وجهاداً واجتهاداً، سهل انتصار الحملات الصليبية القادمة من الغرب وسهل تنابُعها، وسهل احتياح المغول العالم الإسلامي من الشرق، وواكبت اللغة العربية الأحداث الكبرى التي رزّلت العالم الإسلامي وهددت وجود المسلمين، وضيق عليهم دار الإسلام، إذ قامت بتسجيل هذه الأحداث الخطيرة، ووثقت معاركها ووقائعها وحروبها الجهادية، إلى أن خرج الإسلام من عتق الرّجاجة مئسوراً، يل خرج من هذا القمقم المظلم كالمراد الجبار ليكيل النّصاع صاعين لكل الغزاة المتوحشين من الفرنج الصليبيين الفاصيين، ومن جحافل التتار الكافرين.

ولم يكتف عمل اللغة العربية بمواكبة الأحداث وتوثيقها فحسب، بل كان للعربية عمل آخر، عمل ريادي جهادي قيادي لصنع النصر عبر تأجيح حماسة الجهاد قبل المعارك، والتواصل والمراسلات والحروب الإعلامية والحرب النفسية مع أعداء الإسلام قبل المعارك وبعدها، وفي تخليد هذه الانتصارات، وفي فتاوى العلماء بترشيده الأمة بضرورة قتال المغول الذين ادعوا الإسلام زوراً وهم يقتلون المسلمين ويحالفون الصليبيين؛ ثم بروز أهمية العربية في رفع الهمم لمعاودة القتال عند الانتكاسات.

إنّ عمل العربية الجهادي باللسان وبالقلم لا يقلّ عن جهاد المسلمين بالمال والنفس، كما جاء في الأثر: (مداد العلماء أفضل عند الله من دماء الشهداء)، و(يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء، خير حج مداد العلماء على دم الشهداء)، وقد قيل:

يا طالبني علم النبي محمد ما أنتم وسواكم بسواء
فمداد ما تجري به أقلامكم أزكى وأرجح من دم الشهداء

ويشير المتنبي إلى أن قوة الكلمة (المثلة بالقلم) التي لا تخاف المنيات أي: الموت، هي أقوى على الأعادي من قوة المشرفيات أي: السيوف:

قوم إذا أحدوا الأقلام من غضب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لا يُنال بحدّ المشرفيات

ويقول أبو الطيب المتنبي أيضاً:

إذا رأيت تيوب الليث بأرزة فلا تظن أن الليث يهزم
الخيول والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
وقد قيل:

أن النار بالعيودان تدكى وأن الحرب مبدؤها كلام
ويؤيد ذلك ما قاله معروف الرصافي من المتأخرين:
وقتلته بالقول لا بمهتدي والحرب أحرى أن تكون مقالا

تستجد في مسيرة الجهاد أمور وتحدث قضايا تستوجب الاجتهاد. ومن هنا كانت مهمة العلماء العاملين المؤمنين المجاهدين في الاطلاع على أمور الاجتهاد لتقرير الحكم الشرعي بطريق البحث واستقراء الأدلة ووزنها. وكان اتوجه المعوي والخطاب الإسلامي قبيل المعارك وفي أثنائها دوماً باستخدام اللغة العربية، لغة الإسلام، سواء كان الجند عربياً أم عجمياً، تركياً أم كرداً، سودانياً أم بربراً.

والعالم إن أصاب في اجتهاده فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، وبهذا جاء الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد». وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنُ لَهُمْ مَسْئُورَةً وَرَأَى ظُهُورَهُمْ وَاسْتَرَأَوْا بِهِمْ مَقَالِيلًا فَنُكِّلَ مَا يَشْرُونَ﴾ [الر عمران: ١٨٧]. إن مهمة العلماء، ولاسيما أهل الاجتهاد، كبيرة في ظل احتلال العالم الإسلامي عبر تزويدها بالفتاوى لتصحيح مسيرتها وترشيدها.

ولقد قاء العلماء العاملون المجاهدون (بالقول والفعل) حملات التصدي للصليبيين والمغول، أمثال: سلطان العلماء العز بن عبد السلام، الذي خرج مجاهداً مع جيش مصر بقيادة الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ لرد الحملة الصليبية السابعة على دمياط. ويتوفيق الله ثم جهاد المسلمين ودعوات هذا الشيخ المجاهد استجيب له، فسخر الله الريح على سفن العدو، وانهزم الجيش الفرنسي، وأسّر ملك فرنسا لويس التاسع نفسه، وسُجن وذاق طعم النذل والهوان في سجن المنصورة.

وخرج الشيخ العز بن عبد السلام أيضاً مجاهداً مع جيش المماليك وأمة الإسلام بقيادة الملك المظفر قطز لرد جحافل المغول. ويتوفيق الله ودعوات السلطان المجاهد قطز ودعوات الشيخ المستجابة في ميدان المعركة في عين جالوت، قهر الله جحافل المغول وأبادهم عن بكرة أبيهم، وتحطمت أسطورة الجيش الذي لا يقهر، ليبدأ بذلك العد التنازلي لانتهاء إمبراطورية المغول.

ثم خرجت جيوش الإسلام من الشام ومصر لإنهاء الوجود الصليبي المتبقي في عكا، وتطهير ديار الإسلام منهم نهائياً؛ وخرج شيخ الإسلام ابن تيمية مجاهداً مع جيش الشام إذ ذاك، وادهش المقاتلين بصناعته في فتح عكا، آخر معقل وعاصمة لمملكة الصليبيين في ديار الإسلام. ثم خرج هذا الشيخ المجاهد ابن تيمية في جيوش الشام ومصر بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون ضد جحافل المغول في معركة شقحب، التي نصر الله بها المسلمين النصر النهائي الساحق المؤزر على جيوش المغول.

وكان للغة العربية، لغة الإسلام، عمل ريادي في اجتهاد العلماء بضرورة قتال المغول الذين ادعوا الإسلام زوراً، وهم يقتلون المسلمين ويخالفون الصليبيين، كما ورد ذلك في رسالة ابن تيمية الرائعة والخطيرة قبيل موقعة شقحب المباركة.

وكانت لمراسلات بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون البطل وبين إيلخان المغول محمود قازان المجرم باللغة العربية، ثم كان الانتصار في موقعة شقحب انتصاراً هيكلياً للإسلام، وكان أيضاً انتصاراً عظيماً للغة العربية، لغة الإسلام الخالدة.

لقد صار لهذه اللغة المباركة، لغة القرآن والإسلام، أبلغ الأثر في بعث هذه الأمة الإسلامية من رقادها وسياتها، وفي تجديد إيمانها ودينها لتنتفض وتصحو من جديد، ولتقف ثانية: كي تدافع عن بيضة الإسلام، ثم لتوجه الضربات القاضية وتدحر أعنى قوتين في العالم آنذاك: اتحاد أوروبا الصليبي، وجموع المغول العاتية، بالضبط كما قام أسلاف هذه الأمة المباركة بتقويض إمبراطوريتي الفرس والروم من قبل. وقد أثرت اللغة العربية في استنهاض هذه الأمة الإسلامية، وتمكينها من جديد، عبر تأثيرها في مجالين اثنين بالتحديد: في مجال التوحيد، وفي مجال الجهاد (أي في مجال اتوعية والمعنويات الروحية. وفي مجال العمل الميداني).

١. بعثت العربية مفهوم التوحيد بالله رباً ومعبوداً، ومجّدت أسماء الله الحسنی بمفرداتها اللغوية الواسعة:

فإنه هو المُقدَّر لما يحدث، وهو مقلب الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصْبِكٍ فِيمَا كُنْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَجَعَلُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝ وَمَا أَشْرُ يُعْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١]. وهذه الآية أرجى آية في كتاب الله عز وجل؛ إذ روي هذا المعنى مرفوعاً عن علي بن أبي طالب عليه السلام: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدث بها النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصْبِكٍ فِيمَا كُنْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾» الآية.

«يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم. والله أكرم من أن يُنتي عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فإله أحلم من أن يعاقب به بعد عفو». لتفسير القرطبي. قال الواحدي: وهذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره عنهم بالمصائب، وصنف عفا عنه في الدنيا، وهو كريم لا يرجع في عفو، فهذه سنة الله مع المؤمنين؛ وأما الكافر فإنه لا يجعل له عتوبة ذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة لفتح القدير للشوكانية. بل إن الله قد يفتح على الكافرين المشركين بالأموال والانتصارات المؤقتة في الدنيا، مكرراً منه واستدراجاً لهم قبيل استئصالهم فجأة وبغته على حين غرة ودون مقدمات؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْيَأْسَاءِ وَالْمَسَاءِ وَالْهَمَاءِ فَهُمْ يَنْفَرُونَ ۝ فُلُولا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا فَفَرُّوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝ فَفُتِحَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٥].

والله هو الناصر، وهو الظاهر فوق عبادته، وإن نصر الله مضمون لمن ينصر دين الله ويأخذ بالأسباب، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُفْتِتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [الحج: ٧]؛ فنعم المولى ونعم النصير ثم إن الإيمان بالله الواحد يقتضي الإيمان بقدر الله، وإن كل نفس لا تموت إلا بإذنه بعد أن تستوفي أجلها كتاباً محتوماً مؤجلاً، والأعمال كلها بيد الله وحده، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَكُمْ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٦٥]؛ قل هل نرثصونك بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نترثص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا فنرثصوا إن معكم مفرئصون ﴿١٠﴾ [التوبة: ٥١-٥٢].

ثم إن الله هو وحده الرزاق الوهاب الكريم، وهو وحده مالك الملك، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، المعني المانع، والضرار النافع، كما ورد في الدعاء (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، وتقتضي عقيدة التوحيد إذن أن من يعبد الله وحده (لا يشرك به شيئاً)، لا يخاف أحداً من عباد الله أبداً؛ لأن الله هو وحده رب الأرباب، ومسبب الأسباب، وهازم الأحزاب.

فإن دفع الصائل وإخراجه من ديار الإسلام، في المنظور الشرعي، هو الجهاد في سبيل الله أي: أن يقاتل المجاهد لتكون كلمة الله هي العليا، يقاتل وهو يحمل عقيدة التوحيد: عقيدة لا إله إلا الله، يقاتل وهو يسعى إلى إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله، والله ضامن نصر المؤمنين وضامن إلقاء الكافرين في قبور أعدائهم.

قال تعالى: ﴿سَتَلْقَوْنَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ الْمَكَارُ وَيَسْئَلُ الْمُؤْمِنُونَ الْأَطْلَاعَ لِمَ يَفْعَلُ بِهَذَا أَفَلَا يَفْقَهُونَ﴾ [آل عمران: ١٥١]، فقد ذكر الله سبحانه السبب الموجب لإلقاء الكافرين في قبور الكافرين، فقال: ﴿وَمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وشبَّوب عقيدة المسلمين بعدم الإخلاص لله، وخلوها من تمام التوكل على الله، وامتزاجها بالبدع والباطيل، عاقبة أن لله لئن ينصره برغب أعدائه المشركين.

ثم إن ضعف الإيمان يُضعف الثبات في المعارك، ويؤدي إلى الفرار والهزيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْيَمْعَمِ إِنَّمَا أَسْرَأَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، يخبر الله تعالى عن حال الذين انهزموا يوم (أحد) وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، هم الذين أدخلوه على أنفسهم، فلم يعتصموا بطاعة ربهم.

ثم إن اليقين بنصر الله تعالى، وأن النصر من عند الله لا من غيره، هو أساس الاعتقاد الصحيح في ميدان المعارك والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، أي: إن يمددكم الله بنصره ومعوذته ﴿فَلَا قَالِبَ لَكُمْ﴾، ولو اجتمع عليكم من أقطارها وماعتدهم من العدد والعدد: لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بئنه، ولا تسكن إلا بأذنه، ﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى انفسكم، ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا بد أن تتخذوا ولو أعانكم جميع الخلق: وفي ضمن ذلك الأمر بالاستعصاء بالله والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة: وهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فتقديم المفعول يؤذن بالحضر: أي: على الله توكلوا لا على غيره؛ لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار، وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَذَلِكُنَّ الْوَكِيلُ﴾ [الأنفال: ١٧]، ذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وظل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه فخذ حقة من تراب، فرماها في وجوه المشركين فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه وغمه وعينييه منها، فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا، يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك، حين رميت التراب، أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [آي: ١٧]، إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

إن في التوحيد كمال الإيمان، وهو جماع الأسباب كلها، فهو إذا تحقق فلا بد أن تأتي أسباب النصر الأخرى له تباً؛ ولذا وعد الله المؤمنين في أكثر من موضع في كتابه العزيز بالنصر والتمكين والاستخلاص، قال تعالى: ﴿وَكَاذِبًا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [آفاق: ٥١]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

وترجمت اللغة العربية معاني التوحيد عملياً في ضرورة توحيد البلاد والعباد، فكل بني الإنسان خلق الله بلا تفضيل عرقي أو طبقي، ولا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها؛ كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (نحن العرب أدلة، أعزنا الله بالإسلام، فمهما حاولنا العزة بغير الإسلام أذلنا الله). فمهما

كانت الألقاب والشعارات - دون العودة المخلصة إلى دين الإسلام الحق - تستغل الأنانيات الشخصية ودويلات الطوائف الضعيفة تنخر في جسد الإسلام، وصديق محمد بن عمار المهري الأندلسي القائل:

مما يزهدي في أرض أندلس القاب معتصم فيها ومعتصد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتباخا صولة الأسد

إن تفرق الكلمة سبب للفشل وذهاب القوة والهيبة من نفوس الأعداء، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَعْيُنَ وَأَنْتُمْ كَذِبُونَ﴾ [النساء: ٥٩]، بل قد يتحول النصر إلى هزيمة، لكن اجتماع الكلمة لا يكون كيفما اتفق، وإنما باجتماع المسلمين على المنهج الحق في الكتاب والسنة، والتحاكم إليهما، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

إن الإسلام هو دين العالمين جميعاً، ولأن العرب آنذاك قد خضعت شوكتهم وعلمهم القيادي، فإن الله قيض لأمة الإسلام من يقوم بأمر الإسلام وقيادته، فاستبدل بالعرب إخوانهم الأتراك السلاجقة، وآل زنكي التركمان، وبني أيوب الأكراد، والمماليك الشراكسة التركمان، ثم آل عثمان الأتراك، وأذابهم جميعاً مع العرب في بوتقة الإسلام الكبيرة وفي حاضنته الجامعة، ليحملوا راية الجهاد.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، أي: إخوة تربط بين جميع المؤمنين الأولين والآخرين، عرباً وعجماً، أغنياء وفقراء، رؤساء ومرؤوسين. قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» وشبك بين أصابعه، رواه البخاري ومسلم، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» رواه البخاري ومسلم وأحمد وعن عليّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم، ألا لا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد في عهده» رواه أبو داود والنسائي، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس: أي: تتماثل دماؤهم فلا فضل لبعضهم على بعض، فيقتل مثلاً القرشي بغير القرشي، ويقتل الحنظلي بغيره، عدا ما خص به الحديث «ألا لا يقتل مسلم بكافر»، فإذا قتل مسلم كافر فإنه لا يقتل به، وإن كان المسلم ظالماً مستوجباً للعقاب: لأن الكافر لا يتكافأ دمه بالمسلم الذي هو أكرم على الله من الكافر.

ومن ثم كان لغة العربية أبلغ التأثير في استعراب المسلمين من غير العرب، عبر تعايشهم مع العرب لغة وتواصل حياة (ولا يضرب إن كان استعراب بعض العثمانيين لم يصل حد الكمال)، ثم صار هؤلاء قادة الفتوح الإسلامية الجديدة، يتبعهم في ذلك جموع المسلمين من العرب والأتراك والأكراد والبربر والسودان وغيرهم، حتى صاروا يُسمون بـ «سلاطين العرب والمسلمين». وتصاهروا بوشيجة الإيمان، بل امتزجت دماؤهم جميعاً في ميادين الجهاد في سبيل الله. وكان أول ما فعله هؤلاء القادة المسلمون (غير العرب) هو توحيد لحمة العالم الإسلامي بتوحيد مصر والشام، وآسيا الصغرى وضمها إلى العراق والحجاز واليمن، إن توحيد مصر والشام تحديداً سرعان ما كوّن فكي كماشة طبقت تدريجاً على دويلات الصليبيين في القدس وساحل البحر المتوسط، قبل حرقها والإجهاض عليها وطردها من ديار المسلمين إلى الأبد.

وينبثق من التوحيد بالله ومن توحيد البلاد والعباد ضرورة العدل بين العباد، والعدل أساس الملك. بل هو أصل من أصول التمكين في الأرض، وخاصة العدل المالي بين الرعية، إذ يشتري الحاكم العادل به قلوب الرجال.

يقاتلون معه بأرواحهم قتال رجل واحد. وسرى أن العدل المائي قبيل المعارك مع الجهاد الخالص في سبيل الله طلباً لشهادة كانوا الخلطة السرية للانتصارات الإسلامية الساحقة في استعادة الرها أيام عماد الدين زنكي، وفي تل حارم الفاصلة أيام العادل نور الدين محمود، وفي حطين وفتح القدس أيام صلاح الدين الأيوبي، وفي عين جالوت أيام الظفر قطز، وفي حمص الأولى، وفي واقعة الفرات، وفي أبلستين أيام الظاهر بيبرس، وفي حمص الثانية أيام الناصر قلاوون، وفي فتح عكا أيام الأشرف خليل ابن قلاوون، وفي معركة شقحب أيام المنصور محمد بن قلاوون، وفي الفتح الثاني جزيرة قبرص أيام السلطان الأشرف برسباي.

بل إن اللغة العربية أبلغ الأثر في التخطيط السليم ووضع الرؤى الإسلامية موضع التطبيق والتنفيذ. ولبيان ذلك فإن مرسوم الخليفة العباسي المستضيء بالله لتقليد صلاح الدين السلطان الناصر في مصر والشام يعثل خريطة طريق دقيقة لسيرة صلاح الدين المستقبلية. وهذا المرسوم المكتوب بأجمل كلمات اللغة العربية الرصينة، والمطعم بآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الحكيمة، سرعان ما استجاب لها صلاح الدين بنحو حرق في بروحه وقلبه وعقله، فكثرت هذه الرسالة الفريدة (انظر هذه الرسالة تحت صلاح الدين) عميقة الأثر، بعيدة النظر، عظيمة الخطر في المسيرة الطافرة للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي.

٢. بعثت اللغة العربية روح الجهاد والتعبئة العسكرية، وغذت مفرداتها أدب العسكرية، وعسكرة العالَم الإسلامي؛ لينهض ويتصدى للأخطار المحدقة به.

والحقيقة أن للعربية جهاداً لا يقل عن جهاد ابنائها. فالعربية هي لغة كلام الله تعالى، القرآن، والجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته "فريضة" فرضها الله في القرآن بعد ذكره فريضة الصلاة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا الصَّكَّاتِ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ خَلَقَكُمْ فَلْيُحْيُوا ۖ﴾ (٧٧-٧٨) وقال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ١١١). والجهاد هو عنصر النصر والتمكين الأكبر للمسلمين على أعدائهم الكافرين، بل لقد أُنذِر الله تعالى هذه الأمة بالذلل إن هي فرطت بالجهاد، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يَغْزِيَنَّكُمُ عَدَاؤُا إِلَيْهَا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا خَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ١٢٩).

ثم إن الله عز وجل جمع وأجمل تدابير الحرب كلها في آيتين جميلتين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) وأطيعوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْزِعُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَدَبَّبُوا بِغَمِّكُمْ وَأَمْسِكُوا إِلَى اللَّهِ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦). وقال رسول الله ﷺ: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاسْبُتُوا وَاسْكُرُوا مِنْ شَرِّ اللَّهِ، وَإِنْ جَلَبُوا وَضَجُّوا فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ».

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أحرص على الموت، توهب لك الحياة، ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «رَبِّ حَيَاةٍ سَبَبُهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ، وَرَبِّ مَوْتٍ سَبَبُهَا طَلَبُ الْحَيَاةِ». وقال رضي الله عنه أيضاً: «مَنْ أَكْثَرَ النَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ، لَمْ يَشْجَعْ».

ومن أدبيات العسكرية الإسلامية ومستلزماتاتها: التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب، وعدم موالاة الكفار، وطاعة الأمير، وحسن الظن بالله:

التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب: ربط القرآن الإيمان بالعمل، وعَدَّ العمل الصالح شرطاً للإيمان (في أكثر من سبعين موضعاً)، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّلَاحَاتِ ﴿١٣-١﴾. والعصر، ١٣-١. وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: مصيرهم إلى النار، واستثنى الله منهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الذين، ١٦. وقال عز وجل: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَلْزَمُوا رِشْوَةَ اللَّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ النبوة، ٥-١٠. وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ. وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ الملك، ١٥. فالعمل والمتى في مناكب الأرض يُناهي التواكل والتفاسد والقعود، ولا يتعارض مع التوكل على الله: لأن التوكل على الله من صميمه لإيمان بالله. إذن لا بد من إيمان ومن عمل.

والتوكل على الله سبحانه وتعالى لا يمنع من الأخذ بالأسباب. عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ على تاقه له، فقال: يا رسول الله، ادعها وتوكل؟ فقال: «اعقلها وتوكل»، وهذا الحديث أصل في التوكل، وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز مع الأمر بالتوكل. وعن عمر بن الخطاب ؓ، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماساً وتعود بطناناً» وفي هذا حث على التوكل على الله مع أهمية الأخذ بالأسباب. إذ أثبت الغدو والروح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها. إن الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى. وقد جمع النبي رسول الله ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، إذ يقول ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز».

إن المسببات، لا بد لها من أسباب، والله وحده هو مُسَبِّب الأسباب كلها. والأخذ بالأسباب من صميم المرسلين والصالحين، وتركه من شيم البطالين الذراويش الذين يريدون أن يعيشوا على الصدقات والهبات، فهذا هو نوح عليه السلام - أمره ربه تبارك وتعالى بإعداد سفينة عملاقة لحمل الأحياء من كل زوجين اثنين ومن آمن من البشر - ولو شاء الله أن ينجيه لنجاه، ولكنه أرشده إلى الأخذ بالأسباب.

وها هو موسى عليه السلام أمره ربه تبارك وتعالى أن يضرب البحر بعصاه: وهل تشق العصا البحر؟ ولكنها الأسباب، فإذا بالبحر فرقتين، كل فرق كالطود العظيم. ولو شاء الله أن يجعله كذلك من غير ضرب بالعصا لفعل، ولكنه ليُعَلِّمَ أنبياءه وعباده الصالحين الأخذ بالأسباب، وكذا ضربه الحجر بالعصا لينفجر منه اثنا عشر عينا، كل هذا لتأخذ الأسباب نصيبها من حياة الإنسان.

وها هي مريم - عليها السلام - أمرها ربه تبارك وتعالى، وهي في المخاض، أن تهز النخلة لتسقط عليها رطباً جنياً، ومن المعلوم أن المرأة أضعف ما تكون قوة في هذه الحال، ومع هذا أيضاً لو هز النخلة عشرة رجل من جذعها لما تساقطت ثمرة واحدة ولكنها الأسباب:

ألم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ لِمَرْيَمَ	وَهَزَىٰ إِلَيْكَ الْجَذْعَ تَسْقُطُ الرُّطَبُ
وَلَوْ شَاءَ أَنْ تَجْنِيَهُ مِنْ غَيْرِ هَٰذَا	جَنَّتَهُ وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَّهٗ سَبَبٌ

وأكدت السنة النبوية الشريفة العمل والأخذ بالأسباب، فقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار»، فقيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل، وتوكل على الكتاب؟ فقال: «لا تعملوا، فكل ميسر لما خلق له» رواه البخاري. وقال في حديث آخر: «اعقلها وتوكل». وقال ﷺ أيضاً: «أطيب الكسب عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور». وقال ﷺ: «تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء» رواه أحمد.

فالأخذ بالأسباب واجب شرعي، فمن أراد الكسب الشريف سعى إليه، ومن أراد الذرية ترج، ومن أراد النجاح درس، ومن أراد الشفاء أخذ الدواء. وها هو ذا نبينا محمد ﷺ جاهد الكفار والمشركين، وحضر الخندق حول المدينة، وكان يمشي في الأسواق لتحصيل الرزق، وكان يقول ﷺ: «جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمُحِي». وروي عنه

أنه قال: «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله يقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ١٠)».

وكان رسول الله ﷺ، وهو أفضل المتوكلين، أوعى الناس لهذه السنة الربانية، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً، والمتتبع للسيرة النبوية يلمس ذلك تماماً. فحي الهجرة لم يترك رسول الله ﷺ أمراً من الأمور إلا أعده له عدته أفضل إعداد، فقد أعد النبي ﷺ الرواحل وقليل، واختار الرفيق، وساعى الطعام، والأغنام ليعمي على آثارهم، والمكان الذي سيتوارى فيه هو وصاحبه حتى يهدأ الطلب، ويفتر الحماس، وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر، والكتمان، وأسباب احتياط، وترك للإرادة الإلهية، بعد ذلك، مالا حيلة له فيه، وجميع غزوات رسول الله ﷺ وكل أموره فيها إلى الله تعالى، بل حتى في ليلة الإسراء، ركب الرسول ﷺ (دايته) البراق حتى أتى المسجد الأقصى، وربط الدابة في الحلقة التي كان يربط فيها الأنبياء من قبل، ثم دخل المسجد وصلى بالأنبياء، ثم عرج به إلى السموات العلاء (حائط البراق) تبع للمسجد الأقصى، ويسميه اليهود بخائط المبكى، وركب النبي ﷺ البراق في رحلة الإسراء، وربطها بالحلقة من باب الأخذ بالأسباب.

وكان رسول الله ﷺ يوجه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السنة الربانية، في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء. ففي أمورهم كان النبي رسول الله ﷺ يرشدهم دائماً إلى الأخذ بما يمكن من أسباب للوصول إلى حياة كريمة بعيداً عن ذل السؤال ومهانة العوز والحاجة. روى أبو داود والترمذي أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله عطاء، فقال الرسول ﷺ: «أما في بيتك شيء؟» قال: بلى؛ جلس وليس بعرضه، ونسبط بعضه، وقعب نشرب فيه. قال ﷺ: «التي بهما»، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «من يشتري مني هذين؟» قال رجل: أنا أخذهما بدرهم، قال رسول الله ﷺ: «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثاً، فقال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري، وقال له: «اشتر بأحدهما طعاماً فاقبذه إلى أهلك، واشتر بالأخر قدوماً فاقبضني به»، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: «اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً»، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، فقال له رسول الله ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة تكنت سوداء في وجهك يوم القيامة».

ومن أهم عناصر الجهاد في سبيل الله الإعداد والاستعداد، فهو من الأخذ بالأسباب ومن مستلزمات العقيدة الإسلامية، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَرَشَاءُ اللَّهِ أَنْ تَنْصَرُوا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيْتُوا بَعْضَكُمْ يَبْعَثُ﴾ (محمد: ١٤)، وقال عز وجل: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ تَصُرُكُمْ وَيُنَبِّئُ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ١٧). ورواه في سورة الأنفال: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ يشير إلى أقصى حدود الطاقة، إذ لا تقعد العصبية المسلمة عن سبب من أسباب القوة التي في طاقتها. والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً لحصول القوة. وذكر الفخر الرازي فيه وجوهاً:

١. المراد من القوة أنواع الأسلحة.

٢. ورد أن النبي رسول الله ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «إلا إن القوة الرمي»، قالها ثلاثاً.

٣. قال بعضهم: القوة هي الحصون.

٤. قال أصحاب المعاني: هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة، وقوله ﷺ: «القوة الرمي»؛ والرمي هو القتل عن بعد بسهام القسطن والنشاب، والرمح، والقذائف اليدوية، والمدفع، والمنجنيق، والعربات بالحصى والبندقية والحجارة والنار والباود - ويشمل حديثاً المسدس، والبندقية، والرشاش، والصواريخ وغيرها. والحديث لا ينقي شمول القوة لغير الرمي (مثل قوله ﷺ: «الحج عرفة»، علماً أن عرفة ركن واحد من الحج). ويفهم من مجيء كلمة "قوة" نصرة لا معرفة، جاءت بعد أقصى الجهد (ما استطعتم من قوة)، أنها تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد، فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات، وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة، بما فيها الحرب النفسية، وحرب الإعلام، وقوة الاستخبارات.

ولذلك حث النبي ﷺ المؤمنين على أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصلوا كل أسباب القوة، فقال ﷺ في حديثه الجامع: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

عدم موالاة الكفار: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِبِعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَرِيرِينَ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُم مُّوَلَّوْكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٩-١٢٥]، هاتان الآيتان الخطيرتان جاءتا في أثناء الحديث عن غزوة أحد؛ لتحذر المسلمين من مجرد التفكير في موالاة الكفار، سواء كانوا كفاراً مصرحين بكفرهم أم كانوا منافقين، فمهما اشتد الكرب فلا يجوز للمسلمين أن يضعوا أيديهم في أيدي الكفار راكنين إليهم، فإن العاقبة وخيمة جداً كما يقول الله خالق البشر، وهو قول الحق: ﴿يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَرِيرِينَ ۚ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ بِٱلْحَقِّ فَخَرَجُونَ ۚ الرَّسُولُ وَإِنَّكُمْ أَن تَوْفَىٰ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرَضًا نَّصَرْتُكُمْ أَلَمْ تَرَ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ يَمْعَلُهُمْ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۚ﴾ [الممتحنة: ١١]، ومعنى ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ تخبرونهم﴾ سرائر المسلمين وتنصحون لهم؛ قاله الزجّاج: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة الصحابي البصري الذي فعلها مرة واحدة، وقبل النبي ﷺ عذر حاصب لجهاده في معركة بدر، ولما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانة لقريش؛ ليتخذ فيهم يداً يحمون به قريته من الآلاد والأموال وموالي الكفار يجتهد فيه الإمام.

وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك، قُتِل؛ لأنه جاسوس؛ وقد قال مالك بقتل الجاسوس - وهو صحيح؛ لإضراره بالمسلمين وسعيه إلى الفساد في الأرض. ولعل ابن الماجشون إنما اتخذ التكرار في هذا؛ لأن حاطباً أخذ في أول فعله، وذكر أن حاطباً لما سمع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان؛ انظر: تفسير القرطبي وتفسير ابن كثير.

وسورة الممتحنة هذه أصل في النهي عن موالاة الكفار. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ﴾ [آل عمران: ٢٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَاطِنَةً مِن دُونِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۚ﴾ [المائدة: ٥١]. إن ضعاف النفوس عند الهزيمة يستظلون بقوة الكفار، ويتطلعون إليهم بتمسك العرة عندهم، لكن الله تعالى ينذر: ﴿يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ فَتَنَقَّلُوا خَرِيرِينَ ۚ﴾، ويبشر: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُم مُّوَلَّوْكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۚ﴾، والتاريخ خير شاهد (كما سنرى) على ما حدث من تحالف العبيدين (الضاطمين) بمصر مع الصليبيين والنصارى، فانقلبوا وبالأعلى عليهم، وحين دخلوا بلادهم بدعوة الوزير العبيدي الخائن (شاور) لم يرحبوا به مؤمن ولا قبطني إلا ولا ذمة في مذبحه بلبيس بمصر.

بل إن لغة العربية، في الجاهلية والإسلام، أجمل المضردات اللغوية وأصدق الأمثال والأشعار في أدب العسكرية والفرسية والمنازلات الميدانية، وفي المكر والخديعة في الحرب، وفي الصبر والمصابرة، وفي النفس الطويل في الجهاد والمجاهدة في سبيل الله، فمثلاً مما قالته العرب: أجمع كلمة قيلت في الصبر: (الصبر مطية النصر). وقالت العرب: (إن من يقتل مُدبراً، أكثر ممن يُقتل مُقبلاً). وقالت أيضاً: (الشجاعة وقاية، والجبن مقتلة). وعندما جاء الإسلام ارتفعت مكانة اللغة العربية إلى ذرا العلياء والمجد، وبارك الله في مُفرداتها وزكّاها وجعلها هادفة، إذ جعل الجهاد كله في سبيل الله: من أجل الفوز بالجنة أو النصر.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْضَوْنَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْخُسِيِّينَ وَمَنْ تَرْضَوْنَ بِكُمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيِّدِنَا فَرَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَضُّونَ﴾ [التوبة: ١٥٢].

كتب خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس مع ابن نفيلة الغساني: (الحمد لله الذي فضّ حرمتكم، وحرّق جمعكم وأوهن بأسكم، وسلب ملككم، وأذلّ عزكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إلي بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية. وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم يحيون الموت كما تحييون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا). ويكرر خالد بن الوليد مقولته هذه في رسالته إلى قائد جيوش الفرس (همز): (لقد جئتكم بقوم يحيون الموت في سبيل الله تعالى كما تحييون أنتم الحياة لمناعها الزائل).

وعلى الرغم من كثرة غزوات خالد بن الوليد ومنازلاته ومبارزاته، فإنه عندما كان على فراش الموت في مدينة حمص قال: (ما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة أو رمية سهم. وما أنا أموت على فراشي حتف أنفي، كما يموت البعير... فلا نامت أعين الجبناء). ويموت البطل خالد بن الوليد (عام ٦٤٢م)، ولم يترك وراءه ثروة، مع أنه فتح بلاد الشام وفيها الثروات الهائلة.

قال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو قبيل معركة نهاوند (المسماة "فتح الفتوح") مع الفرس (إني هارز لكم الراية، فليصلح كل رجل منكم من شأنه، وليشدّ على نفسه وفرسه؛ ثم إني هارزها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوه، ومكان فرصته؛ ثم إني هارزها لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله). وللنعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب ؓ: (إذ تكاملت عنده الحشود وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: **فقلدن أعنته رجلاً يكون عداءً لأول أسنة يلقاها**). فقلدها النعمان بن مقرن ؓ.

قيل للمهلب بن أبي صفرة: إنك لتلقي نفسك في المهالك، فقال: (إن لم آت الموت مُسترسلاً، آتاني مُستعجلاً. إني لست آتي الموت من حيّ، وإنما آتيه من بغضه)، وتمثل بقول الحصين بن الحمام:

تأخرت أستيقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أقتدماً

وهي قصيدة مشهورة منها:

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من كرام أعزة علينا وهم كانوا أعق وأفلا
ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وإن كان يوماً ذا كواكب مظلم
صبرنا وكان الصبر منا سجيةً بأسياقتنا يقطعن كفاً ومعصما
ولما رأيت الودّ ليس بنافعي عمدت إلى الأمر الذي كان أحزما
فلسنا بمبتاع الحياة بسوبةٍ ولا مُرتقي من خشية الموت سلما

وما زالت العرب يتمادحون بالموت قعصاً (أي أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه)، ويتسايون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلان حتف أنفه، وأول من قال ذلك رسول الله ﷺ. قال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مصعب: (إن يقاتل، فقد قتل أخوه وأبوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفاً ولكن قعصاً بإطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف).

قال غنثة الفوارس (غنثة بن شداد):

بكرت تخوفني الحثوف كأنني
فاجتتها إن النية منه لـ
فماقي خيائك، لا أبالك، واعلمي

وقول غنثة أيضاً:

أروم من المعالي منهاها
فما أن أشال على العوالي

ومن طلب العلا سهر الليالي وتحشم الصعاب، وما أحسن قول عبد المطلب جد نبينا محمد ﷺ:
لـ نفوس لنيل المجد عاشقة
لا ينزل المجد إلا في منازلنا

يقول العلامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهاني: (رتبة الشرف لا تتال بالثرف، والسعادة أمر لا يدرك إلا بعيش يفرك، وطيب يترك، ونوم يطرد، وصوم يسرد، وسرور عازب، وهم لازب، ومن عشق المعالي ألف لغم، ومن طلب اللالي ركب اليم، ومن فنص الحيتان ورد النهر، ومن خطب الحصان نقد المهر).

وهذا كما قال الشاعر:

من لم يمت بالسيف مات بغيره
تعددت الأسباب والموت واحد

ومثله قول جرير من قصيدة أولها:

قل للجبان إذا تأخر سرجه
ما أنت من شرك المنيّة ناجي

وقال آخر:

وانا لتستجلي المنايا نفوسنا
ونترك الأخرى مرة ما ندوقها

وقال المتنبّي:

فقطعتم الموت في أمر حقير
كقطعتم الموت في أمر عظيم

وقال حبيب بن أوس الطائي:

قوم إذا لبسوا الحديد حسبتهم
لـ يحبك ترى السيوف لوامعاً

أبداً وفوق رؤوسهم تتألق

قيل لعلي بن أبي طالب «يوم مصفين: أقاتل أهل الشام بالعداء، وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟ فقال: (أبالموت تخوفوني؟ فوالله ما أبالي، أسقطت على الموت، أم سقط الموت علي).

وكان معاوية بن أبي سفيان يتمثل بهذه الآيات:

وأخذني الحمد بالثمن الـبيع
وضرربي هامة البطل المشيع
مكأن تحمدي أو تسترحي
وأحمي بعد عن عض صهيح

أبت لي شيمتي وأبى بلائي
واقدامي على المكروه نفسي
وقولي كلما جشأت لنفسي
لأدفع عن مآثر صالحات

وقال السموءل بن عدياء:

ولا طبل منا حيث كان قنيل
وليسست على غير الميوقد تسيل
شباب تسامي للعل وكهول
قؤول لما قال الكرام قؤول
ولا ذمتنا في النازلين نزيل
لها غمر معلومة وحجول
بها من قراع الدارعين قؤول

وما مات منا سيد في فراشه
تسيل على حد الطبات نفوسنا
وما قل من كانت بقاياها مثلنا
إذا سيد منا خلا قام سيد
وما أحمدت نارا لنا دون طارق
وأيامنا مشهورة في غدونا
واسياقتنا في كل شرق ومغرب

وهذا هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، يحج سنة، ويفزو سنة، حتى إنه عندما سار لغزو الروم (وقد لبس على رأسه قلنسوة) قال فيه أبو المعالي الكلابي:

في الحرمين أو أقصى الثغور
وفي أرض الترفة فوق كور

فمن يطلب لقاءك أو يرده
ففي أرض العدو على طمر

وهذا عيد الله بن المبارك العالم الفقيه الحافظ (١١٨-١٨١هـ) يجاهد في سبيل الله بسيفه، حتى إن كثيرا ممن أتوا ليستمعوا إلى علمه، كانوا يذهبون إليه فيجدونه على الثغور يغزو الروم؛ لأنه يرى الجهاد فريضة يجب تأديتها كما آداهما الرسول ﷺ. ويروى عنه أنه أرسل إلى صاحبه العالم الزاهد (الفضيل بن عياض) يعذره إلى ترك البكاء عند البيت الحرام، ويحثه على قتال الأعداء، بقوله:

لعلمت أنك في العباد تلعب
فتحور لنا بدمائنا تتخضب
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
زهج السنايك والغبار الأظيب
قؤول صحيح صادق لا يكذب
أنف امرئ ودخان نار تلهب
ليس الشهيد بميت لا يكذب

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا
من كان يخضب خده بدموعه
أو كان يتعب خيله في باطل
ريح العبير لكم ونحن عيرنا
ولقد آتانا من مقال نبينا
لا يستوي غبار أهل الله في
هذا كتاب الله ينطق بيننا

و يتوفى هذا العالم المجاهد في شهر رمضان سنة ١٨١هـ وهو راجع من الغزو، وعمره ٦٣ عاماً. وحين يصل خبر موته إلى هارون الرشيد يقول فيه: (مات اليوم سيد العلماء).

يقول أبو تمام في فتح عمورية على يد المعتصم الخليفة العباسي:

السيفُ أَصدقُ أنباءٍ من الكتب في حدة الحد بين الجد واللعب
بيضُ اصفائح لا سودُ الصفائح في متوتهن جلاء الشك والريب
أين الرواية؟ بل أين النجوم وما صاغوه من زخرف هبها ومن كذب؟
فتح الفتوح تعال أن يحيط به نظم من الشعر أو نشر من الخطب

ثم ما جدوى السلاح والآلات بدون أبطال يحملونها، ومهندسين يتصيونها... وما جدوى خيل تغير خيال، أو فارس تغير فارس، أو سيف صارم يغير بطل؟!

وما أجمل ما قاله الطغرائي (الأديب السلجوقي المسلم)، في أن قيمة السلاح تتمثل في قوة الإرادة والإيمان لمعامله:

وعدة السيف أن يرهى بجوهره وليس يعمل إلا في يدي بطل

إن السلاح لا يقاتل بنفسه، إنما يقاتل بيد حامله، ويد حامله إنما يحركها إيمان برسالة وهدف في سبيل الله، وهذا هو ما يُعاب به الجنود.

يقول أبو الطيب المتنبّي:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

ومن أجم ما قيل في بركة الله للمجاهدين في الأهل والولد قول علي بن أبي طالب ؓ، "يقية السيف أنمي عصداً، وأطيب ولداً". يُريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت كثير عددهم، وثمنا ولدهم، ومما يستدل به علي صدق قوله: ما عمله لسيف في آل الزبير، وأل أبي طالب، وما كثر من عددهم.

ثم إن للمكر في الحرب ضرورة لا تقل أهمية عن المنازلة القتالية نفسها، فيقول النبي ﷺ: «الحرب خدعة».

قال المهلب لبيته: "عليكم بالمكيدة في الحرب، فإنها خير من النجاة".

وكان المهلب يقول: "أناة في عواقبها قوت، خير من عجلة في عواقبها درك".

وكتب احتجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: "إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره".

يقول أبو الطيب المتنبّي:

لا يخذل عنك من عدو دمه وأرحم شيابك من عدو ترحم
لا يعلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جواتيه الدم

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أي المكاييد فيها أحزم؟ قال: "إذكاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق لأي الخوف، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يستصح، ولا استصاح لمن يُستغش، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره".

وصارت القروسية من أهم فنون عسكرة العالم الإسلامي. وانعكس ذلك في انتصارات الإسلام الفاصلة في معركة ملاذكرد، ومعركة عين جالوت. وقد مدح الله القروسية في قوله: ﴿وَأَعِزُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ. عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ثم إن الرسول ﷺ امتدحها بقوله: «الخيال معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» أخرجه مسلم. ومنها قول الشاعر صفي الدين الحلي (في عصر السلطان محمد بن قلاوون):

إذا افتخر الأقوام يوماً بمجدهم فألك من قوم بهم يفخر المجـ^أ
تعود من الصافيات صغيرهم حتى تساوى عنده البترج وانـ^أ

ومن قدر الله أن يظهر فعل من فحول الشعراء، في مدة الضعف بعد سقوط بغداد، ومن بغداد نفسها، وهو الشاعر العربي العراقي المولد: عبد العزيز بن سرايا بن علي السنبسي الطائي، شاعر عصره، المسمى (صفي الدين الحلي) - ولد ونشأ في الحلة، قرب بغداد عام ٦٧٥-٦٧٥هـ/ ١٢٧٦-١٢٤٩م). الذي عاش في المدة التي تلت مباشرة دخول المغول إلى بغداد وتدميرهم الخلافة الإسلامية العباسية، فآثر هذا في شعره، وتناهضت القبائل غصرة العراق لصعد هذا المد الإلحادي، فقامت قبائل طين (و شمر أصلاً من شمال الجزيرة العربية، وهي مدينة حائل الآن) لقتال التتار، وهم معروفون بنخوتهم ومقاومتهم الأعداء من المغول والصليبيين. واستقر الحلي زمناً بالموصل ثم رحل لأداء فريضة الحج، وتوجه بعدها إلى مصر وقضى حياته هناك يمدح الملك الناصر محمد بن قلاوون، والتقى في القاهرة بكبار علمائها، ثم توفي في بغداد. حرّض صفي الدين الحلي ملوك الإسلام وسلاطينه على مقاومة المغول والاحتراز منهم، فقال:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلام من قدم الحنـ^أ
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطـ^أ
لا يد للشهد من نحل يمنعه لا يجتني النفع من لم يحمل الصـ^أ
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤنة ولا يتم المنى إلا لمن صـ^أ

وقصائده تقارن بشعر المتنبي؛ ومن أجمل قصائده قصيدة: (سلي الرماح العوالي) التي يفاخر فيها أمام حبيبه بأسجاد قومه ويطولاتهم، فيطلب منها أن تسأل الرماح العوالي لتخبرها عن طول قامة الشاعر وقبيلة في ساحات القتال، ولتنظر إلى لون الغروب في السيوف عندما ترد من المعارك مكللة بالظفر ومشحونة برقاب كل من تسول نفسه النيل من عزة قبائل العرب المسلمين وهيبتها.

ثم يستطرد الشاعر في تعداد المناقب الجمّة واصفاً الفرسان في وقعة زوراء العراق ومعدداً خصالهم، فهم المحببون إذا ما دعاهم الحمى للدفاع عنها، وهم الفراعنة إذا ما استخصموا، وموازين العدل إذا ما حكموا في أمر جليل. وبالإضافة إلى كل هذه الخصال فهم لا يستعملون جيروتهم في السطو والاعتداء على الآخرين إنما يتحلون بالأخلاق التي تحوّلهم استعمال القوة للدفاع عن قومهم وتحصين قبيلتهم من كل غار. ولعل أجمل ما في القصيدة وأشهرها البيت الذي عدا مضرِباً للمثل في الفخر والعزة عندما يصف قومه بأنهم أصحاب الأيادي البيضاء في الصنائع، والسوداء في الوقائع، وأن مرايعهم الخضراء الخصية تحميها سيوف ماضية حمراء ارتوت من دماء الخصوم. وكان هذا أشهر بيت في قصيدته: وكل أعلام الدول العربية اليوم مبنية على هذه الألوان يقول صفي الدين الحلي في رائعة القصائد العربية:

سَلَى الرَّمَاخَ الْعَوَالِي عَنِ مَعَالِينَا
وَسَالَى الْغُرُبَ وَالْأَتْرَاكَ مَا قَعَلَتْ
لَنَا مَعِينَا، فَمَا رَقَبَتْ عِزَّائُنَا
يَا يَوْمَ وَقَعَتْ زُورَاءُ الْعِرَاقِ، وَقَدْ
بَضُّمَرٍ مَا رِيْطَنَاهَا مُسْوُومَةً
وَفَتِيَّةٍ إِنْ نَقُلْ أَصْغَوْا مَسَامِعَهُمْ
قَوْمٌ إِذَا اسْتَخْصَمُوا كَانُوا فِرَاعِنَةً
تَذَرَعُوا الْعَقْلَ جَلْبَابًا، فَإِنْ حَمِيَتْ
إِذَا ادَّعَوْا جَاءَتْ أُنْدُنِيَا مُصَدِّقَةً
إِنَّ الْبِرَازِيْرَ لَمَّا قَامَ قَائِمُهَا
ظَلَّتْ تَأْتِي الْبُرَاةَ الشُّهْبَ عَنْ جَزَعٍ
بِيَاقٍ ظَفَرَتْ أَيْدِي الرِّخَاخِ بِهَا
ذَلُّو بِأَسْيَافِنَا طُولَ الزَّمَانِ، فَسُدُّ
لَمْ يَغْنِيَهُمْ مَالُنَا عَنْ نَهْبِ أَنْفُسِنَا
أَخْلَى الْمَسَاجِدَ مِنْ أَشْيَاخِنَا وَيَعُوا
ثُمَّ نَنْتِينَا، وَقَدْ ظَلَّتْ صَوَارِمُنَا
وَاللِّدْمَاءُ عَلَى أَثَوَابِنَا عَلِقُ
فِيهَا لَهَا دَعْوَةٌ فِي الْأَرْضِ سَائِرَةٌ
إِنَّا لَقَوْمٌ آتَتْ أَخْلَاقُنَا شَرْفًا
بَيْضُ صَنَائِعُنَا، سَبُودٌ وَقَائِعُنَا
لَا يَظْهَرُ الْعَجْرُ مِنَّا دُونَ نَيْلِ مَلَى
مَا أَهَزَّتْنَا قِرَامِيْنُ تَصَوَّلُ بِهَا
إِذَا جَرَيْنَا إِلَى سَبْقِ الْعُلَا طَلْقًا
تَدَافَعُ الْقَدْرُ الْمُحْتَوَمُ هَمَّتْنَا
نُغَشِّي الْخُطُوبَ بِأَيْدِينَا فَتَدْفَعُهَا
مُلْكٌ، إِذَا فُوقَتْ نَيْلُ الْعَدُوِّ لَنَا
عَرَائِمُ كَالنَّجُومِ الشُّهْبِ ثَاقِبَةٌ
أَعْطَى فَلَا جُودَهُ قَدْ كَانَ عَنْ غُلْطٍ

وَاسْتَشْهَدِي الْبَيْضَ هَلْ خَابَ الرِّجَا فِينَا
فِي أَرْضٍ قَبِيرٍ عُبَيْدُ اللَّهِ أَيْدِينَا
عَمَّا لُرُومٌ، وَلَا خَابَتْ مَسَاعِينَا
دُنَا الْأَعَادِي كَمَا كَانُوا يَدِينُونَا
إِلَّا لَنَعَزُّو بِهَا مَنْ بَاتَ يَغْزُونَا
لِقَوْلِنَا، أَوْ دَعَوْنَاهُمْ أَجَابُونَا
يَوْمًا وَإِنْ حُكِّمُوا كَانُوا مَوَازِينَا
نَارُ الْوَعْيِ خَلَّتْهُمْ فِيهَا مَجَانِينَا
وَأِنْ دَعُوا قَالَتْ الْأَيَّامُ: آمِينَا
تَوَهَّمَتْ أَنَهَا صَارَتْ شَوَاهِينَا
وَمَا دَرَتْ أَنَّهُ قَدْ كَانَ تَهْوِينَا
وَلَوْ تَرَكْنَاهُمْ صَادُوا هَرَاذِينَا
تَحْكُمُوا أَظْهَرُوا أَحْقَادَهُمْ فِينَا
كَأَنَّهُمْ فِي أَمَانٍ مِنْ تَقَاضِينَا
حَتَّى حَمَلْنَا، فَأَخْلَيْنَا السُّدُورَ وَابْنَا
ثُمَّ نَسُجُّ مُجْبِأً، وَنَهْزُرُ الْقَنَا لِينَا
بَنَشْرَهُ عَنْ عَبِيرِ الْمِسْكِ يُغْنِينَا
قَدْ أَصْبَحَتْ فِي فَمِ الْأَيَّامِ تَلْقِينَا
أَنْ نُبْشِدِي بِالْأَذَى مَنْ لَيْسَ يُوْذِينَا
خَضِرُ مَرَابِعُنَا، حُمُرُ مَوَاضِينَا
وَلَوْ رَأَيْنَا الْمَنَایَا فِي أَمَانِينَا
إِلَّا جَعَلْنَا مَوَاضِينَا قِرَامِينَا
إِنْ لَمْ نَكُنْ سُبْقًا كُنَّا مُصْنَلِينَا
عَنَّا وَنَخْصِمُ صَرْفَ الدَّهْرِ لَوْ شِينَا
وَإِنْ دَهْتْنَا دَقْعَنَاهَا بِأَيْدِينَا
رَمَتْ عِزَّائِمَهُ مَنْ بَاتَ يَرْمِينَا
مَا زَالَ يُحْرِقُ مِنْهُنَّ الشَّيَاطِينَا
مِنْهُ، وَلَا أَجْرُهُ قَدْ كَانَ مَمْتُونَا

كم من عدو لنا أمسى بسطوته
كالصل يظهر لنا عند ملمسه
يطوي لنا الغدر في نصح يشير به
وقد نفض ونفضي عن قبائحه
لكن تركناه، إذ بتنا على ثقة

ولعل أبا القاسم الشابي استوحى قوله الشهير:
ومن يتهيب صعود الجبال

من مقولة الحلي:

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا

يُبدى الخُضوع لنا خُتلاً وتُمكننا
حتى يُصادف في الأعضاء تُمكننا
ويمزج السم في شهد ويسقمنا
ولم يكن عجزاً عنه تغاضينا
إن الأمير يكافيه فيكفينا

يعش أيد الدهر بين الحفر

ولا ينال العلا من قدم الحذرا

وقصيدة الشابي هذه المسماة "قصيدة الأمل" هي من روائع القصائد العربية في استحثاث الشعوب (ولاسيما شعوب شمال إفريقيا) للتحرر من ربقة الاستعمار الأوروبي، الامتداد الحديث لحملات الصليب الثيمة، فيقول فيها:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
ولا بد للبل أن ينجلي
ومن لم يعانقه شوق الحياة
كذلك قالت لي الكائنات
ودمدت الريح بين الفجاج
إذا ما طمحت إلى غاية
ولم اتجنب وعور الشهاب
ومن يتهيب صعود الجبال
فججت بقلبي دماء الشيايب
وأطرفت أصغني لقصص الرعود
وقالت لي الأرض لما سألت:
أبارك في الناس أهل الطموح
والعن من لا يماشي الزمان
هو الكون حي يحب الحياة
فلا الأفق يحضن ميت الطيور

فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد للقيد أن ينكسر
تبخر في جوها وانثثر
وحادثي زوحتها المستقر
وفوق الجبال وتحت الشجر
ركبت المنى وتسيب الحذر
ولا هبة الذهب المستعر
يعش أيد الدهر بين الحفر
وضجت بصدري رياح آخر
وعزف الرياح ووقع المطر
أيام هل تكرهين البشوة
ومن يستلذ ركوب الخطر
ويقنع بالعيش عيش الحجر
ويحتقر الميت مهما كر
ولا النحل يلثم ميت الزهر

ولعل أروع ما كتبه شاعر ساخر عن أهداف الاستعمار هو الشاعر العراقي معروف الرصافي، الذي تكلم بلسان الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي (قديمًا كان ذلك، أو حديثًا، إذ يتكرر ذلك في العراق وفي أفغانستان وفي فلسطين باسم التحرير مرة؛ أي: الاستعباد والاحتلال، وباسم الديمقراطية مرة أخرى؛ أي: الفوضى والحرب الأهلية. وكل عمل حقيقي لتحرير البلاد فهو في نظرهم إرهاب، وكل إصلاح عندهم إفساد، وهكذا كل شيء مغرب). فيقول الرصافي بلسان الأجنبي الغربي:

يا قوم لا تتكلموا	إن الكلام محرم
ناموا ولا تسيقظوا	ما فاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما	يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانباً	فالخير أن لا تفهموا
وتثبتوا في جهلكم	فالشكر أن تتعلموا
أما السياسة فاتركوا	أبداً وإلا تتقدموا
إن السياسة سررها	لو تعلمون مطلبكم
وإذا أفضتكم في المباح	من الحديث فجمجموا
والعدل لا تتوسموا	والظالم لا تتجهموا
من شاء منكم أن	يعيش اليوم وهو مكرم
فليمتس لا سمع ولا	بصير لديه ولا فم
لا يستحق كرامة	إلا الأصم الأبكم
ودعوا السعادة إنما	هي في الحياة توهم
فالعيش وهو منعم	كالعيش وهو مذموم
فارضوا بحكم الدهر	مهما كان فيه تحكم
وإذا ظلمتم فاضحكوا	طرباً ولا تتظلموا
وإذا أهنتم فاشكروا	وإذا لطمتم فابسموا
إن قيل: هذا شهيدكم	مُرِّفقولوا: علقم
أو قيل: إن نهركم	ليل فقولوا: مظلم
أو قيل: إن ثماركم	سيل فقولوا: مُنعم
أو قيل: إن بلادكم	يا قوم سوف تُقسم
فتحمّدوا وتشكروا	وترثحوا وترثموا

وكان المسلمون في العصور الوسطى مُشرّذين مُفرّقين (بصورة أسوأ مما هي عليه حالنا اليوم)، وكانوا مُستعبدين ومُستعمرين من قبل الصليبيين والمغول (بصورة أقوى من واقعنا اليوم)، إلّا أنهم رجعوا إلى دينهم وجاهدوا واشتهدوا، وأحدوا بالأسباب، فوفق الله عز وجل لهم وحدة البلاد والعباد؛ بل نصرهم من حيث لا يحتسبون.

وسرى كيف خرج المسلمون آنذاك من عنق الزجاجة الضيق، ومن القمقم المطلق المظلم، وكيف استطاعوا إنهاء الوجود لأوروبي الصليبي الغربي، ودحر الاجتياح المغولي الكافر الشرقي؛ بل قهرهم وهم مجتمعون متكاليون جميعاً على العالم الإسلامي.

وهذه المفارقة تحتاج إلى دراسة مستفيضة وعميقة للتاريخ؛ لأن فيها درساً عظيماً، علينا التعلم منه وترجمته في واقعنا المعاصر. وهكذا تداخلت اللغة العربية والجهاد الإسلامي جنباً إلى جنب في صنع هذا النصر المزدوج، بتوفيق الله تعالى. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

التحالف العبيدي - الصليبي وأثاره في العالم الإسلامي

العالم الإسلامي في أثناء الحملات الصليبية: بدأت الحركة الصليبية بتحريض من البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥م) إثر خطابه التحريضي لتشجيع الأوروبيين النصارى على مهاجمة البلاد الإسلامية، وفلسطين خاصة. تعد حقبة الحروب الصليبية من أصعب الحقب التي مرت على العالم الإسلامي، فتمتد أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بدأت تتقاطر على العالم الإسلامي، ولاسيما بلاد الشام وما جاورها الحملات التي قتلت المسلمين، وخرّبت ديارهم، ونهبت خيراتهم، ونشرت في بلادهم الذعر والقلق.

ودرج المؤرخون على تقسيمها إلى ٨ حملات صليبية، وقد اتجهت ٤ منها نحو فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنان نحو مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية (تركيا اليوم) وهي الرابعة، أما الثامنة فنزلت في شمال إفريقيا (تونس).

وكانت القوى الإسلامية آنذاك موزعة بين الخلافة الإسلامية العباسية التي تناصرها دولة السلاجقة الأتراك السنة، لكن الخلاف بدأ يدب في دولة السلاجقة في أعقاب مقتل وزيرهم الفد نظام الملك، ثم سلطانهم القوى ملكشاه، في سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م).



الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦-١٠٩٩)

أما القوة الأخرى فكانت ممثلة بالدولة العبيدية (وليس بفاطمية)، صاحبة المذهب الشيعي الإسماعيلي، التي كانت تسيطر حينها على مصر، وأجزاء من شمال إفريقيا وبعض بلاد الشام، فكانت في عداء مع الخلافة العباسية والسلاجقة، بل في تحالف عبيدي - صليبي، إذ كانت لها سفاراتها وهداياها مع الصليبيين. وتعد الدولة العبيدية في مصر أول دولة إسماعيلية في التاريخ الإسلامي، مبنية على المذهب الإسماعيلي (المقتصر على الأئمة الستة الأوائل: علي بن أبي طالب، وابنه الحسين بن علي، وعلي زين العابدين بن الحسين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر الصادق، وإسماعيل المبارك)، ثم إن الدولة العبيدية هذه تمثل امتداداً تاريخياً لحركة (إخوان الصفا وخلاص الوفا) التي نشأت في الخلافة العباسية وكانت حركة مناوئة سرية. واتخذت من فلسفة الإغريق وعلومهم

اعتنا فيزيقية (مثال أفلاطون وأرسطو) ستاراً لها. من هنا يظهر امتزاج التأثير الإغريقي بالتفكير الإسلامي في هذه الدولة العبيدية الإسماعيلية.

كشّف القاضي أبو بكر الباقلائي في كتابه "كشف أسرار الباطنية" عن بطلان نسب هؤلاء المدعين بـ **فاطميين** إلى علي عليه السلام، وقد استقصى أصولهم القاضي عبد الجبار بن أحمد - وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: (هم أربعة عشر خليفة...)، إلى أن قال: (ويدعون الشرف، وتسميتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العامة **قصاروا** يقولون: الدولة الفاطمية والدولة العلوية، وإنما هي الدولة اليهودية والمجوسية الملحدة الساطنية). قال: (وقد ذكر ذلك جماعة من العلماء الأكابر، وأنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً، بل **المشروف** أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القذاح الملحد المجوسي).

وذكره **أبو منصور** الثعالبي في بتيمة الدهر: سمعت الشيخ أبا الطيب يحكي أن الأموي (الحكم بن عبد الرحمن المستنصر بالله) صاحب الأندلس كتب إليه نزار هذا يعني العزيز صاحب مصر كتاباً يسبّه فيه ويهجوّه، فكتب إليه الأموي: (أما بعد، قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبتك. والسلام).

وفي رواية أنه كتب له قصيدة:

ألسنا بنو مروان كيف تقلبت
بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولّد المولود منا تهاللت
لله الأرض واهتزت إليه المنابر

ثم قال: (أما بعد، قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبتك. والسلام). قال: فاشتد ذلك على نزار المذكور وأصحه عن الجواب، يعني أنه غير شريف وأنه لا يعرف له قبيلة حتى كان يهجوّه.

وقال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: كان العزيز قد ولي عيسى بن سبطورس النصراني ومنشأ اليهودي فكتب إليه امرأة بالذي أعزّ اليهود بمنشأ والنصارى بابن سبطورس وأذلّ المسلمين بك، إلا نظرت في أمري. فقض العزيز على اليهودي والنصراني وأخذ من ابن سبطورس ثلاث مئة ألف دينار.

وقال ابن خلكان: وأكثر أهل العلم لا يصحّون نسب المهدي عبيد الله والد خلفاء مصر، حتى إن العزيز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد ورقة فيها:

إننا سمعنا نسباً منكراً
يُتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً
فلذكر أياً بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته
فالنسب لنا نفسك كائناً
أو فسد الأسباب مستورة
وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم
يقصر عنها طمع الطامع

فقرأها العزيز ولم يتكلم.

ثم صعد العزيز المنبر يوماً آخر، فرأى ورقة فيها مكتوب:

بِالظلم والجور قد رضىنا
وليس بالكفر والحقايقه
إن كنت أعطيت علم غيب
فقل لنا كائب البطايقه

قال: وذلك؛ لأنهم ادعوا علم المغيبيات والنجوم. وأخبارهم في ذلك مشهورة.

وفي بداية دولتهم استولى جوهر الصقلي، ودخل المعز العبيدي إلى الديار المصرية، قامتدحه شجرة محمد بن هاني الأندلسي، وكان قوي النظم، بقصيدة أولها:

يقول بنو العباس: هل فُتحت مصر؟
فقل لبني العباس: قد قضى الأمر

ثم توجه المعز من المغرب فوصل إلى الإسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ، وتلقاه أعيان مصر ليها، فخطب هناك خطبة بليغة، وجلس قاضي مصر أبو الطاهر الذهلي إلى جنبه، فسأله: هل رأيت خليفة أفضل مني؟ فقال: لم أر أحداً من الخلائف سوى أمير المؤمنين؛ فقال له: أحجبت؟ قال: نعم، قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: وقبر أبي بكر وعمر؟ قال: فتحيرت ماذا أقول! ثم نظرت فإذا ابنه قائم مع كبار الأمراء، فقلت شغلي عنها رسول الله ﷺ، كما شغلي أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، وتهضت إليه فسلمت عليه، فانسح المجلس إلى غيره لو هذا من التورية البارعة. وشاعره ابن هاني الأندلسي قد كفره غير واحد من العلماء، منهم القاضي عياض في الشفاء؛ لمبالغته في مدح الخلق، فمن ذلك قوله في المعز:

ما شئت لا ما شئت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
وكانما أنت النبي محمد
وكانما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به
في كتبها الأخبار والأخبار

وهذا من أكبر الكفر. وقال أيضاً، قبحه الله وأخزاه:

هذا أمير المؤمنين بمجلس
أبصرت فيه العقل والتريلا
وإذا تمثل راكباً في مجلس
عانيت تحت ركابه جيزلا

وقد اعتذر عنه بعض المتعصبين له، قال ابن كثير في كتاب البداية والنهاية: "ذا الكلام إن صح عنه فليس عنه اعتذار، لا في الدار الآخرة ولا في هذه الدار. وقد وجد ابن هاني هذا مقتولاً على حافة البحر سنة ٣٦٢هـ بسبب مجاهرته بالكفر.

ومن غرائبه أنه استوزر رجلاً نصرانياً يقال له: عيسى بن نسطورس، وآخر يهودياً اسمه ميشا؛ فعز بسببهما اليهود والنصارى على المسلمين في ذلك الزمان، حتى كتبت إليه امرأة: بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بميشا، وأذل المسلمين بك! إلا كشفت عن ظلامي! فعند ذلك أمر بالقبض على هذين، وأخت من النصراوي ثلاث مئة ألف دينار. وولي بعده ابنه الحاكم بأمر الله (بل الحاكم بأمر إبليس عام ٩٩٦م-٣٨٦هـ) وعمره ١١ سنة حسب نظام الورثة في عقيدتهم الإسماعيلية الذي يحصر الإمامة في الأعقاب. وكان تحت وصاية أستاذه ومعلمه (برجوان) مدة ٤ سنوات انتهت بانقلاب التلميذ على أستاذه وقتله غيلة؛ لكي يتفرد بالحكم دون وصاية وعمره ١٥ سنة فقط في عام ١٠٠٠م! أي: مطلع الألفية الثانية / ٣٩٠هـ. فكان شر الخليفة (حكم مصر ٢٥ سنة)، ثم يل مصر بعد فرعون شر منه: رام أن يدعي الألوهية كما ادعاها فرعون، فأمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره، واحتراماً لاسمه؛ فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين. وكان أهل مصر خاصة إذا قاموا خرواً سجداً؛ حتى إنه يسجد بسجودهم في الأسواق الرعاع وغيرهم. وكان جباراً عتيداً، وشيطاناً مريداً، كثير التلون في أقواله وأفعاله، هدم كنائس مصر ثم أعادها،

وخرب قمامة (أي كنيسة القيامة) ثم أعادها، ولم يُعهد في ملة الإسلام بناء كنيسة في بلد الإسلام قبله ولا بعده. **قد** نقل النسكي الإجماع على أن الكنيسة إذا هدمت، ولو بغير وجه، لا تجوز إعادتها.

ومن قبيح الحاكم أنه ابتنى المدارس، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وخربها، وألزم الناس إغلاق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً؛ فامتثلوا ذلك دهرًا طويلاً. وكان يعمل الحسبة بنفسه يدور في الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حماراً، فمن وجدته قد غش في معيشته أمر عبداً أسود معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وكان منع النساء من الخروج من منازلهن، ومنعهن من دخول الحمامات، وقتل خلقاً من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن، ومنع من طبخ الملوخية.

وله رعونات كثيرة لا تتضبط، فأبغضه الخلق، وكتبوا له الأوراق بالشتيم له ولأسلافه في صورة قصص، حتى عملوا صورة امرأة من ورق يخفها وإزارها، وفي يدها قصة فيها من الشتم شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة، ذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها، فلما رأى ما فيها غضب، وأمر بقتلها؛ فلما تحقق أنها من ورق، ازداد غضباً إلى غضبه، وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، ففعلوا، وقتلهم أهل مصر قتلاً عظيماً ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم، واجتمع الناس في الجوامع، ورفعوا المصاحف، وجأزوا إلى الله واستاثروا به، وما اتجلى الحال حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب نحو نصفها، وسبي حريم كثير وقيل بهن لفاحش. واشترى الرجال من سبي لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد.

يروى الجغراف في الأندلسي أبو عبيد البكري المتوفى ٤٨٧هـ (السنة التي مات فيها المستنصر حفيد الحاكم - أي هو شاهد على عصر الحاكم): أن الحاكم بأمر الله شيد في المنطقة الواقعة بين القسطنطينية والقاهرة ٣ مشاهد لتقل إليها رفات الرسول ﷺ ورفات الشيخين أبي بكر وعمر؛ لينقل الحج إلى مصر (نفذ هذا المشروع الخاسر عام ٣٤٠هـ بإشارة أحد الزنادقة على الحاكم بنش قبر النبي ﷺ وصاحبيه وحملهم إلى مصر، وكانت الحجاز آنذاك تحت الهميمة الفاطمية)، فبذل الحاكم أموالاً لرجال من شيعته نجحوا في حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول ﷺ مقابل القبر، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوه وينوأيهم، فقتلوهم ومثلوا بهم، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص حتى لا يطمع في الوصول إليها طامع أبداً.

وحاول ابن الحاكم تصحيح ما أفسده أبوه فلم يستطع؛ قال ابن تقي بردي في (النجوم الزاهرة، ج ٢): وكان الظاهر لإعزاز دين الله، ابن الحاكم، كثير الصدقات منصفاً من نفسه لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة، ولا سيما لما وقع من بعض حجاج المصريين كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة ٤١٣هـ.

وكان أمر الحجر أنه لما وصل الحاج المصري إلى مكة المشرفة وشب شخص من الحجاج إلى الحجر الأسود وهو مكانه من البيت الحرام وضربه بديوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه وعاجله الناس فقتلوه، وثار حكيون بالمصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، حتى ركب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطلقاً الفتنة ودفع عن حصريين. وقيل: إن الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم. فلما بلغ الظاهر ذلك تنق عليه وكتب كتاباً في هذا المعنى.

قال هلال بن الصائبي: وجدت كتاباً كتب من مصر في سنة ٤١٤هـ على لسان المصريين وهو كتاب طويل فمناه:

(وذهبت طائفة من النصيرية إلى الفلو في أبيتنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وادعت فيه ما احضت النصارى في المسيح، ونجم عن هؤلاء الكفرة فرقة سخيضة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل ففلوا فينا

غلو كبيراً وقالوا في آياتنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً وتسبونا بغلوهم الأشنع وجهلهم المستفطع إلى ما لا يليق بنا ذكره. وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال، ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا علي المرتضى وأسلافنا البرة أعلام الهدى.

وقد علمتم يا معشر أولياتنا ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة القساق وانفجرة المراق وتضيقنا لهم في البلاد كل مفرق، فظعنوا في الأفاق هاربين، وشردوا مطرودين خائفين. وكان من حيلة من دعاة الخوف منهم إلى الانتزاع رجل من أهل البصرة أهوج أثول ضال مضل سار مع الحجيج إلى مكة، حرسها الله، فرقه من وقع الحسام، وتستر بالحج إلى بيت الله الحرام. فلما حصل في البيت المفضل المعظم والمحل المقدس المكرم أعلى بالكفر وما كان يخفيه من المكر، وحمله لهم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده وحربه يديوس ضربات متواليات أطارت منه شظايا وصلت بعد ذلك. ثم إن هذا الكافر عوجل بالمقتل على أسوأ حاله، أضل أعماله وألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. وعمري إن هذه لمصيبة في الإسلام قاذحة، ونكايه فادحة، فإننا لله وإنا إليه راجعون. لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيم ومقاماً جسيماً، أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج، لعنه الله، من إحراق ثبيت وهدمه وإزالة بنيانه وهدمه. ثم ذكر كلاماً طويلاً في هذا المعنى يطول الشرح في ذكره، انتهى كلام ابن الصابن.

وكان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة في سنة ٦٥٤هـ، وعُدَّ ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من جملة الآيات، واتهم الناس الرافضة بذلك الفعل.

فيها احترق مسجد رسول الله ﷺ في شهر رمضان، وهذا غير النار التي ظهرت بنواحي المدينة، فإن هذا الحريق له سبب ابتداء من زاوية الحرم النبوي الغربية من الشمال، فعلقت في آلات الحرم ثم دبت في السقوف، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع ووقع بعض أساطينه، وكان ذلك قبل أن ينام الناس، واحترق أيضاً سقف الحجرة. وأصبح الناس في يوم الجمعة فعزلوا موضعاً للصلاة، ونظم في حريق المسجد غير واحد من الشعراء:

فقال معين الدين بن تولو المغربي:

قل للروافض بالمدينة ما لكم
ما أصبح الحرم الشريف محرقاً
يقتادكم للذم كل سفيه
إلا لسببكم الصحابة فيه

وقال غيره:

لم يحترق حرم النبي لحادث
لكنها أيدي الروافض لامست
يُخشى عليه ولا دهاء العر
ذاك الحجاب فظهرته النر

ووهنت دولة العبيديين في أيام المستعلي بن المستنصر (٤٨٧هـ-٤٩٦هـ)، وكانت أول حركة الفرنج لأخذ السواحل وخروجهم إليها في سنة ٤٩٠هـ، فساروا إليها، وكان أول ما أخذوا نيقية وهو أول بلد فتحوه وأخذوه من المسلمين، ثم فتحوا حصون الدروب شيئاً بعد شيء، ووصلوا إلى البصرة وجبل السماق وقامية وكفر طرب ونواحيها، وانقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام، واستولى عليها السلاجقة المسلمون في جهاد ضد الفرنج الصليبيين، ولم يكن للمستعلي مع الأفضل "ابن أمير الجيوش" حكم.

وزحف الفرنج في ٤٩١هـ إلى سور المعرة لمعرة النعمان من الناحية الشرقية والشمالية، فنصبوا عليها السلاسل وأسندوا البرج إلى سورها فكان أعلى منه. ولم تزل الحرب عليها إلى وقت المغرب من اليوم ١٤ المحرم، وصعدوا

السيور وانكشف أهل البلد بعد أن ترددت إليهم رسل الفرنج، وأعطوهم الأمان على تقوسهم وأموالهم وألا يدخلوا إليهم بل يبعثوا إليهم شحنة لأي حامية صليبية، فملك الفرنج البلد بعد المغرب بعد أن قتل من الفريقين خلق كثير ثم، أعطوهم الأمان. فلما ملكوها غدروا بهم فقتلوا من أهلها ١٠٠ ألف إنسان (قاله أبو المظفر سبط ابن الجوزي، قال: وسبوا مثلها).

واقاموا عليها إلى أن رحلوا عنها في آخر شهر رجب إلى القدس. ثم دخلوا كفر طاب وفعلوا مثل ذلك وعادوا إلى أنطاكية وحصروها ٨ أشهر وأخذوها في ١٦ رجب سنة ٤٩١ هـ بمساعدة قوم من أهل أنطاكية واطووا الفرنج على تسليمها إليهم: لإساءة حاكم البلد في حقهم وحجره لهم، ووجدوا القرصة في برج من الأبراج، وقتل من أنطاكية وسبي من الرجال والنساء والأطفال مالا يدركه.

ولما وقع ذلك اجتمع ملوك الإسلام السلاجقة بالشام وهم: رضوان صاحب حلب، وأخوه دقماق، وطفتكين، وساحب الموصل، وسكمان بن أرتق صاحب ماردين، وأرسلان شاه صاحب سنجار، ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر. يقول عنه ابن تغري بردي: (وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال)، فاجتمع الجميع ونزلوا أنطاكية وضيقوا على الفرنج حتى أكلوا ورق الشجر.



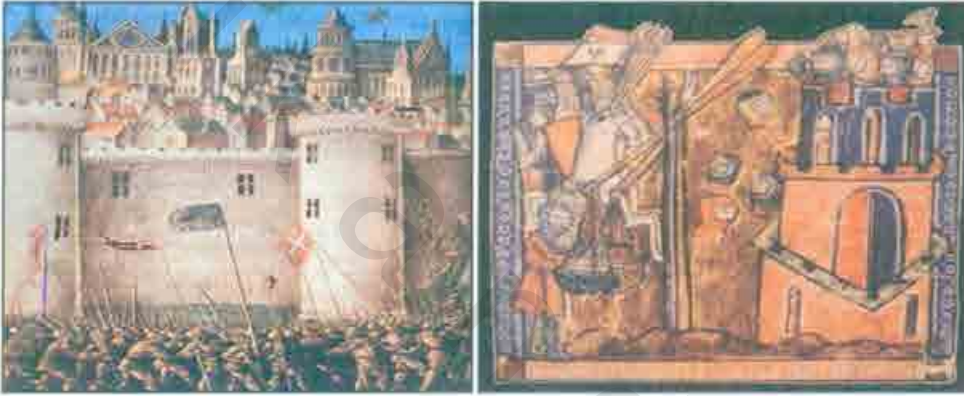
جعلت الكنيسة الكاثوليكية من فرسان الصليب المقاتلين الصورة المثلى للبطولة النصرانية في أوروبا القرون المظلمة؛ الصورة اليسرى أعلاه تمثل الفارس الصليبي وهو يصلي للرب، قارن هذه الصور بالوحشية اللائنية المستخدمة ضد المسلمين.



حصار الصليبيين بقيادة جودفري دي بويلون مدينة القدس (تحت الحكم الفاطمي آنذاك)، ثم دخول المدينة بعهود الأمان لسكانها عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م



الحملة الصليبية الأولى بقيادة جودفري دي بويلون، استولت على القدس بالأمان، ثم دخلها الصليبيون وقتلوا قرية ٧٠ ألف إلى ١٠٠ ألف من سكانها المسلمين واليهود، على الرغم من كل عهود الأمان على حياتهم وعدم التعرض لهم (عام ١٠٩٩م/١٠٩٩م).



الصليبيون يرشقون رؤوس المسلمين المقطوعة كالقذائف من فوق متاريس الحصون في أثناء حصارها، وتظهر الصورة الثانية حصار الحملة الصليبية الأولى لمدينة أنطاكية (التي استولوا عليها وحولوها إلى إمارة أنطاكية الصليبية).



استخدم الصليبيون سياسة الإرهاب والترويع ضد المسلمين وشملت: المجازر والإعدامات الجماعية، رمي الرؤوس المقطوعة من فوق جدران المدن المحاصرة. ويظهر في الصورة السابقة عرض الجثث العارية والتمثيل بها علناً ليشاهدها المسلمون، حتى أكل لحوم البشر المسلمين سبغت حالاته وثقت. وكان حصار معرة النعمان قبيل دخولهم القدس، أي: عام ١٠٩٨م/١٠٩٨م. (أخذوها بالأمان ثم قتلوا بأهلها)

وكان صنجيل مقدم الفرنج عنده دهاء ومكر، فرتب مع راهب حيلة وقال: اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربة مدفونة فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظفر لكم وهي حبرتي، فصوموا ثلاثة أيام وصلوا وتصدقوا، ثم قام وهم معه إلى المكان ففتشوا

ظهرت الحربة، فصاحوا وصاموا وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين وقتلواهم حتى دفعوهم عن البلد، فثبت جماعة من المسلمين فقتلوا عن آخرهم رحمهم الله تعالى. والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا غاية في الضعف من الجوع وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة، وكانت عساكر الإسلام غاية في القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وهرقوا جموعهم وانكسر أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين.

وأما أخذ بيت المقدس فكان في يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢هـ، وهو أن الفرنج ساروا من أنطاكية ومقدم الفرنج في ألف ألف، منهم خمس مئة ألف مقاتل فارس، والباقيون رجاله وقلة وأرباب آلات من مجانيق وغيرها، وجعلوا طريقهم على الساحل.

وكان بيت المقدس الذي افتتحه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة ١٦هـ لم يزل بأيدي المسلمين إلى هذه السنة، ثم كان في يد السلاجقة واستقلت الدولة العبيدية بمصر جهاد السلاجقة لأحر الفرنج الصليبيين (بدل أن يكونوا معهم على الفرنج)، وسار الأفضل بن بدر أمير الجيوش، فحاصر الأمير سقمان وأخاه إيلغازي، ونصبوا على القدس نيفاً وأربعين متجنيقاً، فهدموا في سورة.



مدينة القدس بأسوارها إبان الحملة الصليبية الأولى

ودام الحصار نيفاً وأربعين يوماً، وأخذوه بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ. وأنعم الأفضل على سقمان وأخيه، وأجزل لهم الصلوات. فسار سقمان واستولى على الرها، وهب أخوه إلى العراق، وولي على القدس افتخار الدولة، فدام فيه إلى هذا الوقت (أي: سنة ٤٩٢هـ). وسارت الجيوش أقصرانية من حمص، ونزلت عكا أياماً، ثم ترحلوا وأتوا القدس، فحاصروها شهراً ونصفاً، ودخلوا من الجانب الشمالي ضحوة نهار الجمعة لسبع بقين من شعبان، واستباحوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون. واحتسى جماعة ببرج دود، ونزلوا بعد ثلاث بالأمان، وذهبوا إلى عسقلان. رواية ابن الأثير عن دخول الإفرنج بيت المقدس: قال ابن الأثير: قتل الإفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد، ومما أخذوا أربعين قتيلاً من الفضة، وزن القتيل ثلاثة آلاف وست مئة درهم، وأخذوا ثوراً من فضة، وزنه أربعون رطلاً يمشي، وغنموا ما لا يحصى. وورد المستفرون من الشام إلى بغداد بصحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وجرح القلوب. وبعث الخليفة رسلاً، فساروا إلى حلوان، فبلغهم قتل مجد الملك إلياسلاني، هردوا من غير بلوغ أريب، ولا قضاء حاجة، واختلف السلاطين، وتمكنت الإفرنج من الشام.

وكان بالقدس افتخار الدولة من قبل المستعلي خليفة مصر، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا برجين من حشب مطلين على السور: أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب الأسباط وهو برج الزاوية، ومنه فتحها السلطان صلاح الدين بن أيوب، فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه. وأما الآخر: فزحفوا به حتى الصقوه بالسور، وحكموا به على البلد. وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهم رمية رجل واحد فانهمز المسلمون فنزلوا إلى البلد وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بها، فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مئة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء وأخذوا من الأموال ما لا يحصى. ويقال: إنه لما بلغهم، يعني الفرنج، خروج الأفضل من مصر جدوا في القتال ونزلوا من السور وقتلوا خلقاً كثيراً

وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم وهدموا المشاهد وقبر الخليل - عليه السلام - وتسلموا محراب داود بالأمان.

والحقيقية أن اتفاقاً سرياً قد انعقد بين الصليبيين والحامية المبيدية الفاطمية لمدينة القدس، على أن يخرجوا بالأمان وتسلم لهم مدينة القدس. وبالفعل لم يخرج من القدس أحياء سوى هذه الحامية وقائدها افتخر الدولة، إذ سمح لهم الصليبيون بالخروج إلى عسقلان. أما الصليبيون فدخلوا القدس وقتلوا كل مسلم فيها رجالاً ونساء وأطفالاً ثم قتلوا اليهود، ولم ينكر المؤرخون الصليبيون أنفسهم هذه المذبحة، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس "تحولت إلى مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم".

هذا كله وعسكر مصر لم يحضر، غير أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب أمر مصر، لما بلغه أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر وجد في السير فوصل إلى عسقلان يوم ثاني فتحه. ولم يعلم بذلك، وراسل الإفرنج.

قال ابن الأثير: فأعادوا الرسول بالجواب، ولم يعلم المصريون شيئاً فبادلوا السلاح بالخيال، وأعجلتهم الإفرنج فهزموهم، وقتلوا منهم من قتل، وغنموا خيامهم بما فيها. ودخل الأفضل عسقلان، وتمزق أصعابه. فحاصرت الإفرنج بعسقلان، فبذل لهم ذهباً كثيراً، فردوا إلى القدس.

ومما يرويه ابن الجوزي في مرآة الزمان أنه بعد وصول الأفضل إلى عسقلان يوم ١٤ رمضان أضاع وقتاً ثميناً ينتظر الأسطول في البحر والعرب، وعندئذ اكتشف الصليبيون أمره، فاطبقوا عليه بغتة، وخلت الهزيمة بالفاطمين، وتشتت شملهم بعد قليل، حتى إن بعضهم لم يجد مفرأ سوى إلقاء أنفسهم في اليم حيث غرقوا، في حين احتمى بعضهم الآخر بشجر الحمير، فأحرق الصليبيون الشجر حتى هلك من فيه، وأما الوزير لأفضل فقد هرب من عسقلان ومعه بعض رجاله على ظهر سفينة فارين في البحر إلى مصر، فأتى القتل على البراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس، ونهب العسكر (كما يروي ابن القلانسي في ذيل تاريخ دمشق)، ثم عاد الأفضل إلى مصر ولم يتصد بعد ذلك للصليبيين.

وحكي أنه قتل من أهل عسقلان من شهودها وتجارها وأحداها سوى أجنادها ألفان وسبع مئة نفس. وقرر الفرنج على أهل البلد عشرين ألف دينار تحمل إليهم، وشرعوا في جبايتها من أهل البلد، فاختلف المقامون فرحلوا ولم يقبضوا من المال شيئاً.

وأرقام الضحايا تختلف، لكن حتى ابن كثير المعتدل في أرقامه يقول في البداية والنهاية: "لما كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ، أخذت الفرنج - لعنهم الله - بيت المقدس شرفه الله، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علو تنبيراً" (ج ١٢، ص ١٩٢).

قال ابن الجوزي: وأخذوا من حول الصخرة الثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وست مئة درهم، وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب، ذهب الناس على وجوههم هارعين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج بالخليفة والسلطان، منهم القاضي بدمشق أبو سعد الهروي، فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر القطيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلاماً قرئ في الديوان وعلى المنابر، فجهش الناس بالبكاء، ونذب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليعرضوا الملوك على الجهاد، فخرج أعيان الفقهاء، وساروا في الناس، فلم يفد ذلك شيئاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال في ذلك أبو المظفر الأبيوردي:

فلم يبق منا عرضة للمراحم
إذا الحرب شبت نازها بالصوارم
وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
على هفوات أيقظت كل نائم
ظهوز المذاكي أو بطون القشاعم
تجرون ذيل الخفض فعلى المسالم
تظل لها الولدان شيب القوام
ليسلم يقرع بعدها سن تادم
ستفعد منهم في الطلى والجماحم
ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
وماحهم، والدين وأهلي الدعائم
ولا يحسبون العار ضرورة لازم
وتفضي على ذل كماء الأعاجم؟
عن الدين ضنوا غيرة بالبحارم
فهل آتوه رغبة في المغانم

مرجاً دماء بالدموع السواجم
وشر سلاح المرء دمع يقيضها
هابها بني الإسلام إن وراءكم
وكيف تنام العين ملء جفونها
وأخوانكم بالشام يصحى مقلهم
تسومهم الروم الهوان وأنتم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة
وتلك حروب من يقب عن غمرها
سالك بأيدي المشركين قواضياً
يكاد لهم المستجن بطيبة
أرى لستي لا يشرعون إلى العدا
ويجتبون النار خوفاً من الردى
أيرضى صناديد الأعاريب بالأذى
قليتهم إذ لم يندودوا حمية
وإن زهدوا في الأجر إذ حمى الوغى

التحالف العبيدي الصليبي

في الوقت الذي تصدى فيه السلاجقة للحملات الصليبية منذ بداياتها على الرغم من الخلافات التي أصابت دولتهم ومظاهر الضعف، جاء موقف الدولة الفاطمية مغايراً لذلك، إذ غابت فيه تجدتهم للمسلمين، أو الدفاع عن الإمارات الإسلامية على الرغم من القوة التي كانت تمتلكها، والاستقرار الذي كانت تنعم به، مقارنة بغيرها. وسكاد المؤرخون يجمعون على أن العبيديين الفاطميين، ووزيرهم القوي آنذاك الأفضل ابن بدر الجمالي، وجدوا في الحروب الصليبية على بلاد المسلمين فرصة سانحة للقضاء على دولة السلاجقة السنية، وتوسيع نفوذ العبيديين على حسابها، ولم يكن في بال العبيديين محاربة الصليبيين أو نجدة المسلمين، (راجع أيضاً: "أثر الحركات الباطنية في عرقلة الجهاد ضد الصليبيين" للأستاذ يوسف إبراهيم) و"تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام" للدكتور محمد سهيل طقوش؛ و"الفاطمية دولة التمازج والتبارج" للأستاذ جمال بدوي).

يقول الأستاذ جمال بدوي: (جاءت الحملة الصليبية الأولى في ختام القرن الحادي عشر (الميلادي)، فدقت آخر سيمار في نعش الدولة الفاطمية، وتسببت في ضياع هيبتها، وأسقطت القناع عن وجهها الحقيقي، فظهرت نواياها المعادية للإسلام والمسلمين في العالم السني، وفقد الفاطميون اعتبارهم الأدبي والعنوي، لا لأنهم فقط عجزوا عن التصدي للصليبيين، ولكن لأنهم تواطؤوا معهم، وشجعوهم على التوغل في بلاد الشام للقضاء على عدوهم المشترك، وهم الأتراك السلاجقة، وعقد الفاطميون اتفاقاً مع الصليبيين لاقتسام الشام بينهما، ولكن الفرنجة خدعوهم وشنقوا طريقهم نحو الأماكن المقدسة في فلسطين وهي الهدف الرئيس للحملة).

وفي سنة ٤٩١هـ (١٠٩٨م) استطاع الصليبيون تأسيس أول إمارة لهم في الشرق الأدنى الإسلامي، وهي إمارة الرها

(بين الموصل والشام)، وفي العام نفسه، أسسوا ثاني إماراتهم، وهي إمارة أنطاكية (شمالي بلاد الشام، تتبع الآن لتركيا)، وبدأ الصليبيون يلتهمون المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى، ولا يتصدى لهم إلا السلاجقة المسلمون بيماراتها.

وليت الفاطميين ووزيرهم الأفضل يقتصر موقفهم على الصمت وعدم المساندة، بل إنه اتسم بالتأمر الصريح، إذ إن الوزير الأفضل عندما رأى اشتباك الصليبيين والسلاجقة، فكر في عقد تحالف مع الصليبيين وبعث بسفارة دبلوماسية محملة بالهدايا والنفائس إلى قادة الحملة الصليبية تعبيراً عن مشاعر الود.

أما فقرات التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين فتضمنت ما يأتي:

١. ينقرد الصليبيون بحكم أنطاكية وشمال بلاد الشام.
٢. تحتفظ مصر (الدولة الفاطمية) ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.
٣. يُسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائره الدينية، على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها على شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
٤. يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة.

ويظهر من الفقرات السابقة أن الأفضل قرّر أن يعمل ضد السلاجقة، لا ضد الصليبيين، أما الصليبيون فقد تلقوا سفارة الفاطميين بالمودة والترحيب، ومكث الوفد الفاطمي في المعسكر الصليبي عدة أسابيع عادوا بعدها إلى بلادهم تتقدمهم سفارة صليبية تحمل الهدايا الوفيرة للتباحث مع الأفضل في الأمور التي اتفقوا عليها والجدير بالذكر أن السفارة الفاطمية قبل إبحارها إلى مصر، أرسل إليها الصليبيون حمولة أربعة جياذ من رؤوس القتلى السلاجقة السنين هدية لخليفة مصر (الفاطمي)، فأبدى أفراد السفارة سرورهم البالغ لذلك المشهد.

أما عن العرض الفاطمي باقتسام الشام، فإن الصليبيين لم يرفضوه، ولم يقبلوه، وتركوا البيت فيه للأمر الواقع عندما تقرره أحداث المستقبل ولم يكن هذا هو الاتصال الأول بين الفاطميين العبيديين والصليبيين، إذ إن عدداً من الأمراء النبلاء الأوروبيين الراغبين في زيارة القدس كانوا يتوجهون من أوروبا إلى الإسكندرية، ومنهم يصحبهم الفاطميون إلى ميناء يافا ثم إلى القدس، وكان الهدف من ذلك حماية هؤلاء الأمراء من خسر السلاجقة إبان رحلة الذهاب والعودة من الإسكندرية إلى بيت المقدس.

واستغل الوزير الأفضل الجمالي استغلال السلاجقة بمقاتلة الفرنج الصليبيين، وأضاف إلى حياته خيات جديدة تمثلت بقيامه بأخذ صور وبيت المقدس من أيدي السلاجقة بعد حصارهما أسابيع عديدة، وهذا الأمر يدل على مقدار القوة التي كانت تمتلكها الدولة العبيدية الفاطمية، التي اختارت أن تستعمل هذه القوة ضد السلاجقة السنة، لا ضد الصليبيين المعتدين.

يقول د. طقوش: "الواقع أنه تحقق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين بالغزو الصليبي لصدد الهجوم الفاطمي، ثم إن تهديده لفلسطين وبيت المقدس خدّم القضية الصليبية؛ لأنه سبّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً". ولو أن بيت المقدس بقي في أيدي السلاجقة لكان أصلح للإسلام وللمسلمين من أن يحتل من قبل الفاطميين، إذ سرعان ما قام الصليبيون باحتلال القدس، ليضيفوها إلى ممالكهم، وبعد أن ارتكبوا فيها مذبحاً مروّعة سقط فيها سبعون ألفاً من المسلمين ومن اليهود، ولم ينج من هذه المذبحة المروّعة سوى حاكم المدينة الفاطمي الخائن (افتخار الدولة) الذي احتفى مع حاميه جنده بمحارب داود مدة ثلاثة أيام ثم سمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فلا هو وحاميته دافعوا عن القدس، ولا هم حثوا سكان القدس على الدفاع. بل إن هذه الحامية العبيدية كانت تذكر سكان القدس السنين والمدينة السنة. وكان الدولة العبيدية الفاطمية أخذت مدينة القدس من المسلمين السلاجقة لتسلمها من بعد إلى الصليبيين النصارى.

وعندما كان الصليبيون يتجهون نحو القدس، اختار الأفضل الجمالي طريق الود والمحبة معهم، وأرسل عندئذ سشارة فاطمية قابلت قادتهم قرب طرابلس... تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة، وعرضاً بالسماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على نحو مجموعات من مثلي حاج أو ثلاث مئة بشرط ألا يكونوا مسلحين... رفض الصليبيون الاقتراح وردوا على السشارة الفاطمية بأنهم سيتمكنون من الحج فعلاً بضعفهم جيش واحد، لا بوصفهم جماعة بإذن الله، ولا بإذن الخليفة الفاطمي.

وبعد احتلالهم القدس، احتل الصليبيون عسقلان، آخر مدينة كانت بأيدي الفاطميين في بلاد الشام، ولم يأت الصليبيون باقتراحات الأفضل وسفاراته، ولم تتجح كل محاولاته فيما بعد لإعادة أملاك الدولة الفاطمية في بلاد الشام، فالخيانة ومعاونة الصليبيين على المسلمين أدت إلى نتيجة معكوسة متكوسة على رؤوس الدولة العبيدية، و غتيل الأفضل في رمضان من سنة ٥١٥هـ، ومات بالعاز، لكن الخيانات العبيدية لم تنته بموت الوزير الأفضل: ذلك أن خيانة المسلمين ومعاونة الصليبيين نهج ثابت لدى العبيديين الفاطميين، الذين كانوا في داخل بلادهم يعلمون من شأن اليهود والنصارى، ويفضلونهم على المسلمين من أهل السنة، وقد جاءت سياستهم الخارجية ممتعة مع الداخلية. يقول ابن تغري بردي: وكان الأمر بين المستعلي يتأهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد.

وما قاله الذهبي في ترجمته فيحق: فإنه مع تلك المساوئ التي ذكرت عنه كان فيه تهاون في أمر القزو والجهاد، حتى استولت الفرنج على السواحل غالبها وحصونها في أيامه، وإن كان وقع لأبيه المستعلي أيضاً ذلك وأخذ القدس في أيامه، فإنه اهتم بقتال الفرنج، وأرسل الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش بالعساكر فوصلوا بعد فوات المصلحة بيوم. فكان له في الجمعة مندوحة بخلاف الأمر هذا، فإنه لم ينهض لقتال الفرنج أبته، وإن كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو لا شيء.

وأول ما وقع في أيامه من طمع الفرنج في البلاد خروجهم في أول سنة ٤٩٧هـ من الرها وانقسموا قسمين: قسم قصد حران وقسم قصد الرقة. فمن توجه إلى الرقة تصدى له السلاجقة المسلمون والتقوا مع الفرنج واقتتلوا قتالاً شديداً، ثم كانت الدائرة على الفرنج فانهزموا وقتل منهم خلق كثير.

والقسم الآخر من الفرنج الذي قصد حران والبلاد الشامية لم ينهض أحد لقتالهم، بل صالحهم ابن عمار قاضي طرابلس وصاحبها وهادتهم على أن يكون لصنجيل ملك الفرنج ظاهر البلد، وألا يقطع الميرة عنها، وأن يكون داخل البلد لابن عمار. وهلك في أثناء ذلك صنجيل المذكور ملك الروم. ولم ينهض أحد من المصريين لقتال المذكورين. فعمت الفرنج ضعف من بمصر.

ثم بعد ذلك قصد الفرنج طرابلس في سنة ٥٠٢هـ، وأخذوها بعد أن اجتمع عليها ملوك الفرنج في ستين مركباً في لبحر مشحونة بالمقاتلة مع صاحب أنطاكية وصاحب القدس بمن معهم الذين جاؤوا من التبر وشرعوا في قتالها وضائقوها من هول شعبان إلى ذي الحجة وأسندوا أبراجهم إلى سور البلد. فلما رأى أهل طرابلس ذلك اتفقوا بالهلاك مع آخر أسطول مصر عنهم. ثم حضر أسطول مصر من البحر، وصار كلما سار نحو البلد رده الفرنج إلى نحو مصر. قال ابن تغري بردي: ومن هذا يظهر عدم أكثرات أهل مصر بالفرنج من كل وجه: الأول: من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة.

والثاني: لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج من البحر عن البلد على حسب الحال.

والثالث: لم يخرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالي في أواخر الأمر.

هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة. ولله در السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فعله في أمر الجهاد وفتح البلاد.

ثم إن الفرنج لما علموا بحال أهل طرابلس وتحققوا أمرهم حملوا حملة رجل واحد في يوم الاثنين الحادي عشر من ذي الحجة وهجموا على طرابلس، فأخذوها ونهبوها، وأسروا رجالها، وسبوا تساءهم، وأخذوا أموالها ودخائرها، وكان فيها ما لا يحصى ولا يحصر واقتسموها بينهم. وطعموا في الغنائم فساروا إلى جبة، وبها قصر الملك بن عمار الذي كان صاحب طرابلس وقاضياها. وتسلموها منه بالأمان في الثاني عشر من ذي الحجة في يوم واحد، وخرج منها ابن عمار سالماً، ثم وصل بعد ذلك الأسطول المصري بالعساكر فوجدوا البلاد قد أخذت فعادوا كما هم إلى مصر.

ثم انقضى ذلك في سنة ٥٠٥ هـ، وقصد الفرنجة صور، فكتب واليها وأهلها إلى طفتكين، القائد السلجوقي المسلم، يسألونه أن يسلموها إليه قبل مجيء الفرنج: لأنهم يشعرون من نصرة مصر، فابى وبعث إليهم الفرسان والرجالة وجاءهم هو من جبل عاملة ثم عاد. ثم رحلت الفرنج عنها ونزلوا على الحبيس، وهو حصن عظيم، وحاصروه حتى فتحوه عنوة وقتلوا كل من كان فيه، ثم عادوا إلى صور وشرعوا في عمل الأبراج وأخذوا في قتالها والزحف في كل يوم.

فلما بلغ ذلك طفتكين القائد السلجوقي، زحف عليهم ليشغلهم، فخندق عليهم، وهجم الشتاء فلم يبال الفرنج به؛ لأنهم كانوا في أرض رملة، والميرة تصل إليهم من صيدا في المراكب. ثم ركب طفتكين البحر وسار إلى نحو صيدا وقتل جماعة من الفرنج وأغرق مراكبهم، وأوصل مكاتبتهم إلى أهل صور فقوى قلوبهم.

ثم عمل الفرنج برجين عظيمين طول الكبير منهما زيادة على خمسين ذراعاً، وطول الصغير زيادة على أربعين ذراعاً، وزحفوا بهما أول شهر رمضان. وخرج أهل صور بالنقط والقطران ورموا النار فبهت الريح فاحترق البرج الصغير بعد المحاربة العظيمة، ونهب منه زرديات وطوارق وغير ذلك، ولعبت النار في البرج الكبير أيضاً فأظناها لفرنج.

ثم إن الفرنج طموا الخندق وواتروا الزحف طول شهر رمضان وأشرف أهل البلد على الهلاك. فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب فعمل كباشاً من أخشاب تدفع البرج الذي يلصقونه بالسور. ثم تحيل في حريق البرج الكبير حتى أحرقه وخرج المسلمون فأخذوا منه آلات وسلاحاً. فحينئذ يش الفرنج من أخذها، ورحلوا عنها بعد ما أحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساجل والأخشاب والعمائر والعلوفات وغيرها. وجاءهم طفتكين فما سلموا إليه البلدة، فقال لهم: (أنا ما فعلت الذي فعلته إلا لله تعالى، لا لرغبة في حصن ولا مال، ومتى دهمكم عدوكم جئتكم بنفسي وبرجالي) ثم رحل عنهم - فله عزه من ملك - كل ذلك ولم تأت نجدة المصريين.

ودام الأمر بين أهل صور والفرنج تارة بالقتال وتارة بالمهادنة، إلى أن طال على أهل صور الأمر ويئسوا من نصرة مصر، فسلموها إلى الفرنج بالأمان في سنة ٥١٨ هـ. وما أبقي أهل صور - رحمهم الله تعالى - ممكناً في قتالهم مع الفرنج وثباتهم في هذه السنين الطويلة مع عدم المنجد لهم من مصر. ودخل الفرنج صور وملكوها سنين إلى حين فتحت ثانياً.

وهكذا، فبالإضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة في التصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الصليبيين في جنوب بلاد الشام، فلما أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة. فاستولى الأفضل بن بدر الجمالي وزير المستعلي العبيدي على صور في ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م، وعلى القدس عام ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م، واستتاب عليها افتخار الدولة.

ثم استولى الصليبيون على القدس من الفاطميين عام ٤٩٢هـ ودحروا الفاطميين في معركة عسقلان، ثم استولوا على أرسوف وقيسارية، ثم هزموا الفاطميين في معركة الرملة الأولى ٤٩٤هـ - ١٠١م. وفي معركة الرملة الثانية ٤٩٥هـ على الرغم من انتصار الفاطميين المؤقت الذي أعقبه انكسارهم، وفي أيام الأمر العبيدي (٤٩٦-٥٢٤هـ، استخلف وعمره ٥ سنين)، أخذ الفرنج عكسا سنة ٤٩٧هـ - ١٠٤م، وهذا قلص النفوذ الفاطمي في الساحل. ثم أخذوا طرابلس في سنة ٥٠٢هـ فقتلوا وسبوا، وجاءتها تجدة المصريين بعد قوات المصلحة، وأخذوا عرقه ويانياس وأخذوا بيروت بالسيف في سنة ٥٠٣هـ، ثم صيدا سنة ٥٠٤هـ بأيدي الصليبيين، واستعصت عليهم صور؛ لأنهم استعانوا بالسلاجقة على الرغم من السيادة الفاطمية اسمًا. ثم قام الوزير الفاطمي بقرض السيادة كاملة على صور عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م، ليسلم صور إلى الصليبيين عام ٥١٨هـ بأيدي الصليبيين بعد حصار. وتسلموا في سنة ٥١١هـ تبين، وبذلك تبين التواطؤ العبيدي على الإسلام، يأخذون مدن جنوبي الشام والساحل من السلاجقة، ليسلموها من بعد ذلك إلى الصليبيين!!! وارتفعت الأصوات في مصر تطالب الأمر الخليفة العبيدي بانتهاج سياسة إيجابية في الجهاد الحقيقي لا سياسة التحريك الظاهري للجيش.

وأظهر المؤرخون المسلمون أسفهم لعجز الفاطميين عن حماية موانئ بلاد الشام التي أخذت تتساقط الواحدة تلو الأخرى بأيدي الصليبيين، واتهموا الأمر الفاطمي بالتهاون في الجهاد، فكان يتأهى في العظمة ويتقاعس عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد، ولم ينهض لقتال الفرنج البتة، وإن كان قد أرسل مع الأسطول عسكرياً فهو شيء...

لراجع: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام للدكتور محمد سهيل طقوش.

آثار العبيديين في نكبات العالم الإسلامي:

أقرزت الدولة العبيدية الفاطمية خمس ظواهر خطيرة في تاريخ الإسلام:

١. ظاهرة موالاته الفرنجة الأجانب الصليبيين.
٢. وموعد طائفة الدرزي.
٣. وظهور فرقة الحشاشين الإسماعيلية.
٤. وظهور ظاهرة الوزير خواجه نصير الدين الطوسي.
٥. وموعد طائفة البهرة أو المكرمية الإسماعيلية.

(١) أما بالنسبة إلى الموالاته مع الفرنجة الأجانب الصليبيين: فراجع التحالف العبيدي - الصليبي (فيما سلف).

(٢) أما بالنسبة إلى الدرزي: فقدور عقيدتهم حول الوهية الحاكم بأمر الله الفاطمي، ومؤسسوها: الزوزني والأخرم والدرزي:

كان الحاكم قد أنشأ (دار الحكمة) على مقربة من مسجده الملاصق لباب الفتوح (الظفر اسم دار الحكمة المتأهض لدار الحكمة الأصل في بغداد)، لتكون هذه الدار أشبه بالأكاديمية يجتمع فيها فلاسفة المذهب الإسماعيلي للعكوف على تطوير المذهب، وهذه بروافد فلسفية جديدة، وكان دعاة المذهب يقبلون من الأنحاء كافة لهذه المجالس التأويلية التي ينظمها شيوخ المذهب للدارسين في حلقات سرية، ووقد إلى عصر رجل من دعاة الإسماعيلية القرم اسم حمزة بن علي الزوزني الذي نفع في فلسفة المذهب في عام ٤٠٥هـ، وهو الذي دعا إلى تأليه الحاكم. وكان أحد زملائه محمد بن إسماعيل الدرزي تسرع فكشف عن أسرار الدعوة الجديدة: وهذا آثار حقيقة حمزة فطرده من حلقة. وبعد اختفاء الدرزي خلا المسرح لخصمه حمزة الزوزني الذي اتخذ من مسجد (تبر)

بالمطرية مقراً سرياً للاجتماع بأعوانه وبت دعواه الإلحادية. وسرعان ما عرف أهالي القاهرة كرمهم ودعواهم فطاردهم وهاجموهم وأحرقوا باب المسجد. ويقول ابن تقيي يردى فى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة):

ثم عن له أى للحاكم أن يدعى الربوبية، وقرب رجلاً يعرف بالأخرم ساعده على ذلك وضم إليه طائف بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة، فلما كان فى بعض الأيام خرج الأخرم من القاهرة راكباً فى خمسين رجلاً من أصحابه وقصد مصر، ودخل الجامع راكباً دابته ومعه أصحابه على دوابهم، وقاضى القضاة ابن أبى لغوام جالس فيه ينظر فى الحكم، فتهبوا الناس وسلبوهم ثيابهم وسلموا إلى القاضى رقعة فيها فتوى وقد صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم.

فلما قرأها القاضى رفع صوته منكراً واسترجع أى قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وثار الناس بالأخرم، وقتلوا أصحابه وهرب هو. وشاع الحديث فى دعواه الربوبية، وتقرب إليه جماعة من الجهال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد! يا أحد! يا محيي! يا مميت! وصارت له دعاة يدعون أوياس الناس ومن سخط عمله إلى اعتقاد ذلك، فمال إليه خلق كثير طمعاً فى الدنيا والتقرب إليه.

وكان اليهودي والتصراني إذا لقيه يقول: إلهي قد رغبت فى شريعتي الأولى، فيقول الحاكم: أقل ما بدا لك فيرتد عن الإسلام، وزاد هذا الأمر بالناس.

وقال الشيخ شمس الدين فى تاريخه مرآة الزمان: رأيت فى بعض التواريخ بمصر أن رجلاً يعرف بـ **الدروزي** (اسمه محمد بن إسماعيل الدروزي) قدم مصر وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ، فاجتمع بالحاكم وساعده على ادعاء الربوبية، وصنف له كتاباً ذكر فيه أن روح آدم عليه السلام انتقلت إلى علي ابن أبى طالب وأن روح علي انتقلت إلى أبي الحاكم ثم انتقلت إلى الحاكم.

فوافق عند الحاكم وقربه وفوض الأمور إليه، وبلغ منه أعلى المراتب، حتى إن الوزراء والقواد ولعلماء كانوا يقفون على يابه، ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده. وكان قصد الحاكم الانقياد للدروزي المذكور فيطيعونه.

فأظهر الدروزي الكتاب الذى فعله، وقرأه بجامع القاهرة، فثار الناس عليه وقصدوا قتله. فهرب منهم وأنكر الحاكم أمره خوفاً من الرعية، وبعث إليه فى السر مالأ وقال: أخرج إلى الشام، وانشر الدعوة فى الجبال. فأتى أهلها سريعو الانقياد. فخرج إلى الشام ونزل بوادي تيم الله بن ثعلبة، غربي دمشق من أعمال بانياس، فقرأ الكتاب على أهله، واستمالهم إلى الحاكم، وأعطاهم المال، وقرر فى نقوسهم التناسخ، وأباح لهم شرب الخمر، والزنى وأخذ مال من خائفهم فى عقائدهم، وأباح دمه، وأقام عندهم يبيع لهم المحظورات إلى أن انتهى.

والدروز يحبون أن يسموا الموحدين: فهذا هو الاسم الذى يحبونه ويطلقونه على أنفسهم فى كتبهم التى يقدسونها. ويجب لحظ أن هذه التسمية لا تعني توحيد الله عز وجل الذى يعبد المؤمنون، ولكن معناها الإخلاص فى توحيد الحاكم بأمره، إذ يذكر حمزة بن علي الزوزني ذلك بقوله: (التوحيد لمولانا عوض الشهادةتين).

وعقيدة الدروز، فى مجملها، تتألف من أفكار شتى ونظريات مختلفة فلسفية وهندية ويونانية وفارسية وقرعونية، ثم أحاطوها بالسرية الكاملة، لا يبيعون لأحد أن يطلع عليها غيرهم، كما لا يبيعون لأحد منهم أن يفشي سراً من أسرارها. وقد جاء فى كلام لحمزة بن علي قوله فى التهريب من إفشاء أسرارهم: (إلى أكبر الأثم وأعظمها إظهار سر الديانة، وإظهار كتب الحكمة - يعنى كتبهم - والذي يظهر شيئاً من ذلك يقتل حالاً تجده الموحدين ولا أحد يرحمه). وفى عقيدتهم الإيمان بـ الوصايا السبعة: صدق اللسان، حفظ الإخوان، ترك عبادة العدم والبهتان، البراءة من الأبالسة والطفيان، التوحيد لمولانا فى كل عصر وزمان، الرضى بفعل مولانا كيف ما كان، التسليم لأمر مولانا فى السر والحدثان.

قال ابن الجوزي: ثم زاد ظلم الحاكم، وعن له أن يدعى الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محبي، يا مميت!! ثم كان من أمر الحاكم أن تعدى شره إلى أخته بتهمة بالفاحشة، ويسمى غلط الكلام، فعملت على قتله أو إيقاد الدولة الفاطمية من الزوال بسببها، فركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر في النجوم، فأنه عبدان فقتلاه، وحمله إلى أخته ليلاً فدفنته في دارها، وذلك سنة ٤١١هـ.

وحدثنا دخل كثير من الدروز في خدمة الجيش الإسرائيلي. إذ أكد سكرتير هيئة رافضي الخدمة العسكرية في الكيان الصهيوني بسام القنطار أن مشاعر الرقض متصاعدة لدى الدروز في هذا الكيان تجاه أداء الخدمة العسكرية الإلزامية، وقال القنطار: (إن الدروز عندما يخدمون في (الجيش الإسرائيلي) فإنهم ملزمون بالخدمة بموجب قرار استثنائي صدر عام ١٩٥٦ م. يميزهم عن بقية الأقلية العربية). وأضاف: (إنه بناءً على ذلك، ولو كانت هناك مشاعر عداوة متصاعدة ضد هذه الخدمة، فإن القانون (الإسرائيلي) يلزم هؤلاء بالخدمة، أو إنهم سيدخلون السجن)، مؤكداً أن الدروز لديهم مشاعر متصاعدة ضد الخدمة العسكرية في الكيان على خلفية مجموعة قضايا.



الدروز يشيعون جنازة جنود إسرائيل

والدروز ينحون عام يتبعون التورية ومبدأ التقية؛ لستر معتقداتهم الباطنية الإسماعيلية، وقد ذهب محمد كامل حسين يقول: (واللدروز قضاء منهم يحكمون دائماً حسب الشريعة والتقاليد الإسلامية، إلا أنهم في بعض المسائل الخاصة يحكمون حسب التقاليد الدرزية). وقد أفتى الأزهر بانتماء الدروز إلى الإسلام! (٣) أما بالنسبة إلى ظهور الحشاشين (النزارية الإسماعيلية أو الدعوة الجديدة):

الخلفية التاريخية: لم يل أحد من الخلفاء الأمويين ولا العباسيين ولا المصريين مثل مدة ولاية الخليفة العبيدي المستنصر (٤٣٧-٤٨٧هـ) في مصر، حيث استقر في دست الخلافة ٦٠ سنة، وقد عاش المستنصر ٦٧ سنة و٥ أشهر في الشدائد ووجع القلب والفتن، وعلى الرغم من طول ولايته، إلا أنها كانت بداية النهاية للدولة العبيدية، إذ تحكم الوزراء بالخلفاء، فما عاد للخلفاء عمل فعلي إلا صناعة المكائد والمؤامرات. والمستنصر هذا على الرغم من الشدائد التي ألمت به إلا أنه هو الذي دبر أول محاولة لإسقاط الخلافة العباسية في بغداد عام ٤٥٠هـ عن طريق مؤامرة البساسيري الباطنية التي نجحت مدة سنة واحدة، ثم جاءت بالخسران (أنظر سقوط بغداد). وصار القحط في أيامه ٧ سنين مثل سني يوسف الصديق (صلوات الله وسلامه عليه) من سنة ٤٥٧-٤٦٤هـ. وشارت في أيامه الفتن في بني حمدان وذكاب القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأحوال، واختلت الأعمال، وحُصر في قصره وطُمع فيه.

ويصفه الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام: (وهو الذي حُطب له بإمرة المؤمنين على منابر العراق، في نوبة الأمير أبي الحارث أسلان البساسيري، في سنة ٤٥١هـ. ولا أعلم أحداً في الإسلام لا خليفة ولا سلطاناً طالبت مدته مثل المستنصر هذا، ولي الأمر وهو ابن سبع سنين ولما كان في سنة ٤٤٣هـ قطع الخطبة له من المغرب الأمير المعز بن

ياديس، وقيل: بل قطعها في سنة ٤٢٥هـ، وخطب لبني العباس، وخرج عن طاعة بني عبيد الباطنية، وحدث في أيام هذا المتخلف بمصر الغلاء الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، ودام سبع سنين، حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، حتى قيل: إنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً، فأبانا لله وإنا إليه راجعون.

حتى إن المستنصر هذا بقي يركب وحده وخواصه ليس لهم دواب يركبونها، وإذا مشوا سقطوا من الجوع وآل الأمر إلى استعارة المستنصر بغلة يركبها حامل الخبز من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء. وآخر شيء توجهت أم المستنصر وبناته إلى بغداد خوفاً من أن يمتن جوعاً، وكان ذلك في سنة ٤٦٠هـ. ولم يزل هذا الغلاء حتى تحرك الأمير بدر الجمالي والد الأفضل أمير الجيوش من عكا، وركب في البحر... وجاء إلى مصر وتولى تسيير الأمور، وشرع الأمر في الإصلاح.

وتوفي المستنصر في ذي الحجة، إذ كان في دولته الرقض والسب فاشياً مجهوراً، والسنة والإسلام غريباً مستوراً، فسبحان الحليم الخبير الذي يفعل في ملكه ما يشاء، ويقول في ترجمته: (ركب البحر في الشتاء من صور إلى الديار المصرية في سنة ٤٦٠هـ، والمستنصر في غاية الضعف واختلال الدولة للغلاء والوباء الذي حصل من قريب، ولاختلاف الكلمة، فولاه الأمور كلها، من وزارة السيف، والقلم، وقضاء القضاء، والتقدم على الدعاة، فضببط الأمور، وزال قطوع المستنصر واستفاق. ولما دخل قرا القارئ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدِينِكُمْ﴾ ووقف، فقال المستنصر: لو أتتها لضربت عنقه (أصل الآية: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾). ولم يزل إلى أن مات في ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ انتهى.

ولم يزل على ذلك حتى استدعى أمير الجيوش بدر الجمالي من عكا إلى مصر فاستولى على التدبير وقدم بمذبحة جماعية غيلة لزعماء الشعب، لم يكررها في التاريخ إلا محمد علي، بعد ٧٠٠ سنة في مذبحة القعة (حين قتل المصاليك غداً)، ثم استطاع الجمالي الاستيلاء على مدن الشام: صور وبعليك وعسقلان من السلاجقة، وبذلك أنقذ الدولة الفاطمية من الفناء المبكر ومد في عمرها قرناً كاملاً من الزمان (حتى أزالتها البطل صلاح الدين يوسف).

وتمهدت الأمور لهذا الوزير الجبار الجمالي ولم يبق نصب عنه إلا حكم مصر وراثياً في صلبه من بعده، لكن تعاليم المذهب الإسماعيلي للفاطميين يحصر الإمامة في أسرهم، وكان الجمالي يعرف أن الوريث الشرعي للمستنصر هو ابنه نزار (كان في سن الثلاثين عندما جاء الجمالي إلى مصر)، ولكن ما الذي يمنع ظهور ابن آخر للخليفة يسابق أخاه ويستلب منه الإمامة؟ وما الذي يمنع أن يكون الوريث الجديد من بيت الجمالي كي تؤول إليه الإمامة؟ كان للجمالي ابنة رائعة الحسن والجمال اسمها (ست الملك) انتقلت مع أبيها في رحلته إلى مصر. وتحدث الناس بجمالها حتى وصلت أخبارها إلى مسامع الخليفة، فأبدى رغبته في رؤيتها، وتلقف الجمالي الطلب وهو يرقص فرحاً، وعرف أن الخليفة قد ابتلع الطعم، ولم يبق إلا اصطياذه في الشبكة التي نسج خيوطها باقتدار فأعد وليمة فاخرة تليق بمقام أمير المؤمنين الفاطمي، ودخلت الفتاة وهي ترهل في ثيابها الفخمة الزاهية وهي تمشي باستحياء، وبعد أن أمت فروش التحية وهي راكعة على الأرض رفعت وجهها ونزعت الغلالة الرقيقة عن وجهها الذي تبدى في عين الخليفة كالبدر في ليلة اللتام. وانبهر الرجل بجمالها وتزوجها، وانتقلت ست الملك إلى القصر الصغير وصارت زوجة أمير المؤمنين، وبقي على الأقدار أن تساءد الجمالي في خطته لتهب ابنه ولداً، وكانت الأقدار سخية على بدر الجمالي (منذ كان مملوكاً أرمينياً في بلاد والي دمشق).

وحملت ست الملك وأنجبت ولداً أسماه أبوه أحمد، وبذلك تهيأت كل الظروف أمام الجمالي ليتنقش الإمامة إلى حفيده. فتمهدت الأمور ولم يبق للمستنصر معه أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدين. (راجع كتاب القباضية دولة التفاريح والتاريخ للدكتور جمال بدوي).

وكانت عيون نزار، الابن الأكبر للمستنصر ووريثه الشرعي، ترصد تحركات الجمالي، وعلق أمه على زعزعة

مركز هذا الوزير الحيار مثلما حدث لكل الوزراء السابقين من جهة أخرى، كان الجمالي يراقب تحركات نزار وأعوانه، ويضيق الجواسيس لمراقبة اتباع الإسماعيلية الذين يتلقون العلم في مصر، ومتهم شاب فارسي شديد الطموح كثير الشعب اسمه (الحسن الصباح) جاء إلى مصر حاجاً الإمام المستنصر، وقابله عام ٤٧١هـ - ١٠٧٨م.

وهذه انقابلة أحد أركان العقيدة الإسماعيلية، بل هي التأويل الباطني للحج عندهم، أما الحج الظاهر فهو زيارة بيت الله الحرام. جاء الحسن الصباح كداعية إسماعيلية ناشط ضد الخلافة العباسية في بغداد. ودخل ابن الصباح على المستنصر، فأكرمه وأعطاه مالاً، وأمره أن يدعو الناس إلى إمامته، فقال له الحسن بن الصباح: فمن إمام يعينك؟ فأشار إلى ابنه نزار. ولذا لم يكن الحسن الصباح راضياً عن تصرفات الوزير المستنصر بدر الجمالي، الخيوط التي تنسجها من أجل إقصاء نزار وتولية المستعلي، وأخذ يجهر بهذه المعارضة في محيط الإسماعيليين بالقاهرة، فلما وصلت آتياؤه إلى مسامع الجمالي قبض عليه وسجنه، ثم نقاه إلى المقرب، ولكن السفينة التي حملته من الإسكندرية، طوحت بها الرياح إلى الشام، ومنها ذهب إلى إيران حيث أقام "دولة الحشاشين" المناوئة لحكم الحكم الذي أقامه الجمالي في مصر.

بدأ الصباح يفكر في تكوين فرقة دموية فدائية بعد أن غادر مصر فراراً من نعمة الوزير بدر الجمالي، وعاد إلى مسقط رأسه في إيران بعد أن اجتاز سوريا والعراق وخوزستان، وكان طوال رحلته يدعو الناس إلى الالتفاف حوله لتخليص الإمام المستنصر من سطوة الجمالي الساعي إلى تنصيب حفيده المستعلي، بدلاً من نزار الوريث الشرعي للإمامة. فأمّن بدعوته خلق كثير يمتهم بإقامة العدل ومقاومة الظلم الذي حاق بهم من سلاطين الأتراك السلجوقية. في أقاصي الأصقاع الإيرانية عند بحر قزوين، استقر الصباح ووجد في المناطق النائية مكاناً مناسباً لإقامة دولة للإسماعيلية ينتقل إليها الإمام المستنصر ويتخذها مركزاً له وللدعوة الإسماعيلية بدلاً من مصر، وشرع في تنفيذ مشروعه الخطر.

فأطلق الدعوة لجذب الجماهير العطشة إلى العدل، وتوج هؤلاء الدعاة في التسلسل إلى داخل القلاع والحصون، وتمكنوا من استمالة عدد كبير من الجند فاعتنقوا الدعوة الإسماعيلية. كان أقوى هذه القلاع قلعة الموت، وتعني عش النسر، ولها من اسمها نصيب كبير: إذ تقع فوق قمة جبال عالية يصعب الوصول إليها إلا بشق الأنفس، ثم أوعز الصباح إلى دعاة المكرسين للمذهب الإسماعيلي في القلعة بدعوته إليها، فدخل القلعة متنكرين متجلباً أسماء غير اسمه، ومكث في القلعة بضعة أيام يتنقل بين حصونها ومسالكها ويختلط بالناس حتى عرف كل شيء عنهم، وعندئذ كشف عن شخصيته، وطلب من حاكم القلعة تسليمها إليه، فانصاع عندما علم أن الجنود صاروا طوعاً بإرادة حسن الصباح، وكانت هذه بداية الدولة الإسماعيلية في إيران عام ٤٨٣هـ. ولم يلبث الصباح أن وسع مملكته فاستولى على القلاع المجاورة (وصار يُدعى شيخ الجيل)، وأصبح الجو مهياً لدعوة الإمام المستنصر إلى دولته.

يقول الذهبي في تاريخ الإسلام: (ودخل ابن الصباح خراسان وكاشغر، والنواحي، يطوف على قوم يضلهم، فلما رأى قلعة الموت بقزوين أقام هناك، وطمع في إغوائهم، ودعاهم في السر، وأظهر الزهد، ولبس السوح، فتيّعه أكثرهم، وكان نائب الموت رجلاً أعجمياً علوياً، فيه بلة وسلامة صدر، وكان حسن الظن بالحسن، يجلس إليه، ويترك فيه. فلما أحكم الحسن أمره دخل يوماً على العلوي فقال: أخرج من هذه القلعة، فتيّسم، وظنه يمزح، فأمر الحسن بعض صحابه فأخرجوه، وأعطاه ماله. فبعث نظام الملك لما بلغه الخبر عسكرياً فهازلوه وضايقوه، فبعث من قتل نظام الملك، وترحل العسكر عن الموت، ثم بعث السلطان محمد بن ملكشاه العسكر وحاصروه. ومن جملة ما استولوا عليه من القلاع: قلعة طلس، وزوزن، وقاين، وسيمكهو، وتأذى بهم أهل البلد، واستغاثوا بالسلطان، فبعث عسكرياً حاصروه ثمانية أشهر، وفتحت، وقتل كل من فيها. ولهم عدة قلاع سوى ما ذكرنا).

وأما في مصر فقد كان الجمالي على جبروته لا يتردد في تحطيم أي رأس يقف في طريقه، ولو كان رأس ابنه الأوحد الذي جعله والياً على الإسكندرية (للجمالي ابنان: الأوحد والأفضل، وهذه أسماءهما وليست صفتيهما). فاتفق جماعة بمصر وولد أمير الجيوش بدر الجمالي (الأوحد) على قتل والده، وينفرد الولد بالملك، ففطن له أبيه، فقتل الجماعة وعفا أثر ولده: يقال: إنه دفنه حياً، وقيل: عرقه، وقيل: جوعه حتى مات: تعددت التفسيرات لكن النهاية واحدة.

وبعد موت الأوحد، اتخذ بدر ابنه الثاني الأفضل معيناً له وأفضى إليه كل سلطاته، واستصدر من الخليفة سجلاً رسمياً يعترف بالأفضل ولياً له في عهد السلطنة وعمارة الجيوش، وأمر المستنصر أن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليفة ولأمير الجيوش بدر. كان بدر الجمالي أرمنياً فاتكاً جباراً قتل خلقاً كثيراً من الفلاء وغيرهم، وأقام الأذان بـ (حي على خير العمل)، وكبر على الجنائز خمساً، وكتب سب الصحابة على الحصان ولم يزل كذلك حتى مات بدر الجمالي وقام بعده ولده الأفضل بعمل والده نفسه.

وصار الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي هو القائم بأمر المستنصر، فإن المستنصر كان قد أجلس بعده ابنه أبا منصور نزاراً أكبر أولاده وجعل إليه ولاية العهد بالخلافة، فلما مرض المستنصر أراد أخذ البيعة له، فتقاعد الأفضل شاهنشاه ودافع المستنصر، من يوم إلى يوم، حتى مات المستنصر، وكان ذلك سعيماً من الأفضل في تصيب ابن أخته (ست الملك)، وكراهة من الأفضل في نزار ولد المستنصر: وسببه أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه المستنصر فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر، فصاح به نزار المذکور: (انزل يا أرمني يا نجس!) فحمل عليه الأفضل وصار كل منهما يكره الآخر.

فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر والأمراء والخوارج وخوفهم من نزار، وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أحمد فرفضوا بذلك، ما خلا محمود بن مصال اللكي: فإن نزاراً كان وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما علم ابن مصال الحال أعلم نزاراً بذلك، وبادر الأفضل بإخراج أبي القاسم أحمد هذا وابيعه ونعتة بـ (المستعلي بالله)، وذلك بكرة يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة ٤٨٧هـ، وأجلسه على سرير الخلافة، وجلس الأفضل شاهنشاه على كرسي الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الأنام علي بن نافع بن الكحال والشهود معه وأخذوا البيعة على مقدمي الدولة ورؤسائها وأعيانها.

ثم مضى الأفضل إلى إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر وهما بالمسجد بالقصر والموكلون عليهما فقال لهما: إن البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرثكما السلام ويقول لكما: تبايعان أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة، **إ** الله اختاره علينا وقامنا وبإيعاه، فكتب الأفضل بذلك سجلاً قرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء على الأمراء.

وأما أمر نزار، فإنه بادر وخرج من وقته وأخذ معه أخاه عبد الله الذي بايع وابن مصال اللكي، وتوجهوا إلى الإسكندرية، وساعده قاضي النحر ابن عمار، وأقاموا على ذلك سنة. وكان الوالي بها ناصر الدولة أفتكركي التركي أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي والد الأفضل، فعرفوه الحال ووعد نزار بالوزارة، فطمع أفتكركي في ذلك وبايع نزاراً وبايع أيضاً جميع أهل الإسكندرية، ولقب المصطفى لدين الله. ولما استهلكت سنة ٤٨٨هـ خرج الأفضل بعساكر مصر إلى الإسكندرية وهناك نزار وأفتكركي، فكانت بينهم حرب شديدة انكسر فيها الأفضل ورجع إلى القاهرة منهزماً، فخرج نزار ونهب أكثر البلاد بالوجه البحري.

وأخذ الأفضل في التجهز لقتال نزار، فأرسل إلى جماعة ممن كان مع نزار من العربان واستألفهم عنه، ثم خرج بالعساكر ثانية إلى نحو الإسكندرية فكانت بينهم أيضاً وقعة انكسر فيها نزار بمن معه إلى داخل الإسكندرية، فحاصروهم الأفضل حصاراً شديداً إلى ذي القعدة. فلما رأى ذلك ابن مصال جمع ماله وغر إلى الغرب

وتأفر ابن مصال ضعفت قوى نزار وأفتكين وخافا وطلبا من الأفضل الأمان فأمتهما، ودخل البلدة ثم قبض على نزار وأفتكين وكان ذلك آخر العهد بنزار، وقتل أعيان أهلها وابن عمار قاضي الإسكندرية، الذي كتب إلى الأفضل ورقة حين كان في الحبس يقول فيها:

هل أنت منقذ شلوي من يدي زمي
أضحى لقد أديمي قد منتهس
دعوتك الدعوة الأولى وبني رمق
وهذه دعوة والدهر مفترسي

فلم تصل إليه الورقة حتى قتل فلما وقف عليها قال: والله لو وقفت عليها قبل ذلك ما قتلته.

وقدم الأفضل بأفتكين ونزار إلى القاهرة (وكان أفتكين يلعب المستعلي والأفضل بن أمير الجيوش على **آتاب**)، فقتله المستعلي بيده وذبحه صبراً، وبني على أخيه نزار حائطاً فهو تحته إلى الآن. ولم يزل الأفضل يؤمن ابن مصال حتى حضر إليه بالقاهرة ولزم داره حتى رضي عنه الأفضل.

جاءت الأخبار بوفاة المستنصر وتولية ابنه المستعلي، فثار الصباح وخطب باسم نزار وأرسل أعوانه إلى مصر لإحضار نزار، فوجدوا أن الوزير الأفضل قد قتله، ولكنهم استطاعوا أن يصحبوا معهم ابناً لنزار إلى الموت، فخافه الحسن حتى تأتي الفرصة المناسبة لإظهاره، ويقتل نزار أصبح الحسن الصباح صاحب الأمر فيما يسمى الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وصار العقل المدبر واليد الفاعلة للاغتيالات في العالم الإسلامي آنذاك.

وقتل أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي الأرمني وزير مصر ومدير ممالكها في آخر رمضان ٥١٥هـ (السنة العشرين من خلافة الأمر)، وقد ولي مملكة مصر بعد موت أبيه بدر الجمالي في أيام المستعلي إلى أن مات المستعلي، فأقام الأفضل ولد المستعلي مكانه في الخلافة، ولقبه بالأمير، ودبر لدولته، وحجر عليه. وكان الخليفة المستنصر (جد الأمر)، وابنه المستعلي (والد الأمر) كلاهما أيضاً تحت حجر بدر الجمالي والد الأفضل هذا.

فلما ملك الأفضل سار على سيرة أبيه مع الخلفاء من الحجر والتضييق عليهم. وضيق الأفضل هذا في حق الأمر حتى إنه منعه من شهوته وأراد قتله بالنسم فجعله ذلك على قتله، واتفق الأمر وجماعة الوالحشاشين، الذين قتلوه أيتماً من بعد ذلك، وكان الأفضل يسكن في مصر، فلما ركب في غير موكب وثبوا عليه وقتلوه في سلخ شهر رمضان بعد أمور وقعت.

قال الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: كان الأمر العبيدي رافضياً كآبائه فاسقاً ظالماً جباراً متظاهراً بانكسر واللهو ذا كبر وجبروت، وكان مدير سلطانه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش. ولي الأمر وهو صبي، فلما كبر قتل الأفضل وأقام في الوزارة المأمون بن فاتك البطائحي، فظلم وأساء السيرة إلى أن قبض عليه الأمر سنة ٥٠٩هـ وصادر، ثم قتله في سنة ٥٢٢هـ وصلبه وقتل ٥ من إخوته.

وفي أيام الأمر أخذ الفرنج عكا سنة ٤٩٧هـ، وأخذوا طرابلس سنة ٥٠٣هـ، فقتلوا وسبوا وعاثوا فساداً، وساءت أحوالهم بعد قوات المصلحة وأخذوا عرقه وبانياس، وتسلموا ثنتين سنة ٥١١هـ، وتسلموا صور سنة ٥١٨هـ، وأخذوا بيروت بالسيف سنة ٥٠٣هـ، وأخذوا صيدا سنة ٥٠٤هـ.

ثم قصد الملك برديول الإفرنجي مصر لياخذها، ودخل الفرما وأحرق جامعها ومساجدها، فأهلكه الله قبل أن يصل إلى العريش. فشق أصحابه بطنه وصبروه أي ملحوه ورموا حشوته هناك، فهي ترجم إلى اليوم بالسبخة، وغنوه بقمامة.

وهو الذي أخذ بيت المقدس وعكا وعدة حصون من السواحل؛ وهذا كله يتخلف الأمر المشؤوم الطلعة، ولد الأمر هذا في أول سنة ٤٩٠هـ، واستخلف عام ٤٩٦هـ (وله ٥ سنين)، وبقي في الملك ٢٩ سنة و٩ أشهر، إلى أن خرج

من القاهرة يوماً في ذي القعدة ٥٢٤هـ وعدا على الجسر إلى الجزيرة فكمن له قوم بالسلاح. وقد ابتُهِجَ بقتله لنفسه وسفكه للدماء وكثرة مصادره واستحسانه الفواحش.

كان الأمر بن المستعلي مطلوباً من جماعة الحشاشين الباطنية من أعوان عمه نزار المقتول بيد أبيه بعد واقع الإسكندرية: لأن الأمر وأباه المستعلي غصبا الخلافة. وأن النص كان على نزار. فاتصل بالأمر أن جماعة من النزاريين حصلوا بالقاهرة ومصر يريدون قتله. فاحتز الأمر على نفسه وتحيل في قبضتهم، فلم يقدر له ذلك لما أَرَادَهُ الله.

وفشا أمر النزارية، وكانوا عشرة، فخاهوا أن يقع عليهم الأمر فيقتلهم قبل قتله، فاجتمعوا في بيت، وقال بعضهم لبعض: قد فشا أمرنا ولا نأمن أن يظفر بنا فيقتلنا، ومن المصلحة والرأي أن نقتل واحداً منا ونقي رأسه بين القصرين وحلاتنا عندهم، فإن عرفوه فلا مقام لنا عندهم. وإن لم يعرفوه فلنا ما نريد: لأن القوم في غفلة.

فقالوا للذي أشار عليهم: ما يتسع لنا قتل واحد منا ينقص عدداً وما يتم بذلك أمرنا، فقال الرجل: اليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمننا طاعته؟ فقالوا: نعم، فقال: وما دلتكم إلا على نفسي، وشرع في قتل نفسه بيده بسكين في جوفه فمات من وقته. فآخذوا رأسه فرموه في الليل بين القصرين وأصبغوا متفرقين ينظرون ما يجري في البلد بسبب الرأس. فلما وجد الرأس اجتمع عليه الناس وأبصروه فلم يقل أحد منهم أنا أعرفه. فحُجِيَ إلى الوالي فأحضر الوالي عرفاء الأسواق وأرباب المعاش فلم يُعرف، فأحضر أيضاً أصحاب الأرباع والحارات فلم يُعرف. ففرح التسعة بذلك ووثقوا بالمقام بالقاهرة لقضاء مرادهم. واتفق للخليفة الأمر أن يعضي إلى الروضة ويجوز على الجسر الذي من مصر إلى جزيرة الروضة للمقام بها أياماً للفرجة.

وكان من شأن الخلفاء أنهم يشيعون الركوب في أرباب خدمتهم حيثما قصدوا، حتى لا يتفرق عنه وأيضاً يتخلف أحد عن الركوب، فلم النزارية التسعة ركوبه، فجاؤوا إلى الجزيرة ووجدوا قبالة الطالع من الجسر فرما فدخلوا فيه قبل مجيء الخليفة الأمر ودفعوا إلى الفران دراهم وأفرة ليعمل لهم بها فطيراً يسمن وعسل. ففرح الفران بها وعمل لهم الفطير، فما هو بأكثر مما أكلوه، ولم يتموا أكلهم إذ طلع الخليفة الأمر من آخر الحسر وقد نظل عنه الركابية ومن يصونه لخرج الجواز على الجسر لضيقه، فلما قابلوه وثبوا عليه وثبة رجل، أحد وضرب به بالسكاكين، حتى إن واحداً منهم ركب وراءه وضربه عدة ضربات وأدركهم الناس فقتل التسعة وحُجِيَ الأمر عشاري إلى قصر اللؤلؤ وكان ذلك في أيام الليل، ففاضت نفس الأمر ٥٢٤هـ قبل وصوله إلى اللؤلؤ.

طرائق الحشاشين:

وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاعتقال لأهداف سياسية ودينية متعصبة. وكلية الحشاشين Assassin: دخلت الاستخدام الأوروبي بمعنى الاعتقال، أو القتل غدراً، أو بمعنى القاتل المحترق المأجور. وعزوا اسم الحشاشين إلى كثرة زراعة الحشيش والأفيون على سفوح جبال قلاهم بأمر "الحسن بن الصباح": ليتناول الحشيش المخدر، هيصبروا تحت سيطرته. ومن تبتة الحشيش والأفيون أخذت المنظمة اسمها؛ ويكثروا تلك العمل. بعامل يعوذ الدماغ على نشوة معينة تصبح جزءاً مهماً في حياته، بل لا يستطيع العيش دونها بسبب الإدمان الذي يحركه مشاعره وانصياعه طمعاً في تناولها ثانية. ادعى الإسماعيلية أو الدعوة النزارية الجديدة أن أعدائهم هم الذين أطلقوا عليهم اسم الحشاشين ليشوهوا صورتهم.

لكن الحقيقة تجل في هذا الادعاء، ثم إن الحشيش كانت منتشرة آنذاك، إذ يقول العالم ابن الصلاح أحمد بن شكر (ت ٦٨٨هـ) يمدح الحشيشة الخسيسة (وكان مدمناً على أكل الحشيش):

فألهو منه الفتى يعيش

بأنفس ميالي إلى التصابي

إن أعوز الخمر فالحشيش

ولا تملي من سكر يوم

فيرد عليه الشمس محمد بن العفيف سليمان بن علي التلمساني (ت ٦٨٨هـ)، الشاعر المطبق، يذم الحشيشة:

ما للحشيشة فضل عند أكلها
لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء في وجهه، خضراء في فمه
حمراء في عينه سوداء في كبده

كان الحسن بن الصباح يختار الأطفال حتى يتدربوا تدريباً شاقاً للقيام بعمليات الاغتيالات، وقد كان يراعى فيهم ألا يكونوا قد ذاقوا الخمر أو النساء أو أي من ملذات الحياة، وقد كانت بعض الأسر ترسل أبناءها إلى الحسن: حتى يجاهدوا في سبيل توسيع الدعوة الصباحية المقدسة!!

وقد وكل (الصباح) أمر هؤلاء الفتية إلى بعض المعلمين يعلمونهم أصول مذهبهم واللغة والشعر، وتعلموا العلوم العسكرية على يد قادة بارعين جداً، وكانت تدريباتهم العسكرية رفيعة المستوى بدرجة كبيرة: حتى إن الفدائي نفسه كان يتأذى في أثناء التدريب.

وكان مما يقوله هؤلاء المعلمون إلى فتيانهم: "إنه لا بد من أن يكون لعقل الإنسان وفكره وتطلعاته تحليل نقسر إذا لم يفترضه عائق كبير، هذا العائق هو جسدينا بكل مواطن ضعفه، فجسدنا الميال إلى الكسل - كما يرضع القائد - يخشى الصعاب التي بها تتحقق الأهداف السامية، وقهر هذه الأهواء وتحرير العقل من قيودها هو الهدف من تدريباتنا، إلى أن يصبح المرء قادراً على إنجاز المآثر العالية التي تقتضي التضحية بالنفس بنحو أسمى عندما يأمر سيدنا الأعلى ابن الصباح. وعندما يموت الفدائي وهو يقوم بواجبه يسمى شهيداً، وعندما ينجح ويبقى سياً يُرقى إلى داعية أو أكثر".

وقد غرس (الصباح) في نفوسهم أنه هو السيد والإمام والمولى، وأن الله تعالى قد اعطاه مفتاح الفردوس يفتحه من يشاء من أتباعه الإسماعيليين.

وكان الصباح قد اهتم بالجانب الآخر من القلعة وبما خلفه ملوك الديلم من حدائق تخترقها الأنهار وتملؤها الطيور والأزهار، واشترى العديد من الفتيات الشديديات الجمال والفتيان، وأسكنهم القلعة وجلب لهم من يعلمهم الغنون والشعر والرقص ويجعل حياتهم ناعمة مثل الأميرات الناعمات. وقبل كل شيء كان يقوم بتعليمهم طاعته ولولاء التام له والطاعة العمياء لأوامره.

عندما كان (الصباح) يفكر في خطة لاغتيال أي شخص أو زعيم فإنه ينتدب لها أي شخص من الفدائيين فيدخله (فردسه) هذا، ثم يستدعيهم في المساء ويجعلهم يتناولون الحشيش، ومن ثم يغيبون عن وعيهم ولا يقيسون إلا في الفردوس على أصوات الفتيات الجميلة التي تمثل لهم الحور العين، فيأخذون بالغناء والرقص له وهو الفتى الذي لم يواجه في حياته أي فتنة أو إغراء. ويقوم بعمل كل شيء حُرّم عليه في الجانب الآخر من القلعة، وكان أعني بعد كل ما تعرض له يؤمن بأنه كان في الجنة وأن سيده (الصباح) فتح له باب الفردوس الحقيقي... ثم تقوم اغتيالات بتخديره وحمله إلى (الصباح)، فيفوق وقد آمن تماماً بأن هذا (الصباح) معه مفتاح الفردوس الأعلى!! ثم يكون من الطبيعي وقتها أن يستجيب الفدائي لكل ما يطلبه منه سيده ولو كان فيه مصرعه.

وفرقة الحشاشين مدربون على التخفي، وعلى استعمال الخناجر بجرأة في الاغتيالات؛ للإمعان في إرهاب الضحايا بقتلهم عن قرب. ويرفض الحشاشون استخدام السم أو السهام؛ لأنها أدوات تتيح للمقاتلين الهرب. جاء في كتاب (المنتظم) لابن الجوزي حكاية فحواها:

أن ابن الصباح عندما استقبل مبعوثين من خصومه السلاجقة يطلبون منه التنازل عن الموت والرجوع عن دعوته، عمد إلى الرد عليهم بواقع حال فدائييه الذين أذاقهم فردوسه، فاستدعى اثنين منهم، وقال لحدهم: هل تريد العودة إلى الفردوس والخلود فيها؟ فأجاب الفتى: نعم، فقال له: اذهب إلى أعلى ذلك البرج والقي نفسك إلى الأرض، فانطلق الغلام برغبة طافحة وجدل ظاهر وارتقى البرج وقذف بنفسه إلى الأرض فتقطع جسده ميتاً، ثم التفت إلى الفتائي الآخر ملوحاً بالفردوس وسأله: أليس خجراً؟ فأجاب: نعم، فقال له: اقتل نفسك، فانتزع الفتى خنجره وغرسه في عنقه وفار دمه ثم خر صريعاً... عندها قال ابن الصباح للرسول بين يديه: أبلغوا من أرسلكم أن عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا مبلغ طاعتهم لي!!

وحسن الصباح هو المُنظر الفعلي لمفهوم الإرهاب، بمفهومه التنظيمي ومصطلحاته وعقيدته... فهو أول من أسس مفهوم الانتحاري المكسّر لهدف الاغتيال وسماه الفدائي، ومنها ظاهرة الساموراي بوصفه محارباً يقاتل انتحاري. ينهي حياته باختياره بشرف، وهذا ما ألهم الطيارين اليابانيين في عملياتهم الانتحارية على البواخر الأمريكية kamikaze mission في الحرب العالمية الثانية.

ضحايا الحشاشين:

امتدت عمليات الاغتيال على مدة قرنين هما الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين). ومن ضحايا الحشاشين الوزير نظام الملك السلجوقي (عام ١٠٩٢م)، والوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه الجمالي (عام ١١٢٢م)؛ لأنه المسؤول عن سجن نزار وموته (انظر فيما سبق)، والخليفة العبيدي الأمر بن المستعلي الذي اغتصب الخلافة من نزار (انظر فيما سبق)، وابن الحشاش (عام ١١٢٥م) الذي كان يُصر من حلب على جهاد الصليبيين، فاستلهم ذلك منه المجاهد عماد الدين زنكي. وتعرض صلاح الدين لمحاولات الحشاشين الخائبة، ثم حاصر حصن الباطنية الحشاشين في سوريا في (مصياف) عام ١١٧٦م في أثناء جهاده لاسترجاع أراضي القدس، ثم أنهى حصاره لهم بعد اتفاقهم على معاهدة لاستسلامهم وتطويعهم، ومن ثم تركهم صلاح الدين.

وكان من عادات (الفدائيين أو الانتحاريين) في تنفيذ العمليات: الاختباء في ملابس الصوفية أو ارتداء ثياب النساء والدراوش، أو انتظار المطلوب بين صفوف المصلين، أو تقديم أنفسهم بوصفهم طالبي حاجات وعابري سبيل. أو العمل داخل القصور تحت أسماء مستعارة حتى تحين فرصة الانقضاض على الضحية. يعترضون ضحيّتهم وهو بين حرسه وشرطته، وربما داخل ثكنة الجيش برسالة استرحام، أو برسالة من صديق يتوسط، يقضاه حاجة حاملها. وعندما يقترب من المطلوب قتله تفرز الخناجر جسده (رغبته أو صدره). وأحياناً يذبحون الضحية في آقاء النوم، ولا يترددون في التضحية بواحد من السرية المبعوثة لتنفيذ المهمة إن اقتضى الأمر.

وفرقة الحشاشين هم من أوائل من استخدم المرايا لعكس الإشارات في أثناء النهار؛ من أجل التواصل مع القلاع المجاورة، ولأسيما المحيطة بقلعة الموت. ويستخدم الحشاشون إشارات شعلة النار في الليل.

كانت أول عملياتهم التي قاموا بها بعد عامين من دخول (الصباح) القلعة، إذ قاموا بقتل وزير السلاجقة نظام الملك عام ٤٨٥هـ. يصور ابن الأثير في (الكامل في التاريخ) عملية اغتياله، فقال: (لما بلغ الخبر أي استيلاء على القلعة نظام الملك، بعث عسكراً إلى قلعة الموت فحضره فيها، وأخذوا عليه الطريق، فضاق ذرعه بالحصر فأرسل من قتل نظام الملك، فلما قُتل رجع العسكر عنها). وقد تمنى نظام الملك الشهادة في نهاوند حيث موقع نهاوند، فاستجاب الله له.

قال ابن تغري بردي: (ولما خرج من أصفهان بعد مخدومه ملكشاه قاصداً بغداد نزل قرية من قرى نهاوند مكان الواقعة التي كانت في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: هذا موضع مبارك قتل فيه جماعة من الصحابة، **طوبى** لمن كان منهم. وكان جالسا والأمراء بين يديه وكان صائما؛ فإنه كان يوم الخميس فقدّم الأكل فأكل الناس، ثم ركب محفته إلى خيمة النساء، وكان به مرض النقرس، فاعترضه سبي ديلمى في زي الصوفية ويده **حقة** فدعا له وسأله أن يتأوله إياها من يده إلى يده، فقال: هات، فعد يده ليأخذها، فضربه بسكين في فؤاده، **فحمل** إلى مضربه ومات، وهرب الديلمي، ثم عثر عليه بطنب في خيمة فقطع قطعاً، وكانت وزارة نظام الملك لبني سلجوق ٢٤ سنة - وقيل ٤٠ سنة - وكان عمره ٧٦ سنة). (النجوم الزاهرة).



أحد أعضاء تنظيم فرقة الحشاشين (صاحب العمامة البيضاء في يسار الصورة) يطلعن الوزير السلجوقي العظيم "نظام الملك" طعنة قاتلة بالخنجر، عام ١٠٩٢م، وهي واحدة من العديد من جرائم الاغتيالات السياسية التي قامت بها فرقة الحشاشين. والوجوه في هذا التصوير الإيضاحي من مخطوطة القرن الرابع عشر، وقد حكت حديثاً لإخفاؤها (عن مخطوطة في متحف قصر طوب كابي)

باغت انتحاري الوزير فخر الملك بن نظام الملك في ٥٠٠هـ، بهيئة متظلم رفع صوته شاكياً، ذهب المسلمون، ما بقي من يكثف ظلامه، ولا من يأخذ للضعيف حقاً، ولا من يفرج عن ملهوف. سمعه الوزير، وهو يهم بالخروج من دور بعض سنائه، فلما أدتاه منه "دفع إليه رقعة، فبينما هو يتأملها ضربه بسكين في مقتلته فقضى نحبه" وهو **يبن** حراسه، أما الانتحاري فكان مصيره أن "فصل على قبر فخر الملك عضواً عضواً" (النجوم الزاهرة). كان تعرض نظام الملك لجنود الموت وابلاً عليه وعلى أولاده الوزراء، فبعد مقتلته ومقتل ولده تعرض ولده الآخر نظام الملك أحمد لضربة سكين يغتقه نجا منها بأعجوبة، فلما قبض على الانتحاري أسقي خمرأ، فأقر على "جماعة من الباطنية بمسجد في محلة المأمونية، فقتلوا وقتل معهم".

وقتل الأمير آق سنقر البرسقي (السلجوقي) صاحب الموصل في ٥١٩هـ. كان أميراً شجاعاً جواداً عادلاً في الرعية، وكان الخلفاء والملوك يحترمونه، وكان قد احتجز من الباطنية بالرجال والسلاح والجائدية، فدخل يوم الجمعة إلى جمع الموصل فجاء إلى المقصورة وفيها جماعة من الصوفية لهم عادة يصقون فيها، فاستراب بهم ودخل في الصلاة وتأخر عنه أصحابه، فوثب عليه ثلاثة في زي الصوفية فضربوه بالسكاكين فلم تعمل في جسده للدرع الذي كان عليه، فصاحوا: رأسه، وجهه فضربوه حتى قتلوه وقتل الثلاثة.

وحزن الناس عليه وأقاموا ابنه مسعوداً مقامه (النجوم الزاهرة). وقتل الباطنية وزير السلطان سنجر شاه السلجوقي في عام ٥٢١هـ. وكان قد أفنى منهم اثني عشر ألفاً، فبعثوا إليه سائساً يخدم في إصطبله، إلى أن وجد الفرصة حين دخل الوزير يوماً يفتقد خيله فوثب عليه المذكور فقتله وقتل بعده نفسه.

واعترض انتحاري عام ٥٢٤هـ، في صورة امرأة، طريق جوهر خدام السلطان سنجر شاه بن ملكشاه السلجوقي، ووكيله في الدولة، مستغنياً من ظلم لحقه، وعندما اقترب من جوهر رمى ثياب المرأة، ووثب عليه وقتله، فقتله خدم جوهر في الوقت.

وصارت فرقة الحشاشين مرتزقة للصليبيين الأجانب، الذين أشاعوا اسمهم في أوروبا. فاستنصاع الصليبيون شراء دمههم لاغتيال القائد المجاهد عماد الدين زنكي. واستخدمهم ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا لاغتيال كونراد دي مونفيرات (عام ١١٩٢م).

وقتل فرقة الحشاشين أيضاً ريموند الثاني ملك دويله طرابلس (عام ١١٥٢م)، وقامت فرقة الحشاشين بمحاولة اغتيال الأمير إدوارد (الذي صار الملك إدوارد الأول لإنكلترا)، فجرحوه بخنجر مسموم عام ١٢٧١م (بتدبير من البطل الملك الظاهر بيبرس)، وعلى الرغم من إخفاق المحاولة، نجدها أقتعت الأمير إدوارد بتوقيع خدمة مدة ١ سنة مع المماليك، وسرعت برحيله مباشرة إلى إنكلترا، وبخروجه أخفقت الحملة الصليبية التاسعة والأخيرة على العالم الإسلامي.

قائمة حكام الحشاشين:

١. الحسن بن الصباح: حكم الصباح ٢٩ عاماً، ومات وعمره قد بلغ نحو ٩٠ عاماً (١٠٣٧-١٢٤٠ م). وفي عهد مات الإمام المستنصر بالله ٤٨٧هـ-١٠٩٤م، وقام الوزير بدر الجمالي بقتل ولي العهد والابن الأكبر "نزار" لينقل الإمامة إلى الابن الأصغر "المستعلي" الذي كان في الوقت نفسه ابن أخت الوزير؛ وبذلك انشقت الفاطمية إلى نزارية مشرقية، ومستعلية مغربية، أخذ الحسن بن الصباح يدعو إلى إمامة نزار، مدعياً أن الإمامة قد انتقلت إلى حفيظ نزار أحضر سراً إلى الموت، وأنه طفل جرى تهريبه من مصر إلى فارس، أو أن محظية نزار كانت حاملاً منه أخذت إلى الموت حيث وضعت حملها. وبقي أمر هذا الإمام الجديد مكتوماً، توفي الحسن الصباح علم ٥١٨هـ-١٢٤٠م من غير سليل؛ لأنه كان قد أقدم على قتل ولديه في أثناء حياته، فبعد ٢٤ سنة من سيطرته على منظمة الحشاشين، ومن حجرة داخل قلعة الموت لم يفاردها إلا مرات قليلة، كان لزاماً عليه أن يخطط لاستمراره حتى بعد موته. فلم يكن له وريث بعد مقتل ولده الأكبر ووهة الأصغر بسبب إدمانه على الخمر، فاستدعى مساعديه وأسند إلى أحدهما يدعى (كيا) الأمور الروحية، وأسند إلى مساعده (أبي علي القزويني) الشؤون العسكرية، بعدها خرج من غرفته عبر ممر سري، حتى يوهم أتباعه أنه رفع إلى السماء وسيعود عند نهاية العالم. ويعني العقيدة الإثنا عشرية وجوده الروحي مع أتباعه!!

لم تؤثر وهة زعيم الانتحاريين الحسن بن الصباح سنة ٥١٨هـ، وسقوط قلعة الموت بيد السلطان مسعود السلجوقي سنة ٥٢٤هـ، في استمرار العمليات الانتحارية، فقلعة "عش النسر" واحدة من مئات القلاع التي لم تستطد كاملة إلا بأيدي عساكر المغول أسقطتها واحدة بعد واحدة، خاصة حين ذهب إليهم مستجيراً قاضي قضاء قزوین شمس الدين، وهو يلبس الزرد تحت ثيابه وهاية من خناجر الحشاشين، وحذر خان المغول من الاحتراز عنهم.

٢. كيا بزرك أميد: حكم من ٥١٨هـ-١١٢٤م إلى سنة ٥٢٢هـ-١١٢٨م: كان أول أمره قائداً لقلعة الأماسر مدة عشرين سنة، وفي مدة حكمه دخل في عدة معارك مع جيوشه السلاجقة، ثم إنه كان أكثر تسامحاً وسياسة من الحسن الصباح.

٣. محمد كيا بزرك أميد: حكم من سنة ٥٢٢هـ-١١٢٨م إلى سنة ٥٥٧هـ-١١٦٢م.

٤. الحسن بن محمد: حكم من ٥٥٧هـ-١١٦٢م إلى ٥٦١هـ-١١٦٦م: أعلن في شهر رمضان ٥٥٩هـ قيام

القيامه، وأنهى الشريعة، وأسقط التكاليف، وأباح الإقطار، ثم أقدم بعد ذلك على خطوة أخطر، وذلك بأن ادعى أن الناحية الظاهرية حفيد لكيا بزرگ، ولكنه في الحقيقة إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار.

٥. محمد بن الحسن: من ٥٦١هـ-١١٦٦م إلى ٦٠٧هـ-١٢١٠م: طور نظرية القيامة ورسخها، وقد ساعده على تلك انحلال هيمنة السلاجقة في عهده وضعفهم، وظهور التركمان، وبداية التوسع التركي.

٦. جلال الدين الحسن بن محمد: من ٦٠٧هـ-١٢١٠م إلى ٦١٨هـ-١٢٢١م: رفض عقائد أبياته في القيامة، ولعنهم وكفرهم، وأحرق كتبهم وجاهر بإسلامه، وقام بوصل حباله مع العالم الإسلامي، إذ أرسل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله وإلى السلطان السلجوقي خوارزم شاه والملوك والأمراء يؤكد لهم صدق دعوته إلى التعاليم الإسلامية، فصرحت البلاد الإسلامية بذلك وصار أتباعه يعرفون بالمسلمين الجدد.

٧. محمد بن الحسن (وبعض الكتب تسميه علاء الدين محمود): كان حكمه من سنة ١٢٢١م إلى سنة ١٢٣٥م: خلف أباه وعمره ٩ سنوات، وظل وزير أبيه حاكماً للموت، وقد عاد الناس في عهده إلى المحرمات، وكتب الخطايا، والإلحاد، وانتشرت السرقة وقطع الطرق والاعتداءات.

٨. ركن الدين خورشاه (شمس الشمس): ١٢٥٥م-١٢٥٨م: قاد هولاكو حملة سنة ١٢٥٦م، وكان هدفه قلاع الإسماعيلية، وما زال يتقدم حتى استسلم له ركن الدين وسلمه قلعة الموت وأربعين قلعة وحصناً، كلها سوّيت بالبرص، ويقال: إن هولاكو استقبله بترحاب وزوجه فتاة مغولية، وانتهى منه بقتله غيلة في عام ١٢٥٨م (الجزء من جس العمل)، وبذلك انتهت دولة الحشاشين سياسياً في فارس. لكن رواية الذهبي تقول بقتل هولاكو له مباشرة (انظر فيما سيأتي لاحقاً).

تقول روايات الإسماعيليين: إن ركن الدين قد أخفى ابنه شمس الدين محمد الذي هرب من بطش هولاكو متكرراً إلى جهة ما جنوب القوقاز، ثم استقر في قرية أنجودا على الطريق بين أصفهان وهمدان. وبقي فيها إلى أن مات في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة، وكان من عقبه سلسلة من الأئمة في القرن التاسع عشر، ومنهم ظهرت أسرة آغا خان.

الحشاشون في بلاد الشام: كان لهم وجود في قلاع الشام: قلعة بانياس، حصن قدموس، حصن مصياف، الكهف، الخوابي، المنيفة، القليعة). ظهر لهم في الشام قادة مثل بهرام الأسترايادي، والداعي إسماعيل الفارسي، وقد أفادوا من ستمالة رضوان بن تنش والي حلب إلى مذهبهم، فوجد إليها عدد كبير من إسماعيلية فارس، وهذا قوّى شوكتهم في بلاد الشام. يقول عنهم المؤرخ كمال الدين بن العديم: (في عام ٥٧٢هـ-١١٧٦م انخرط سكان جبل السماق في الأثم والفسوق وأسموا أنفسهم المتطهرين، واختلط الرجال والنساء في حفلات الشراب ولم يمتنع رجل عن أخته أو ابنته، وارتدت النساء ملابس الرجال، وأعلن أحدهم أن سناناً هو ربه)، ومن أبرز شخصياتهم في الشام هو شيخ الجبل سنان بن سليمان بن محمود المعروف برشيد الدين الذي نشأ في البصرة، وتلقى علومه في قلعة الموت وكان زميلاً لولي العهد الحسن بن محمد الذي أمره بالرحيل إلى بلاد الشام عندما صار الأمر إليه. انتقل إلى بلاد الشام وجمع الإسماعيلية حوله وصار لهم نفوذ وسلطان، واعترف الناس بإمامته، غير أنهم عادوا بعد موته إلى طاعة الأئمة بالموت. وقد كان شخصاً مخيفاً، وهم يذكرونه على أنه أعظم شخصياتهم على الإطلاق. خلفه أمراء صغار وهذا سهل إنهاءهم والقضاء عليهم على يد الظاهر بيبرس.

سقوط الحشاشين وراثتهم: استاصل المغول الحشاشين ربما؛ لأنهم حاولوا قتل مونغي خان، فأصدر قراراً سُمِّه إلى القائد المغولي كتبتاغونين الذي بدأ بالانقضاض على العديد من قلاع الحشاشين عام ١٢٥٢م قبل أن يتقدم هو كـو إليهم عام ١٢٥٦م. فحاصر المغول قلعة الموت المنيفة والمركز القيادي لقلاع الحشاشين في ١٥ كانون

أول/ديسمبر ٢٥٦م. ولم يستطع هولاءكو دخول قلعة الموت واستئصال الحشاشين منها إلا بمساعدة وزير الحشاشين الخائن خواجه نصير الدين الطوسي (انظر فيما سيأتي لاحقاً). استطاع الحشاشون فيما يُقال استرداد قلعة الموت بضعة أشهر عام ٢٧٥م، لكنهم هزموا هزيمة ساحقة أنهت قوتهم السياسية هناك، وإلى الأبد. لكن فرع الحشاشين الشامي السوري استولى عليه السلطان البطل الملك الظاهر بيبرس عام ٢٧٢م واستطاع المماليك بحنكة بيبرس السياسية والعسكرية توظيف خدمات الحشاشين المتيقنين لمصلحة الإسلام: فقد سجل ابن بطوطة في القرن الرابع عشر استجارهم للقيام بالاعتقالات السياسية لمصلحة الإسلام ضد الصليبيين مقابل أجر ثابت لكل عملية هذائية. وبذلك استمر الحشاشون بالعمل وبقوا أحياء. ولا بد أن يكون للمماليك مصلحة في استئصال الحشاشين لاستعادة السيطرة على قلعة الموت في قلب الإمبراطورية المغولية عام ٢٧٥م. وعلى كل حال، فإن الحشاشين استطاعوا اللجوء إلى مبدأ التقية (الكذب والتورية): لستر هويتهم الحقيقية ولبقاء أحياء حتى يخرج إمامهم كما يدعون.



رئيسة وزراء بريطانيا مع الاغاخان، وهي تفتتح "مركز الإسماعيلية" في لندن في ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٥م

واستمر الحشاشون بوصفهم شيعة إسماعيلية في العالم المعاصر، بقيادة آغا خان الرابع (إمامهم رقم ٤٩). ومنذ ذلك الحين والإسماعيلية النزارية الأغاخانية لها مكان متميز في الغرب الأوروبي، فقد أسس معهد الدراسات الإسماعيلية في ١٩٧٧: لنشر أعمال البحوث بقيادة الأكاديميين النزاريين. وأغلب هذه الأعمال تدور حول مدة الحشاشين بما يشمل تاريخهم، وعلومهم، وفلسفتهم. وافتتحت رئيسة وزراء بريطانيا العظمى بنفسها "مركز الإسماعيلية" في قلب العاصمة البريطانية، في ساوث كينزنگتون - لندن، يوم الأربعاء ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٨٥، وبحضور آغا خان الطائفة الإسماعيلية: الأمير شاه كريم الحسيني آغا خان الرابع.

(٤) أما بالنسبة إلى ظهور شخصية الخواجه نصير الدين الطوسي الإسماعيلي:

فقد حوصرت قلعة الموت وهوجمت من قبل قوات هولاءكو (حفيد جنكيز خان) في عام ٦٥٤هـ-٢٥٦م. وكان حاكم الحشاشين الإسماعيلية في قلعة الموت آنذاك هو ركن الدولة خورشاه شمس الشموس. وكان وزيره آنذاك خواجه نصير الدين الطوسي، الذي يُقال: إنه أراد الخروج إلى بلاط الخلافة في بغداد (ولعله حجة للخروج من القلعة المنيع: لأجل التعاون مع هولاءكو)، فحبسه حاكم القلعة.

وفي أثناء حصار القلعة المستعصي على هولاءكو، استطاع الطوسي الهرب من معتقله بالقلعة إلى خارجها، وقام مباشرة بخيانة حاكم القلعة وتحالف مع هولاءكو. وقد دله على دفاعات القلعة وكيفية الدخول من مواضع ضعفتها، فكافأه هولاءكو لذلك، بعد تدميره قلعة الموت، وعينه وزيراً ومستشاراً له بوصفه عالماً بالتنجيم، ثم جعله مسؤولاً عن الأوقاف والكتب الإسلامية في بغداد بعد تدمير هولاءكو إياها عام ٢٥٨م. ومن ثم نى له مرضعاً فلجياً في مرغانة افتتحه للعمل عام ٢٦٢م.

كان كثير من العلماء، في العالم الإسلامي الذي اكتسحه هولاءكو، هم أعظم مكانة من الطوسي علماً وعبقرياً، لكن هولاءكو قتلهم جميعاً (أهلكه الله) دون تأنيب ضمير، فلماذا أبقي على حياة الطوسي الإسماعيلي في الوقت الذي قتل فيه الحكام الإسماعيليين ودمر قلعتهم في الموت!!؟

بل السؤال الأهم: لماذا استورّر هولاء الطوسي هذا من بعد ذلك، وجعله يده أيمى؟ الجواب يكمن في معلومات الدقيقة والخطيرة التي أفضى بها الخواجة الطوسي الخائن (وزير دولة الحشاشين) إلى هولاء، التي عكنته من قتل حاكمها ومن فتح أمنع حصن آنذاك، الذي لم يستطع أحد اقتحامه غيره عام ٦٥٤هـ-١٢٥٦م.

وينفي الإمام الذهبي أن يكون خواجة نصير الطوسي قد تعرض للحبس من حاكم القلعة، وهذا يدل على خيانة سابقة وتواطؤ مع هولاء قبيل مجيئه إلى قلعة الموت، وأن مقتل حاكم الموت وكبار القادة في دولة الإسماعيلية حدث بخروجهم لملاقاة هولاء بالآمان بتأثير وزيرهم خواجة نصير الطوسي؛ ذكر ذلك الإمام الذهبي مرتين.

يقول الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام تحت أحداث ٦٥٤هـ: (ملك هولاء حصون الإسماعيلية وفيها كان خروج الطاغية هولاء ابن تولي بن جنكيزخان، فسار في المغول من الأردو فملك الموت وقلاع الإسماعيلية التي يواخي الري، قال ابن الساعي: بعث هولاء إلى مقدمة الباطنية ركن الدين، فبعث أخاه في ثلاث مئة فقتلهم هولاء، وتهدد ركن الدين، فنزل إليه بأمان، ثم قتله وخرب قلعة، ثم خرب الموت وسائر قلاع الباطنية، ثم تحل قاصداً العراق).

ويقول الذهبي في موضع آخر في تاريخ الإسلام تحت أحداث ٦٥٦هـ: (فكان هولاء قد قصد الموت، وهو معقل الباطنية الأعظم وبها المقدم علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن المنتسب إلى نزار بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي الباطني، فتوفي علاء الدين وقام بعده ابنه شمس الشمس، فنزل إلى هولاء بإشارة النصير الطوسي عليه، وكان النصير عنده وعند أبيه أي وزيراً، فقتل هولاء شمس الشمس وأخذ بلاده) انتهى. وتكررت القصة نفسها هذه بعد سنتين فقط، وبالتحديد عام ٦٥٦هـ-١٢٥٨م، لكن بنحو آخر مع وزير آخر اتصل بهولاء وتعاون معه سراً للدخول إلى أعظم عاصمة في الدنيا: بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية؛ لأن هذا الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي، كان وزير المستعصم، آخر خليفة عباسي في بغداد.



دخول المغول حصن الحشاشين في الموت



حصار المغول قلعة الموت: مركز الحشاشين المحصن

نصير الدين الطوسي (٥٩٧-٦٧٢هـ / ١٢٠١-١٢٧٤م): فيلسوف وفلكي فارسي. ولد بمدينة طوس الإيرانية، ثم انضم إلى فرقة الحشاشين الإسماعيلية الموجودة في قلعة الموت في شمال إيران، وهناك أتم معظم إنجازاته في الفلك والعلوم. يقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: (النصير الغلام الفيلسوف خواجه نصير الدين محمد بن محمد بن حسن الطوسي الحكيم. كان رأساً في حكم الأوائل، ومعرفة الرياضي والأرصاد والحساب. قرا علي المعين سالم الرافضي وغيره. وخدم ابن الصباح صاحب الموت، واجتمع بهولأكو فنفق عليه وأخيه، وتمكن حتى صار مشير دولته، وأنشأ له الرصد بمرغة، وحمل فيه عظمة وخزانة للكتب ما سمع قط بمثلها، فأوترها من كتب البلاد المنهوبة حتى زاد فهرس أسماء الكتب نحواً من ستين كراسة، وجعل في الرصد المنجمين والفلاسفة والأدباء والفقهاء).

واشتغل الطوسي في شببته بعلم الأوائل جيداً، وصنف في علم الكلام، وشرح (الإشارات) لابن سينا، ووزر لأصحاب قلاع الموت من الإسماعيلية، ثم وزر لهولأكو، وكان معه في واقعة بغداد. ودفن في مشهد موسى بن جعفر في سرداب كان قد أعد للخليفة الناصر لدين الله، وهو الذي كان قد بنى الرصد بمرغة، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء. وبنى له فيه قبة عظيمة، وجعل فيه كتباً كثيرة جداً. تولى في بغداد في ١٢ ذي الحجة سنة ٦٧٢هـ، وله ٧٥ سنة.

كان نصير الدين الطوسي وزير الخليفة المستعصم ابن العلقمي ممن أسهموا في إسقاط بغداد، وقتل فيه عشرات الآلاف على أيدي المغول.

يقول ابن كثير في البداية والنهاية عن هولأكو بعد تدميره بغداد واحتجاز الخليفة عنده ليقرر ماذا يبتأ في أمره: (ويقال إن الذي أشار بقتله آي قتل الخليفة الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولأكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان نصير وزير لشمس الشموس ولأبيه من قبله عملاء الدين بن جلال الدين، وكانوا يُنسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي وانتخب هولأكو النصير ليكون في خدمته كوزير المشير، فلما قدم هولأكو وتهيب من قتل الخليفة هون عليه الوزير ذلك فقتلوه رقساً، وهو في جوالق: لنلا يقع على الأرض شيء من دمه فيؤخذ بتأره فيما قيل لهم، وقيل: بل خنق، ويقال: بل أغرق، قاله أعلم، فهاؤوا بأثمه وأثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤسا والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايع والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحبش. وقتي الوسخ، وكمثوا كذلك أياماً لا يظهرون). (ج ١٢، ص ٢٣٥)

قال ابن تيمية عند تفسير سورة البقرة (في مجموع الفتاوى): وهو الذي أشار عليهم بقتل الخليفة ببغداد لما استولى عليها وأخذ كتب الناس، ملكها ووقفها، وأخذ منها ما يتعلق بفرضه، وأفسد الباقي، وبنى الرصد ووضعها فيه، وكان يعطي من وقف المسلمين لعلماء المشركين البخشية والمطونية، ويعطي في رصده لفيلسوف والمنجم والطبيب أضعاف ما يعطي الفقيه، ويشرب هو وأصحابه الخمر في شهر رمضان، ولا يصلون.

وقال في موضع آخر: وصنف القاضي أبو بكر بن الطيب فيهم كتاباً في كشف أسرارهم وسماء اكتشاف الأسرار وهتك أستارها في مذهب القرامطة الباطنية، والذين يعيشون في بلاد الإسلام من الإسماعيلية والنصيرية والدرزية وأمثالهم من أتباعهم. وهم الذين أعانوا التتار على قتال المسلمين، وكان وزير لهولأكو النصير الطوسي من أئمتهم. وهؤلاء أعظم الناس عداوة للمسلمين وملوكهم ثم الرافضة بعدهم. فالرافضة يوالون من حارب أهل السنة والجماعة ويوالون التتار ويوالون النصاري. وقد كان بالساحل بين الرافضة وبين الفرنج مهادنة حتى صار

الرافضة تحمل إلى قبرص خيل المسلمين وسلاحهم وغللمان السلطان وغيرهم من الجند والصبيان، وإذا انتصر المسلمون على التتار أقاموا الماتم والحزن، وإذا انتصر التتار على المسلمين أقاموا الفرح والسرور. وهم الذين أشاروا على التتار بقتل الخليفة وقتل أهل بغداد، ووزير بغداد ابن العلقمي الرافضي هو الذي خامر على المسلمين وكاتب أعتار حتى أدخلهم أرض العراق بالمكر والخديعة، ونهى الناس عن قتالهم. وقال في منهاج السنة (ج ٧، ص ٤١٤): "وإذا كان الرافضة من أعظم الأسباب في دخول الترك الكفار إلى بلاد الإسلام، وأما قصة الوزير ابن العلقمي وغيره كالنصير الطوسي مع الكفار، ومما ألثمهم على المسلمين فقد عرفها الخاصة والعامة".

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

(ولما انتهت النبوة إلى نصير الشرك والكفر الملعون، وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاء كوا، شفى نفسه من أتباع الرسول الكريم - وأهل دينه، فعرضهم على السيف، حتى شفى إخوانه من الملاحدة، واشتفى هو فقتل أخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعين والسحرة، ونقل أوقاف المدارس ومساجد والربط إليهم، وجعلهم خاصته وأوليائه، ونصر في كتبه: قدم العالم، وبطلان المعاد، وإنكار صفات الرب جل جلاله من علمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره، وأنه لا داخل العالم ولا خارجه، وليس فوق العرش إله يعبد أئمة، واتخذ للملاحدة مدارس، ورام جعل إشارات إمام الملحد ابن سينا مكان القرآن، فلم يقدر على ذلك، فقال هي قرآن الخواص، وذلك قرآن العوام، ورام تغيير الصلاة وجعلها صلاتين فلم يتم له الأمر، وتعلم السحر في آخر الأمر، فكان ساحراً يعيد الأصنام، وصارع محمد الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه "المصارعة" أبطل فيه قوله بقدم العالم، وإنكار المعاد، ونفى علم الرب تعالى وقدرته وخلقه للعالم، فقام له نصير الإلحاد وقعد، ونقضه بكتاب سماه "مصارعة المصارعة"... وبالجملة: كان هذا الملعون هو وأتباعه من الملحد الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر). (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، ج ٢، ص ٢٦٢).

لكن في الجانب الآخر يصف أحد علماء الإشتاعيرية (روضات الجنات للخواصاري) عند ترجمته نصير الدين الطوسي ما نصه: (ومن جملة أمر نصير الدين الطوسي المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم هـ لاكو خان أنظر تعظيم هولاء كوا أهل ككة الله)، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد إلى دار السلام بغداد لإرشاد العباد وإصلاح البلاد، بإبادة ملك بني العباس، وإيقاع القتل العام من أتباع أولئك الطفام، إلى أن أسال من دسائهم الأقدار كأمثال الأنهار، فأنهار بها في ماء دجلة، ومنها إلى نار جهنم دار البوار!!!

ويقول الحسيني أيضاً في كتابه "الحكومة الإسلامية" ما نصه: (ويشعر الناس بالخسارة بقصدان الخواجه نصير الدين الطوسي وأضرابه ممن قدم خدمات جليلة للإسلام)... (وإذا كانت ظروف الثقة تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين، فهذا يجب الامتناع عن ذلك، ولو أدى الامتناع إلى قتله، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين، مثل دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي رحمهما الله). علي بن يقطين - توفي ١٨٢هـ - هو أحد وزراء الخليفة هارون الرشيد، كانت علاقته وثيقة بالإمام موسى الكاظم (عليه السلام) الذي استحثه للبقاء في البلاط العباسي لحماية الشيعة، بقوله: (كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان). (ص ١٤٢، ط ٤)، وقد قامت



الطوسي على الطوابع الإيرانية

جمهورية إيران الإسلامية بتخليد الطوسي (١) على طوابعها.

ولعل كثيراً من العلوم التي بولغ بنسبتها إلى الطوسي لم تكن في حقيقتها إلا سرقات علمية للكتب المنهوبة.

من دار الحكمة بعد نكبة سقوط بغداد وتدمير الخلافة العباسية على يد المغول عام ٦٥٦هـ؛ ولا يُعتصم على الطوسي صاحب التقية والنفاق نزع غلاف أي كتاب يعجبه، ووضع اسمه عليه على أنه من تأليفه، في حين إن المؤلف الحقيقي قد مات وما له من شهود، بعد مذبحة القضاء والعلماء والكتاب في بغداد؛ وهو ما يسمى علمياً بالانتحال. فالطوسي كان وزيراً مرافقاً لهولاكو وجيوشه الدائمة الثقيل من مكان إلى آخر، وهو الذي كان يصوغ وينشئ رسائل هولاكو المرعبة للملوك الإسلام وأمراثها، فيستحيل، والحالة هذه، أن يكون للطوسي وقت فراغ لكتابة المؤلفات المنسوبة إليه.

ثم إن الطوسي كان له من يكتب في العلوم كلها، يقول شمس الدين الشهرزوري في تاريخ الحكماء (تحقيق د. عبد الكريم أبو شويرب، طبعة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية) عن الطوسي ص ٣٩٨: (بلى الرصد بمراغة بمعاونة جماعة من الفضلاء منهم: مزيد الدين العرضي وهو رجل عالم بالرياضي، وفخر الدين الأخطاوي وكان القالب عليه الطب، ونجم الدين القزويني والغالب عليه المنطق، وفخر الدين المرافقي، ومحيي الدين المعري والغالب عليهما الرياضي).

ولم يكن الطوسي هذا في حقيقته إلا منجماً يتجيم الكهان؛ ولهذا السبب أيضاً أحبه هولاكـ الشاماني المعتقد. يحكي ابن تفردي بردي في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، في سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصور التركي المغولي الأصل، سلطان الديار المصرية الذي جلس على تحت الملك بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، أنه: (لما فتح هولاكو حلب بالسيف، ودمشق بالأمان، طلب نصير الدين الطوسي، وكان في صحبته، وقال له: اكتب أسماء مقدمي عسكري وأبصر أيهم يملك مصر ويقع على تحت الملك بها حتى أقدمه، قال: فحسب نصير الدين أسماء المقدمين، فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصرية غير اسم كتبغا... وكان كتبغا صهر هولاكو فقدمه على العساكر، فتوجه بهم كتبغا والكسر على عين جالوت، فتعجب هولاكو من هذه الواقعة وظن أن نصير الدين قد غلط في حسابه.

وكان كتبغا هذا أي الملك العادل كتبغا) من جملة من كان في عسكر هولاكو من التتار ممن لا يؤبه له من الأصاغر، وكسبه قلاوون في الواقعة، فكان بين المدة نحو ٢٥ سنة حتى قدر الله تعالى بما قرر من سلطة كتبغا هذا أي الملك العادل كتبغا، انتهى.

(٥) طائفة البهرة الإسماعيلية (أو المكرمية أو الطيبية):

وبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر عام ٤٨٧هـ، تفرقت الحركة الإسماعيلية إلى فرقتين أساسيتين: فرقة الحشاشين (الإسماعيلية النزارية التي تؤمن بإمامة نزار بن المستنصر، الذي أطاح به انقلاب القصر إذ حل محله أخوه المستعلي بتدبير من جدّه بدر الجمالي وخاله الوزير الأفضل)، وامتدادها الحاضر في الأغاخانية التي بدأت من إيران ثم الهند، ويتزعمها آغاخان، وفرقة أخرى تؤمن بإمامة المستعلي بن المستنصر، لكن أتباع المستعلي قد انقرضوا من مصر مع زوال الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ على يد البطل صلاح الدين الأيوبي، إلا أن بنيائهم لا تزال ماثلة في طائفة (البهرة) الذين عادوا إلى مصر منذ ربع قرن وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله بمسجد الأقصر وصنعوا مقصورة من الذهب لضريح الإمام الحسين وأخرى من الفضة للسيدة زينب، وتراهم منتشرين في شارع المعز لدين الله في سراويلهم البيضاء يمارسون تجارة المعدات الكهربائية وأدوات البناء؛ وهي أحب أنواع التجارة إليهم. وكلمة (البهرة) بضم الباء هندية قديمة تعني التاجر، ويشتهرون بالثراء العريض. وقد أخذ اليهود منهج المستعلي من اليمن لا من مصر، وظلت المستعلية تحكم اليمن قرناً طويلاً بعد زوالها من مصر، ثم تسربت إلى الهند عن طريق خطوط التجارة.

الصليحيون؛ والقصة تبدأ من اليمن، فالأسرة الصليحية بزعامه (علي الصليحي) تعتبّق المذهب الإسماعيلي، إذ قدم إلى مصر وأعلن ولاه لل خليفة المستنصر العبيدي، فأعطاه تفويضاً بحكم اليمن، وخلع عليه القاب الشرف، منها "الأمير لأجل مشرق المعالي تاج الدولة سيف الإمام المظفر في الدين نظام المؤمنين"، ومنها "منتخب الدولة وصفوتها ذو المجدين، منجب الدولة وغرسها ذو السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضلين".

وعاش علي الصليحي يعمل على تدعيم الدولة الفاطمية في اليمن، حتى اغتيل، وخلفه ابنه أحمد الصليحي قسار سيرة أبيه في الولاء للإسماعيلية، وأندق عليه المستنصر الألقاب نفسها التي منحها لأبيه، وخلع عليه لقب "المكرم"، ولكن الصعاب أحاطت به بسبب تمرد بعض القبائل اليمنية التي لم تألف الخضوع لسلطة حكومة مركزية، وكان الخليفة المستنصر يتابع باهتمام ما يجري في اليمن ويساند "المكرم" في حروبه ضد المتمردين، حتى انتصر عليهم وأعاد الأمن إلى البلاد، فلما مات تولت الحكم زوجته الملكة الحرة "أروى".

وهي "أروى بنت أحمد الصليحي الإسماعيلية، وتلقب بالسيدة الحرة (وأمها الملكة زراح بنت الفارح، زوجة المكرم بن علي الصليحي ملك اليمن)، وهي من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن ووحدت معظم إماراته (٤٢٩-٥٢٣هـ) ونشرت الدعوة الإسماعيلية، ولدت في حصن مسار من جبال حراز باليمن، ونشأت في بيت مؤسس الدولة الصليحية، بعد وفاة والدها أحمد الصليحي وزواج واندتها من عامر بن سليمان الزواحي، تزوجها المكرم أحمد بن علي سنة ٥٨هـ في حياة أبيه علي الصليحي، وتولى الحكم من بعده (٤٥٩-٤٨١هـ) وأنجبت منه، فوُض المكرم الأمور إلى زوجته أروى، فكان أول ما قامت به، بعد أن غادرت صنعاء، أن اتخذت مقرها في قصر شيدته زوجها في حصن بجيلة (اليمن) نقل إليه ذخائره، وقامت بتدبير الملكة خير قيام، فبسطت سلطانها على القبائل اليمنية، وخضع الناس لها، وكانت الرسائل التي يبعث بها المستنصر بالله الخليفة العبيدي إلى اليمن تصدر باسمها، وبعد وفاة زوجها المكرم سنة ٤٨١هـ اختلف الصليحيون والزواحيون فيمن يتولى الحكم، وكان زوجها قد أوصى أن تستند أمور الدعوة إلى الأمير سبأ بن أحمد الصليحي الذي طمح إلى الزواج منها، فلم ترض أروى بهذا اختيار، واحتكم سبأ إلى المستنصر بالله الفاطمي الذي أمر أروى أن تقبل سبأ زوجاً حقناً للدماء، كتبت الخليفة إلى السيدة أروى رسالة يقول فيها:

"وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الراعي الأواحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد على ما حضر من المال، وهو مئة ألف دينار عينا، وخمسون ألفاً أصنافاً من تحف والطفاف". فلم يسع السيدة الحرة إلا أن تمتثل لأمر الخليفة الفاطمي وتتزوج بمن تكره.

وقد ظل هذا الزواج صورياً، وظلت أروى تمسك بمقاليده الحكم الفعلية، وترفع إليها الرقاع، ويجتمع عندها البرّاء، ويدعى لها على منابر اليمن، فيخطب أولاً للخليفة الفاطمي ثم لسبأ بن أحمد ثم للسيدة الحرة أروى، وظلت الملكة الحرة "أروى" على ولائها للمستنصر حتى وثق بها كل الثقة وعهد إليها الخليفة ومن بعده المستعلي ثم الأمر بحكام الله بالإشراف على الدعوة الإسماعيلية الفاطمية في عُمان والهند، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد؛ وهذا هو سبب انتشار الدعوة الإسماعيلية في الهند، فلما مات المستنصر وعلمت نبأ إمامة المستعلي بارت إلى الاعتراف به، ورفضت التمرد عليه مثلما فعل الحسن الصباح.

ولم تلبث أن استقلت بأمر الحكم بعد وفاة زوجها الثاني سبأ سنة ٤٩٢هـ، واعتمدت في تدبير أمور الملك على عدد من الثقات، وامتدت أيام حكمها بعد ذلك ٤٠ سنة، استطاعت في أثنائها أن تمارس سيادتها على الإمارات اليمنية الصغيرة من دون إخضاعها. وهي التي بنت جامع صنعاء الكبير، ويمدحها الإسماعيلية بتسميتها بلقيس الصغرى، ويستعيرون شعر المتنبي لمدحها:

ولو كان النساء كمن فقلنا
ولما التائب لاسم الشمس عيب
لفضلت النساء على الرجال
ولا التذكير فخر للرجال

عمّرت أروى طويلاً، فلمّا ماتت دفنت في مسجد كانت بنته بذي جيلة، وقبرها لا يزال حتى اليوم مزاراً. وأسندت الحرّة أمر الدعوة إلى سبأ من آل زريع. وعلى إثر وفاتها دبّ الضعف في جسد الدولة الصليحية وتمككت أوصالها وصار الأمر فيها إلى الأمراء من آل زريع، وأنهى القائد توران شاه بن أيوب أخو اليتل صلاح الدين الأيوبي حكم الصليحيين تماماً بعد أن غزا اليمن سنة ٥٦٩هـ، وألحق اليمن والحجاز بسلطنة الدولة الأيوبية.

الانشقاق الإسماعيلي الفاطمي الثاني: وفي حياة الملكة "أروى" بقيت الملكة على ولائها للمستعفي، ومن بعد ابنه "الأمير"، ثم جدّت أمور خطيرة وضعت الدعوة الفاطمية في مهيب الريح، حتى ضعف شأنها وانقرض عقدها. وكان الخليفة "الأمير" هذا من أفسد عباد الله. وكان يهيم غراماً بقتاة بدوية أقام لها عشاً خاصاً في جزيرة الروضة، وكان يتسلل إليها تحت جناح الليل، وفي إحدى هذه الجولات هجم عليه رسل الخشاشين قتلوه دون أن يخلف وريثاً. فقفز إلى الخلافة عمّه عبد المجيد ولقب نفسه "الحافظ"، ولكن الملكة الحرّة "أروى" لم تعترف بإمامته تمسكاً بالأحكام الشيعية التي تقصر الإمامة على الأعقاب، ولا تسمع بانتقالها إلى الأشقاء والأعمام.

وهنا حدث الانشقاق الثاني في الدعوة الإسماعيلية، عندئذ لجأ دعاة الإسماعيلية إلى طريقتهم في صنع القصص التي تخدم أغراضهم، فزعموا أن إحدى زوجات الخليفة المقتول "الأمير" كانت حاملاً له وضعت ولداً ذكرًا اسمه "الطيب"، وأن أحد الدعاة خاف عليه من أعدائه فاحتفظ به وأخفاه ثم أرسله في "مقطف" أي سلة لقطف الثمار إلى الملكة "أروى" في اليمن، فتولت تربيته، وظلت تحكم اليمن باسمه وتتوب عنه في إدارة شؤون الدعوة الإسماعيلية، واتخذت لنفسها لقباً (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الأمير) وبذلك انشقت الفرقة "الطبيبة" عن الفرقة "المستعلية" التي استمرت في مصر تحت إمامة "الحافظ".

ودخلت الدعوة في اليمن طور الغموض حتى لم يعرف المؤرخون أسماء الأئمة من بعد هذا الطيب، وإن كان دعاة المذهب يصطنعون سلسلة من الأئمة ليس لهم وجود حقيقي؛ وهذا ما يراه الدكتور محمد كامل حسين الذي يقول: (وفي اعتقادي أن قصة "الطيب" هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية، فإن أحداً من المؤرخين لم يذكر وجود "الطيب" بن الأمير إلا ما نراه في كتب الدعاة، أما ما يقال عن وجود سجل وجه الأمر إلى الملكة الحرّة قبل مقتله فهو، في رأيي، سجل موضوع قصد به إلياس القصة ثوب الحقيقة: حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة "الطيب" والصليحيون في اليمن هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، في حين سكّت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه في كتبهم، بل ذهب المؤرخون إلى أن (وجهة الأمر" التي كانت حاصلاً عند موته وضعت أثني، ولكن الصليحيين قالوا: بل وضعت ذكراً هو "الطيب")، ويتساءل الدكتور محمد كامل حسين: ومعه الحق، عن سبب ستره مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين، والسلطان في أيديهم، فلماذا قفلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ما داموا يدعون إليه ويدّيون بطاعته وإمامته!!! وإنما يخيل إلي أن الصليحيين وضعوا قصة "الأمير" هذه: حتى يتخذونه ذريعة للانفصال عن سلطان الفاطميين الديني، وأن يستقلوا بالنفوذ الديني والسياسي معاً، وأوحى دهاء الملكة "أروى" وذكائها الشديد، وحرصها على أن تجمع في يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كاهل الإمام المستور ووجهته الكبرى، وسار على نهجه كل داع مطلق في الدعوة إلى الآن!!!

البهرة أو المكرمية أو الطيبية: وبعد انقراض الدولة الصليحية عام ٥١١هـ، خمد أتباع الدعة الطيبية ولم يقوموا بأي نشاط سياسي، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا في محيطهم الخاص، واتخذوا التقية ستاراً فلا يظهرون

سماعيليتهم. وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة نشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية في الهند، وأقبل جماعة من الفردوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفت الدعوة بينهم باسم "البهرة". وفي القرن العاشر الهجري أي: منذ ٤٠٠ سنة، حدث انشقاق جديد في صفوف الطيبية، وانقسمت إلى فرقتين:

البهرة الداودية، والبهرة السليمانية: بسبب الخلاف على من يتولى مرتبة الداعي المطلق للطائفة: فالتفت الداودية حول الداعي قطب شاه داود، واجتمعت الثانية حول الداعي سليمان ابن حسن. وانتقل مركز الداودية من اليمن إلى الهند ومقره بومباي، ويتمتع داعيها بالصفات نفسها التي كان يتمتع بها الأئمة، وله سلطات روحية مطلقة على أتباعه: وهي سلطة الأئمة نفسها في العصور الوسطى.



عيم البهرة الداوديين برهان الدين مع الرئيس اليمني

ويتوافد عشرات الآلاف من أتباع البهرة "الداوديين" في كل عام، إلى منطقة حراز التي تبعد عن صنعاء نحو ٩٠ كم، لزيارة ضريح حاتم محيي الدين، ويحملون سلطانهم الدكتور محمد برهان الدين فوق حمالة خشبية، فعمره ٩٩ سنة.

وكان الرئيس علي عبد الله صالح قد قال في حوار صحفي أجري معه في وقت سابق: حينما سُئِلَ عن زيارة السلطان برهان الدين لليمن وطائفة البهرة: إن أبناء هذه الطائفة يأتون إلى اليمن من وقت إلى آخر، وهم لا يمثلون أي خطر لا على المجتمع ولا على النظام ولا على الدولة... وهم يأتون للزيارة والسياحة وزيارة أحد القبور في حراز، فإذا كنا نستقبل السياح من فرنسا وأمريكا واليابان ودول أخرى غير مسلمة، ونوفر لهم الرعاية والحماية، فهم طائفة مسلمة لا تمثل أي خطر، ومن نسمح لأحد بأن يمسه بأي أذى.



تقديس سلطان البهرة

ويتوافد عشرات الآلاف من أتباع البهرة الداوديين في كل عام إلى منطقة حراز باليمن: لزيارة ضريح حاتم محيي الدين. ويحملون سلطانهم الدكتور محمد برهان الدين فوق حمالة خشبية: تقديساً له لا لغيره.



عيدهم في غدير خم



السجود لسلطان البهرة

رجوع البهرة إلى مصر، ينتشر البهرة في الهند ودول الخليج العربي، وكانوا قد رجعوا إلى مصر أواخر السبعينيات في عهد الرئيس السادات، وبدأ عددهم يزداد في مدة الثمانينيات. واتجه البهرة هور وصولهم إلى مصر إلى مسجد الحاكم بأمر الله المسمى بالأنور المجاور باب الفتوح، واهتموا بالمراقد والآثار الفاطمية وعملوا على ترميمها وتجديدها، ولم تقتصر هذه الترميمات على الآثار الفاطمية فقط، بل امتدت إلى كل مراقد آل البيت، مثل مرقد السيدة زينب، ومقصورة رأس الإمام الحسين، وقبر مالك الأشتر الذي دفن إلى جواره حديثاً شقيق شيخ البهرة. وهناك الكثير من المحلات والبيوت التي اشتراها طائفة البهرة الفاطمية الإسماعيلية في شارع المعز لدين الله الفاطمي بمنطقة الجمالية والمناطق المجاورة له، وليس في هذه المنطقة فحسب، لكن بمناطق الحسين والدراسة والدرب الأحمر والموسكي، إذ يعتقدون أن إمامهم الغائب سيعود ويعيد الدولة من مصر: ولذا، بلاشك، ستقابلهم أو تراهم وهم يسبرون جماعات بشوارع القاهرة ويمسكون بالمصاحف في أيديهم بانتضاب، ومعهم نسوتهم محجبات، حيث اعتاد رؤيتهم رجل الشارع العادي بالقاهرة.

والبهرة أغنياء، وأغلبهم رجال أعمال وتجار كبار،

وإمامهم البرهاني يفرض عليهم الضرائب بدقة، وهو الآن يقيم في دبي قبل أن يذهب للحرم، وعدّ مقابلته الخاصة مع الرئيس حسني مبارك منذ عدة أعوام نصراً وفتحاً مبيناً للبهرة: فمصر لها مكانة خاصة عندهم بما تحمله من مساجد لآل البيت، وتحمل جثة إمامهم وجدهم الحاكم بأمر الله، تحت البئر المقدسة!!

سيطر البهرة على مسجد الحاكم بأمر الله، في شارع المعز لدين الله الفاطمي، إذ إن جموعهم تتوافد طوال اليوم يصعدون إلى مكان علوي بالمسجد رجالاً ونساء... وبعد أن يفرغ الناس من الصلاة تتوافد أفواجهم جموعاً للناحية الشرقية من المسجد ويظفون حوله ثم يجلسون على جانبي المسجد بعد ذلك، ويدعون أن إمام البهرة الداوديين يهان الدين قد ورد اسمه في القرآن حين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْسَلْنَا نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤).



سلطان البهرة "محمد برهان الدين" يحمل بكل تقديس إلى جامع خانة

وقد وصف الشيخ محمود عاشور من علماء الأزهر الشريف في "المصريون"، هؤلاء البهرة بأنهم "خارجون عن الدين، ولا يجوز الصلاة خلفهم، ولكن يمكن التعامل التجاري معهم، ولا يجوز الزواج منهم، وأما ما يجري في مسجد الحاكم بأمر الله فاسألوا وزارة الداخلية المصرية عنه".

أما الدكتور محمد الشحات الجندى الأمين العام للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، فقال له "المصريون": أنا أيضاً أتعجب مما يحدث وأتساءل أين الدولة؟ وفي الفتوى الخاصة رقم ٦١٠٥٩٤ من دار الإفتاء المصرية حول البهرة، أجابت لجنة الفتوى قائلة: (هم إسماعيلية مستعلية، يعرفون بالإمام المستعلي، ومن بعده الأمر، ثم ابنه الطيب؛ ولذا هم يسمون بالطيبية. وهم إسماعيلية الهند واليمن، تركوا السياسة وعملوا بالتجارة، فوصلوا إلى الهند واختلط بهم الهندوس الذين أسلموا وعرفوا بالبهرة، والبهرة لفظ قديم بمعنى التاجر. وهم يقولون: إن الإمام الطيب دخل مصر عام ٥٢٥ هجرية، والأئمة المستورون من نسله إلى الآن لا يُعرف عنهم شيئاً، حتى إن أسماءهم غير معروفة، وعلماء البهرة أنفسهم لا يعرفونهم).

وقد انقسمت البهرة إلى فرقتين:

١. البهرة الداودية: نسبة إلى قطب شاد داود، وينتسرون في الهند وباكستان منذ القرن العاشر الهجري، وداعيتهم يقيم في بومباي بالهند.

٢. البهرة السليمانية: نسبة إلى سليمان بن حسن، وهؤلاء مركزهم في اليمن إلى الآن. وعقائدهم مثل عقائد الإسماعيلية، مثل: وجوب إمام معصوم منصوب عليه من ولد محمد بن إسماعيل، والقول بالإمام الغائب المستور، ورفع أئمتهم منزلة أشبه بالالوهية، ومنها القول بالتناسخ، وأن الإمام وارث الأنبياء جميعاً، وغير ذلك من العقائد الباطلة، فهي فرقة غير مسلمة، وغير كتابية، وتعامل معاملة المشركين، أو المرتدين في الأحكام: فلا يجوز الزواج منهم، ولا أكل ذبيحتهم من الأحكام الخاصة بمن ذكروا).

صفات البهرة: يقصد البهرة زعيمهم ويدعى السلطان محمد برهان الدين. وسلاطين البهرة هم النواب، وتبتهم الدينية هي رتبة الداعي المطلق، وهم دون الأئمة رتبة، والعصمة للإمام ومن ينوب عنه من الدعاة. وهم يبنون بالمذهب الإسماعيلي، ولا يختلفون في عبادتهم عن الإمامية في شيء، إلا أنهم يختلفون مع الشيعة الإمامية في قضية الإمامة. وهم يعترفون بستة من الأئمة الاثني عشر فقط من الإمام علي حتى جعفر الصادق، ويأخذون بقية أصنامهم من سلالة إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق الذي توفي في حياته؛ ولذلك سميت الطائفة بالشيعة الإسماعيلية تمييزاً لها من الشيعة الإمامية التي تعتمد بوضعية الإمام جعفر لابنه موسى الكاظم الإمام السابع الذي لا تعترف به الإسماعيلية، ويعتقدون أيضاً أن الإمام الذي اختفى هو الطيب، وابنه هو المنتظر المهدي.

ويبلغ الدخل السنوي لزعيم البهرة الداوديين محمد برهان الدين نحو ١٢٠ مليون روبية هندية، واشترى من ضرائب الطائفة عدة فنادق منها "سندر هاوس" في بومباي، واشترى شركة كوكا كولا للمشروبات الغازية، ويتاجر بالذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة، ويأتي مدخوله من ضرائب الطائفة: فأي امرأة حامل تدفع ضريبة، وإذا وسعت تدفع ضريبة، ولزم عليها أن تأتي بالجنين إلى الداعي؛ كي يمسخ عليه وهذا فيه ضريبة، ويقال: إنه هو الذي يختار له الاسم ولا دخل لوالديه في اسم المولود وهذا فيه ضريبة أيضاً. ويلزمها أن تدفع ضريبة ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ روبية؛ كي يقرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم. وفي العيد تباع تذاكر الصلاة، فالصف الأول يكلف ١٠٠٠ روبية، والثاني ٨٠٠، وهكذا... ومن مات يدفع عنه أولياؤه ضريبة، ويكفن بضريبة، ويدفعون ضريبة أخرى لشراء صك غفران؛ ومن دفع أكثر يكتب له الصك ومعه موضع أفضل في الجنة!

يشتهر البهرة بأنهم لا يقيمون الصلاة في مساجد عامة المسلمين، بل لهم مساجدهم الخاصة تسمى جامع خانة)، وتراهم في سراويل بيضاء، أما أركان الإسلام عندهم فهي سبعة: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والولاية، والطهارة وتتضمن تحريم الدخان والموسيقى والأفلام. وهم في صلواتهم يجمعون بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ولا يصلون الجمعة بل يصلونها ظهراً، ويصلون العيد أربع ركعات ودون خطبة، ويقفون مأساة كربلاء مدة عشرة أيام، ويحتفلون بيوم غدِير خم في يوم ١٨ ذي الحجة، فهم يعتقدون أنه تمت فيه الوصاية إلى الإمام علي، فيصومون فيه ويجددون العهد للداعي المطلق والدعاة المبايعين وهم نوابه في الأقاليم. وتباع الداعي يطيعونه طاعة عمياء، وهناك عهد قديم بالولاء للإمام الطيب والإمام المنتظر. والداعي المطلق عندهم معصوم في كل تصرفاته كما سلف. ويقال عنهم بين الناس: إن ظاهريهم في العقيدة يشبه عقائد سائر الفرق الإسلامية المعتدلة، أما باطنهم فشيء آخر، فهم يصلون ولكن صلواتهم للإمام الإسماعيلي المستور من نسل الطيب عن الأمر ويقال أيضاً: إنهم يذهبون إلى مكة للحج لكنهم يقولون: إن الكعبة هي رمز للإمام. يقول الإمام القراني عنهم (المنقول عنهم الإباحية المطلقة، ورفق الحجاب، واستباحة المحظورات واستحلالها، وإنكار الشرائع، لكتنه جميعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم).

ظهور آل زنكي وآل أيوب

كانت دول العالم الإسلامي تمرقها الخلافات والصراعات الدموية عشية بدء الحملة الصليبية على العالم الإسلامي عام ٤٩١ للهجرة الموافق ١٠٩٨ للميلاد. ودعا البابا أوربان الثاني إلى «استرداد» الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. وأعلن أن كل من يشارك في هذه الحروب المقدسة تغفر له ذنوبه، وقرر أن ممتلكات المقاتلين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم، وطلب أن يُخِض كل محارب صليباً من القماش على رداءه الخارجي! ومن هنا جاءت تسميتهم (الصليبيون)، وسميت الحملات والحروب التي أعقبتها بالحملات والحروب الصليبية.

عمل الصليبيون على تجنيد أمراء الولايات والمناطق التي احتلوها أو القرية منها، وظهرت الخيانات وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و«كسب ود» الصليبيين، الذين استطاعوا، بمساعدة الخونة والعلماء، حصار بيت المقدس وإسقاطها ثم احتلالها.



الإمارات التي احتلها الصليبيون بعد حملتهم الأولى

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى واحدة بعد الأخرى، وهكذا أسست مملكة بيت المقدس الصليبية. واستطاع الصليبيون - بعد حملتهم الأولى - أن يستولوا على جزء كبير من بلاد الشام والجزيرة في المدة الواقعة من ٤٨٩هـ - ٦٩٠م إلى ٤٩٨هـ - ١١٠٥م، وأنشؤوا فيها إماراتهم الأربع: الرها، وأنطاكية، وطرابلس، وبيت المقدس.

١. إمارة الرها ٤٩٢هـ - ١٠٩٨م: وتشمل أعالي نهر دجلة والفرات، وتقرب حدودها الجنوبية الغربية من حلب، وكانت عاصمتها الرها التي توجد في بعض الخرائط باسم إديسا.

٢. إمارة أنطاكية: وتقع في الإقليم الشمالي جنوب غرب إمارة الرها،

٣. إمارة طرابلس: وهي تقع في شريط ضيق على الساحل، وهي أصغر هذه الإمارات.

٥. مملكة القدس (فلسطين): وتمتد حدودها الشرقية من قرب بيروت الحالية، ثم تتبع نهر الأردن حيث تتسع قليلاً، وتنتج جنوباً إلى خليج العقبة، وكانت عاصمتها القدس نفسها. وكان لكل إمارة من الإمارات أمير صليبي يحكمها، وكانت هناك خلافات بينهم بين الحين والحين.

وظهر نجم الإسلام البطل المجاهد الزاهد عماد الدين زنكي في خضم هذا الواقع المريع (التركماني الأصل، عربي المنشأ والتربية والتعليم واللغة والحياة).

والزنكيون (أو بنو زنكي) هم سلالة تركمانية من قبيلة (الساب يو) استوطنت شمال سوريا والعراق، حكمت ما بين ١١٢٧-١١٧٤م. مؤسس السلالة آق سنقر بن عبد الله آل ترغان، أصبح أتايكاً (قائداً عسكرياً) على حلب من قبل القائد السلجوقي.

عماد الدين زنكي موحد العراق والشام وفاتح الرها (حكم ١١٢٧-١١٤٦م):

ولد عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله آل ترغان نحو سنة ٤٧٧هـ-١٠٨٤م في أسرة تنتمي إلى قبائل "الساب يو" التركمانية الشديدة المراس. كان والده "آق سنقر" مملوك السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي (بطل معركة ملاذكرد)، وذا حظوة ومكانة عنده. واعتمد عليه السلطان في كثير من الأمور فلم يخذله آق سنقر قط، وهذا زاد في ثقته ومنزلته. تولى آق سنقر ولاية الموصل سنة ٥١٦ للهجرة بأمر الخليفة العباسي المسترشد (وبتريكية السلطان محمود بن السلطان محمد بن ملكشاه).

وعند وفاة آق سنقر، لم ينس السلطان محمود بن ملكشاه تضحية آق سنقر في سبيل الإسلام، فوجه اهتمامه نحو ابن آق سنقر الوحيد عماد الدين زنكي الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره. وهكذا نشأ عماد الدين في "حلب" في رعاية السلطان محمود السلجوقي، ثم ما لبث أن انتقل عام ٤٨٩هـ-١٠٩٦م إلى "الموصل" ليحظى برعاية القواد السلاجقة هناك الذين قربوا عماد الدين لما لمسوا فيه من مهارة قتالية متميزة. وأحبوه. وحين خرج والي الموصل على السلطان، انفصل عماد الدين عنه، وانضم إلى الوالي الجديد "مودود بك التونكي" الذي عينه السلطان محمود على الموصل، وكان ذلك مدعاة إلى إكبار السلطان له، وثقته به. خاض القائد التركماني عماد الدين زنكي إلى جانب القائد "مودود" معارك كثيرة ضد الصليبيين المحتلين في الشام والجزيرة، وقد لفت إليه الأنظار بشجاعته الفائقة ومهارته القتالية العالية.



القائد المجاهد الزاهد عماد الدين زنكي

ومع مطلع عام ٥١٧هـ-١١٢٣م استطاع السلاجقة - بفضل الخطة البارعة التي اتبعها عماد الدين - إلحاق هزيمة ساحقة بجيوش "ديبس" الخارج على الخليفة العباسي، وخلصوا الخلافة من خطر محقق، فانضم "ديبس" هذا إلى الصليبيين بعد هزيمته أمام عماد الدين، وأسهم معهم في حصار "حلب" طمعاً في الاستيلاء عليها، وعندما تهورت العلاقات بين الخليفة العباسي المسترشد والسلطان السلجوقي "محمود" في عام ٥١٩هـ-١١٢٥م كان لعماد الدين عمل كبير في إصلاح ذات البين. وبعد حل الخلافات الداخلية تفرغ عماد الدين لعملية توحيد البلاد والعباد قبل دخوله في حروب مع الصليبيين المحتل.

تولى عماد الدين زنكي الإمارة على البصرة وواسط في العراق، وبعد ظهور كفاءته في الحكة، تولى ولاية الموصل وأعمالها عام (٥٢١هـ ١١٢٧م)، واستطاع أن يحكم قبضته على كامل شمالي العراق وأجزاء مهمة من الشام. قرر زنكي توطيد دعائم إمارته الجديدة، وتدعيم جيشه، وتعزيز قدراته العسكرية والاقتصادية قبل خوض غمار المعارك ضد الصليبيين، فعكف هذا القائد المحنك على وضع إستراتيجية محكمة لتوحيد الإمارات والولايات الإسلامية الصغيرة المتناثرة والمتناحرة فيما بينها وجعلها تحت قيادة قوية، ومن ثم العمل على تهينة الأمة الإسلامية وتوحيدها قبل خوض المعركة المرتقبة، ونجح في أن يمد سلطانه إلى نصيبين وحران، وهياً نفسه لكي يقوم بحركة الجهاد ضد الصليبيين، وأدرك أن ذلك لن يتحقق ما لم تتحد القوى الإسلامية في العراق والشام، فطلع إلى حلب وكانت غارقة في الفوضى بعد وفاة أتايكها "عز الدين مسعود البرسقي".

ولتثقيف هذه الإستراتيجية، استولى عماد الدين على إمارة حلب بعد حصارها عدة أشهر وذلك في ١ محرم سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٨م: أي: بعد شهور قليلة من ولايته على الموصل، وهذا يوضح أن عماد الدين كان يملك رؤية واضحة وخطة مدونة سلفاً لتحركاته بالشام، ثم قام بعدها بضم مدينة "حماء" في السنة اللاحقة ٥٢٣ هجرية، ثم ضم مدينة سرجي ودارا ثم حصن الأثارب (كان بيد الصليبيين)، ثم عاد فضم عدة قلاع للأكراد الحميدية والبهكارية وقلة الصنور، وواصل سعيه حتى استقامت له ديار بكر وإقليم الجبال سنة ٥٢٨ هجرية. وحكم عماد الدين زنكي سيطرته على بلاد الشام عدا دمشق حاضرة الشام؛ بسبب أميرها الخائن الموالي للصليبيين (معين الدين أتر).

وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك ويحقق الانتصارات على الصليبيين وهاجم عدداً من المواقع المحيطة بها، وتمكن من الاستيلاء على خمسة منها، وتمكن من الاستيلاء على "بعرين" التي وجد الصليبيون في استيلائه عليها خطراً يهدد إماراتهم في المشرق، وقد حاول الصليبيون إنقاذ "بعرين"، ولكن حملتهم أخفقت.

ولما ازدادت قوة عماد الدين زنكي في حلب والشام خاف الصليبيون فاستعانوا بإمبراطور القسطنطينية "عمانوئيل" فوافق لنصرة أبناء دينه. وجاء الإمبراطور البيزنطي بجيوش جرارة سنة ٥٢٢ هجرية. اخترق أسيد الصغرى، ولم يستطع السلاحقة إيقاف زحفه فدخل سوريا واستولى على مدينة "بزاغة" قرب حلب، وغر بأهلها بعد أن أعطاهم الأمان، فقتلهم وسبي نساءهم. ووقعت الشام بين مطرقة الإمبراطور البيزنطي وبين سندان الصليبيين الفرنجة بالشام.

وهنا برزت مهمة عماد الدين الزنكي، فقام بإيقاع الخلاف بين البيزنطيين والفرنجة، فقد كان عماد الدين زنكي من دواهي عصره في خدعة الحرب، إذ استغل الخلاف المذهبي بين الأرثوذكس والكاثوليك للتفريق بينهما، فأرسل يخوف الإمبراطور البيزنطي مغبة تكصن الفرنجة العهود، وأنهم يترصبون به، فإن فارق مكانه الذي هو فيه فسيتخلفون عن نصرته، ثم أرسل إلى الصليبيين الفرنجة يخوفهم من إمبراطور بيزنطة ويقول لهم: إن هو ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً. وهكذا استطاع بحنكته السياسية أن يزرع بذور الشك بين الطرفين ليقتضي على التعاون بينهما، وسعى في الوقت نفسه إلى طلب النجدة والإمدادات العسكرية من مختلف أنحاء العالم الإسلامي لحرب العصابات ضد الجيش البيزنطي.

ونجحت خطة عماد الدين زنكي ووقع الخلاف بين الطرفين وانسحب الإمبراطور من الشام وترك كثيراً من أسلحته الثقيلة كالمجانيق على حالها، فغنمها جيش الشام وحرروا أسرى المسلمين، وارتفعت مكانة عماد الدين بين المسلمين وعظمت هيئته عند الصليبيين وأثبت أنه رجل المهام الصعبة.

ثم إنه استطاع أن يدعم موقفه بالاستيلاء على بعض المواقع وعدد من الحصون الخاضعة لإمارة "الرها" الصليبية، وتمكن بذلك من قطع الاتصال بين أمير "الرها" وبين حلفائه. كانت إمارة "الرها" واحدة من أهم المراكز الصليبية في المشرق؛ وذلك لقوة تحصينها، وقربها من "العراق" التي تمثل مركز الخلافة الإسلامية، وتطلّحاً إلى ما تسببه من تهديدات وأخطار للمناطق الإسلامية المجاورة لها. إذ تقع إمارة الرها في منطقة الجزيرة السورية، وهي المنطقة الواسعة الواقعة بين نهر الفرات ونهر دجلة. وقد فتحها المسلمون سنة ١٧ هجرية، و"الرها" من البلاد التي كان لها خصوصية عند البيزنطيين؛ لأنها إحدى المدن الدينية عندهم، وكانت تنتشر فيها الكنائس والصوامع، وأيضاً لها خصوصية عند المسلمين لكونها على حدود الدولة الإسلامية المشتركة مع الدولة البيزنطية، وعندما انطلقت شرارة الحملات الصليبية احتل الصليبيون "الرها" وأقاموا فيها أول إمارة صليبية في منطقة الجزيرة السورية وذلك سنة ٤٩٢ هجرية. كان أميرها الصليبي "جوسلين" قد فهم من تحركات عماد الدين زكي أنه يخطط لفتح الرها، فعمد إلى تقوية دفاعاتها والمبالغة في تحصينها وظل مقيماً في الرها لا يفارقها أبداً، على الرغم من أن زوجته وأولاده بقرنسا، ولكنه صبر على فراقهم من أجل الدفاع عن الرها.

وعزم "عماد الدين" على فتحها سنة ٥٢٩هـ، وأدرك أنه لن يتمكن من فتح "الرها" إلا إذا استدرج "جوسلين" أمير "الرها" الصليبي وقواته خارجها، فوضع خطة بارعة أتاحت له الوصول إلى مآربه: إذ تظاهر بالخروج إلى آمد لحصارها، وفي الوقت نفسه كان بعض أعوانه يرصدون تحركات أمير "الرها"، الذي سرعان ما خرج بجنوده إلى "قي باشر" (على الضفة الغربية للفرات) بعد أن اطمأن إلى اشتغال "عماد الدين" عنه بحصار آمد ليستجم ويتفرغ لمخائده. وقد كان هذا ما توقعه "عماد الدين"، فأسرع بالمسير إلى "الرها" في جيش كبير تعدادة ٢٠ ألفاً من مقاتلي التركمان الأشداء مع حشد هائل من المتطوعين العرب والأكراد، فحاصر "الرها" من جميع الجهات، وحاول التفاهم مع أهل "الرها" بالطرق السلمية، وبذل جهداً كبيراً لإقناعهم بالاستسلام، متعهداً لهم بالأمان، ولكنهم أبوا، فما كان منه إلا أن شدد الحصار عليهم، واستخدم الآلات التي جلبها معه لتدمير أسوار المدينة قبل أن يتمكن الصليبيون من تجميع حيوشهم لإنقاذ المدينة.

كان عماد الدين من أشجع الناس وأقوامهم وأجرأهم في القتال لا يجاريه أحد من جنده في ذلك، وقبل القتال وضع عماد الدين مائدته للطعام وقال: لا يأكل معي على المائدة إلا من يطعن معي غداً باب الرها؛ وهي كناية عن شدة القتال والشجاعة؛ لأن طاعن الباب يكون أول فارس في الجيش يصل إلى باب المدينة ولا يفعل ذلك إلا أشجع الناس، فلم يجلس معه على المائدة إلا صبي صغير، فقيل له: أرجع، ما أنت في هذا المقام، فقال له عماد الدين زكي القائد المربي: دعوه، فوالله إنني أرى وجهاً لا يتخلف عني. وبالفعل أثرت هذه الكلمات عن طاقة جسارة عند الصبي فكان أول طاعن وأول بطل في هذه المعركة، وبعد (٢٨) يوماً من الحصار انهارت بعض أجزاء الحصن، ثم ما لبثت القلعة أن استسلمت لقوات القائد المنصور، وفتحت المدينة في ٦ من جمادى الآخرة ٥٢٩هـ-٢٧ من تشرين الثاني ١١٤٤م، فأصدر "عماد الدين" أوامره إلى الجند بالتوقف عن القتال أو الأسر أو السلب، وأمر بإعادة جميع ما استولوا عليه من غنائم وأسلاب، فأعادوا كل ما أخذوه إلى أصحابه.

وضرب بذلك أروع مثال على الشهامة والفروسية والأخلاق الإسلامية الرفيعة. وبدأ من هوره بإعادة إعمار المدينة، فأعاد بناء ما تهدم من أسوارها، وما تهدم من بيوتها في أثناء اقتحام المدينة، وسار في أهلها بالعدل وحسن السيرة، حتى عمّ الأمان وهذات النفوس وكسب القلوب والعقول. ثم أمر بأن يحتفظ النصاري بكنائسهم وصوامعهم، وسمح لهم بإداء عبادتهم وطقوسهم الدينية بكل حرية وأمان.

كان لفتح الرها زلزال شديد في العالمين الإسلامي والصليبي، فلقد كان أعظم انتصار حققه المسلمون على

الصلبيين منذ دخولهم إلى الشام منذ ٥٠ سنة، وعادت روح الجهاد عند المسلمين وتغلبوا على الهزيمة النفسية أمام الصليبيين التي أقعدتهم عشرات السنين، وطارت شهرة عماد الدين زنكي في فتح الرها في جميع أفرق العالم الإسلامي من بغداد إلى شمال إفريقيا؛ وكتب بعضهم أن زنكي حاكم الموصل متى توفي، فإن جنة الفردوس هي مثواه بإذن الله؛ مقابل هذا الجهاد الذي باركه الله بفتح الرها.

إن فتح الرها عتوة وإسقاط هذه المملكة الصليبية الأولى التي أسست في الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى، وفتح ملحقات المملكة في منطقة الجزيرة، وشرقي الفرات، كان أجل أعمال "عماد الدين وأعظمها"، ولم يمض عامان على ذلك النصر العظيم حتى اغتيل هذا القائد المجاهد.

فكر الصليبيون في كيفية التخلص من عماد الدين زنكي، فقرروا إسناد مهمة الاغتيال إلى جماعة الحشاشين الباطنية المعروفة بذلك. عندما كان عماد الدين زنكي يحاصر إحدى القلاع المطلة على نهر الفرات واسمها "قلعة جعبر" قامت مجموعة من الباطنية بالاتفاق مع الصليبيين (بعد أن قبضوا الثمن) بالتسلل إلى معسكر عماد الدين زنكي واندسوا بين حراسه، ودخلوا عليه خيمته في الليل وهو نائم فقتلوه في ٦ ربيع الثاني ٥٤١هـ-١١٤٧م وهو غازي مجاهد في أثناء حصاره قلعة "جعبر" قتله "يرنقش" (كبير الحرس) الذي تسلل إلى مخدع عماد الدين قذبحه وهو نائم، وكان عمره يزيد على الـ ٦٠ سنة (رحمه الله).

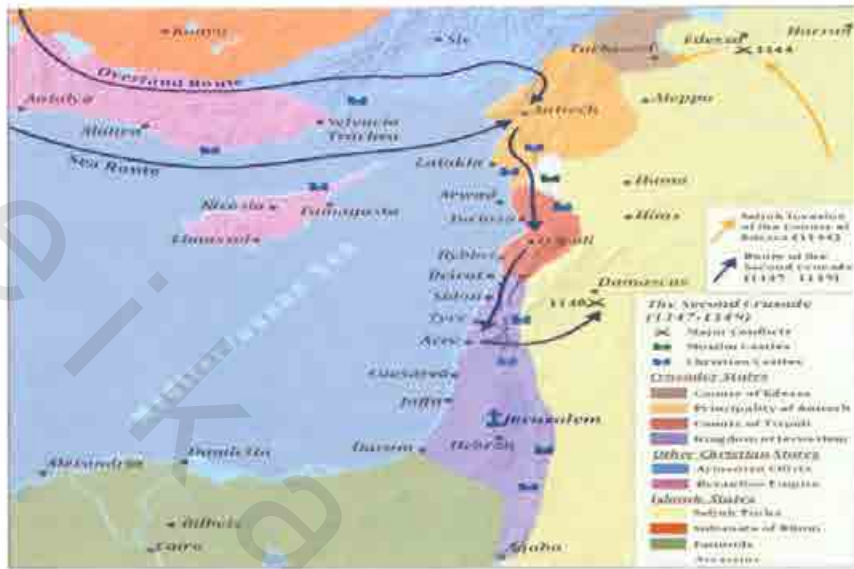
ويرى كثير من المؤرخين أن اغتيال "عماد الدين زنكي" جاء لأسباب سياسية، فقد كان في أوج انتصاره على الصليبيين المحتلين، وحقق انتصاراً آخر على المستوى الإسلامي بعد أن نجح في توحيد الصفوف وتكوين جبهة إسلامية قوية، وتأسيس جيش قوي عماده ٥٠ ألف مقاتل من التركمان والمنطوعين العرب والأكراد. ومن ناحية أخرى، فقد كانت قلعة "جعبر" على وشك السقوط بعد أن بلغ حصاره لها مدام، فضلاً على أن قاتله "يرنقش" كان من الباطنية، وقد استطاع التستر واستبطن الشر والانتظار طويلاً (على عادة الباطنية)، حتى حانت الساعة المناسبة لتنفيذ جريمة الاغتيال. وقد حاول جوسلين استغلال الفرصة واستعادة الرها بعد اغتيال زنكي، ولكن ابن عماد الدين زنكي (نور الدين محمود) هزمه في تشرين الثاني ١٤٦م، وبذلك أمن نور الدين محمود زنكي فتح الرها وصان فتح والده لها بكل صلابه، وظلت الرها تحت السيطرة الإسلامية.

قال ابن الأثير في وصفه: (كان شديد الهبة في عسكره وزعيته، عظيم السياسة لا يقدر القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خراباً من الظلم وتثقل الولاة ومجاورة الفرنجة، فعمرها وامتلاأت أهلاً وسكاناً، وكان أشجع خلق الله). وقال عنه ابن كثير الدمشقي: (وقد كان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعاً مقداماً حازماً خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نسله الرعية وأجود الملوك معاملة وأرفقهم بالعامة).

واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد"، وذفن بصفين. وخلفه ابنه سيف الدين غازي في الموصل. وخلفه ابنه نور الدين محمود في حلب، وأولاد عماد الدين ثلاثة: سيف الدين غازي، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد، وقطب الدين مودود. فملك بعده ابنه نور الدين محمود الشهيد، وسار غازي إلى الموصل.

ونزلت بالصلبيين أعظم المصائب بفقدهم أهم إمارة صليبية بالمنطقة (إمارة الرها أو أديسا، وكانت أول إمارة صليبية قامت، وأول إمارة صليبية سقطت)، فقامت الحملة الصليبية الثانية على الشام سنة ٥٤٣هـ-١١٤٥م لاسترجاع هذه الإمارة، وكانت أول حملة يقودها ملوك أوروبا، وهم لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث ملك ألمانيا.

تحركت جيوش الملكين كل على حدة في أوروبا، وبعد عبور الجيوش المناطق البيزنطية من الأناضول، هُزم كلا الجيشين على يد المسلمين السلاجقة، كل على حدة. ووصل كل من جيوش لويس وكونراد وشرادم إلى القدس عام ١٠٩٩م، ومن ثم تجمعوا وهاجموا دمشق، ولكنهم أخفقوا أخفاقاً ذريعاً. مثلت الحملة الصليبية الثانية سبباً كبيراً للصليبيين، وتصدراً للإسلام باسترجاع القدس، وأدت إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي.



الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) والدويلات الصليبية عام ١١٣٥م

نور الدين محمود زنكي صاحب مشروع توحيد العراق والشام ومصر (٥١١-٥٦٩هـ/١١١٨-١١٧٤م):

٢٠. إن أفضل تركة خلفها عماد الدين زنكي هو ابنه نور الدين محمود زنكي. ولد نور الدين محمود (بعد نحو ٥١١هـ / شباط ١١١٨م).

وطوال ٢٨ عاماً من حكمه (١١٤٦-١١٧٤م)، وضع نور الدين زكي هدفه الأساسي في تحرير بلاد المسلمين واستردادها وتوحيدها تحت راية الإسلام، واستكمال ما بدأ به والده الشهيد، أخذاً بالأسباب من إعداد السدة والعقائد ومن توحيد المسلمين، مرتقياً بهم في جوانب الحياة المختلفة، وفق منظومة تصور إسلامي متكامل؛ لإعادة أمجاد المسلمين وطردهم المحتلين من بلادهم.

ونور الدين محمود زنكي (١١١٨-١١٧٤م) هو الابن الثاني لعماد الدين زنكي الذي أسس دولة الموصل وسمت جزيرة الفرات وحلب، وحارب الصليبيين وحرر الرها من الصليبيين وخربها سنة ١١٤٦، وهزم جيوش الحملة الصليبية الثانية لدى محاولتها الاستيلاء على دمشق سنة ١١٤٨، واستولى على العديد من معاقل الصليبيين، وأهمها: قلعة حارم بين حلب وأنطاكية، كان مثالا للحاكم القاضل، بنيت في عهده المدارس والمساجد والبيمارستانات، وازدهرت في أيامه دمشق عمرانياً واقتصادياً. من آثاره فيها: دار الحديث، والبيمارستان النوري، وعمام نور الدين.

بعد وفاة عماد الدين زنكي اقسام ولداه: سيف الدين غازي ونور الدين محمود دولته، فكانوا جميعاً من رجال الجهاد **وفرسانه** (على تفاوت في ذلك بينهم)، فاستقر الأول بالموصل وثبت اقدامه فيها، وانفرد الآخر بحكم **حب**، وكان الحد الفاصل بين املاك الأخوين هو نهر الخابور. وكان كلا الأخوين مذهباً لما وجهته له الأقدار،

فكان سيف الدين غازي صاحب سياسة وأناة، على حين كان نور الدين مجاهداً مخلصاً، جياش العطفة، صادق الإيمان، ميالاً إلى جمع كلمة المسلمين وإخراج الأعداء من ديار المسلمين، مفطوراً على الرقة ورهافة الشعور: وهو ما جذب الناس إليه، وحبب القلوب فيه.

وكان على نور الدين أن يواجه سياسة أبيه في جهاد الصليبيين، يدفعه إلى ذلك طبيعته المقطرة على حب الجهاد، وملازمته آياه في حروبه معهم، وقرب إمارته في حلب من الصليبيين، جعله أكثر الناس إحساساً بالخطر الصليبي. كان نور الدين محمود يقول: "نحن شحن (شرطة) الشريعة نمضي أوامرنا". وقال أيضاً: نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين، ونمنع عنه ما يتقاضيه؟ وهو الأصل".

تمكن نور الدين من الاستيلاء على دمشق عام (١١٥٤م). وبعد وفاة أخيه سيف الدين (١١٤٦-١١٤٩م) ضم نور الدين شمال العراق إلى دولته ثم اتخذ الموصل عاصمة له. تميز عهده بتطور حركة العمران وازدهار الاقتصاد وتوسع رقعة إمارته. وتمكن من أن يمد حدوده حتى مصر، فقد قضى قائد جيشه صلاح الدين على الخلافة الفاطمية فيها سنة ١١٧٤م. ثم استولى صلاح الدين والأيوبيون على الحكم من إسماعيل بن نور الدين زنكي (في حلب)، معلناً ظهور نجم الأيوبيين بعد أن كانوا في خدمة الزنكيين سنوات طويلة.

أمر بإلغاء كل الضرائب المكوس والضرائب التي كانت تؤخذ من الشعب، وذلك عندما قصص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد القيسراني الشاعر أنه رأى في منامه كأنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوس والضرائب عن البلاد، وقال له: هذا تأويل رؤياك، وكتب إلى الناس لينكون منهم في حل مما كان قد أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذّب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم، وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول: في سجوده: (اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود النكس).

وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: "كان يتحرى العدل، وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع شكوى المظلوم، ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها".

قال ابن الأثير: "وهو أول من ابتنى داراً للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل: أربع مرات، وقيل: خمساً. ويحضر القاضي والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس ويستفهمهم ويخاطبهم بنفسه، فيكشف الظالم، وينصف المظلوم من الظالم، وكان سبب ذلك أن أسد الدين شيركوه بن شاذي قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك والأموال والمزارع والقرى، وربما كان قد ظلم نوابه جيرانه في الأراضي والأسلاك، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعده على جميع الأمراء إلا أسد الدين هذا فما كان يهجم عليه، فلما ابتنى نور الدين دار العدل تقدم أسد إلى نوابه أن لا يدعوا لأحد عنده ظلامة، وإن كانت عظيمة، فإن زوال ماله عنده أحب إليه من أن يراه نور الدين يعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك، فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة، ولم ير أحداً يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين شكراً لله، وقال: الحمد لله أن أصحابنا ينصفون من أنفسهم".

كان نور الدين يصلي كثيراً بالليل، وحكي عنه أنه يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار: فإذا جـ

الليل وصلى العشاء نام، ثم يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة والدعاء باكراً، ثم يظهر للركوب ويستغل بمهام الدولة. قال عنه ابن كثير في البداية والنهاية: "وقد كان - رحمه الله - حسن الخط كثير المطالعة لكتب الدينية، متبعاً الآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محباً فعل الخيرات، صيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل: إن أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا، ولم يسمع منه كلمة فحش قط، لا في غضب ولا في رضى، وكان صموتاً وقوراً".

وكان لا يلبس الحرير، ويأكل من كسب يده بسيمه ورمحه. وكان نور الدين يستقرض من الشيخ عمر الملا من الموصل - وكان من الصالحين الزاهدين - في كل رمضان ما يفطر عليه، ويرسل إليه بفتيت وورق فليقطر فيه جميع رمضان. وكان يدعو قائلاً: (اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً من الكلب محمود حتى ينصر)، وكان يدعو أيضاً: (إني يا رب إن نصرت، فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق النصر).

قال ابن الأثير: "لم يكن يعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين يحمص قد اشتراها مما يخصه من المغنم، فكان يقتات منها، وزاد أمراته من كراهاها على نصتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال فكان يتناوله ولا يزيد عليه شيئاً، ولو مات جوعاً، وكان يكثر اللعب بالكرة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك فقال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين أخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد)".

جهاده ضد الصليبيين: استهل نور الدين حكمه في سوريا بالقيام ببعض الهجمات على إمارة أنطاكية الصليبية، واستولى على قلعة عدة في شمال الشام والساحل السوري، ثم قضى على محاولة "جوسلين الثاني" لاستعادة اثرها التي فتحها عماد الدين زنكي، وكانت هزيمة الصليبيين في الرها أشد من هزيمتهم الأولى في الكبي، وعاقب نور الدين من خان المسلمين من أرمن الرها، وخاف بقية أهل البلد من المسيحيين على أنفسهم فغادروها.

كان نور الدين دائم السعي إلى استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشام وشمال العراق وكسب ودها وحداقتها؛ لتستطيع مواجهة العدو الصليبي، فعقد معاهدة مع معين الدين أنر حاكم دمشق سنة (٥٤١هـ - ١١٤٧م) وتزوج ابنته، فلما تعرض أنر لخطر الصليبيين وكانت تربطه بهم معاهدة وحلف، لم يجد غير نور الدين يستجير به فخرج إليه، وسارا معاً واستوليا على بصرى وصرخند في جنوبي سوريا قبل أن يقعا في يد الصليبيين، ثم غادر نور الدين دمشق حتى يبعث في قلب حاكمها الأمان، وأنه لا يفكر إلا في القضاء على الصليبيين فتوجه إلى حصون إمارة أنطاكية، وفي عام ٥٤٢هـ افتتح نور الدين محمود حصن أرتاح وغيرها (كفر لاثا وبصرفوت) من يد الفرنجة.

وعلى أثر ذلك ملك الرعب قلوب الصليبيين من نور الدين، وأدركوا أنهم أمام رجل لا يقل كفاءة وقدرة عن أيهم عماد الدين، وكانوا قد ظنوا أنهم قد استراحوا بموته، لكن أملهم تبدد أمام حماسة ابنه وشجاعته، وكانت سنة ٥٤٩هـ، لكنه أوتي من الحكمة والتدبير خيراً كثيراً.

وصلت الحملة الصليبية الثانية على الشام في سنة (٥٤٢هـ - ١١٤٧م) برعاية لويس السابع وكونراد الثالث، لكنها أخفقت في تحقيق أهدافها، وعجزت عن احتلال دمشق أهم مدن الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى صبر

المجاهدين واجتماع كلمة جيش المسلمين ووحدة صفهم، وكان للقوات التي جاءت مع سيف الدين غوري وأخيه نور الدين أكبر الأثر في إخفاق تلك الحملة.

واستغل نور الدين هذه النكبة التي حلت بالصلبيين وضياع هيبتهم للهجوم على أنطاكية بعد أن ازداد نفوذهم في الشام، فهاجم في سنة (٥٤٤هـ-١١٤٩م) الإقليم المحيط بقلعة حارم الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي، ثم حاصر قلعة إنب، فنهض "ريموند دي بواتيه" صاحب أنطاكية لتجديتها، والتقى الفريقان في (٢١ صفر ٥٤٤هـ-آخر حزيران ١١٤٩م) في معركة "إنب" وكسرههم الكسرة المشهورة، وقتل منهم ألفاً وخمسة مئة وأسر مئتين، وعاد إلى حلب بالفنائم العظيمة والأسارى، وبعث بعضها إلى أخيه مودود...

وكان من جملة القتلى صاحب أنطاكية وغيره من قادة الفرنج، وأُرسلت خوذة الأمير الصليبي ريموند المرصع بالفضة إلى الخليفة العباسي في بغداد. وكان فرح المسلمين بهذا النصر عظيماً.

وفيهما يقول ابن القيسراني الشاعر:

وكم له من وقعة يومها	عند ملوك الشرق مشهود
حتى إذا عادوا إلى مثلها	قالت لهم هيبتهم عوداً
مناقب لم تلك موجودة	إلا ونور الدين موجود
وكيف لا نثني على عيشنا الـ	محمود والسلطان محمود

وفيهما افتتح نور الدين محمود أيضاً حصن هاميا، وكان على حماة وحمص منه ضرر عظيم.

ضم دمشق: آمن نور الدين بضرورة وحدة الصف، وانتظام القوى الإسلامية المبشرة بين الفرات والبحر ووقوفها كالبنيان المرسوم أمام أطماع الصليبيين، وكانت دمشق أهم المدن وتقف حجر عثرة في طريق تلك الوحدة، فعرم نور الدين على ضمها، وكان "معين الدين أثير" صاحب السلطة الفعلية في دمشق يرتبط بعلاقات ومعاهدات مع الصليبيين، وبعد وفاته قام "مجير الدين أيق" باستلام الحكم بدمشق، وجرى على سياسة أثير في التعامل مع الصليبيين، بل أظهر ضعفاً ومذلة في التعامل معهم، وأعرض عن وحدة الصف وجمع الكلمة، وبلغ البؤس به أن وافق على أن يدفع أهل دمشق ضريبة سنوية للصليبيين مقابل حمايتهم، وصار رسل الفرنجة يدخلون دمشق لجمع الجزية المفروضة دون أن يستشعر حاكمها خجلاً أو هواناً.

عاد الملك العادل نور الدين محمود إلى حصار دمشق في عام ٥٤٦هـ ووقع له مع مجير الدين صاحب دمشق أمر حتى استعجد مجير الدين بالفرنج، فرحل عنها نور الدين، ثم نازلها وتراسل على يد الفقيه برهان الدين البلخي وأسند الدين شيركوه الكردي وأخيه نجم الدين أيوب، ثم تحالف نور الدين ومجير الدين على أمر ورحل عنه.

ولم يسكت نور الدين على هذا الوضع المهيّن، واستغل شعور الغضب الذي أبداه الدمشقيون، فملك دمشق في ٥٤٩هـ من الأمير مجير الدين وساعده في ذلك بعض أهل دمشق على مجير الدين أيق: لزيادة ظلمه ومصادراته، فلما تحرك نور الدين لطلب دمشق، وافقه أهلها لما في نفوسهم من مجير الدين، وبالفعل نجح بمساعدتهم في الإطاحة بمجير الدين أيق وضم دمشق إلى دولته في سنة ٥٤٩هـ-١١٥٤م. كانت هذه الخطوة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية؛ فلقد توحدت بلاد الشام تحت زعامة نور الدين: من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً، واتزمت الجبهة الإسلامية والجبهة الصليبية التي كانت تستغل حالة التشتت والتشرذم لمصلحتها وتوجه ضرباتها إلى دولة الإسلام حتى إن نور الدين لم يستطع تجدة عسقلان عندما هاجمها الصليبيون سنة (٥٤٨هـ-١١٥٢م): لأن دمشق كانت

تسبب حائلاً دون تحقيق ذلك. بعد ضم نور الدين دمشق، صارت عاصمة الدولة وموحدة بلاد الشام من الشمال إلى الجنوب والشرق، واستقر نور الدين زنكي فيها، وانطلق منها لفتح مزيد من البلاد في الجنوب وتوسيع ملكه.

ضم مصر: كان الوزير طلائع بن رزيق وزير الخليفة العبيدي، وبعد نجاح نور الدين في ضم دمشق وإحكام سيطرته على بلاد الشام، لم يعد أمام الصليبيين للغزو والتوسع سوى طريق الجنوب؛ ولذا تطلع الصليبيون إلى مصر. صفها الميدان الجديد لتوسيعهم، وشجعهم على ذلك ضعف الدولة العبيدية الفاطمية في مصر، فاستولوا على عسقلان، وكان ذلك إيذاناً بمحاولتهم غزو مصر، مستغلين الفوضى في البلاد. وتحولت نياتهم إلى عزم، فقد قام تدوين الثالث ملك بيت المقدس بغزو مصر سنة (٥٥٨هـ - ١١٦٢م) محتجاً بعدم التزام الفاطميين دفع الجزية له، فشرع في حملته خسرت وأجبر على الانسحاب.

أثارت هذه الخطوة الجريئة مخاوف نور الدين، فأسرع بتن حملات على الصليبيين في الشام حتى يشغلهم عن استعداد لغزو مصر، ودخل في سياق مع الزمن للفوز بمصر وضمها إلى ملكه في الشام، فأرسل عدة حملات من دمشق تحت قيادة أسد الدين شيركوه وبصحبه ابن أخيه الشاب الياق صلاحي الدين الأيوبي. ابتدأت من سنة (٥٥٥هـ - ١١٦٤م) واستمرت نحو ٥ سنوات، وخسرت عدة مرات؛ بسبب خيانة شاور الوزير الأول للخليفة الفاطمي ومحاوئه مع الصليبيين والفساد المتفشى، ولكن أسد الدين لم يتراجع، ففي كل مرة كان يعيد تجهيز جيشه وينطلق من جديد بأواخر نور الدين في دمشق حتى نجحت بعد سياق محموم مع الصليبيين في الظفر بمصر سنة (٥٦٤هـ - ١١٦٤م)، وتولى شيركوه الوزارة للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، على أنه لم يلبث أن توفي بعد شهرين فخلّفه في الوزارة صلاح الدين الأيوبي، فانضمت مصر إلى ملك نور الدين محمود في الشام.



فارس مسلم يرمي فارساً صليبياً ويصرعه

معركة تل حارم التاريخية: هاجم الصليبيون في سنة ٥٥٨هـ جزءاً من جيش نور الدين زنكي حاكم حلب - ومحرر الرها - على حين غفلة، فأكثروا فيه القتل، ونجا نور الدين في اللحظة الحاسمة وهرب، وقد عرفت هذه المعركة بـ "يوم البقيعة"، ولحق به من سلم من الجند حتى اجتمعوا به. وكان مما قاله له بعضهم: "ليس من الرأي أن نقيم هاهنا فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا فنؤخذ ونحن على هذه الحال، فقال لهم: إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم. ووالله، لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وشار الإسلام". وكان الفرنج قد عجزوا ملاحقته إلى حمص بعد انتصارهم؛ لأنها كانت أقرب البلاد إليهم، ولما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم فاعزوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها، فراسلوه يطلبون منه الصلح فلم يجيبهم.

وبعده بدأ نور الدين - رحمه الله - بتجهيز قواته استعداداً لمواجهة الفرنج والأخذ بالثأر، وكان قد خصص آمالاً من بيت المال ينفقها على العلماء والعباد والفقراء، فقال له بعض أصحابه لما رأى كثرة إنفاقه: "لو استعنت بهذه

الاموال في هذا الوقت لكان اصلح. فغضب عليهم وقال: "والله اني لا ارجو النصر الا باولئك، فانما ترزقون وتتصرون بضعفائكم. كيف اقطع صلاة قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي يساهم لا تخطئ، وأصرفها على من لا يقاتل عني إلا إذا رأيته يساهم قد تصيب وقد تخطئ؟ وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم؟"

وخرج الفرنج من عسقلان في العام الثاني سنة ٥٥٩ هجرية لقتال أسد الدين شيركوه بمصر، فاستغل نور الدين فرصة خروجهم وأرسل إلى الأمراء المسلمين يطلب العون والنصرة فجاؤوا من كل فج، وكتب إلى الزهاد والعباد يستمد منهم الدعاء، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزو والجهاد في سبيل الله.

وأخذ في الاستعداد بقوة لفتح تل حارم وقلعتها الحصينة التي تتحكم في الطريق بين أنطاكية وحلب وحمص (نقع الآن في محافظة إدلب بسوريا). وكتب نور الدين أمراء الشام لياتوا بجنودهم، فأرسل إلى أمير الموصل والجزيرة، وإلى أمير ماردين وأمير كيفا، فاجتمعت الجيوش الإسلامية وتوجهت لحصار تل حارم. فحاصره ونصب المجانيق عليها. وجاءت جموع الصليبيون، خاصة أمراء الساحل، وبالفوا في تقوية جيوشهم وحشد أبطالهم وشجعانهم وزيهاتهم وفسلوسهم، والجميع تحت قيادة أمير أنطاكية «دي كورتناي» ومعه شيطان «فرنج ريمون الثالث» أمير طرابلس أشد الناس شكيمة على المسلمين، وأمير الأرمن، واستعدوا للدفاع عن تل حارم. وقبيل المعركة انفرد نور الدين بنفسه تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل، ومرتج وجهه وتضرع، وقال:

(يا رب! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم اعداؤك: فانصر أولياءك على اعدائك. أيش فضول محمود في الوسط؟)؛ يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إلا كان غير مستحق للنصر. وقال: (اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر)

والتقى الجيشان الإسلامي والصليبي عند تل حارم في يوم ليلة القدر المباركة: أي: يوم ٢٦ رمضان سنة ٥٥٩هـ-٢٢ آب ١٦٤م، وقد وضع نور الدين خطة ذكية في القتال؛ تقوم على استدراج فرسان الصليبيين لمطاردة وهمية مع ميمنة المسلمين التي ستتهزم من امامهم، فينفرد بقية الجيش الإسلامي بمشاة الجيش الصليبي، فإذا فرغوا منهم، استدازت ميمنة المسلمين المنهزمة وعادت إلى القتال، فيقع فرسان الجيش الصليبي في كعاشة وهم ما نجح بالفعل. وكان انتقام نور الدين من الصليبيين رهيباً، إذ قتل منهم عشرة آلاف صليبي، وأسرى عشرة آلاف آخرين أو يزيد، واستعاد المدينة من قبضتهم. ووقع في الأسر عظماء الأعداء وقادتهم، مثل أمير أنطاكية «دي كورتناي»، وأمير طرابلس «ريمون الثالث»، و«رينالد دي شاتيون» المعروف بأنراط، وعقد الداوية، وفرسان المعبد وحاكم قيليقيا البيزنطي (عدا أمير الأرمن الذي لم يؤسر). وفي اليوم الثاني، استولى نور الدين على حارم بعد أجلى الفرنج عنها، وكان ذلك فتحاً كبيراً ونصراً مبيناً أعاد إلى المسلمين الهبة في قلوب أعدائهم، وأعز الله جنده وأولياءه في هذا الشهر المبارك. وكان يوماً عظيماً انكسر به الصليبيون مدة طويلة.

وفتح الملك العادل نور الدين محمود بن زكي الشهيد بانياس عنوة في سنة ٥٦٠هـ، وكان معه أخوه نصير الدين فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فقال له أخوه نور الدين: (لو كشف عما أعد لك من الأجر، لتميت ذهاب الأخرى)، فحمد الله على ذلك.

ونجح صلاح الدين في مصر في إقامة الأمن واستتباب الأمور وتثبيت أقدامه في البلاد، وجاءت الفرصة المناسبة لإسقاط الدولة العبيدية: فقطع الدعاء للخليفة الفاطمي ودعا للخليفة العباسي في أول جمعة من سنة ٥٦٧هـ-أبيل ١١٧١م). كان لدخول مصر تحت حكم دولة نور الدين محمود ذوي هائل، لا في مملكة بيت المقدس وحدها بل في الغرب الأوروبي كله، وارتفعت الأصوات لبعث حملة جديدة تعيد إلى الصليبيين في الشام هيبتهم وسفاهتهم، وتوجه

لمصر ضربات قوية، غير أن حملتهم على مصر لم تحقق أهدافها؛ بسبب يقظة صلاح الدين في مصر، ونجاح نور الدين في ضم مصر إلى لحمه العالم الإسلامي، يكون قد حقق الحلقة الأخيرة من حلقات جبهة الجهاد الإسلامي الموحد تمهيداً للضربة القاضية.

وفاته: بينما كان نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر، فاجأته الحمى، واشتد به المرض حتى لقي الله في ٢٦ شوال ٥٦٩هـ - ١٥ أيار ١١٧٤م، وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وتوفي ودفن في دمشق. قال ابن تغري في "الأنجم الزاهرة":

(قال ابن عساكر: "وُلِدَ سنة ٥١١هـ وكان معتدل القامة، أسمر اللون، واسع الجبهة، حسن الصورة، لحيته شعرات خفيفة في حنكه، ونشأ على الخير والصلاح. وكان زكياً يقدمه على أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة. ورح في أيام سلطنته نيفاً وخمسين حصناً).

قلت: ومصر أيضاً من جملة فتوحاته، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه في الأحرار والعباد، ولولادة أيّش كان صلاح الدين أختى ملك مصر من أيدي تلك الرافضة من بني عبيد خلفاء مصر وقوة بأسهم! وكان ابتداء مرضه أنه خنق ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر فهنيئ بالعيد والظهور، فقال العماد الكاتب - رحمه الله -:

عيدان فطر وظهر
كلاهما لك في
فتح قريب ونصر
ه حقا هنا وأجر

فمرض بعد عوده من صلاة العيد بالخوانيق، وما كان يرى الطب على قاعدة الأثرak فأشير عليه بالفصد في أوى مرضه فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، فمات يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال، ودفن بالقلعة ثم نقل إلى مدرسته التي أنشأها مجاورة الخواصين بدمشق، وعاش ثمانياً وخمسين سنة. وكانت سلطنته ٢٨ سنة و٦ أشهر، وجاء العماد الكاتب عدة مرات، ومن ذلك قوله:

يا مَلِكاً أيامه لم تزل
ملكت دُنْيَاكَ وخلفتها
لفضله فاضلة فأخره
وسرت حتى تملك الآخرة

قال أبو اليسر شاذان بن عبد الله التتوخي المعري: تعدى بعض أمراء صلاح الدين بن أيوب على رجل وأخذ منه، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد، فجاء إلى قبر نور الدين وشق ثيابه وحشا التراب على رأسه وجعل يستغيث: يا نور الدين أين أيامك! ويبكي.

فبلغ صلاح الدين فاستدعاه وأعطاه ماله فأزداد بكاءه، فقال له صلاح الدين: ما يبكيك وقد أنصفناك. فقال: إنما أبكي على ملك أنصفت ببركاته وبعد موته، كيف يأكله التراب ويفقده المسلمون! انتهى.

كان لموت نور الدين محمود رجة عنيفة في العالم الإسلامي، وشعر الناس بحجم الخسارة وعظم المصيبة التي حلت بهم.

أثار نور الدين في التاريخ: كان نور الدين مؤمناً بالإسلام وعظمت: وهو ما جعله يحقق ما عجز عنه غيره ممن كانوا أوسع منه بلداً وأعظم مالا وثققة، ولم يكن يحارب الصليبيين على أنهم نصارى بل على أنهم أجاناب عن

بلاد العرب والمسلمين جاؤوا لاحتلال الأرض وتدنيس المقدسات؛ ولذا لم يمس نصارى بلاده بسوء، بل كانوا عند مواطنين لهم حق الرعاية الكاملة، فلم يهدم كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً.

ولم يشغله الجهاد وتوحيد الصف عن إقامة المدارس والمساجد، حتى بلغت مدارسه ومساجده ألقاباً، لا يحلو منها بلد دخل تحت سلطانه. وكان إذا أنشأ مدرسة أوسع النفقة في بنائها، واجتهد في اختيار شيخها، وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة، وكانت مدارسه تُعنى بالقرآن والحديث، وكان له شغف بالحديث وسمعه من أعلام المحدثين، وأجازهم بعضهم بالرواية.

وتوسع في إقامة البيمارستانات في كل بلدة تحت حكمه إلى جانب إنشاء المدارس، وجعلها للفقراء الذين تمكنهم دخولهم من الاستعانة بالأطباء والحصول على الدواء. وحرص على إقامة الخانات على الطرق، لينزل بها المسافرين للراحة أو المبيت، وجعل عليها من يحرص عليها ويحافظ على زائريها. وكان نور الدين مؤمناً صانع الإيمان، ومجاهداً عظيماً، وزاهداً متصوفاً لا ينأى إلا منتصف الليل ثم ينهض فيتوضأ، ويقبل على الصلاه والدعاء، حتى يقبل الصباح فيصلي ثم يأخذ في شؤون دولته. ولم يكن له راتب يتقاضاه؛ لجهده في أبهة الحكيم والسلطان، وإنما كان يأكل ويلبس من ملأه له كان قد اشتراه من ماله، ولم يكن له بيت يسكن، وإنما كان مقامه في غرفة في قلعة البلد الذي يحل فيه.

تشبيته مذهب السنة والجماعة: قال عنه ابن كثير: "كان يقوم في أحكامه بالمعاملة الحسنة واتباع الشريعة المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمان البدعة".

في حلب: إن كان لبني حمدان فضل في مقارعة الروم، فالفضل يذكر لأهل الفضل. ولكن بني حمدان قد ضعفوا وكانوا يعتقون المذهب الإمامي، وقد أضاف سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦-٣٨١هـ / ٩٤٤-٩٧٦م) للأذان عام ٤٦٧هـ-٩٧٧م عبارة (حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)، واستمر الأذان على ذلك في عهود حكم آل مرداس وآل عقيل في حلب. وازداد نفوذ الشيعة الإسماعيلية زمن رضوان بن تقي؛ لذا كان المذهب الشيعي متغلغلاً في حلب؛ لذلك قام نور الدين بالخطوات الآتية:

- ١- أزال السلطان نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٤٣هـ من حلب الأذان بـ (حي على خير العمل)، سبب الصلابة بها، وقال: (من عاد إليه قتلته)، فلم يعد أحد. كان ذلك في رجب عام ٥٤٣هـ-١١٤٨م؛ أي: بعد عشرين من دخوله حلب واستقراره فيها. فهاج الإسماعيلية وماجوا ولكن سرعان ما سكنوا خوفاً من ردة فعل السلطان.
- ٢- قام بعد ذلك بإبعاد بعض زعماء الشيعة (الذين يثيرون الفرقة بين المسلمين) عن حلب، منهم والد المرح ابن أبي طي.
- ٣- أنشأ المدارس لتدريس العلوم الإسلامية إحداهما حنفية وهي المدرسة الحلاوية (٥٤٣هـ-٨-١١م)، وأسعد التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي الذي استدعاه من دمشق، والمدرسة النورية الكبرى، والمدرسة التورية الصغرى (٥٤٤هـ-١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي، وتولى التدريس فيها قطب الدين النيسابوري. والمدرسة العسرونية والمدرسة الشيعية وكلاهما مدارس شافعية أيضاً.
- أوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية.
- أنشأ خوانيق للصوفية، وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة.
- كان أول من أنشأ داراً للحديث.

دمشق - الشام: كانت دمشق العاصمة وأهم المدن في عهد نور الدين زنكي، وقد غني بإنشاء كثير من المباني التي تحمل اسمه مثال:

- أنشأ في دمشق مدارس التعليم الشرعي وركز اهتمامه على المذهبين الحنفي والشافعي، فأنشأ للحنفية المدرسة النورية الكبرى والمدرسة النورية الصغرى. وأنشأ المدارس للمذهبين المالكي والحنبلي.
- بنى أيل دار للحديث وأكبرها، ووكل أمرها إلى الحافظ الكبير ابن عساكر.
- بنى دوراً للأيتام لتخريج العلماء وخصص لها الأوقاف الكثيرة.

في مصر: لم يفرض السلطان نور الدين محمود مذهب السنة في مصر بالقوة على حساب الشيعة الإسماعيلية على الرغم من قدرته على ذلك عن طريق وزيره صلاح الدين الأيوبي، وإنما جرى الرفق بالشيعة وتوحيد الأحكام الإسلامية في مصر مع باقي الدولة بهدوء وروية.

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، موحد العراق والشام ومصر ومحرر بيت المقدس (٥٢٢-٥٨٩هـ/١١٣٨-١١٩٣م)

لا يمكن التطرق إلى سيرة البطل صلاح الدين دون معرفة عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي الدويني، المولود في بلدة "دوين" أطراف أذربيجان عام ٥٠٠هـ تقريباً، وهو كردي الأصل، وشيركوه بالعربية: أسد الجبل، فشير بكردية: أسد، وكوه: جبل، نشأ، هو وأخوه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) بتكريت، لما كان أبوهما شاذي "ومعناها فرحان" نقيب قلعتهما، وكان نجم الدين أسد من أسد الدين، ويغلب عليه العقل والحكمة والتؤدة، في حين كان أسد الدين كالثهاب الحارق لا يصبر على عدوان حرمان أو انتهاكها. ولم يكن الأيوبيون مماليك، قل صاحب مائة الزمان: "وهذا من غلطات ابن القادسي ما كان شاذي مملوكاً قط، ولا جرى على أحد من بني أيوب رقاً، وإنما خدم شاذي بهروز الخادم فاستنابه بقلعة تكريت..." ونجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) هو الأخ الكبير لأسد لدين شيركوه، وهما من الأكراد الروادية وهو الأصح.

قدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه إلى العراق وخرجا الأمير مجاهد الدين بهروز بتكريت (وكانت تكريت لبهرورز أعطاها له السلطان مسعود ابن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي وولاه شحنة العراق). فأقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه أسد الدين إلى أن انهزم الأتابك زنكي بن آق سنقر (والد عماد الدين زنكي) من الخليفة المسترشد في سنة ٥٢٦هـ. ووصل إلى تكريت وبها نجم الدين أيوب فأقام له المعابر بالسفن، فغير زنكي "دجلة" من هناك وبالع نجم الدين في إكرامه فرأى له زنكي ذلك. وأقام نجم الدين بعد ذلك بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز. وسببه أن نجم الدين كان يرمي يوماً بالنشاب فوقع نشابة في مملوك بهروز فقتلته من غير قصد. فاستحى نجم الدين من بهروز، فخرج هو وأخوه إلى الموصل (ويقال: إن بهروز هو الذي أخرجهما؛ لأنه كان يكره زنكي).

ورحلوا عن قلعة تكريت سنة ٥٢٢هـ في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين يوسف بن أيوب. قرر الأخوان التوجه إلى أمير الموصل "عماد الدين زنكي" والالتحاق بخدمته: فساروا إليه فأحسن استقبالهما وشكر صنيعهما معه ومع والده، وضمهما إلى أمرائه وقادته وبالع في إكرامهما وأقطعهما أقطاعاً حسنة، وجعل نجم الدين والياً على بعلبك، وأسد الدين من مقدمي جيوشه، إذ كان عماد الدين زنكي خبيراً بمعادن الرجال.

ظل أسد الدين شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي، وخاض الحروب معه ضد الصليبيين، وكان معه يوم فتح الرها. وكان عماد الدين يحبه ويقدره؛ لأنه كان مثله بطلاً شجاعاً لا يهاب الموت، وظل هكذا حتى كان معه في مفسكره ليلة أن قُتل عماد الدين عام ٥٤١هـ. وعندها قام أسد الدين شيركوه بعمل في غاية الأهمية، ذلك أنه حفظ معسكر المسلمين من الفوضى التي تحدث عادة عند مقتل القائد، ثم قام بإعطاء خاتم الملك الخاص بعساك الدين لولده نور الدين محمود زنكي كناية عن خلافته لأبيه الشهيد، ثم قام بحراسة نور الدين محمود حتى وصل سالماً آمناً إلى مدينته "حلب"، فعرف نور الدين هذا الجميل لأسد الدين، وصار من أقرب الناس إليه.

ومن ذلك اليوم أصبح أسد الدين شيركوه قائد جيوش نور الدين محمود الأمير الجديد على دمشق والشام وأصبح أخلص أمراء الجيوش الشامية وأقواهم، ورجل المهام الصعبة الذي يعتمد عليه نور الدين محمود في النوازل وصعاب الأمور، وكانت له المواقف المشهورة والبطولات المشهورة.

الأسد المعلم: كان أسد الدين شيركوه الأستاذ الأول والمعلم الحقيقي والمكتشف البارع لقدرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ومواهبه أيضاً، وذلك منذ كان صلاح الدين فتى يافعاً، فقد رأى فيه شيركوه، بعين الخبير الفاحص، أن الفتى الصغير يجمع بين حكمة أبيه نجم الدين أيوب، وشجاعة عمه أسد الدين شيركوه، وزهد أميره نور الدين، وهي خصال ثلاث كفيلة أن ترشح هذا الفتى للقيادة. وتعهد الأسد المعلم شيركوه رعاية ابن أخيه وتدريبه على فنون القتال وقيادة الجيوش وأساليب إدارة المعارك دفاعاً وهجوماً، وتولى تعليمه فنون السياسة والمناورة والمفاوضة، حتى نضج الفتى اليافع وصار شاباً قوياً يصحب عمه في كل مكان وفي مدن الشام، وصل بهم منزلة الذراع اليمنى لأسد الدين شيركوه، ومن لا يعرفهما يظن أن صلاح الدين هو ابن أسد الدين شيركوه، ولعل تربية صلاح الدين وتدريبه هو أفضل أعمال أسد الدين شيركوه وخير تركه للأمة الإسلامية.

الأسد فاتح مصر: كان لأسد الدين شيركوه رؤية ثقافية في ضرورة توحيد العالم الإسلامي لئلا تنصار ضد الوجود الصليبي، وفي ضرورة ضم الديار المصرية إلى الشام وضرورة فتحها وإزالة الدولة العبيدية الإسماعيلية الخبيثة (التي تسمى زوراً بالفاطمية) التي تسببت في ضياع بيت المقدس سنة ٤٩٢ هجرية؛ لذلك كان شيركوه دائم الإلحاح على نور الدين ملك دمشق وحلب والشام لكي يفتح مصر؛ ولذلك كان نور الدين يترقب الفرصة المناسبة.

كانت الأوضاع في مصر شديدة الاضطراب، فالخلاف على أشده بين شاور وضرغام على منصب الوزارة، والخليفة العاضد الفاطمي ليس له من الأمر شيء، ولقد انتصر ضرغام على شاور وأخرجه من مصر فذهب مستجداً بالملك العادل نور الدين محمود، وضمن له ثلث إيرادات مصر، وأن يكون نائبه في مصر إن هو أعانته على استعادة وزارته المفقودة، فوجد نور الدين الفرصة مناسبة لفتح مصر وضمها إلى الشام، فكلف قائد جيوشه أسد الدين شيركوه بالتوجه إلى مصر لذلك الغرض، ففرح الأسد بهذه المهمة، وخرج من دمشق عام ٥٥٩ هـ، وفي صحبته تلميذه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، ومعه ألف رجل فقط.

الأسد المرعب: وصل أسد الدين شيركوه على رأس جيش دمشق إلى مدينة بلبيس، واشتبك مع جيش ضرغام وانتصر عليه، ثم واصل تقدمه إلى القاهرة حتى قضى على ضرغام وأعاد شاور إلى منصب الوزارة، وفتح هو بظاهري القاهرة انتظاراً للوفاء بالعهود والمواثيق مع شاور، ولكن شاور غدر وخان به وأمره بالرجوع إلى دمشق، بل هدد به فما كان من الأسد شيركوه إلا أنه دخل مدينة "بلبيس" المحصنة وامتنع بها وأرسل إلى شاور أنه لن يتحرك من مكانه إلا بأمر قائده الملك العادل نور الدين محمود. ولما كان شاور رجلاً لا تهمه إلا مصالحه الشخصية ومنصبه، أرسل إلى الصليبيين في الشام يستجد بهم على أسد الدين، وكان الصليبيون منذ أن توجه أسد الدين إلى مصر قد أيقنوا الهلاك إذا فتح الشاميون مصر، فلما جاءتهم استغاثة شاور فرحوا بها وأرسلوا جيوشهم، وقد مد لهم شاور أموالاً طائلة من أجل الانتصار على بني دينه. اجتمعت الجيوش الصليبية وعساكر شاور الخائن وحاصروا الجيش الشامي وأسد الدين شيركوه في بلبيس ٣ أشهر وهو ممتنع بها مع أن سورها ليس بالعالى، وليس له خندق ولا أي تحصينات، ومع ذلك لم يجسروا على اقتحام المدينة خوفاً من أسد الدين شيركوه الذي ظل يقاتلهم ليل نهار بأنصاف رجل ليس غير، وهم عشرات الألوف، ثم حدث الصلح على جلاء الطرفين من مصر.

قديماً قالوا: "الفضل ما شهد به الأعداء"، فاسمع الشهادة من أحد الصليبيين الذين شاهدوا أسد الدين شيركوه يوم حصار بلبيس ثم يوم الصلح، قال: (أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده عود من حديد يحمي

ساقطهم، والمصريون والفرنجة ينظرون إليه، فتقدمت منه وقلت له: "أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنجة، وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية؟". فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت، والله، أضع أسيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال، والله، لو أطاعني هؤلاء - يعني جنوده - لخرجت إليكم من أول يوم - يعني الحصار - ولكنهم امتنعوا. فقام هذا الصليبي بالتصليب على صدره وقال: كنا نعجب من فرنجة هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم).

العزيمة الفولاذية: رجع أسد الدين شيركوه إلى الشام وهو مملوء غيظاً من "شاو" وزير مصر الخائن. ثم وافق نور الدين سنة ٥٦٢هـ على إرساله ثانية، وانطلق أسد الدين في جيش يقدر بالفين من المقاتلين. أسرع "شاو" كعادته وأرسل إلى الصليبيين بالشام يستجد بهم، فجاءوه بالوقف مؤلفة من أجل إدراك ثأرهم مع أسد الدين وتحقيق مبتغاهم باحتلال مصر، وكان أسد الدين يتحرك بسرعة لخفة جيشه، فوصل إلى الصعيد وفتح ثم عسكر في منطقة البابين قريباً من محافظة المنيا الآن. وقد رُفعت إليه الجواسيس الأخبار عن ضخامة الجيش الصليبي ومن معه من عساكر شاو، فعقد اجتماعاً مع قادة جيشه فأشاروا جميعاً بالرجوع إلى الشام لقلة عددهم وتسليحهم وبعدهم عن أوطانهم، فوقف أسد الدين كالطود العظيم وأصر على القتال واستعان بالله ووافقه ابن أخيه صلاح الدين.

ثم قام أسد الدين شيركوه بوضع خطة عسكرية غاية في الذكاء: إذ إنه استدرك معظم الجيش الصليبي لطلب الجيش المسلم ثم هجم هو في كتيبة منتقاة من خلاصة الأبطال على مؤخرة الجيش الصليبي، فوضعه في شبه دائرة، وانتصر انتصاراً عظيماً لم يسمع بمثله في التاريخ كما يقول المؤرخ ابن الأثير. بعد معركة البابين توجه أسد الدين وعسكره الشامي إلى الإسكندرية بعد أن استدعاه أهلها الذين أرادوا نصرة إخوانهم المجاهدين الشاميين، ثم ترك بها حامية يقودها البطل الشاب صلاح الدين (وعمره حينئذ ٢٠ سنة)، ثم توجه إلى الصعيد لمواصلة الفتح، هانئهم الصليبيون الفرصة وحاصروا الإسكندرية حصاراً عنيفاً طوال تسعة أشهر، فعاد الأسد لنصرة أهل الإسكندرية والجيش الشامي بقيادة ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فخاف الصليبيون منه خوفاً شديداً جعلهم يطلبون منه التصالح، فاشتراط عليهم مغادرة مصر ولا يملكوا منها قرية واحدة فوافقوا. فرجع إلى الشام منصوراً وهو عازم بإذن الله على فتح مصر في الغزوة القادمة.

وأقام أسد الدين في "حمص" عندما جاءته رسالة نور الدين محمود بالقدوم إلى حلب استعداداً لانقاذ مصر، فركب البطل العجوز الذي جاوز الستين فرسه بعد صلاة الفجر وانطلق بأقصى سرعة حتى وصل "حلب" قبيل الغروب، وهذا الأمر لم يتسن لأحد من الناس سوى الصحابة رضوان الله عليهم أن يقطعوا هذه المسافة الطويلة في هذا الوقت الوجيز، فسار نور الدين بذلك وجهزه بجيش مكون من ألفي فارس، وقام أسد الدين بجمع ستة آلاف فارس آخر من متطوعة الشام لفتح مصر، وانطلق الأسد يزار ويتوعد الصليبيين والخونة المنافقين في مصر.

وكان الصليبيون يفرعون من ذكر اسم أسد الدين شيركوه، فلقد كان جاثومهم المفرع الذي يقض ضاجعهم، فلما جاءتهم الأخبار بقدوم الأسد وعسكره الشامي على جناح السرعة أجمعوا أمرهم على الرحيل من مصر بعد أن هزموا بها مرتين من قبل على يد أسد الدين، وبالفعل رحلوا مذعورين هاربين، ودخل الأسد المظفر القاهرة فاتحاً منتصراً من غير أن يشهر سيفاً واحداً هذه المرة، فلقد نصره الله عز وجل بالرعب.

لقي **شاو** جزاء خيائته وعمالته للصليبيين، فقد أمر العاضد الفاطمي بإعدامه، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة في مصر، وبدأ بالتوحيد الفعلي بين مصر والشام تحت حكم نور الدين محمود. ولكن الأجل جاء إلى الأسد بـدحة صدرية قتله في ٢٢ جمادى الآخر ٥٦٤هـ، بعد أن كلال جهاده بفتح مصر. ويقال: إنه خاض أكثر من ١٥٠ معركة وتعرض للشهادة في كل موطن وسعى لها سعياً حثيثاً، ولكنه مات على فراشه: وصديق أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين قال: "أحرص على الموت توهب لك الحياة".

الحملة الصليبية لغزو مصر

يخطئ من يظن أن غزو مصر ابتداءً من الحملة الصليبية الأوروبية الخامسة على دمياط، والحملة الصليبية الأوروبية السابعة على دمياط أيضاً، إن محاولات الاستيلاء الصليبي على مصر الفاطمية كادت تنجح: بسبب خيانة الوزراء العبيديين (الفاطميين) وتخاذلهم، تمكن جميع هذه المحاولات باءت بالخسائر بفضل الله تعالى، ثم جهود الأبطال الثلاثة: المجاهد المسلم نور الدين محمود، وثانيه أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين يوسف. لذلك كانت هذه الحملات الأولى لا تذكر استحياءً، أو إن ذكرت تذكر هامشياً.

الحقيقة أن هناك ٦ حملات صليبية لغزو مصر في المدة ما بين ١١٥٤-١١٦٩م قامت بها مملكة القدس الصليبية، يُعيد الحملة الصليبية الأوروبية الثانية:

(١) الحملة الصليبية الأولى على مصر بقيادة بلدوين الثالث، وسقوط عسقلان عام ٥٤٨هـ-١١٥٣م:

شرع ملك مملكة القدس بلدوين الثالث (٥٣٨-٥٥٨هـ/١١٤٣-١١٦٣م) في تعمير استحكامات غزة عام ٥٤٥هـ تمهيداً للانقضاض على عسقلان، القاعدة الأخيرة للفاطميين في فلسطين المتاخمة حدود مصر، إذ إن غزو مصر لا بد له من الاستيلاء على عسقلان أولاً؛ لذا فهي أمتع الحصون بامتدادها من البحر على هيئة نصف دائرة كبيرة وباستحكاماتها القوية، وحرصت الدولة الفاطمية على شحنها بالذخائر والمون لكونها حصن مصر الأخير.

شعر الفاطميون بهذه الاستعدادات: وهذا ما دفعهم إلى الاستغاثة بنور الدين محمود، الذي كان يسعى إلى ضم دمشق إلى الاتحاد الإسلامي ضد الصليبيين، لكنه كان في موقف حرج مع حاكم دمشق، ظهر جيش بلدوين الثالث أمام أسوار عسقلان في ذي الحجة ٥٤٧هـ واستمر الحصار بضعة أشهر. كانت الدولة الفاطمية تمتد أهل المدينة بالمعونة بحراً دون أن تتجرأ على شن هجوم بري أو بحري، وأمام القذائف شبه المتواصلة اليومية طوال مدة الحصار، استسلمت الحامية (والترزم هذا الملك تأمين السكان)، ودخل منتصراً وضمت عسقلان إلى أملاك عموري الأول أو أمريك الأول ولي العهد، كونت يافا وعسقلان آنذاك. وقويت بذلك شوكة الفرنج بتأمين حدود مملكة القدس الجنوبية. كان المفروض أن تكون مملكة القدس محاطة بعدوتين: السلجوقي الرنكي من الشمال والشرق، والعبيدي الفاطمي من الجنوب والغرب، لكن تخاذل الوزراء العبيديين جعل مصر عرضة لمطامع الصليبيين.

(٢) الحملة الصليبية الثانية على مصر بقيادة الملك أمريك الأول (أو عموري الأول) عام ٥٥٨هـ-١١٦٣م:

شرع عموري الأول أو أمريك الأول ملك مملكة القدس (١١٦٢-١١٧٤م) في حملته الأولى لغزو مصر عام ٥٥٨هـ بحجة عدم دفع الفاطميين الجزية المفروضة عليهم من قبل الملك بلدوين الثالث.

وكانت الدولة العبيدية في ضعف وصراع داخلي آنذاك. فلما مات الفائز، الخليفة العبيدي، كان وزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك في وزارة مصر سبع سنين (كان الفائز معه كالمحجور عليه). كان الوزير طلائع آخر الوزراء الفاطميين الذين حركوا الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج في صور وأسر كثيراً منهم، لكنه أدرك أنه لا يستطيع مواجهة المملكة اللاتينية في بيت المقدس، فأرسل إلى نور الدين صاحب دمشق يطلب إليه توحيد جهتهما، وكان رسول طلائع في هذه المهمة الأمير الشاعر "أسامة بن منقذ" الذي تبادل معه مجموعة من القصائد لتسهيل مهمته لدى نور الدين، وأوجد نوعاً من التعاون بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج في الشام. وكان الوزير طلائع يطمح إلى تحويل الخلافة الفاطمية إلى نسله - كما فعل الجمالي - فاختار أصغر الأمراء الفاطميين وأجلسه على عرش الخلافة

وسماه (العاقد)، وزوجه من ابنته، عسى أن ترزق منه ولداً فيجتمع لبني رزك الخلافة والملك. ولم تقبل نساء الدولة الفاطمية هذا الإجراء، فدير "ست القصور" عمه العاضد مؤامرة اغتيال طلائع. وقد تولى العاضد العبيدي الخلافة الفاطمية، فولى شاور بن مجير السعدي الصعيد، ثم ثقل عليه وزيره الملك الصالح طلائع، فدير قتله.

فلما كان ١٠ رجب سنة ٥٥٦هـ (وقيل ١٩ رمضان ٥٥٦هـ) حضر "الصالح طلائع" إلى قصر الخلافة، فوثب عليه باطني فضربه بسكين وقتله، وكانت آخر كلمات طلائع وهو يلفظ آخر أنفاسه أسفه على أنه لم يعمل على شزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنج... وتحذيره ابنه "العاقل رزك" من شاور حاكم الصعيد الذي لا يؤمن بحره. حزن الناس عليه لحسن سيرته وأقيم المآتم عليه بالقصر وبالقاهرة ومصر. وقام بعده في الوزارة ابنه رزك بن طلائع بن رزك ولقب بمجد الإسلام. وفرح العاضد بقتل طلائع؛ ليستبد بالأمور من غير وزير، فدرس إلى شاور بن مجير السعدي الذي تحرك من بلاد الصعيد وجمع أوباش الصعيد من العبيد والأوغاد وقدم إلى القاهرة لحرب رزك، فخرج إليه رزك بن طلائع وقتلته، والعاقد في الباطن مع شاور. فانهزم رزك.

ودخل شاور إلى القاهرة وملكها وأخرب دور الوزارة ودور بني رزك. واختفى الوزير رزك حتى ظفر به شاور وقتله. وتولى شاور الوزارة، فعامل العاضد بأفعال قبيحة وأساء السيرة في الرعية، وأخذ أمر مصر في وزارته في إخبار. ولما كثر ظلمه خرج عليه أبو الأشبال ضرغام بن عامر من الصعيد، فخرج إليه شاور بدسته فهزمه ضرغام وقتل ولده الأكبر طي، وخذل أهل القاهرة شاور لبغضهم إياه.

استغنى عموري الأول ذلك، وأعلن أن هدف حملته إرغام مصر العبيدية على دفع الجزية، وأسهمت الأسبatarية إسهاماً فاعلاً في تجهيز هذه الحملة. وصل الجيش الصليبي إلى العريش دون مقاومة، ثم التقى والجيش الفاطمي بقيادة ضرغام، الذي هزم عند بيلوسيوم (أطراف مديرية الشرقية) ثم تابع الصليبيون تقدمهم نحو بلبيس حيث تهاجر ضرغام. استغل ضرغام والمصريون فيضان النيل فعمد إلى تحطيم السدود فساح الماء وأغرق الأرض وأرغم الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى مملكة القدس.

كان نور الدين يراقب تطور الأوضاع السياسية بمصر وتحركات عموري الأول العسكرية بدقة متناهية. هرب شاور إلى الشام ودخل إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الشهيد، فالتقاء نور الدين وكرمته، فطلب شاور منه النجدة (أي إعادة وزارته) والعساكر وأطمعه في الديار المصرية، وقال له: (أكون نائبك بها وتقع بما تعين لي من الضياع، والياقي لك). وتعهد بسيادة نور الدين وبدفع ثلث خراج مصر بعد إقطاع الجند، وإبقاء عدد من أمراء الشام في مصر. وبعد تفكير طويل بين إحجام وإقدام (خوفاً من غدر الصليبيين بالعساكر الإسلامية، وحسباً لاحتمال غدر شاور إن هو سيطر على مصر)، ومشورة أسد الدين شيركوه أن المصريين يفضلون حاكماً مسلماً على بلادهم، على السيطرة الصليبية، أجابه نور الدين لذلك، وجهاز له العساكر مع الأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الكردي أحد أمراء نور الدين. وخرجوا من دمشق في ٢٠ جمادى سنة ٥٥٧هـ وكان مع أسد الدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي في خدمته. وقام نور الدين بمرافقة الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق لحمايته من أي هجوم. وقام أيضاً بمشاغلة الصليبيين بالشام؛ ليُعْمَى على جيشه الشامي المتجه إلى مصر.

(٢) الحملة لنورية الأولى لمصر والحملة الصليبية الثالثة على مصر بقيادة عموري (وحصار بلبيس) عام ٥٥٩هـ-١١٦٤م:

لما علم ضرغام برجوع شاور بصحبة جيش نور الدين، استغاث بالملك عموري الأول أو أميرك الأول، وتعهد بـلقابل بدفع جزية يقررها الملك الصليبي، وأن تدخل مصر في تبعية الصليبيين، وأجبر العاضد على توقيع الاتفاق.

لكنه بوغيت بوصول شيركوه وشاور قبل أن يستطيع أمليرك التحرك، فلما وصلوا إلى القاهرة خرج إليهم أبو الأشبال ضرغام بن عامر فحاربهم أياماً إلى أن التقوا على باب القاهرة، وقتل ضرغام بعد أن تخلى عنه الجيش والناس والعاضد، واستقام أمر شاور. فكانت وزارة ضرغام تسعة أشهر.

واستولى شاور ثانياً على القاهرة؛ وكان خبيثاً سفاكاً للدماء، ولما ثبت أمره، ظهرت منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه، فأشار صلاح الدين يوسف بن أيوب على عمه أسد الدين شيركوه بالتأخر إلى بلبيس وكان أسد الدين لا يقطع أمراً دون صلاح الدين ففعل ذلك وخرج إلى بلبيس، وبعث أسد الدين يطلب من شاور رزق الجند أعني النفقة، فاعتذر وتعلل عليه. فكتب أسد الدين إلى نور الدين يخبره بما جرى، ودس شاور إلى الفرنج رسالة يدعوهم إلى مصر، ويبدل لهم الأموال، فأسرع ملك القدس بالرحف إلى مصر مرة ثانية واجتمع الفرنج من الساحل وساروا من الداروم متفقين مع شاور على أسد الدين شيركوه.

فتها أسد الدين لحربهم وحاربهم، فقوي الفرنج عليه وحاصروه بمدينة بلبيس نحو ٣ أشهر حتى أول شهر رمضان إلى ذي القعدة (ووقع بينهم حروب وأمر).

وفجأة قرر عموري الأول مصالحة أسد الدين شيركوه على مال للجلاء المزدوج للطرفين من مصر. الحقيقة أن أمليرك الأول لم يستطع متابعة وجوده بمصر؛ بسبب الأخبار المزعجة لتعرض ممتلكاته في الشام لضغوط جيوش نور الدين الفاعلة في الشام الذي استطاع أسر كل من أمير أنطاكية (بوهيمند الثالث) وأمير طرابلس (ريموند الثالث) في معركة تل حارم التاريخية في أثناء غياب ملك أورشليم بمصر. وبلغهم أن نور الدين قصد بلادهم من الشام فعند ذلك رجعت الفرنج، وأسرع أمليرك الأول؛ ليتولى نيابة الحكم على أنطاكية وطرابلس، وقد قام بدفع فدية كبيرة لتحرير أسر بوهيمند عام ١١٦٥م (في حين بقي ريموند بالسجن حتى ١١٧٣م). وعاد أسد الدين شيركوه إلى الشام وقد أصابه القهر بسبب الخائن شاور. كان شاور هو الفائز الحقيقي في هذا الصراع، فتخلص من ضرغام ومن الجيوش الشامية والصليبية على السواء، وأضحى طوال العامين اللاحقين الحاكم الفعلي المتفرد بمقاليد مصر.

ثم كان عام ١١٦٦م هادئاً نسبياً، وأرسل أمليرك الأول مبعوثيه إلى الإمبراطورية البيزنطية طالباً زوجة بيزنطية من أجل التحالف الصليبي - البيزنطي، وفي أثناء هذا العام كان عليه التعامل مع غزوات نور الدين وتحركاته الذي دوّخهم واستولى على مدينة "بانياس".

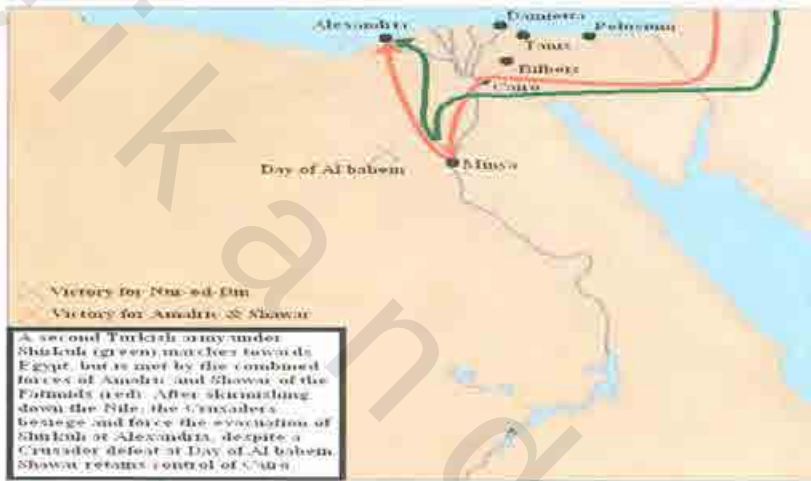


قدوم أسد الدين شيركوه وإعادة شاور إلى وزارته بمصر (أخضر رقم ١)، ثم خيانة شاور واستدماة الحملة الصليبية الثالثة على مصر: لإخراج أسد الدين شيركوه (أحمر رقم ٢)، وبعد حصار بلبيس، جرى الجلاء للفرنجين - عام ٥٩هـ - ١١٦٤م

٤) الحملة النورية الثانية لمصر، والحملة الصليبية الرابعة على مصر بقيادة عموري (معركة البابين وحصار الإسكندرية) عام ٥٦٢هـ-١١٦٧م؛

أقام شاور بالقاهرة على عادته يظلم ويقتل ويعتقل الناس، ولم يبق للعاضد معه أمر ولا نهي، وأقام أسد الدين سيركوه بدمشق في خدمة نور الدين إلى سنة ٥٦٢هـ، ثم عاد بعساكر الشام إلى مصر ثانياً، وسببه أن العاضد لما طلب عليه شاور كتب إلى نور الدين يستجده على شاور، وأنه قد استبد بالأمر وظلم وسفك الدم، وكان في قلب عر الدين من شاور حرازة؛ لأنه عُذر بأسد الدين سيركوه واستجد عليه بالفرنج، وكان نور الدين يطمح إلى ضم مصر إلى الشام لتكوين فكي كماشة (نزاعة) تطبق على الصليبيين وتخرجهم من دار الإسلام.

فخرج أسد الدين بعساكر الشام من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول من سنة ٥٦٢هـ وسار أسد الدين سيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب حتى نزل برّ الجزيرة غربي مصر على بحر النيل. وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال وأقطعهم الإقطاعات وأنزلهم دور القاهرة وبنى لهم أسواقاً تخصهم.



قدوم سيركوه (أخصر) استجابة للعاضد عام ٥٦٢هـ-١١٦٧م، واستقدام شاور الخائن الحملة الصليبية الرابعة على مصر (أحمر) ثم انتصار جيش المسلمين على الصليبيين في معركة البابين، ثم فتح الإسكندرية بمساعدة أهاليها، ثم جلاء الطرفين

وكان مقدم الفرنج الملك مري وابن نيرزان. فأقام أسد الدين على الجزيرة شهرين، وعمى مسيره إلى الصعيد ثم إلى برّ مصر والقاهرة في ٢٥ جمادى الآخرة في منطقة البابين القريبة من الأشمونين، وخرج إليه شاور والفرنج. الواضح أن الحامية في القاهرة لم تشترك في القتال.

ورتب شاور عساكره؛ فجعل الفرنج على الميمنة مع ابن نيرزان وعسكر مصر في الميسرة، وأقام الملك مري لفرنجي في القلب في عسكره من الفرنج.

ورتب أسد الدين عساكره، فجعل الأتقال في القلب وعليه صلاح الدين، وأمره أن لا يصدق العدو في القتال، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغتر عموري فيتبعه، في حين تسلّم أسد الدين الميمنة، وفي الميسرة الأكراد. فحمل الملك مري على القلب ففتحته وكانت أتقال المسلمين خلفه فاشتغل الفرنج بالنهب، وحمل صلاح الدين على شاور فكسره وقرق جمعه. وعاد أسد الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين وحمل على الفرنج، فانهزموا، فقتل منهم ألفاً أسراً مئة وسبعين فارساً.

وهرب شاور والفرنج إلى القاهرة، لكن أسد الدين سيركوه لم يتعقبهم، بل سار نحو الفيوم شمال غرب قنيل واستولى على الإسكندرية، فأقام صلاح الدين فيها، وسار أسد الدين إلى الصعيد فاستولى عليه وأقام فيها

يجمع أمواله. وخرج شاور والفرنج من القاهرة، فحاصروا الإسكندرية أربعة أشهر وأهلها يقاتلون مع صلاح الدين. ويقوُّنه بالمال. وبلغ أسد الدين فجمع عرب البلاد وسار إلى الإسكندرية، فعاد شاور إلى القاهرة ورأس أسد الدين حتى تحقق الصلح بينهم. وأعطى شاور أسد الدين إقطاعاً بمصر وعجل له مائلاً خمسين ألف دينار. فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا منه قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام (كما يقول ابن الأثير في الكامل في التاريخ).

فعاد أسد الدين إلى الشام ومعه صلاح الدين، واعتذر أسد الدين إلى الملك العادل نور الدين محمود بكثرة الفرنج والمال.

ورأى صلاح الدين لأهل الإسكندرية ما فعلوا فلما ملك مصر بعد ذلك أحسن إليهم. ثم إن الفرنج طلبوا سراً من شاور أن يكون لهم شحنة بالقاهرة ويكون أبوابها بأيدي فرسانهم وتحمل إليهم في كل سنة مئة ألف دينار. ومن سكن منهم بالقاهرة يبقى على حاله ويعود بعض ملوكهم إلى الساحل، فأجابهم شاور إلى ما طلبوا منه. كل ذلك تقرر بين شاور والفرنج، والعاقد لا يعلم بشيء منه.

(٥) الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة عموري (مذبحة بلبيس وحريق مصر)، والحملة النورية الثالثة لنجدة مصر عام ٥٦٣هـ-١١٦٨م:

بعد رجوعه في ١١٦٧م، تزوج الملك أمليرك الأول من ماريه كومنينيا، حبيدة بنت أخت الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس. وفي عام ١١٦٨م تناقش أمليرك ومانويل في التحالف الصليبي - البيزنطي ضد مصر. وكان وليم الصوري أحد سفرائه المبعوثين إلى القسطنطينية لتوقيع المعاهدة النهائية، بالرغم من أن أمليرك الأول كان في صلح سلام مع شاور، لكنه اتهم شاور بمحاولة التحالف مع نور الدين، وبهذه الذريعة غزا أمليرك مصر. وكان فرسان الأستارية من أكثر الميادين لهذا الغزو. بل كانوا هم المسؤولين عن إقناع الملك في غزو مصر، في حين امتنع فرسان المعبد أن يسهموا بأي شكل فيه.



الحملة الصليبية الخامسة على مصر بقيادة عموري عام ٥٦٣هـ-١١٦٨م ومذبحة بلبيس (أحمر رقم ١)

ثم انسحابها مع مقدم نجدة شيركوه (أخضر رقم ١)

تلتها الحملة الصليبية السادسة (أحمر رقم ٢)

على دمياط بمساعدة الأسطول البيزنطي عام ٥٦٤هـ-١١٦٩م (بنفسجي)

وفي تشرين الأول/أكتوبر، من دون انتظار أي مساعدة بيزنطية (وفي الواقع من دون الانتظار لرجوع سفرائه)، غزا الملك أمليرك الأول مصر، واستولى على بلبيس. وتعرض سكانها من مسلمين وأقباط لمذبحة دموية وحشية، **ومن ثم يُقتل منهم تعرض لمهانة الاسترقاق.** من ثم توجه الملك المجرم أمليرك الأول نحو القاهرة، إذ قام شاور بحرق مدينة الفسطاط، ثم عرض شاور (كما يقال) عليه مليوني قطعة ذهبية.

وأسرع نور الدين بإرسال شيركوه إلى مصر بعد استغاثة الخليفة العبيدي به، وبمجرد وصول أنباء تقدم جيش نور الدين إلى مصر، تقهقر أمليرك الأول وانسحب إلى مملكة القدس، **يجرّ معه خيبة الإخفاق وعار الفضيحة بمذبحة المصريين الأبرياء.** يقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة":

(ثم جاءت كتب شاور والعاظم، فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر وتوجه إليها. وقال صلاح الدين: أخرج مع عمك أسد الدين. فامتنع، وقال: يا مولاي، يكفي ما لقينا من الشدائد في تلك المرة.

فقال نور الدين: لا بد من خروجك. فما أمكنه مخالفة مخدومه نور الدين المذكور، فخرج مع عمه وساروا إلى مصر. وبغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل. وقيل: إن شاور أعطاهم مئة ألف دينار).

يقول ابن شداد: لقد قال لي السلطان صلاح الدين - قدس الله روحه - كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت من دمشق مع عمي باختياري. وهذا معنى قول القرآن: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقام شيركوه بقتل شاور في يناير/كانون الثاني ١١٦٩م، بطلب من الخليفة العاضد (انظر فيما سيأتي). وصار شيركوه الوزير الجديد مكانه، لكنه توفي بعد شهرين، في آذار، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي **وزيراً للعاظم** الخليفة الفاطمي بمصر. عدّ الملك أمليرك الأول تعيين صلاح الدين تذيير شؤم وخطر على الصليبيين، فأرسل رئيس قساوسة صور، طالباً النجدة من ملوك أوروبا ونبلائها، ولكن دون جدوى.

ويصف الإمام جلال الدين السيوطي هذه الحملات الصليبية في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" **يقولته:** (لما قتل صاحب مصر الظاهر، وصلت الأخبار إلى بغداد أن مصر قتل صاحبها، ولم يبق فيهم إلا صبي صغير، ابن خمس سنين، قد ولوه عليهم، ولقبوه الفائز، فكتب الخليفة المقتضي عهداً للملك نور الدين محمود **نصكي على البلاد الشامية والمصرية،** وأرسله إليه، فسار حتى أتى دمشق، فحاصرها وانتزعها من يد ملكها مجير الدين بن طغتكين، وشرع في فتح بلاد الشام بلداً بلداً، وأخذها من أيدي من استولى عليها من الفرنج.

فلما كانت سنة ٦٢ (أي ٥٦٢هـ) أقبلت الفرنج في محافل كثيرة إلى الديار المصرية، فأرسل نور الدين محمود أسد الدين شيركوه بن شادي، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، فسار إليها في ربيع الآخر، وقد وقع في النفوس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية، وفي ذلك يقول عرقلة الشاعر:

رَبِّ كَمَا مَلَكَهَا يُوسُفُ الصَّدِيقُ مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبِ

يملكها في عصرنا يوسف الصديق من أولاد أيوب

وسار إلى الفرنج، فاقبلوا قتالاً عظيماً، فهزم الفرنج ولله الحمد، وسار أسد الدين بعد كسر الفرنج إلى الإسكندرية، فملكها، واستتاب عليها ابن أخيه صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد، فملكه.

ثم إن الفرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية، فصالح شاور وزير العاضد أسد الدين على الإسكندرية بخمسين ألف دينار، فأجاب إلى ذلك، وخرج صلاح الدين منها، وسلمها إلى المصريين، وعاد إلى الشام في ذي القعدة، وقرر شاور للفرنج على مصر في كل عام مئة ألف دينار، وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة.

وسكن القاهرة أكثر شجعان الفرنج، وتحكموا فيه؛ إذ كادوا يستحوذون عليها، ويخرجون المسلمين منها، فلما كانت سنة ٦٤، قدم إمداد الفرنج في محافل هائلة، فأخذوا مدينة بلبيس، فقتلوا وأسروا ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موثلاً ومعقلاً. ثم جاؤوا فنزلوا في القاهرة من ناحية باب الشرقية، فأمر الوزير شعير الدين أن يحرقوا مصر، وأن ينتقلوا إلى القاهرة. فنهب البلد، وذهب للناس أموال كثيرة، وبقيت النار في مصر أربعة وخمسين يوماً؛ فعند ذلك أرسل الخليفة العاضد يستغيث بالملك نور الدين، ويعث إليه بشعور نسيائه يقول: أتركني؛ واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج. والتزم له ثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيماً عندهم، وبهم قطاعات زائدة على الثلث.

... (وبعد موت شيركوه) فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر، وأهداه خلعة من النفائس في يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤. فلما كان سنة ٦٥ حاصرت الفرنج دمياط ٥٠ يوماً، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يحطب للخليفة المستنجد العباسي بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ٥٦٦هـ، توفي المستنجد، وقاد المستضيء، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس، وقطع الأذان بحي على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر؛ لأنهم كلهم كانوا زوافض، وولى أفضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعي، واستتاب في سائر الأعمال شافعية).



دخول صلاح الدين إلى الديار المصرية، ليكون وزيراً ثم سلفاً

وبفصل ابن تغري بردي الأحداث في (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، (وبينما هم في ذلك عاد الفرنج من الساحل إلى نحو مصر في سنة ٥٦٤هـ وطمعوا في أخذها. وكان خروجهم من عسقلان والساحل إلى نحو مصر في أوائل ٥٦٤هـ، وساروا حتى نزلوا بلبيس وأغاروا على الريف وأسروا وقتلوا. هذا وقد تلاشى أمر الديار المصرية من الظلم ولم يبق للعاضد من الخلافة سوى الاسم والخطبة لا غير. فلما بلغ شاور فعل الفرنج بالأرياف أخرج من كان بمصر من الفرنج بعد أن أساء في حقهم قبل ذلك، وقتل منهم جماعة كبيرة وهرب الباقون.

ثم أمر شاور أهل مصر (القسباط) أن ينتقلوا إلى القاهرة ففعلوا، وأحرق شاور مصر. وسار الفرنج من بلبيس حتى نزلوا على القاهرة في سابع صفر وضايقوها وضربوها بالمجانيق. فلم يجد شاور بداً أن يكتب الملك العادل نور الدين محموداً يأمر العاضد، وكان

الفرنج لما وصلوا إلى مصر في المرتين الأوليين اطلعوا على عوراتها وطمعوا فيها، وعلم نور الدين بذلك فأسرع بتجهيز العساكر خوفاً على مصر. ثم جاءته كتب شاور والعاضد، فقال نور الدين لأسد الدين شيركوه: خذ العساكر وتوجه إليها. وبلغ الفرنج ذلك فرجعوا عن مصر إلى الساحل. وقيل: إن شاور أعطاهم مئة ألف دينار.

وجاء أسد الدين بمن معه من العساكر ونزل على باب القاهرة. فاستدعاه العاضد إلى القصر وخلع عليه في الإيوان خلعة الوزارة ولقبه بالملك المنصور، وسر أهل مصر بذلك. وقيل: إنه لم يستدعه وإنما بعث إليه بالخلع والأموال والإقامات وكذلك إلى الأمراء الذين كانوا معه. وأقام أسد الدين مكانه وأرباب الدولة يترددون إلى خدمته في كل يوم، ولم يقدر شاور على منعهم؛ لكثرة العساكر ولكون العاضد مثلاً إلى أسد الدين شيركوه.

فكتب شاور أيضاً الفرنج واستدعاهم وقال لهم: يكون مجيئكم إلى دمياط في البحر والبر

فبلغ ذلك أعيان الدولة بمصر فاجتمعوا عند الملك المنصور أسد الدين شيركوه، وقالوا له: (شاور فساد العباد للبلاد، وقد كاتب الفرنج وهو يكون سبب هلاك الإسلام)، ثم إن شاور خاف لما تأخر وصول الفرنج فعمل في عمل: دعوة لأسد الدين المذكور ولأمرائه ويقبض عليهم.

فنهاه ابنه الكامل وقال له: (والله لئن لم تنته عن هذا الأمر لأعرضن أسد الدين). فقال له أبوه شاور: (والله لئن لم نفعل هذا، لنقتلن كلنا). فقال له ابنه الكامل: (لأن نقتل والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل والبلاد بيد الفرنج)... وعزم شاور على قتل أسد الدين وقتل أصحابه أكتابر أمراء ثور الدين معه، ففطن أسد الدين لذلك احتجز على نفسه.

وعلم ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب أيضاً، فاتفق صلاح الدين يوسف والأمير جرديك النوري على مسك شاور وقتله. واتفق ركوب أسد الدين إلى زيارة قبر الإمام الشافعي رحمه الله وكان شاور يركب في كل يوم إلى أسد الدين، فلما توجه إليه في هذا اليوم المذكور قيل له: إنه توجه إلى الزيارة. فطلب العود فلم يمكنه صلاح الدين، يقال: انزل الساعة يحضر عمي. فامتنع فحذبه هو وجرديك فأنزلوه عن فرسه، وقبضوا عليه وقتلوه بعد حضور أسد الدين...

وحين اتفق صلاح الدين وجرديك على قتله وأخبرا أسد الدين نهائهما وقال: (لا تفعلوا، فنحن في بلاده ومعه عسكر عظيم)، فامسكا عن ذلك. إلى أن ركب أسد الدين إلى زيارة الإمام الشافعي رحمه الله وأقام عنده، فجاء شاور على عادته إلى أسد الدين فالتقاه صلاح الدين وجرديك وقالوا: هو في الزيارة انزل، فامتنع فحذبه فوقع على أرض، ولم يمكنهما قتله بغير أمر أسد الدين، فسحبه الغلمان إلى الخيمة. وانهزم أصحابه عنه إلى القاهرة جيشوا عليهم.

وعلم أسد الدين فعاد مسرعاً، وجاء رسول من العاضد برقعة يطلب من أسد الدين رأس شاور وتتابع الرسل. فكاثرت الرسل من العاضد، دخل جرديك إلى الخيمة وجز رأسه وبعث أسد الدين برأسه إلى العاضد فسُر به. ثم طلب العاضد ولد شاور الملك الكامل وقتله في الدهليز وقتل أخاه، واستوزر أسد الدين شيركوه، وذلك في شهر ربيع الأول، إن ولاية أسد الدين للوزارة كانت بعد قتل شاور.

قال أبو شامة: وقتل العاضد في هذه السنة أولاد شاور، وهم: شجاع الملقب بالكامل، والطاري الملقب بالعظيم، وأخيهما الآخر الملقب بفارس المسلمين، وطوف برؤوسهم ببلاد مصر.

ولما قتل شاور وابنه الكامل بعث العاضد منشوراً بالوزارة إلى أسد الدين بخط القاضي الفاضل وعليه خط عاضد بما صورته: (هذا عهد لم يعهد إلى وزير بمثله، فتفقد ما أراك الله أهلاً بحمله، وخذ كتاب أمير المؤمنين سؤة، واسحب ذيل الافتحار بخدمتك بيت النبوة، والنزم حق الإمامة تجد إلى الفوز سبيلاً، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا كَفَرُوا وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَيْلًا﴾ [التحل: ٩١].

ثم أرسل العاضد نسخة الأيمان إلى أسد الدين وحلف كل واحد منهما لصاحبه على الوفاء والطاعة والصفاء. فصرف أسد الدين شهرين ومات. ولما احتضر أوصى إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولاية الوزارة.

وكان دخول يوسف بن أيوب (صلاح الدين) إلى مصر وتوزيعه يشبه إلى حد كبير مقدم يوسف الصديق إلى مصر؛ حيث قام يوسف بن أيوب باستقدام إخوته وأبيه معه إلى مصر، كما فعل يوسف الصديق باستقدام إخوته وأبيه.

وبلغ الملك العادل نور الدين اتفاق الأمراء عليه بمصر، فقال له توران شاه بن أيوب، وكان أسن من صلاح الدين: يا مولانا، أريد أن أسير إلى أخي، يعني إلى صلاح الدين، فقال له نور الدين: إن كنت تسير إلى مصر وترى يوسف أخاك بعين أنه كان يقف في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر؛ فإنك تنفس العباد والبلاد فتخرجني إلى عقوبتك بما تستحقه، وإن كنت تسير إليه وترى أنه قائم مقامي وتخدمه كما تخدمني فسراً إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدد، وإلا فلا تذهب إليه.

فقال: يا مولانا سوف يبلغك ما أفعل من الخدمة والطاعة، وسار إلى مصر فتلقاه صلاح الدين من لبيس وخدمة وقدم له المال والخيول والتحف وأقام عنده على أحسن حال. وفعل ما ضمن لنور الدين من خدمة أخيه صلاح الدين وقوي أمر صلاح الدين به واستقام أمره.

واستمر صلاح الدين بمصر وأرسل يطلب أباه نجم الدين أيوب من الملك العادل نور الدين محمود. فأرسله إليه معظماً مبجلاً. وكان وصوله، أعني نجم الدين، إلى القاهرة في شهر رجب سنة ٥٦٥هـ، فلما قرب نجم الدين إلى الديار المصرية خرج ابنه السلطان صلاح الدين بجميع أمراء مصر إلى ملاقاته. وترجل صلاح الدين وجميع الأمراء ومشوا في ركابه، ثم قال له ابنه صلاح الدين: (هذا الأمر لك؛ يعني الوزارة، وهي السلطنة الآن وتدير ملك مصر ونحن بين يديك). فقال له نجم الدين: (يا بني، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له). وأبى نجم الدين قبول السلطنة، غير أنه حكم ابنه صلاح الدين في الخزائن، فكان يطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين كل ذلك والخطبة باسم العاضد في هذه السنين إلى سنة ٥٦٧هـ).

١. التحالف الصليبي البيزنطي لغزو مصر، وحملة عموري الصليبية الخامسة (حصار دمياط) عام ٦٤هـ-١١٦٩م:

صعد نجم صلاح الدين، البطل المنقذ لمصر، وفي السنة العاشرة من خلافة العاضد وزر له الملك اناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يكن له مع صلاح الدين إلا مجرد الاسم فقط. وهي سنة ٥٦٥هـ التي نزل فيها الفرنج على دمياط يوم الجمعة في ثالث صفر، وجدوا في القتال وأقاموا عليها ٥٢ يوماً يحاصرونها ليل نهار وبذل صلاح الدين الأموال وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوه وأطاعوه، وأقام نائباً عن نور الدين، ودعا لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد ولسلاح الدين بعدهما.

ولما بلغ صلاح الدين قصد الإفرنج دمياط استعد لهم بتجهيز الرجال وجمع الآلات إليها ووعدهم بالإمداد بالرجال إن نزلوا عليهم، وبألف في العطايا والهبات، وكان وزيراً متحكماً لا يُرد أمره في شيء، ثم نزل الإفرنج عليها واشتد زحفهم وقتالهم عليها وهو يشن عليهم الغارات من الخارج والعسكر يقاتلهم من الداخل فحتمصر عليهم. فدخلوا عنها خائبين، فأحرقت مناجيقهم ونهبت آلتهم وقتل من رجالهم عدد كبير.

وكانت الفرنج تولت على دمياط في ثالث صفر وجدوا في قتالها وأقاموا عليها نحو الشهر يحاصرونها بالمجانيق ويرحفون عليها ليل نهار، وصلاح الدين يوجه إليها العساكر مع خاله شهاب الدين وابن أخيه تقي الدين وطلب من العاضد مالاً فبعث إليه شيئاً كثيراً حتى قال صلاح الدين: (ما رأيت أكرم من العاضد جهز إلي في حصار الفرنج لدمياط ألف دينار سوى الثياب وغيرها).

ولما سمع نور الدين بما وقع لدمياط أخذ في غزو الفرنج بالغارات عليهم. ثم وقع فيهم الوباء والقنص فدخلوا عر دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كل ذلك في حياة العاضد في أوائل أمر صلاح الدين.

ووصل الأسطول البيزنطي في أواخر عام ١١٦٩، وشن الملك أمليوك الأول، في تشرين الأول/أكتوبر، حملة غزو جديدة وحاصر دمياط براً وبحراً. واستمر الحصار طويلاً، لكن بعد ٣ أشهر ترك الصليبيون الحصار؛ بسبب

اعتماد المجاعات والأوبئة في المعسكر النصراني؛ فرمى البيزنطيون بلائمة الإخفاق على الصليبيين، والعكس بالعكس، وبذلك قرروا توقيع الصلح مع صلاح الدين. ورجع أمليرك الأول صفير اليدين إلى مملكة القدس.

ثم أعلن أن صلاح الدين وزير مصر قد صار سلطاناً في عام ١١٧١م بموت العاضد آخر السلالة العبيدية، فتوجس الملك أمليرك الأول خيفة وأرسل مبعوثيه من القدس طالباً النجدة من ملوك أوروبا، ولكن دون جدوى. ثم قام الملك أمليرك الأول بزيارة القسطنطينية بنفسه، وأرسل مبعوثيه مرة ثانية من القسطنطينية طالباً النجدة من ملوك أوروبا، ولكن أيضاً دون اهتمام أحد منهم. وبتوحد مصر والشام بدأ العد التنازلي لمملكة القدس المحاطة بعدائها من كل الجوانب، وصمدت مملكة القدس ١٦ سنة أخرى. ثم مات الملك أمليرك الأول بالرُّحْلان (إسهال القديزنتري) في ١١ يوليو/ تموز ١١٧٤، مباشرة بعد وفاة نور الدين في ٥٦٩هـ-١١٧٤م.

مؤامرات الانقلاب على الدولة الأيوبية الوليدة: تعرضت دولة صلاح الدين لما لا يقل عن ٥ مؤامرات هي: مؤامرة مؤتمن الخلافة العبيدي (في حياة العاضد)، والتواطؤ العبيدي - الصليبي، ومحاولة الحشاشين الباطنية لتغتيال شخص صلاح الدين، وتمرد السودان (انظر فيما سيأتي).

مؤامرة مؤتمن الخلافة العبيدي: بذل صلاح الدين الأموال وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري، فأحبوه وطاعوه وأقاموه نائباً عن نور الدين يُدعى لنور الدين على منابر مصر بعد الخليفة العاضد وصلاح الدين بعدهما. ولما تم أمر صلاح الدين بمصر خاف العاضد عاقبة أمره. وكان للعاضد خادم يقال له مؤتمن الخلافة، وكان مقدم السودان والخدم والمشار إليه بالقصر. فأمره العاضد بقتال الترك والغز. واتفق العسكر المصري والخادم ساروا على الترك فقتلوا منهم جماعة. فركب صلاح الدين وشمس الدولة ودخلا إلى باب القصر وتقاتلا مع مؤتمن الخلافة. وأبلى شمس الدولة بلاء حسناً وقتل الخادم مؤتمن الخلافة وجماعة كبيرة من السودان بعد حروب وقتال عظيم. فأرسل العاضد إلى صلاح الدين يعتب عليه ويقول له: فأين أيمانناكم! هذا الخادم جاهل، فعل ما فعل بغير أمرنا. فقال صلاح الدين: (نحن على الأيمان والعهود ما نتغير، وما قتلنا إلا من قصد قتلنا).

إنهاء خلافة العبيدية في مصر: واستمر صلاح الدين على ذلك والخطبة للعاضد، وقد ضعف أمره وقوي أمر صلاح الدين. ثم أخذ السلطان صلاح الدين في إصلاح أحوال مصر وعمارة البلاد، حتى كانت أول سنة ٥٦٧هـ فكتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة لبني عبيد وأن يخاطب بمصر لبني العباس. فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألا يجيبوه ولم يسعه مخالفة أمر نور الدين، وقال: ربما وقعت فتنة لا تتدارك. فكتب الجواب إلى نور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع منه نور الدين وخش عليه في القول، وألزمه إلزاماً لا محيد عنه. فوقع ذلك وقطعت خطبة العاضد في أول المحرم سنة ٥٦٧هـ.

قأشبة أمر الفاطميين أمر العباسيين لما انتقلت الدعوة منهم إلى الفاطميين لبني عبيد، فإنه أول من خطب للمعز (بعد أول خلفاء مصر) من بني الخطيب عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو وجامع أحمد بن طبلون، وهذا من باب المكافأة والمجازاة؛ أي: إن الذي خطب لبني عبيد كان عباسياً والذي خطب لبني العباس الآن علوياً يقال له: محمد بن المحسن بن أبي المضاء البعلبكي. وأقيمت الخطبة لبني العباس في أول المحرم ٥٦٧هـ. والعاضد مريض، فأخفى عنه أهله ذلك، وقيل: بلغه فأرسل إلى صلاح الدين يستدعيه ليوصيه، فخاف أن يكون خديعة فلم يتوجه إليه. ومات العاضد في يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ، وانقضت دولة الفاطميين من مصر بموته. وندم صلاح الدين على قطع خطبته وقال: لئني صبرت حتى يموت.

ثم كتب صلاح الدين يخبر الملك العادل نور الدين بإقامة الدعوة العباسية بمصر. فكتب نور الدين كتاباً إلى الخليفة العباسي في بغداد من إنشاء العماد الكاتب الأصبهاني، وفيه:

قد خطبنا للمستضيء بمصر	نائب المصطفى امام العصر
ولدينا تضاعفت نعم الل	وجلست عن كل عد وحصر
واستتارت عزائم الملك العا	دل نور الدين الهمام الاعر
هو فتح بكر ودون البرايا	خصنا الله ياقتراع البكر

وصفا الوقت لصلاح الدين وسُمي السلطان، وصار يُخطب باسمه على منابر مصر، بعد الخيفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود. ومن يوم مات العاضد عظم أمر صلاح الدين واستولى على خزائن مصر واستتب بأمورها من غير منازع. غير أنه كان تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود رُثكي.

وكان ابتداء مرض العاضد من أواخر ذي الحجة سنة ٥٦٦ هـ. وبني الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب مدرسة للشافعية في ٥٦٦ هـ، وكان موضعها حبس المعونة، وبني بها أيضاً مدرسة للمالكية تعرف بدار الغزل، وولي صدر الدين عبد الملك بن درياس الكردي القضاء بالقاهرة.

فلما كان ٤ محرم سنة ٥٦٧ هـ جلس العاضد في قصره بعد الإرجاف بأنه أُنخ في مرضه فشوه وهو على ما حقق الإرجاف من ضعف القوى وتحاذل الأعضاء وظهور الحمى، وقيل: إن الحمى قُشت في أعضائه، وقامسك طبيبه المعروف بابن السديد عن الحضور إليه، وامتنع من مداواته وخذله مساعدة عليه للزمان وميلاً مع الأيام. ثم خطب في ٧ محرم باسم الخليفة المستضيء بالله العباسي وصرح باسمه ولقبه وكنيته بمصر.

ومات العاضد بعد ذلك بثلاثة أيام؛ في يوم الإثنين يوم عاشوراء. وكان لموته بمصر يوم عظيم، وعظم مصابه على المصريين كثيراً، ووجدوا عليه وجداً عظيماً، ولا سيما الرافضة فإن نفوسهم كادت تزهق حزناً لانقضاء دولة الرافضة من ديار مصر وأعمالها. وجلس صلاح الدين في عزائه ومشي في جنازته، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله.

واستولى السلطان صلاح الدين على ما في القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره، وكان في القصر من الجواهر النفيسة ما لم يكن عند خليفة ولا ملك مما كان قد جمع في طول السنين. فمنه: القضيبي الزمرد وطوله قبضة ونصف، والجبل الياقوت الأحمر، والمرة اليتيمية مثل بيض الحمام، والياقوتة الحمراء وتسمى الحافر وزنتها أربعة عشر مثقالاً. ومن الكتب المنتخبة بالخطوط النفيسة مئة ألف مجلد. ووجد عمامة القائم وطيلسانه كان البساسيري بعث بهما إلى المستنصر؛ يعني لما استولى البساسيري على بغداد وأسر الخليفة القائم العباسي وخطب ببغداد للمستنصر من بني عبيد، ثم بعث بعمامة القائم وطيلسانه فأخذوهما خلفاء مصر فاحتفظوا بهما نوعاً من النكاية في بني العباس؛ فهذا قول أبي المظفر عن عمامة القائم والطيلسان. قال: ووجدوا أموالاً لا تعد ولا تحصى.

وأفرد صلاح الدين أهل العاضد ناحية من القصر، وأجرى عليهم جميع ما يحتاجون إليه، وسلمهم إلى الخادم قراقوش فعزل الرجال عن النساء واحتاط عليهم.

ومما وجد في خزنة العاضد طيل القولنج الذي صنع للظافر وكان من ضربه خرج منه ريح واستراح من القولنج - قال: فوقع الطيل إلى بعض الأكراد فلم يدر ما هو فكسره؛ لأنه ضرب عليه فخرج منه ريح فحنق قُصبره وكسره.

قال: وفرق صلاح الدين الأموال التي أخذها من القصر على العساكر وباع بعض الجواري والعبيد، وأعطى القاضي الفاضل من الكتب ما أراد، وبعث إلى نور الدين بعمامة القائم وطيلسانه وهدايا وتحف وطيب ومئة ألف دينار.

وكان نور الدين يخلب، فلما حضرت بين يديه قال: (والله ما كان لي حاجة إلى هذا، ما وصل إلينا عشر مشار ما أنفقاه على العساكر التي جهزناها إلى مصر، وما قصدنا بفتحها إلا فتح الساحل وقطع الكفار منه).
وانقضت أيام الخلفاء المصريين بوفاة العاضد، وعدتهم أربعة عشر على عدد بني أمية، لكن أيامهم ظالت فسلكوا مثليين وثماني سنين، وملك بنو أمية ثيفاً وتسعين سنة.

مرسوم الخلافة العباسية بتقليد صلاح الدين سلطاناً لمصر (خريطة طريق لمسيرة صلاح الدين الظاهرة):

يصف الإمام جلال الدين السيوطي مجرى الأحداث في "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة": (فأقام العاضد مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف، ولقبه الملك الناصر. وأهداه خلعة من النقائس في يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠. فلما كان سنة ٦٥٠ حاصرت الفرنج دمياط ٥٠ يوماً، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أن يخطب للخليفة المستجد العباسي بمصر؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك؛ فلما كان سنة ٦٦٠ مات المستجد، وقام المستضيء، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني عباس، وقطع الأذان يحيى على خير العمل من ديار مصر كلها، وعزل قضاة مصر؛ لأنهم كلهم كانوا شيعة، وولى أفضى القضاة بها صدر الدين بن درياس الشافعي، واستتاب في سائر الأعمال شافعية.

فلما دخل سنة ٥٦٧ هـ أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني عباس بمصر في أول جمعة من المحرم وبالقاهرة في الجمعة الثانية، وكان ذلك يوماً مشهوداً؛ والعجب أن أول من خطب للمعز، حين أخذت مصر، عمر بن عبد السميع العباسي الخطيب بجامع عمرو وجامع ابن طولون؛ وكان أول من خطب لبني عباس هذه النوبة شريف عوي، يقال له: محمد بن الحسن بن أبي الضياء البعلبكي. ولما بلغ الخبر نور الدين أرسل إلى الخليفة المستضيء يعلمه بذلك، فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحاً شديداً).

وأرسل أمير المؤمنين الخليفة العباسي في بغداد، المستضيء بأمر الله، إلى الملك صلاح الدين خلعة سنية، ومعها أعلام سود، ولواء معقود، ففرقت على الجوامع بالشام وبلاد مصر، وكتب له تقليداً؛ أي: رسالة رسمية طويلة فيها التهنية والنصيحة البليغة بلغة عربية رائعة، رصينة وفيها رؤية إسلامية ثاقبة وخريطة الطريق، كان لها أبلغ الأثر في مسيرة صلاح الدين الأيوبي من بعد؛ وهو الذي لقبه بـ "الملك الناصر" ولخطورة هذه الوثيقة، نقتطف منها مقتطفات كما يأتي: (وخصها الكامل في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين: الصلاحية والنورية" مؤلفه أبو شامة المقدسي، وفي "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي).

(أما بعد، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذي يكون لكل خطبة قياداً، ولكل أمر مهاداً، ويستزیده من نعمة التي جعلت التقوى لها زاداً، وحملته أعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقاً ولم يأل فيه اجتهداً، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محراباً ولا عرضت عليه جياداً، وحقق في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ لِمَجْلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُبِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فساداً﴾ (التقص: ١٨٢).

ثم يصلّي على من أنزلت الملائكة لنصره إمداداً، وأسري به إلى السماء حتى ارتقى سبعاً شداداً، وتجلّى له ربه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤاداً، ثم من بعده على أسرته الطاهرة التي زكت أوارقاً وأعواداً، وورثت النور البين يلاًداً، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشاداً؛ وخصوصاً عمه العباس المدعو له بأن يحفظ نفسه وأولاداً، ون تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركاً ولا تحشى نقاداً.

وإذا استوفى العلم مراده من هذه الحمدة، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسله، فإنه يأخذ في إنشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسيه، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكدر يرفع من رأسه، وليس ذلك إلا قاضيه في وصف المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الإكثار، واشتبه التلويل فيها بالاختصار، وهي التي لا يقتصر واضعها إلى القول المعاد، ولم يستوعر سلوك أطوارها؛ ومن العجب وجود السهل في سلوك الأطوار. وتلك هي مناقبك أيها الملك الناصر السيد الأجل الكبير، العالم العادل المجاهد المربط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب... وقد كفاك من المساعي أنك كفيت الخلافة أمر منازعها، وطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعيها، ولقد مضى عليها زمن ومحراب حقها محضوف من الباطل بمحاربين، ورأت ما رآه رسول الله ﷺ من السوارين اللذين أولهما كذابين؛ فبعضر منهما واحد تجري أنهارها من تحته؛ ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعه من يوم أحده ولا سبته. وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم بالعمى والضمم، واتخذ صنماً ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجل أو صنم؛ فقامت أنت في وجه باطله حتى قعد، وجعلت في جيده حبلاً من مسد؛ وقلت ليد: تبت، فأصبح ولا يسعى بقدم ولا يبطش بيد.

وكذلك فعلت بالأخر الذي نجمت باليمن ناجمته، وسامت فيه سائمه؛ فوضع بيته موضع الكعبة اليمانية، وقال هذا هو الخليفة الثانية. فأى مقامك يعترف الإسلام بسبقه، أم أيهما يقوم بأداء حقه. وهما هنا قليصيح القلم للسيف من الحساد، وليقتصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد، ولم يحط بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً، وفخر بك حتى طال فخراً كما عز جانباً، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً، لما كان حده ضامياً.

وقد قللك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمانية غوراً ونجداً، وما اشتملت عليه رعية وجندا، وما انتهت إليه أطرافها براً وبحراً، وما يستتقد من مجاورها مسألة وقهراً. وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوي عليه من المدن الممدنة، والمراكز المحصنة، مستثياً منها ما هو بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله وهو حلب وأعمالها؛ فقد مضى أبوه عن آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين، وتخلفه في عقبه في الغابرين، وولده هذا قد هذبته الفطرة في القول والعمل، وليس هذه البروة إلا من ذلك الجيل؛ فليكن له منك جبار يدنو منه وداداً كما دنا أرضاً، وتصبح وهو له كالبيان يشد بعضه بعضاً.

والذي قدمناه من الثناء عليك ربما تجاوزتك درجة الاقتصاد والقتك عن فضيلة الأزياد، فإياك أن تنظر إلى سعيك نظر الإعجاب، فتقول: هذه بلادنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الإضراب. ولكن علم أن الأرض لله ولرسوله، ثم لخليفته من بعده، ولا منة للعبد بإسلامه، بل المنة لله بهداية عبده. وكم سلف قبلك ممن لو رام ما رمته لدنا شاسعه وأجاب مانعه؛ لكن ذخره الله لك لتعطي في الآخرة بمقازة، وفي الدنيا يرفع طرازه. فائق بيدك عند هذا القول إلقاء التسليم، وقل: «لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ» (البقرة: ٣٢).

وقد قرن تقليدك هذا بخلة تكون لك في الإسلام شعاراً، وفي الرسم فخاراً، وتناسب محل قبلك وبصرك؛ وخير ملابس الأولياء ما تناسب قلوباً وأبصاراً، ومن جملتها طوق بوضع في عنقه موضع العهد والميثاق. ويشير إليك بأن الإنعام قد أطلق بك إطلاقة الأطواق بالأعناق. ثم إنك حوطيت بالملك وذلك خطاب يقضي لصدرك بالإنشراح، ولأمك بالانفساح، وتؤمر معه بمد يدك العليا لا تضمها إلى الجناح. وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال: إنها الحسنى وزيادة؛ فإذا صارت إليك فانصب لها يوماً يكون في الأيام كريم الأنساب، واجعله لها عيداً وقل: هذا عيد الخلة والتقليد والخطاب. هذا إنك عند أمير المؤمنين مكانة يجعلك إليه حاضراً وأنت ناء عن الحضور، وتضمن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك، والضنة من

شيم الغيوب؛ وهذه المكناة قد عرفتك بنفسها وما كنت تعرفها؛ وما نقول إلا إنها لك صاحبة وأنت يوسفها، فاحرسها عليك حراسة تقضي بتقديمها، واعمل بها فإن الأعمال بخواتيمها.

واعلم أنك تقلدت أمراً يقتضيه تقي العلوم، ولا يتفك صاحبه عن عهدة الملو، وكثيراً ما ترى حسناته يوم السيامة وهي مقسومة بأيدي الخصوم؛ ولا ينجو من ذلك إلا من أخذ أهية الحدار، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار. واعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار، قال النبي ﷺ: (يا أبا ذر إني أخبأك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم). فانظر إلى هذا القول النبوي نظراً من لم يخذل يحدّث الحرس والآمل، ومثل الدنيا وقد سيقبت إليك بحذافيرها، أليس مصيرها إلى زوال؟...

فخذ هذا الأمر الذي تقلدته أخذ من لم يتعقبه بالنسيان، وكن في رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان؛ وملاك ذلك كله في إسباغ العدل الذي جعله الله ثالث الحديث والكتاب... ومن أكد فروضه أن تمحي السير السيئة التي طال مدد أيامها، ويثس الرعايا من رفع ظلماتها فلم يجعلوا أمداً لاحتسار ظلامها؛ تلك السير هي المكوس التي أنشأتها الهمم الحقيمة، ولا غنى للأيدي الغنية إذا كانت ذا نفوس فقيرة؛ وكلما زادت الأموال الحاصلة منها قدراً، زاده الله محقاً؛ وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقاً، ولو أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظت في عقابه، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه؛ وهي أشقى ممن يكون السواد الأعظم له خصماً، ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علماً؛ وأنت مأمور بأن تأبى هذه الظلمات فتنبه عن إجرائها، وتلحق أسماءها في المحو بإهمالها؛ حتى لا يبقى لها في العيان صورة منظورة، ولا في الالسنه أحاديث مذكورة.

وإذا فعلت ذلك كنت أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يدهاء، وعن الآتي متاعه ظلم وجده طريقاً مسلوكة فحري على يده، فبادر إلى ما أمرت به بمبادرة من يضيق به ذرعاً، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينها فراها في الآخرة مناعاً. وأحمد الله على أن قيض لك إمام هدى يقف بك على هداك، ويأخذ بحجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عداك؛ وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة، وتتمتع في سياستها إلى أيد متساعدة؛ ولهذا يكثر بها قضاة الأحكام، وأولو تدابير السيوف والأقلام؛ وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على نار الاختبار، ويسلط عليه شاهد عدل من أمانة الدرهم والدينار، فما أضل الناس شيء كحب المال الذي فورقت من أجله الأديان، وهجرت بسببه الأولاد والأخوان؛ وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك، فاضرب عليه بالأرصاء، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تتقل بتقل أن جساد. وإياك أن تخذل بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد الحارثي هو تلميذ صاحب فتوح، وقد إلى عمر فأعجبه هيئته ونحوه فشكا عمر طعاماً غليظاً يأكله. فقال الربيع: يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بمطعم طيب وملبس لين ومركب وطيء لأنت، فاضرب رأسه بحريضة وقال: والله ما أردت بهذا إلا مقارنتي وإن كنت لأحسب أن فيك خيراً، ألا أخبرك بمثل ومثل هؤلاء، إنما مثلنا كمثل قوم سافروا فافقوا نفقاتهم إلى رجل منهم وقالوا: انفقهم علينا، فهل له أن يستأثر عليهم بشيء؟ قال الربيع: لا).

والزم التوى أعمال يده ولسانه وقلبه: فإذا صلحت الولا صلحت الرعية بصلاحيهم؛ وهو لهم بمنزلة المصاييح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم. ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخواناً في الأصحاب، وجيراناً في القتراب، وأخواناً في توزع الحمل الذي يثقل على الرقاب؛ فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميراً، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كثيراً؛ وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللقيف، ويتولاها بالوطء العنيف؛ ولكها لمن يمال عن جوانبه، ويؤكل من أطايبه، ولئن إذا غضب لم ير للفضب عنده أثر، وإذا ألحف في

سؤاله تخلق بخلق الضجر، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر؛ فذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين، والذي يدعى بالحفيظ العليم والقوي الأمين، ومن سعادة المرء أن يكون ولأنه متأديب يأذابه، وجازين على نهج صوابه؛ وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسنات مثبتة في كتابه.

وبعد هذه الوصية، فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأم الولود؛ ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود وتيقظت لنصره والعيون رقود؛ وهي التي تسبغ لها الآلاء، ولا يتخطاها البلاء، وأمير المؤمنين عناية تبعها الرحمة الموضوعة في قلبه، والرغبة في المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه. وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمزية إفضالها، وجعلها سبباً إلى التعويض عنها بعشر أمثالها؛ وهو يأمر أن تفقد أحوال الفقراء الذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفف ثوب الفنى وهم في ضيق من الإملاق؛ فأولئك أولياء الله الذين مستهم الضراء فصبروا، وكثرت الدنيا في يد غيرهم فما نظروا إليها إذا نظروا. وينبغي لك أن تهيب لهم من أمرهم مرفقاً، وتضرب بينهم وبين الفقر موبقاً. وما أطلنا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاماً بأنها من المهم الذي يستقبل ولا يستدير، ويستكثر منه ولا يستكبر؛ وهذا يعد من جهاد النفس في بذل المال، ويتوله جهاد الكافر في مواقف القتال؛ وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه ما يجعل السيف في ملازمته أخاً، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخياً. ومن صفاته أن تعمل المحبوب بفضل الكرامة، الذي ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه يمتحن طاعة الخالق على المخلوق، بكل الأعمال عاظمة لا خلوق لها وهي المختص دونها بزيته الخلق، ولولا فضله لما كان محسوباً بشطر الإيمان.

ولما جعل الله الجنة له ثمناً وليس تغييره من الأثمان، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى؛ الذي يبلقك وتبلغه عيناً وأذنًا، ولا تكون للإسلام نعم الجار؛ حتى تكون له شس الجار؛ ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعداء. وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصباحاً، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يد قصد المستغفر لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير، وعلى الخصوص البيت المقدس؛ فإنه بلاد الإسلام القديم، وأخو البيت لحرام في رف التعظيم، الذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم. وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر ربه وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته. فانهض إليه نهضة... انتهى

ولما استقل السلطان صلاح الدين بأرض مصر، أسقط عن أهلها المكوس والضرائب، وقرأ المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة ٥٦٧هـ. واستولى على القصر وخزائنه وفيها من الأموال ما يحصى؛ ووجد خزانة كتب ليس في الإسلام لها نظير، تشتمل على نحو ألفي مجلد، منها بالخطوط المسبوبة من ألف مجلد، فأعطاه القاضي القاضي القاضي.

وأخذ السلطان صلاح الدين في نصر السنة وإشاعة الحق، وإهانة المبتدعة والانتقام من الروافض، وكانوا بمصر كثيرين.

ثم تجردت همته إلى الفرنج وغزوهم؛ فكان من أمره معهم ما ضاقت به التواريخ، واسترد منهم ما كانوا استولوا عليه من بلاد الإسلام بالشام. من ذلك فتح القدس الشريف، بعد أن كان في يد الفرنج... أجى ما بين الشام ومصر من الفرنج. ثم افتتح الحجاز واليمن من يد متغلبها وتسلم دمشق بعد موت نور الدين، حصار سلطان مصر والشام واليمن والحجاز.

وتوفي الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن الفتح محمد العباسي الهاشمي البغدادي في سنة ٥٧٥هـ، وهي السنة التاسعة من سلطنة صلاح الدين على مصر. كان أحسن الخلفاء سيرة، وكان إماماً عادلاً شريف النفس حسن السيرة ليس للمال عنده قدر، خليماً شقيقاً على الزعينة

أبسط المكوس والضرائب في أيام خلافته. وكانت وفاته ببغداد في ثاني ذي القعدة عن 36 سنة، وكانت خلافته 9 سنين. وهو الذي عادت الخطبة باسمه في الديار المصرية والبلاد الشامية والثغور، واجتمعت الأمة على خليفة واحد ونقطعت في أيامه دولة بني عبيد الفاطميين الراقضة من مصر وأعمالها؛ ولله الحمد، وأمه أم ولد مولدة.

تثبيت سلطنة صلاح الدين، مقتطفات من "النجوم الزاهرة":

السنة الثالثة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (569هـ): فيها كتب صلاح الدين لنور الدين يستأذنه في إبعاد جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، فسار إليها وكان فيها عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين، وكان ظالمًا فأتى فحصره شمس الدولة توران شاه في قصره بزييد مدة حتى طلب الأمان فأذنه، فلما نزل إليه قيده ووكل به، وفتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن. يقال: إنه فتح ثمانين حصناً ومدينة واستولى على أموالها وذخائرها وقتل عبد النبي المذكور.

وفي هذه السنة 569هـ توفي البطل نور الدين محمود في الشام، وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أصوب الآراء وأحسنها؛ لتكون مصر والشام فكي كماشة (نزعاً) على الصليبيين. وفي السنة نفسها 569هـ اكتشفت مؤامرة التواطؤ العبيدي - الصليبي الخطرة:

التواطؤ العبيدي الفرنجي: وفيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيدية: مثل داعي الدعاة وعمارة اليمني وغيرهما، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتنة، واتفقوا مع السودان، وكتبوا الفرنج، فقتل داعي الدعاة، وصلب عمارة اليمني، وعمارة اليمني هذا هو أكبر شاعر عرفته مصر في الحقبة الأخيرة من العصر العبيدي الفاطمي، وكان دائم التزلف والنفاق. وكان ذا حظوة عند الوزير الفاطمي طلائع بن زريك، وكتب فيه أجمل قصائد، حين مثل أمام الخليفة العبيدي الفائز ووزيره طلائع، فقال في مطلعها:

الحمد لله العيس بعد العزم والهمم

حمداً يقوم بما أولت من النعم

ثم قال:

فوز التجاة وأجر البر في القسم
وزيره الصالح الفراج للقمم
إلا يبدأ لصنيع السيف والقلم

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً
لقد حمى الدين والدنيا وأهلها
اللابس الفخر لم تتسح غلائله

وبمقتل الوزير طلائع وابنه، صدم عمارة اليمني، لكنه سرعان ما نقض وده ووفاء لهما، فصار يمجّد شاور بقوله:

وزال ما يشتكى الدهر من ألم
والحمد والدم فيها غير منصرم
في صدر ذلك الدست لم يقعد ولم يقم
بأن ذلك جمع غير منهزم
من كان مجتمعاً من ذلك الرحم
وإنما غرقوا في سيلك العرم
تعظيم شأنك فاعذرني ولا تلم

صحت بدولتك الأيام من سقم
زالت لبالي بني زريك وانصرمت
كان (صالحهم) يوماً و(عادلهم)
كنا نظن وبعض الظن مائتة
فعد وقعت وقوع السر خانهم
ولم يكونوا عدو أزل جانيه
وم قصدت بتعظيمي سواك سوى

ولما عاد شاوور إلى السلطنة بعد ٩ أشهر، شبهها بأشهر الحمل والولادة في رحم الأحداث، فقال:

حملت به الأيام تسعة أشهر
حتى جعلن له جمادى مولداً

وقال في مدح الوزير شاوور شعراً يتحدى الزمان أن يأتي بمثله (أي مثل هذا الخائن شاوور):

شجر الحديد من الحديد وشاور
حلف الزمان ليأتين بمثله
من نصر دين محمد لم يضجر
حنث يمينك يا زمان فخر

ثم قضى صلاح الدين على عبثه، ولم يجد عنده حظوة، فصكبت يسب الدهر ويرثي زوال العبيدين، ويتحسر على أعطياتهم:

رمى يا دهر كفاً المجد بالشلل
قدمت مصر فأولتني خلائقها
قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن
وكنث من وزراء الدسث حين سما
وتلت من عظماء الجيش مكرمة
مررت بالقصر والأركان خالية
فملت عنها بوجهي خوف منتقد
أسلت من أسفي دمعي غداة خلت
وجيده بعد حمن الحلبي بالمثل
من المكارم ما أريبي على ادمل
كمالها أنها جاءت ولم أسل
رأس الحصان يهادية على الكتل
وخلت حرسيت من عارض الحلل
من الوفود وكانت قبلة القيل
من الأعداء ووجه الود لم يمل
رخابكم وغدت مهجورة السبل

وله هذه الأبيات:

إذا لم يسلمك الزمان فحارب
ولا تحتقر كيداً ضعيفاً فريماً
وقد هدّ قدماً عرش بلقيس هدهد
وباعد إذا لم تتفجع بالأقارب
تموت الأفاعي من سموم العقارب
وخرب فار قبل ذا سد حارب

ومن ثم ألقي قصيدة أشاد بها بمنافق صلاح الدين، ولكنها كانت مدحاً مطلوباً على الذمّ مطلقاً بالهجاء، ممتلئة بالغمز واللمز، كمن يدمس السم بالعلل، راجياً صلاح الدين أن يرفق بالفاطميين!! وقيل: إن سبب قتله أنه مدح توران شاه وحرضه على أخذ اليمن بقصيدة أولها:

تعلم مدّ كان محتاج إلى العلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته
وكان أول هذا الدين من رجل
وشفرة السيف تستغني عن العلم
كما يقول الوري لحماً على وشم
سعى إلى أن يدعو سيّد الأمم

قال العماد الكاتب: اتفقت لعمارة اتفاقات: منها أنه نسب إليه قول هذا البيت فكان أحد أسباب قتله، وأفتى قضاء مصر بقتله. وقيل: إنه لما أمر صلاح الدين بصلبه مروا به على دار القاضي الفاضل فرمى بنفسه على بابه، وطلب الدخول إليه ليستجير به، فلم يؤذن له، فقال:

عبد الرحيم قد احتجب
إن الخلاص من العجب

والحقيقة أن عمارة اليمني قد اشترك في مؤامرة مع ذيول الفاطمية، فكاتبوا الفرنجة وحرصوهم على غزو مصر وقتل صلاح الدين، ولكن أحد المشتركين وشي بهم، وقد مال القاضي الفاضل يتشفع في عمارة إلى صلاح الدين، ولكن عمارة ظن أنه يغريه بقتله، فقال للسلطان: مولانا، لا تسمع منه... فإنه عدوي!!! فغضب القاضي الفاضل وغادر المجلس. وعندئذ قال صلاح الدين لعمارة: إنه كان يشفع فيك... وقد قبلنا سؤالك فيه. ثم ساقوه ليشنق على باب بيته، فطلب أن يمروا على بيت القاضي الفاضل واسمه عبد الرحيم. وكان جالساً على باب بيته، فلما رأى عمارة مخفوراً، دخل بيته وأغلق بابه، فصاح عمارة بأخر أشعاره:

عبد الرحيم قد احتجب إن الخلاص من العجب

وكان علي بن نجا، الواعظ الدمشقي الحنبلي، صاحب حظوة عند نور الدين ثم عند صلاح الدين، هو الذي تم على عمارة اليمني فصلب، وكانت لابن نجا مكانة بمصر من قبل مجيء صلاح الدين، (فهو يعرف عمارة جيداً)، وهو الذي أنشد من على منبره للوزير طلائع بن رزيق الذي قاتل الفرنجة في صور:

مشييك قد قضى شرخ الشباب وحل الباز في وكر الغراب
تقام ومقللة الحداث يقظى وما ناب النوائب عنك ناب
فكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب؟

وأنشد تاج الدين الكندي في قتل عمارة اليمني، الذي مالا الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين، بآراد عودة دولة الفاطميين، فظهر على أمره فصلب مع من صلب في سنة ٥٦٩هـ:

عمارة في الإسلام أبدي خيانة وحالف فيها بيعاً وصليبا
فأمسى شريك الشرك في بغض أحمد وأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته تجد منه غوداً في النفاق صليبا

وملك السلطان صلاح الدين دمشق من الملك الصالح، ابن الملك العادل نور الدين محمود، في السنة الرابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٧٠هـ)؛ وذلك لأنه صبي لا يستقل بالملك. وكان أخذه إلى دمشق فكاتبه القاضي كمال الدين الشهرزوري وابن الجاولي والأعيان. وكان بالقلعة ربحان الخادم فعزم على قتاله، فجهز إليه عسكر دمشق وركب صلاح الدين من الجسور فالتقاء أهل دمشق بأسرهم وحدثوا به، فنثر عليهم الدراهم والدنانير ودخل دمشق فلم يغلق في وجهه باب ولا منعه مانع فملكها عناية لا عنوة.

وتوفي الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب في السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين، وهي سنة ٥٧٧هـ، بمرض القولنج. وكان لما اشتد به مرض القولنج وصف له الحكماء قليل خمر، فقال: لا أفعل حتى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعية فأفتوه بالجواز فلم يقبل، وقال: إن الله تعالى قرب أجلي، أي أخره شرب الخمر؟ قالوا: لا. قال: فوالله لا لقيت الله وقد فعلت ما حرم علي فمات ولم يشربه. وزراء صلاح الدين وكتاب سره ودواوينه:

القاضي الفاضل والعماد الكاتب (وأيضاً بهاء الدين بن شداد الأسدي قاضي القدس بعد فتحها)، وفيها استخدم صلاح الدين الدين العماد الكاتب الأصبهاني؛ وسببه أنه التقى بالقاضي الفاضل ومدحه بأبيات منها:

عنيت طلود سكية ورأيت شم	س فضيلة ووردت بحر فضائي
ورأيت سحبان البلاغة ساحباً	ببيان ذبل الفخار لوائى
حلف الحصافة والفصاحة والسما	حة والحماسة والتقى والنائى
بحر من الفضل الغزير خصمه	طامي العباب وما له من ساحى
في كفه قلم يعجل جزيه	ما كان من أجل ورزق آجى
أبصرت قسماً في الفصاحة معجزاً	فعرفت أني في فهاهة باقى

فدخل القاضي الفاضل على السلطان صلاح الدين وقال: غداً تأتيك تراجم الأعاجم وما يحلها مثل العماد الكاتب. فقال: (ما لي عنك مندوحة، أنت كاتب ووزير وقد رأيت على وجهك البركة، فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس). فقال الفاضل: (هذا يحل التراجم وربما أغيب أنا ولا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد مقامي، وقد عرفت فضل العماد وخدمته للدولة النورية فاستكتبته).

وبرع القاضي الفاضل (واسمه عبد الرحيم البيساني) في منصبه كاتباً لديوان الجيش، فتولى رئاسة ديوان المكاتبات الفاطمي سنة (٥٦٦هـ-١١٧٢م)، وتمكن من إقامة علاقات وثيقة بكبار رجال الدولة في مصر، وخاصة الأيوبيين الذين بدأ نفوذهم يتوسع على حساب الفاطميين، وقد أسهم القاضي الفاضل مع الأيوبيين في (إزالة الدولة الفاطمية)، ولعل سبب ميوله إلى الأيوبيين يكمن في إدراكه رغبة المصريين في مناصرة الأيوبيين لتخالف الفاطميين في الدفاع عن مصر أمام العدوان الصليبي، وأن الدولة الفاطمية أمست في أيامها الأخيرة ضعيفة، إذ إن زوالها لم تكن من الصعوبة، ولم ينتطح فيها عنزان (كما يقول ابن الأثير).

إن إسهام القاضي الفاضل في تغيير الأوضاع السياسية في مصر كانت من القضايا الخطرة في حياته السياسية والعلمية: لأنها فتحت له آفاقاً جديدة بل أصبحت منزلته عالية ومكانته رفيعة، فلقد توسم فيه صلاح الدين بفراسته تميزه الواضح، فقد ذكر العماد الكاتب أنه كان (صاحب القرآن، العديم الأقران، ووحيد الزمان العظيم الشأن)، وقد وصفه البيгдаي بأنه (كان ضعيف البنية رقيق الصورة، له حذبة يسترها الطيلسان، .. نزيه عفيفاً قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد). وأصبح القاضي الفاضل الرجل الثاني في دولة صلاح الدين (إذ تمكن منه غاية التمكن)، وكان صلاح الدين (لا يصدر أمراً إلا عن مشورته)، لذلك أشاد بأقوت الحموي بحنكته السياسية حينما قال: (إن الدنيا تدبر برأيه)، وعلى الرغم من المبالغة في هذا القول، نرى أنه دليل يرجع عقلية القاضي الفاضل ونجاحه في الإسهام في قيادة الدولة الأيوبية.

وبناءً على ذلك اعترف صلاح الدين صراحة أمام الناس بالجهود الكبيرة التي بذلها القاضي الفاضل في تثبيت أركان دولته، فقد قال مثنياً تلك الجهود: (لا تظنوا ملكك البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل). أما نغامة العلمي وأبداعاته في فنون صناعة الإنشاء والكتابة، فمن المفيد أن نذكر النصوص التي ذكرها المؤرخون والأدباء في ترجماتهم له، فقد أطلق عليه عمارة اليميني أنه "شجرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" (وعمرارة هو الذي تواطأ مع الفرنجة وأفتى العلماء بصلبه فصلب).

وجعل العماد الكاتب نزعته الأدبية نموذجاً جديداً في صناعة الكتابة لعصره فوصفها بالشريعة (المحمدية التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع)، وأكد العماد أن القاضي الفاضل هو (رب القلم والبيان واللسن واللسان)، شأنه شأن كبار رجال عصره في تشييد المدارس ودور الحديث والمكاتب والربط والزوايا: فقام بتشيد

مدرسة في القاهرة وافتتح التدريس فيها سنة (٥٨٠هـ - ١١٨٤م)، وقد وضعت هذه المدرسة بأنّها من أجل مدارس مصر التي تُدرس فيها العلوم الشافعية والمالكية، وألحق بها مكتبة لتعليم الأيتام، واحتوت هذه المدرسة على مكتبة تضم مجاميع كبيرة من الكتب. ويظهر أن أكثر هذه الكتب اشتراها القاضي الفاضل من خزانة القصر الفاطمي عند انقراض الدولة الفاطمية، وذكرت المراجع أنها كانت تحتوي على مئة ألف كتاب مجلد إضافة إلى مكتبته الخاصة التي قدر عدد كتبها بمئة وعشرين ألف كتاب مختلفة الأنواع. وقد خصص القاضي الفاضل لها سناً لا يمترون، ومجلدين لا يسامون؛ لغرض إدامتها وتوزيعها على طلبتها، وهذا يعكس الجو الثقافي العلمي المتقدم الذي عاصره طلبة القاضي الفاضل.

ولم يقصد القاضي الفاضل مركزه السياسي والإداري إلا بعد وفاة صلاح الدين سنة (٥٨٩هـ - ١١٩٣م). فقد اشتد الصراع السياسي بين أبناء أسرته فلم يرق للقاضي الفاضل مقامه في دمشق، فذهب إلى مصر تاركاً وراءه السياسة والحكم. ولعل هذا من أسباب وفاته في يوم الأربعاء السابع من ربيع الأول سنة (٥٩٦هـ - ١١٩٩م) (وهو اليوم الذي دخلت فيه جيوش الملك العادل مصر)، ودُفن في سبخ المقطم. وكان لوفاته وقع شديد عند العماد الكاتب الذي عبر عنه بقوله: (في هذه السنة تمت الرزية الكبرى والبليّة العظمى وفجيعه أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء). ووصفه النويري بأنه (كاتب الشرق والغرب).

محاولة الحشاشين الباطنية اغتيال صلاح الدين: وبينما كان يحاصر حلب يوم ٢٢ أيار/مايو ١١٧٦م حاول الحشاشون اغتياله، فأجروا محاولتين كانت ثانيهما وشيكة إلى حد أنه أصيب. وبعد إخفاق محاولة الاغتيال، فرض صلاح الدين نفوذه على الجزيرة وشمال العراق والموصل وسنجار وماردين وديار بكر، وسيط نفوذه على الحجاز.

يقول أبو شامة المقدسي في كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين"، (لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج، أيقن من هم تحت سلطتهم بخروج مائة أيديهم من المعازل والقلاع، ونصبوا الحبال للسلطان. فكانوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية، ورغبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على اليتاع، فأرسل، لعنه الله، جماعة من أصحابه فجاؤوا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان عليهم يحدون فرسة ينتهزونها، فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جا ولي، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى انقتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا يترك الزرقة عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه؛ فلم تصنع ضربة الحشيشية شيئاً لمكان صفائح الحديد، أحس الحشيشي بها على رأس السلطان، فسبح يده بالسكينة إلى حد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتنعت السلطان بذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه، ووضع على الأرض وركبه لينحره؛ وأدرك من كان حول السلطان دهشة أخذت عقولهم وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج، وقيل: إنه كان حاضراً، فاختطف سيعاً وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير داود بن منكلان الكردي وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى ابن منكلان فجرحه في جبهته، وقتله ابن منكلان. ومات ابن منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطني، ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه، فذاع علي: (أقتلوه واقتلوني معه)، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يخضعه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس. وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقية الأثير شهاب الدين محمود، خال السلطان، فتعكب الباطني عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطعوه بالسيف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سراقده ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراز والاحتراز، وضرب حول سراقده مثال الخرakah، ونصب له في وسط سراقده برجاً من الخشب كذي يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه. وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر).

يقول ابن تقي بريدي في (النجوم الزاهرة) تحت السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر (٥٧١هـ): (وفيها وثبت الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو على أعزاز. إذ جاءه ثلاثة في زي الأجناد فضربه واحد بسكين في رأسه فلم يجرحه وخدشت السكين خده، وقتل الثلاثة. فرحل صلاح الدين إلى حلب فلما نزل بها بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود (الصبي) أخاه ختونة بنت نور الدين في الليل، فدخلت عليه فقام قائماً وقبل الأرض لها وبكى على نور الدين، فسأله أن يرد عليهم أعزاز فأعطاه إياها، وقدم لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصالح أن من جاءه وما فتحه إلى مصر له وباقي البلاد الحلبية للصالح. وفيها قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق في سلخ ذي الحجة).

زواج صلاح الدين من أرملة نور الدين: في السنة السادسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر، وهي سنة ٥٧٢هـ، تزوج السلطان صلاح الدين يوسف بالختان عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنور زوجة الملك العادل نور الدين محمود؛ وكانت بقلعة دمشق.

وهكذا غضد السلطان صلاح الدين ملكه بالزواج من أرملة نور الدين، ثم بسط نفوذه على حب والموصل عامي ١١٧٦، و١١٧٧م على التوالي.

تمرد السودان: وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له: "الكتتر" جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية المصرية. وكان بعض أهل مصر يؤثرون عودهم وأنضافوا إليه، فسير صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل، فساروا والتقوا به وكسروه في السابع من صفر سنة ٥٧٠هـ.

وكانت في ٥٧٢هـ فتنة مقدم السودان من صعيد مصر سار من الصعيد إلى مصر في مئة ألف أسود ليعيد الدولة المصرية الفاطمية فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر وأبو الهجاء الهكاري وعز الدين موصك بمن معهم من عساكر مصر والتقوا مع السودان، فكانت بينهم وقعة هائلة قتل كبير السودان المذكور ومن معه. قال الشيخ شمس الدين يوسف في مرآة الزمان: "يقال: إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفاً وعادوا إلى القاهرة. ثم بعد ذلك استقرت لصلاح الدين قواعد الملك".

وأبطل صلاح الدين في ٥٧٢هـ المكوس التي كانت تؤخذ من الحاج بجدة مما يحمل في البحرة وعرض صاحب مكة عنها في كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحاً تحمل إليه في البحر فتسرق في أهل الحرمين. وفيها عمر صلاح الدين مدرسة الشافعي بالقرافة وتولى الشيخ نجم الدين الخبوشاني عمارتها. وعمر البيمارستان في القصر ووقف عليه الأوقاف، وبُنيت قلعة الجبل بالقاهرة في عام ٥٧٧هـ (قلعة صلاح الدين في السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين).

حماية الحرمين الشريفين: خرج صلاح الدين الأيوبي بعساكر العاضد إلى الشام (حيث مملكة القدس) في جمادى الآخرة عام ٥٦٦هـ (١١٧٠-١١٧١م)، فأغار على غزة وعسقلان والرملة وعلى مقاطعتي شرق الأردن، وقلع الشوبك والكرك التي كان الصليبيون يسيطرون عليها. ثم مضى إلى مدينة أيلة (إيلات) وكان بها قلعة فيها جماعة من الفرنج، والتقاء الأسطول في البحر، فافتتحها وقتل من فيها وشحنها بالرجال والعدد، وكان على درب

حجاز منهم خطر عظيم، وقطع صلاح الدين بذلك خطوط التواصل بين مملكة القدس وبين البحر الأحمر، فقد جعل إيلات مقر قيادة جنده وأسطوله البحري؛ لحماية الحجاز (مكة والمدينة) من غارات الصليبيين، ولتأمين سلامة الحجيج إلى بيت الله الحرام، ثم عاد صلاح الدين إلى مصر في جمادى الآخرة (انظر فيما سيأتي).

الحرب مع الصليبيين؛ بينما كان صلاح الدين يعمل على بسط نفوذه على عمق سوريا فقد كان غالباً يترك الصليبيين لحالهم مرجحاً المواجهة معهم، وإن كانت غالباً لم تغب عنه حتميتها، لكنه كان عادة ما ينتصر عندما تقع مواجهة معهم. وكان الاستثناء هو معركة مونتجيسارت في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١١٧٧م، إذ لم يُبذل صليبيون مقاومة، فلم يوقف صلاح الدين قوات جنوده من السعي وراء الغنائم فتشتت، فهاجمته قوات بولندوين السادس ملك أورشليم القدس وأرنط وهرسان المعبد وهزمت. لكن صلاح الدين عاد وهاجم الإمارات الفرنجية من لغرب، وانتصر على بولندوين في معركة مرج عيون في ١١٧٩م، وانتصر أيضاً في ١١٨٠م في موقعة خليج يعقوب، ثم كانت الهدنة بين الصليبيين وصلاح الدين في ١١٨٠م.

لكن غارات الصليبيين عادت فحفرّت صلاح الدين على الرد. فقد كان أرنط يتحرش بالتجارة وبالحجاج المسلمين بواسطة أسطول له في البحر الأحمر، فبنى صلاح الدين أسطولاً من ٣٠ سفينة لمهاجمة بيروت في ١١٨٢م، وعندما هدد أرنط بمهاجمة مكة والمدينة، حاصر صلاح الدين حصن الكرك معقل أرنط مرتين في عامي ١١٨٣ و١١٨٤م، قهر أرنط بكل حيث بمهاجمته لقواقل حجاج المسلمين الأمنيين العزل من السلاح لإحرامهم عام ١١٨٥م.



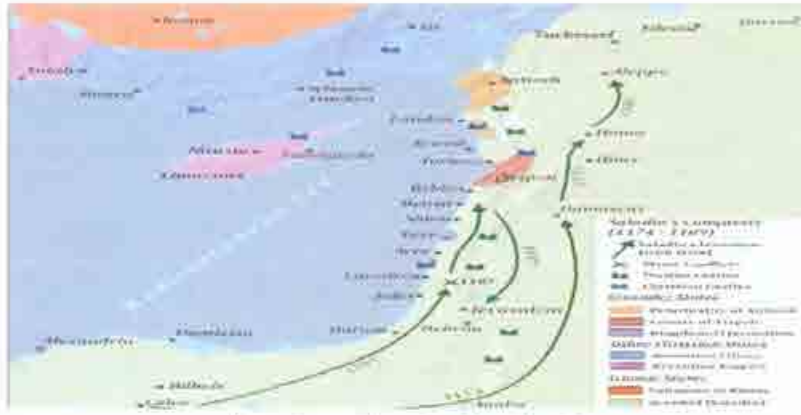
صورتان تفصيليتان للملامح المجاهد الزاهد البطل السلطان الناصر "صلاح الدين الأيوبي"

حسب رؤية من شاهده من صليبيّي أوروبا في العصور الوسطى

(لاحظ الشبه بين الصورتين على الرغم من اختلاف العمر بينهما)

وانظر سماحة وجهه، وطول لحيته، وعمامته التي شبهها الرسّام بتاج ملوك أوروبا)

قال ابن السبكي في الطبقات الكبرى: (له من الفتوحات التي خلصها من أيدي الفرنج قلعة آيلة، وطبريا، عكا، والقدس، والخليل، والكرك، والشوبك، ونابلس، وعسقلان، وبيروت، وصيدا، وبيسان، وعزة، ولد، حيفا، وصغوريا، ومعليا، والقلعة، والطور، وإسكندرونة، وهفوس، ويافا، وأرسوف، وقيسارية، وجبل، ونبل، معلية، وعمر بلال، واللجون، ولستمّة، وياقون، ومجدل يابا، وتل الصافية، وبيت نوبا، والطرّون، والجيب قبيزا، وبيت لحم، وريحاء، وقرا، واحضر الدير، ودمرا، وققليليا، وصرير الزيت، والوعر، والهرمس، وتقليسا، لعازريا، وقصرع، والكرك، ومجدل، والحر غير في جبل عاملة، والشقيف، وسيسطيا ويقال: بها قبر زكريا، جبيل، وكوكب، وأنطروطوس واللاذقية، ويكسراثيل، وصهيون، وجبلّة، وقلعة العيد، وقلعة الجماهرية، يلاطنس، والشغر، ويكاس، وسمر سامية، وبزّرية، ودرساك، ويغراس، وصقد، وله مصافات يطول شرحها.



فتوحات صلاح الدين (١١٧٤-١١٨٩م).

وافتح كثيراً من بلاد النوبة من يد النصاري، وكانت مملكته من المغرب إلى تخوم العراق ومعها اليمن والحجاز، فملك ديار مصر بأسرها مع ما انضم إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلب وما والاها، وأكثرها ديار ربيعة وبكر والحجاز بأسره واليمن بأسره، ونشر العدل في الرعية، وحكم بالقسط بين البرية، وبنى المدارس والخوانق، وأجرى الأرزاق على العلماء والصلحاء، مع الدين المتين والروع والزهد والعلم، وكان يحفظ القرآن والتبني والحماسة، وهو الذي ابتنى قلعة القاهرة على جبل المقطم التي هي الآن دار السلاطين (تسمى اليوم قلعة صلاح الدين)، ولم يكن للسلاطين قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة، وفتح بلاد المسلمين حران، وسرج، والرها، والرقبة، والبيرا، وسنجار، ونصيبين، وأمد، وملك حلب، والمواريق، وشهز. وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحبها تحت طاعته. وفتح عسكره طرابلس الغرب وبقية من بلاد المغرب، وكسر عسكر تونس، وخضب بها لبي العباس. ولو لم يقع الخلاف بين عسكره الذين جهزهم إلى المغرب لملك الغرب بأسره، ولم يختلف عليه مع طول مدته أحد من عسكره على كثرتهم. وكان الناس يأمنون ظلمه لعدله، ويرجون رفته لكثرتهم، ولم يكن ليطبل ولا لصاحب هزل عنده نصيب. وكان إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وإذا عاهد لم يخن. وكان رقيق القلب جداً.

ورحل إلى الإسكندرية بولديه الأفضل والعزير لسماع الحديث من السلفي، ولم يعهد ذلك ملك بعد هارون الرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطأ. ومن صنائع السلطان صلاح الدين أنه أسقط المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ منهم شيء كثير، ومن عجز عن أدائه حبس، وقد كان الخليفة المستضيء أرسل إليه في سنة أربع وسبعين خلعاً سنياً، وزاد في ألقابه "معز أمير المؤمنين". ثم لما ولي الخليفة الناصر في سنة ست وسبعين أرسل إليه خلعاً الاستمرار، ثم أرسل إليه في سنة الثنتين وثمانين يعتبه في تلقيبه بالملك الناصر، مع أنه لقب أمير المؤمنين، فأرسل يعتذر إليه بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء، وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب، فهو لا يعدل عنه، وتأدب مع الخليفة كل الأدب. انتهى

موقعة حطين على أرض فلسطين (الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٤ تموز ١١٨٧م)

دخل الصليبيون القدس في ٢٢ شعبان سنة ٤٩٢هـ الموافق ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩م وقاموا بدمج أهلها من المسلمين واليهود رجالاً ونساءً وأطفالاً، وقتلوا ما بين ٦٠ و١٠٠ ألف. وقد هزت هذه الهزيمة المسلمين في شتى بقاع الأرض. وبعد نحو قرن من الزمان وضع صلاح الدين خطة خربية محكمة، وأحسن اختيار الزمان والمكان المناسبين للمعركة المنتظرة، فتقدمت الجيوش تحت قيادته من الشرق نحو فلسطين. وبدأ بمحاصرة مدينة طبريا، وهي مهمة لدى الصليبيين، ثم أسرع واستولى عليها، وأحاط بها من كل جانب، وأحكم قبضته على مصادر المياه في المنطقة كلها. عندئذ تجمعت جيوش الصليبيين وحاولت مهاجمته والتقدم لاسترجاع طبريا. وهذا ما أراد صلاح

الدين، فقام على الفور بمحاصرة القوات الصليبية في وادي ضيق بين جبلين ومنعهم من الوصول إلى خزانات المياه، إذ دارت المعركة في ٣ تموز ١١٨٧م في فصل الصيف الشديد الحرارة في هذه البقعة من فلسطين، والصليبيون في اتحديد، وهذا يزيد الطين بلة، وتحركت قوات صلاح الدين في جنح الظلام، وأشعلت النيران حولهم في صبيحة اليوم الثاني للمعركة ٤ تموز.

ثم حاصروهم حصاراً محكماً، وأمطروهم رماة صلاح الدين من خلال الدخان الذي أعمى أبصارهم بوابل من السهام (٤٠٠ سهم في كل دفعة)، وهذا زاد في جهدهم وعنائهم. ثم فتح لهم ثغرة ضيقة للاندفاع منها إلى الماء وهم غاية في العطش، فاستطاعت قواته أن تهجم عليهم من كل جانب وتحصدتهم حصداً، ودارت معركة حامية بين الطرفين وانتصر صلاح الدين نصراً مبيناً على جيوش الصليبيين. وكانت هزيمتهم في حطين بداية النهاية لاحتلالهم الشرق الإسلامي.

ولترك ابن تغري بردي يصف وقعة حطين في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة": (وقعة حطين المباركة على المسلمين: وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ٥٨٢هـ في وسط نهار الجمعة. وكان صلاح الدين كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت واجتمع له من العساكر الإسلامية عدد يفوق الحصر، وكان قد بلغه أن العدو اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفوريا بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين ونزل طبريا على سطح الجبل يتظر قصد الفرنج: فلما بلغهم نزوله في الموضع المذكور لم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم في الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر: فلما رأهم لا يتحركون نزل جريدة على طبريا وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو، ونزل طبريا وهاجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما فيها وأخذوا في القتل والسبي والحريق، وبقيت القلعة ممتلئة بمن فيها.



من موقع "حطين" الفاصلة إلى تحرير القدس يقع موقع "حطين" قرب مواقع المعارك الفاصلة في التاريخ: اليرموك (على نهر اليرموك)، وعين جالوت (قرب بيسان)

ولما بلغ العدو ما جرى في طبريا قلقوا لذلك، وزحلوا نحوها فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبريا من يحاصرها ولحق بالعسكر والتقى بالعدو على سطح جبل طبريا الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر. ثم حال الليل بين العسكرين فناما على المصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال واشتد الأمر ودام القتال حتى لم يبق إلا الظفر. ثم حال الليل بينهم وناما على المصاف وتحقق المسمون أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد العدو وأنهم لا يتجهم إلا القتال والجهاد.

وأصبحوا من الغد ، فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر ، وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين.



معركة حطين أو قرنا حطين (أي وادي حطين بين الجبلين) عام ١١٨٧، التي قلبت موازين القوى لصالح المسلمين ضد الصليبيين. تخطت سيطرة المسلمين (أصحاب الدروع السوداء) على المياه، ومنع الصليبيين (ذوي الدروع الصفراء والرايات) من الوصول إلى المياه، وتطويقهم، وإبادة حضرائهم.

ولما أحس الملك القومص (الكوث وبنوئد الثالث أمير طرابلس) بالخذلان هرب في أوائل الأمر وقصد جهة صور ، فتبعه جماعة من المسلمين فنجوا منهم وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب وأطلقوا عليهم السهام وحملوا عليهم بالسيوف وسقوهم كس الجمام وانهزمت طائفة منهم ، فتبعهم المسلمون يقتلونهم واعتصمت طائفة منهم يتل له تل حطين ، وهي قرية عندها قبر النبي شبيب عليه السلام ، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران واشتد بهم العطش فاستسلموا للأسر خوفاً من القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون ، وكان ممن أسر من مقدميهم الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) وأخوه الملك والبرنس أرنط صاحب الكرك والشوبك وابن الهنكري وابن صاحب طبريا ومقدم الديوية (أي فرسان الهيكل). قال ابن شداد: لقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً ومعه ثياب وثلاثون أسيراً ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان. ثم إن الملك القومص الذي هرب في أول الواقعة وصل إلى طرابلس وأصابه ذات الحنب فهلك.

وأما مقدم الأستبار والديوية فقد قتلها السلطان صلاح الدين ، وقتل من بقي من أصحابها حياً وأما البرنس أرنط فإن السلطان كان نذر أنه إن ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر إليه بالشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فقدر بهم وقتلهم فهاشده الصلح الذي بيته وبين السلطان ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ ، وبلغ ذلك السلطان فحملته حمية دينه على أن أهدر دمه.

ولما فتح الله عليه بالتصير جلس بالدهليز يعني الخيمة ، فإنها لم تكن نصبت بعد لشغل السلطان بالنجها وعرض عليه الأسرى وصار الناس يتقربون إليه بما في أيديهم منهم ، وهو فرح بما فتح الله عليه ، وشخص الملك جفري وأخاه والبرنس أرنط ، وتناول السلطان الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) شربة من جلاب وثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناولها البرنس ، ثم قال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته ، وأما أنا فما سقيته ، فإنه كان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمر ، فلذا قال السلطان للترجمان: أنت الذي سقيته.

ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فأكلوا شيئاً ثم عادوا بهم ولم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم فاستحضرهم وأقعده الملك في دهليز الخيمة ، فطلب البرنس أرنط (أي رينو دو شاتيون) وأوقفه بين يديه وقال له: (ها أنا آنصير لمحمد منك) ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل ، فسأل النيمجة فضر به فحل كتفه ، وتم قتله من حضر ، وأخرجت جثته قمرميت على باب الخيمة.



السلطان الناصر صلاح الدين بعد انتصاره في معركة حطين، وهو في خيمته يبيت في أسراه الصليبيين، وفيهم ملكهم غي لوزنيان



قتل أرناط (أي رينو دو شاتيون) الذي قتل الحجاج وسب النبي ﷺ

فلما رآها الملك جفري (يقصد غي لوزنيان) لم يشك أنه سيُلحقه به، فاستحضره السلطان وطُيَّب قلبه وقال له: (لم أجبر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، إلا أن هذا تجاوز الحد فَجَرَأَ على الأنبياء صلوات الله عليهم)، ثم أمره بالانصراف. جات الناس تلك الليلة على أتم سرور.

يقول العماد الكاتب في هذه الواقعة قصيدة طنانة منها:

ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ولكنستهم إذ صار سهمهم تكسا
دماراً كما بُسَّت جبالهم بنا
ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

حطمت على حطين قدر ملوكهم
كسرتهم إذ صخ عزمك فيهم
بواقعة رجّت بها الأرض جيشهم
بطون دثاب الأرض صارت قبورهم

حطين فاتحة الفتوح:

لقت معظم حاميات الصليبيين حتفها بعد اشتراكها في حطين، ثم رحل السلطان بعد أن تسلم طلبها ونزل على عكا في يوم الأربعاء، سلخ شهر ربيع الآخر، وقاثلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ٨٢٠هـ، وأخذها واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين؛ وكانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، واستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائع؛ لأنها كانت مظنة التجار، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع.

ثم سار السلطان من عكا ونزل على تبثين يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فحاصرها حتى أخذها في يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى المذكور عنوة. ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها، ثم رحل عنها وأتى بيروت فنزلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى حتى أخذها في يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى.

ولما فرغ باله من هذا رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصورة بعد أن نزل بها... فأتى عسقلان ونزل بها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة. وأقام بها إلى أن تسلم أصحابه مدينة غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها ثانياً من المسلمين ٢٥ عاماً.

ولما تسلم السلطان عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك واجتمع إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمداً على الله تعالى ومفوضاً أمره إليه، منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه ﷺ بقوله: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يعلق دونه».

ولما استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر كتب إلى الوزير ببغداد على يد شمس الدين محمد بن المحسن بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكي، الذي خطب أول شيء بمصر لبني العباس بإشارة السلطان صلاح الدين وكان الكتاب من إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي، وكان مما فيه: (وقد توالى الفتوح غرباً وبعثاً وشاماً، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر، حرماً حراماً، وأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها صمماً وعمياناً، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلة في شيع الضلال شائعة؛ وذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسموا أعداء الله أصدقاء، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعاً، وفرقوا أمر الأمة وكنز مجتمعاً، وكذبوا بالنار فجعلت لهم نار الحتوف، ونشرت أقلام الظلم حروف رؤوسهم نشر الأقلام للحروف، ومزقوا كل ممزق، وأخذ منهم كل مخنق، وقطع دابرهم، ووعظ بهم غابرهم، ورغمت أنوفهم ومنابرهم، وحقت عليهم الكلمة تشريداً وهتلاً، وتمت كلمات ريك صدقاً وعدلاً، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم، ولا النيل عن السير إليهم بفائم). (النجوم الزاهرة لابن تغري بردي جزء ٢)

تابع صلاح الدين تحرير البلاد من الفرنجة، حتى لم يبق معهم من المدن المنيعه سوى صور التي صارت مكار تجمعهم وانطاكيا وطرابلس. ولقد حدث ذلك في عام ونصف، وهي مدة قياسية، وقبيل فتح القدس، كان صلاح الدين قد استعاد كل المدن تقريباً من الصليبيين، ما عدا صور التي كانت المدينة الوحيدة الباقية في يد الصليبيين ومن الناحية الإستراتيجية ربما كان من الأفضل لصلاح الدين فتح صور قبل القدس؛ لكون الأولى موقعها على البحر تشكل مدخلاً لإمدادات الصليبيين من أوروبا، لكنه اختار البدء بالقدس؛ بسبب أهميتها لروحية لدى المسلمين.

ونهمجيء عام ٥٨٦هـ - ١١٨٩م، لم يبق في أيدي الصليبيين من كل أرض سوريا وفلسطين سوى صور وأنطاكية وطرابلس وبعض مدن وقلاع صغيرة مبعثرة هنا وهناك. والحق أن هذه الأماكن الساحلية التي استهان المسلمون بها وتركوها في أيدي الصليبيين كانت سبباً في كثير من المتاعب للدولة الإسلامية بعد ذلك، فقد تجمع فيها الصليبيون العاززون من الأماكن الأخرى، وقاموا بهاجمة البلاد الإسلامية المجاورة، واستولوا على بعضها، وساعدوا الحملات الصليبية الثالثة التي جاءت من الغرب وكبدت المسلمين خسائر فادحة.

كانت صور في ذلك الوقت تحت إمرة كونراد أمير مونتفرات الذي حصنها فصمدت أمام حصارين لصلاح الدين. ثم أطلق صلاح الدين سراح غي دي لوزنيان وأعادته إلى زوجته سيلا ملكة أورشليم السابقة، فلجأ أولاً إلى طرابلس ثم إلى أنطاكية. وحاولاً عام ١١٨٩م استعادة صور، لكن كونراد حاكمها رفض دخولها؛ لأنه لم يكن يعترف بهما بعد فتح المسلمين للقدس، فذهب لوزنيان لحصار عكا ومن ثم جاءته إمدادات الحملة الصليبية الثالثة، فاستولوا عليها.

فتح القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب (ليلة المعراج) ٥٨٣هـ:

وكان نزول السلطان على القدس في يوم الأحد ١٥ من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ، ونزل بالجانب الغربي (فاتخذ صلاح الدين جبل الزيتون مركزاً لجيوشه) وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان.

ثم انتقل السلطان إلى مصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة ٢٠ من رجب ونصب عليها المجانيق بخنادق البلد بالرحف والقتال، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، ولما رأى العدو ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع لهم عنه، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهر المسلمون عليهم، وكان قد اشتد زوعهم لما جرى على أيطالهم، فاستكانوا لطلب الأمان، وسلموا المدينة في يوم الجمعة ٢٧ من رجب ليلة المعراج المتصوص عليها في القرآن الكريم. فيسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ﷺ.

وكان فتحاً عظيماً شهدته من العلماء خلق ومن أرباب الحرب والزهد عائم كثير، وارتفعت الأصوات بالترجيع بالدعاء والتهليل والتكبير. وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، ونكس الصليب الذي كان على قمة الصخرة، وكان الصليب شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام.

وكان في الفرنج قد استولوا على القدس - بعد فتحه الأول في زمن عمر - في يوم الجمعة ٢٢ من شعبان سنة ٩٠٠هـ في خلافة المستعلي أبي القاسم أحد خلفاء مصر من بني عبيد، وكان من وزارة بدر الجمالي بديار مصر؛ فكانت القدس أقامت بيد الفرنج ثيفاً وتسعين سنة من يوم احتلاله في خلافة المستعلي إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين في هذه المرة ثانياً. ولله الحمد.

قال ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل ٢٠ ديناراً وعن كل امرأة ٥ صانير سورية وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجاً بنفسه وإلا أخذ أسيراً. وأفرج عن كل من كان باقياً من أسارى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً.

وأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال، ثم رسم بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى ماله وهي مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس ومعه من المال الذي جبي شيء؛ وكان يقارب عتني ألف دينار أو عشرين ألفاً.

وعلى عكس ما فعل الصليبيون عند احتلالهم القدس وقيامهم بارتكاب مذابح ضد السكان دون تمييز بين المسلمين أو انصارى، الذين كانوا يعيشون جنباً إلى جنب قروناً عديدة تحت راية الحضارة الإسلامية والدين

الإسلامي الحنيف، فقد عفا صلاح الدين عن الأسرى من النساء والأطفال والشيوخ والعجزة، وقدم لهم العون والمساعدة التي تبلغهم بلادهم لمن أراد العودة منهم، وأمن من رغب في البقاء.



فتح مدينة القدس يوم الجمعة ٢٧ رجب (ليلة المعراج) ٥٨٣هـ
وتسليم الصليبيين سلاحهم وخروجهم من القدس صاغرين بالقدية.

رحمة صلاح الدين:

- ووفى المسلمون لهم بوعده الأمان، وكان ضمن من خرجوا البطريرك الأكبر يحمل أموال البيعة (الكنائس) وذخائر المساجد التي كان الصليبيون قد غنموها في فتوحاتهم. وفي هذه الأثناء، قال بعض المسلمين لصلاح الدين: إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين، فأجاب صلاح الدين: الإسلام لا يعرف الغدر. وقد أمنا وعلينا الوفاء، وخرج الرجل بهذه الأموال.
- قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون، فاتفق أن بعضهم أخذ صبياً رضيعاً من مهده، ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجداً شديداً، واشتكت إلى ملوكهم: فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، فاذهبي إليه، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكت، وشكت أمر ولدها، ففرق لها رقة شديدة، ودمعت عيناه، فأمر بإحضار ولدها، فإذا هو يبيع في السوق، فرسم برفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفاً حتى جاء بالغلام، فدفعه إلى أمه، وحملها على فرس إلى قومها متكرمة.
- ويرى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصلاح الدين وهن يفادرن بيت المقدس: أيها السلطان! لقد مننت علينا بالحياة، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك؟ وإذا كنا ندع هذه البلاد إلى الأبد فممن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعي والمعاش؟ أيها السلطان! هب لنا أزواجنا وأولادنا، فإنا إن لم تفعل أسلمتنا إلى العار والجوع. فتأثر صلاح الدين بذلك، فذهب لهن رجالهن. هذا: لأن صلاح الدين كان مثلاً للرحمة والعفو وحسن الخلق، وكان مثلاً حسناً لمبادئ الحضارة الإسلامية وعظمة الإسلام.
- وفى صلاح الدين وجيوشه بعهد الأمان للصليبيين المغادرين، فلم يغدروا بأحد منهم، خلافاً لفعل الصليبيون من قبل عند دخولهم القدس، ليتبين الفرق الكبير بين تسامح الإسلام والسلوك الحضاري للمسلمين، وبين وحشية الصليبيين وتعصبهم الديني الأعمى الذي لا يمت بصلة إلى الرب الرحيم. ويصف ذلك جيداً الشاعر أبو القوارس سعد بن محمد فيقول:

ملكنّا فكان العفو منا سجيةً
وخللتم قتل الأسارى وظالمنا
فلمّا ملكتم سال بالدم أبطحُ
غيدونا على الأسرى نمُنّ ونصفحُ
وكلّ إناء بالذي فيه ينضحُ
وحسبكم هذا التفاوت بيننا

وهكذا حرر الناصر صلاح الدين المسجد الأقصى المبارك، وأعاد الأذان والصلاة في ربوع الحرم الإسلامي الثالث في بيت المقدس (المسجد الأقصى المبارك) بعد ٣ أشهر من معركة حطين فأتت النصر المبين بفلسطين. وقد ربط اسم السلطان الناصر لدين الله صلاح الدين الأيوبي باسم حطين وطبريا بفلسطين، والانتصار التاريخي على الأعداء الصليبيين الذين كانوا يدنسون المسجد الأقصى المبارك، وحولوه إلى أجزاء متناثرة: كنيسة وملاحة يحانات، واضطرابات ومجازن أعلاف وحبوب، فجاء صلاح الدين الأيوبي بجيشه المسلم، وزشبه بماء الورد في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / تشرين الأول ١١٨٧، وأعاد الحق إلى نصابه، وأجبر الصليبيين المحتلين المعتدين على الخروج تحت ظل السيف الإسلامي، ودفع الجزية عن يد وهم صاغرون. وأزال السلطان ما أحدثه الفرنج من الآثار، وهدم ما أحدثوا من الكنائس، وبنى موضع الكنيسة منها مدرسة للشافعية؛ فجراه الله عن الإسلام خيراً ولم يهدم القمامة اقتداء بعمر الذي لم يهدمها لما فتح بيت المقدس. وقال في ذلك محمد بن أبي أسعد النسيابة:

أترى مناماً ما بعيني أبصرُ
وقماعة قمّت من الرجس الذي
القُدسُ يفتح والنصارى تكسرُ
ومليكنهم في القيد مصفودٌ ولم
بزواله وزوالها يتطهرُ
قد جاء نصر الله والفتح الذي
يُرَقَّبُ ذاك لهم مليك يؤسرُ
وعند الرسول فسبحوا واستغفروا
يا يوسف الصديق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهرُ

ومن الغرائب أن ابن برجان ذكر في تفسير (المرآة) (١) غلبت الروم (٢-١) أن بيت المقدس يبقى في يد الروم إلى سنة ٥٨٣ هـ ثم يغلبون، ويُفتح ويصير دار إسلام إلى آخر الأبد؛ أخذاً من حساب الآية، فكان كذلك. قال أبو سامة: (وهذا الذي ذكره ابن برجان من عجائب ما اتفق، وقد مات ابن برجان قبل ذلك بدهر، فإن وفاته سنة ٥٣٠ هـ حرر صلاح الدين بيت المقدس ودخلها في ٢٦ رجب سنة ٥٨٣ هـ / تشرين الأول أكتوبر ١١٨٧ م؛ أي: بعد ثلاثة أشهر فقط من نصر حطين. ولما كان هذا النصر يبدو بعيداً في ظل ما كان يعانيه المسلمون في ذلك الزمان من ضعف، فقد وصفه نائب صلاح الدين، عماد الدين الأصفهاني، بقوله: «أفخر هذا أم أشر لأنهم تركوا» (الطبر، ١١٥).

وقال المؤرخ الإنجليزي "لين بول" عن فتح بيت المقدس: (لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس لكان ذلك كافياً لجعله أعظم الفاتحين في عصره، وأكبرهم قلباً، بل لعله كان كذلك في أي عصر من العصور).

وسرعان ما غادر صلاح الدين القدس إلى "صور" يريد تحريرها، فحاصرها، لكن انتصار الأسطول الفرنسي على أسطوليه ودخول الشتاء وتعب الجند وتذمر الأمراء جعله يرجئ ذلك إلى الربيع، وفيه بدأ بحصار حصن كوكب القريب من صور عام ٥٨٤ هـ، وهنا دخل ابن شداد في خدمته، ولقد صرح ابن شداد أن جميع ما رواه من قيل إنما هو روايته عن يثقبه ممن شاهدته، وأن ما سيرويه بعد ذلك مما رآه بعينه عامة.

ملوك أوروبا يقودون الحملة الصليبية الثالثة: ارتجت أوروبا لاسترداد المسلمين لقدس، وأججت انتصارات حطين سقوط المدن الساحلية ناز الحقد في أوروبا، وتصاعدت صيحات إنقاذ الأراضي المقدسة في أرجاء أوروبا، واتجهت

الكنيسة إلى جمع الضرائب للحروب الصليبية، وشجعت الناس على الخروج لقتال المسلمين، وأعلن البابا أن من لم يستطيع أن يخرج بنفسه فليترع بالمال لكي تغفر له ذنوبه، ثم تطور هذا الأمر إلى إصدار صكوك الفداء لكل من يتبرع لهذه الحرب، أو يخرج فيها. فأرسلت أوروبا الحملة الصليبية الثالثة من أقوى الحملات الصليبية وأكثرها عدداً وعدة، وأعظمها سلاحاً، وتكونت هذه الحملة من ثلاثة جيوش: ألمانية وفرنسية وإنجليزية، ومؤتت في إنكلترا وأجزاء من فرنسا بضرية خاصة عُرفت بضرية صلاح الدين (بالإنجليزية: Saladin tithe).

قاد الحملة ثلاثة من أكبر ملوك أوروبا في ذلك الزمان: ريتشارد (قلب الأسد) ملك إنكلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا، وهريديريك بربروسا ملك ألمانيا الإمبراطور الروماني المقدس، لكن هذا الأخير غرق في وحيته في أثناء عبوره نهر أرمينيا بآسيا الصغرى (بفضل الله على صلاح الدين)،



الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢م).

فقد معظم جيشه من حيث أتى، ولم يصل منه إلى الأراضي المقدسة سوى عدد قليل. ووقع عبء الحرب على ريتشارد وفيليب، وتضام الجيشان (الإنجليزي والفرنسي) متحالقين على حصار عكا، وقبل وصول هذين الأخيرين، أخذ الصليبيون يجمعون قوائهم، ويحاولون القيام بعمل مضاد لحركات صلاح الدين. فوجهوا قوتهم لتحاصر عكا من البر، وأساطيلهم لتحاصرها من البحر، وكان في استطاعة صلاح الدين أن يقضي على الجيش الصليبي لولا وصول ريتشارد وجيوشه في ذلك الوقت. وقد طال الحصار البحري - البري مدة عامين كاملين من سنة ٥٨٦هـ - ١١٨٩م إلى سنة ٥٨٨هـ - ١١٩١م ضرب فيها الفريقان أسى أمثلة الشجاعة، وأخيراً سقطت عكا في أيدي الصليبيين بعهد الأمان عام ١١٩١م، ودخلها الملك ريتشارد قلب الأسد وخان العهد، فأعدم فيها ثلاثة آلاف أسير مسلم فيهم نساء وأطفال (بعد إعطائهم الأمان)، وبوحشية لم تعرفها ديار الإسلام إلا من هؤلاء الوحوش الصليبيين.

واشتبكت جيوش صلاح الدين وجيوش الصليبيين بقيادة ريتشارد في ٧ أيلول / سبتمبر ١١٩١م في معركة "أرسوف" التي انكسر فيها صلاح الدين، لكن الصليبيين لم يتمكنوا من اجتياح الداخل وبقوا على الساحل، وخابت كل محاولاتهم لغزو القدس، وتصدى صلاح الدين لهؤلاء، وصمد صموداً عظيماً أمام جيوش الصليبيين التي كانت تهدف أساساً إلى احتلال بيت المقدس؛ وهذا اضطر ريتشارد قلب الأسد أخيراً إلى طلب الصلح مع صلاح الدين والرجوع إلى بلاده، ثم لحق به ملك فرنسا. ووقع ريتشارد في ١١٩٢م معاهدة الرملة مع صلاح الدين؛ بموجبها يكون الشريط الساحلي ما بين يافا وصور تابعاً لمملكة اورشليم الصليبية وتفتح القس للحجاج المسيحيين المسلمين من دون سلاح.

يوثق ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" حصار عكا: (ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها في ثالث عشر شهر رجب من سنة ٥٨٥هـ. ثم سار السلطان وأتى عكا ودخلها بغتة! ليقي قلوب من بها. واستدعى العساكر من كل ناحية، وكان العدو مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل.

وتكاثر الفرنج واستمحل أمرهم وأحاطوا بعكا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب، فضايق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لفتح الطريق ففعلوا ذلك وانفتح الطريق وسلكه المسلمون، ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها ثم جرى بين الفريقين متاوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية، وهو مشرف على عكا.

قال ابن خلكان: قال شيخنا ابن شداد: وسمعت السلطان يشدد - وقد قيل له إن الوحم قد عظم بعكا وإن ثلوت قد ضا بين الطائفتين: "أقتلني ومالكاً وأقتل مالكاً معي" وهذا الشعر لعبد الله بن الزبير في الأستر الثغمي، سمه مالك، وكان الأستر من أصحاب علي بن أبي طالب ؑ.

قال ابن شداد: ثم إن الفرنج جاءهم الإمداد من البحر واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي، مضايقوهم أشد مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ، خرج من عكا رجل عوام في البحر ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم تيقنوا الهلاك، ومتى أخذوا البلد عنوة، ضربت رعايهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب ومئتي ألف دينار وخمس مئة أسير مجهولين مئة أسير معينين من جماعتهم وصليب الصليبيوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سائمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذرايعهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس - لأنه كان الواسطة في هذا الأمر - أربعة آلاف دينار.



ريتشارد قلب الأسد، ملك إنكلترا، في أثناء

الحملة الصليبية الثالثة، وحصار عكا والاستيلاء عليها

فلما وقف السلطان على الكتب المشار إليها، أنكر ذلك تكارراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أهل الرأي من كبار دولته وشاورهم فيما يصنع، فاضطربت آراؤه وتقسم فكره وتشبش حاله، وعزم أن تكتب في تلك الليلة كتباً مع الرجل العوام أنذي قدم عليه بهذا الخبر، ينكر المصالحة على هذا الوجه، وبينما هو يتردد في هذا فلم يشعر إلا وقد ارتفعت اعلام العدو وصلبانه وتاره على سور البلد، وذلك في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت التصيبة على المسلمين واشتد خزنهم، ووقع من الضياح والعوويل الهكاء ما لا يذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكا قاصدين عسقلان يأخذوها أيضاً من المسلمين، وساروا على الساحل، والسلطان

وعساكره قبائلهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، وقال المسلمين وهن شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشرة منازل من سيرهم من عكا، وأتى السلطان الرملة، فجاءه من أخبر أن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم في أمر عسقلان، وهبل الصواب

خرباها أم بقاؤها، فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة وبأخذ بها القدس وينقطع بها طريق مصر. وامتنع عسكري من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعبك. ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات، وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة ٥٨٧هـ، فسار إليها السلطان في سحر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور).



من الأرشيف: وحشية الملك ريتشارد (المسمى زوراً قلب الأسد) وهو في عك يشرف على مجزرة ٣٠٠٠ أسير مسلم من الرجال والنساء والأطفال، بعد إعطائهم الأمان

العلاقة بين صلاح الدين وريتشارد ملك إنكلترا:

كانت العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي وريتشارد مثلاً على الفروسية والاحترام المتبادلين، على الرغم من الخصومة العسكرية، بل كانت أفضل من علاقة ريتشارد بملك فرنسا. وعندما مرض ريتشارد بالحمى أرسل إليه صلاح الدين طيبية الخاص (عبد اللطيف البغدادي)، وأرسل إليه فاكهة طازجة وتلجأ لتبريد الشراب، وهو إلى جانب كونه فعلاً كريماً يعد استعراضاً للقدر، وعندما فقد ريتشارد جواده في أرسوف أرسل إليه صلاح الدين اثنين.

وقد أرغم البطل صلاح الدين الصليبيين على البقاء في جزء من الشريط الساحلي، فقد أحبط بصلابة إيمانه جهود الحملة الصليبية الثالثة في استرجاع بيت المقدس. والقى القائد صلاح الدين كلمة على جنوده حين اقترب الصليبيون من القدس:

(الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وآموالهم وذرايعهم في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم، وإن هذا العدو ليس له من المسلمين، من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم، فإن وليتم والعباد بالله، طوى البلاد وأهل العباد، وأخذ الأموال والأطفال والنساء، وعبد الصليب في المساجد، وعزل القرآن عنها والصلاة، وكان ذلك كله في ذممكم، فإنكم أنتم الذين تصدقتم لهذا كله، وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتتصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم، والسلام).

ثم عرض الملك ريتشارد على السلطان صلاح الدين مشروع فلسطين موحدة للمسيحيين الأوروبيين وللمسلمين العرب، عن طريق تزويج أخت ريتشارد بالعدل أخى صلاح الدين، وأن تكون القدس هدية زفافهما. ولم ينجح مشروع الزواج هذا، ثم إن الرجلين لم يلتقيا قط وجهاً لوجه، وكان التواصل بينهما بالكتابة أو بالرسى.

ورسائل صلاح الدين تمتاز برصانة اللغة العربية وقول الحق الذي يقوله بمنتهى الأدب والدبلوماسية؛ فعندما أرسل ملك الإنجليز رسالة إلى صلاح الدين (عن طريق أخيه الملك العادل) متضمنة مطالبة بـ ٣ مصالب، بتنازل

للمسلمين عن القدس، وبالتنازل عن بعض البلاد السامية، ثم المطالبة باسترجاع صليب الصليبيات المعظم عندهم، التي غنمها المسلمون منهم في معركة حطين، فقال فيها:

(إن المسلمين والفرنجة قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال وأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس هتبعيدنا ما نزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشية لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا الغناء الدائم).

فكان جواب صلاح الدين له: (... هو عندنا أي بيت المقدس أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الألائكة، فلا يتصور أن نزل عنه ولا نقدر على التلطف بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، وستبلاؤكم كان طارناً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قرية عظيمة، ولا يجوز أن نقرط فيها إلا لمصلحة راجحة إلى الإسلام هي أوفى منها).

صلح الرملة بـفلسطين في ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ - ١٢ أيلول ١١٩٢م؛ أبرم صلح الرملة بين السلطان الناصر صلاح الدين والمملك ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا، وحددت مدة الصلح بثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وبذلك انتهت الحروب بين الجانبين الإسلامي والصليبي. ومهدت للصلح مفاوضات استمرت خمسة عشر شهراً، قام بها اثنان وربعون وقدماً، كان البادئ في طلبها دوماً ريتشارد، وقد اتفق الطرفان على أن تبقى في يد الفرنجة يافا وقيساريا ورسوف وحيقا وعكا، وتكون عسقلان خراباً، واللد والرملة مناصفة، وأن تكون بلاد الإسماعيلية في هدنة صلاح الدين، أي معه، وأنطاكية وطرابلس في هدنة الفرنج أي معهم، وحرص صلاح الدين في هذا الصلح على ما يأتي:

١. أن تكون مدته محدودة بثلاث سنوات وثلاثة أشهر.
٢. أن يحصر الفرنج في أضيق بقعة ممكنة.
٣. أن تبقى الجبال بيده؛ ليبقى الفرنجة بالأماكن المنخفضة فيكونوا تحت رحمته.
٤. أن ينقذ أكثر ما يمكن إنقاذه من مكاسب حطين.
٥. أن يتمتع القدس للحجاج الفرنجة دائماً، بعدما رفض طلب ريتشارد أن يأخذوا موافقته على ذلك؛ ليربهم السباحة والحرية والحضارة الحق.
٦. أن يستمر في تقوية حصون القدس وغيرها استعداداً لتحرير كامل الأرض المحتلة بعد انتهاء الهدنة.

سعد الجميع بهذا الصلح ما عدا صلاح الدين؛ لأنه لم يزه محققاً ما يصبو إليه من تحرير الأرض كاملة من احتلال الفرنجي، ولم يوقع صلاح الدين صلح الرملة مع الفرنجة إلا مضطراً؛ بسبب إلحاح أمرائه وقادته وجنوده الذين ما كانوا يملكون همته وقوته وقدرته على المتابعة وصبره وعزمته. وأما رأيه في استمرار الجهاد، فقد صرح به بقوله: **«المصلحة لا تزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتيها الموت»**؛ لذلك بعد أن اطمأن إلى عودة ريتشارد إلى بلاده أمر بتقوية حصون القدس وغيرها من القلاع، ثم دخل دمشق بعد غياب ٤ سنوات، فاستقبله أهلها استقبالا فريداً، ثم يستقبلوا به أحداً من قبل، ولكن بقاءه فيها لم يطل، إذ مرض مرضاً أشد به يوماً بعد يوم، وكان ابن شداد القاضي الفاضل يلازمه، وازداد ضعفاً في الليلة الثانية عشرة من مرضه، وهي ليلة الأربعاء ٢٧ من صفر عام ٥٨٩ هـ، أسلم في فجرها روحه إلى يارثها، وكان يوماً لم يصيب المسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين.

وقاة صلاح الدين، وسيرته، وأسرار نجاحه، وقرائه:

توفي رمز البطولة والفروسية الإسلامية في عصره السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بمرض الحمى، بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ - ٤ آذار ١١٩٣م، وعمره (٥٧) سنة، وضريحه - رحمه الله - قرب الجامع الأموي في دمشق (إلى جوار الملك العادل نور الدين زنكي)، وقبره ما زال موجوداً حتى الآن في دمشق. وكان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ﴾ (الحشر: ١٢٣)، كان قد غاب ثم فتح عينيه وقال: صحيح. وقال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعبادة، ومرضه في زيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار النقاء إلى دار البقاء سحر يوم الأربعاء، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه قضاء الإفضال. ومما قاله الشعراء في رثائه:

والدهر ساء وأقلعت حسناته
لله خالصة صفت نباته
ميدوانه ولربيه طاعاته
يرجى نسيه وتتقى سطواته
وسمت على الفضلاء تشريفاته
قد غم كل العالمين معاه
أيدياً لما إذا أسلمته جثاته
لما خلت من بدرة داراته
أقوت قواه وأقبرت ساحاته
محفوظة بوزود حافات
متعطفاً مقضوضه صدقاته
في ذكره من ذكره آياته
من سلها وزكوبها عزماته
من كل قلب مؤمن روعاته
ووصلت ملكاً ياقياً راحاته
رضوان رب العرش بل صواته

شمل الهدى والملك عم شتاته
بالله أين الناصر الملك الذي
أين الذي كانت له طاعاتنا
أين الذي ما زال سلطاناً لنا
أين الذي شرفاً الزمان بفضله
لا تحسبوه مات شخصاً واحداً
ملك عن الإسلام كان محامياً
قد أظلمت منذ غاب عنا دوره
دفن السماح فليس تنشر بعدما
الدين بعد أبي المظفر يوسف
بحر خلا من وأزديته ولم تزل
من لليتامى والأرامل واحم
لو كان في عصر النبي لأنزلت
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
فارقته ملكاً غير باقي متعباً
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً

كان أولاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ١٦ ذكراً وابنة واحدة، أكبرهم الأفضل على ولد بمصر سنة ٥٦٥هـ يوم عيد الفطر.

وتوفي والده الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان في مصر. وخلف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، وأبا بكر العادل الذي ملك مصر، وشمس الدولة توران شاه وهو أكبر الجميع، وشاهنشا، وسيف الإسلام طغتكين، وتاج الملوك بوري.

كانت المواجهة مع ريتشارد ومعاهدة الرملة آخر أعمال صلاح الدين، إذ إنه بعد وقت قصير من رحيل ريتشارد، مات صلاح الدين من الحمى في دمشق. وعندما فتحت خزانته الشخصية وجدوا أنه لم يكن فيها ما

يكفي من المل لجنازته ، فلم يكن فيها سوى ٤٧ درهماً ناصرية وجرمأً واحداً ذهباً سورياً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ، إذ كان قد أنفق معظم ماله في الصدقات. ثم ذكر ابن شداد شدة اهتمام صلاح الدين بالجهاد ، وبدلنا على ذلك ما أخبر به صلاح الدين ابن شداد ، وهو : أنه متى ما يسر الله فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ، وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائهم ، اتبّعهم فيها ، حتى لا يبق على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت . فقال له ابن شداد : إنك سور الإسلام ومنعته ، فلا ينبغي أن تخاطر بنفسك . فقال له : ما أشرف الميتات ؟ فقال ابن شداد : الموت في سبيل الله . فقال له : غاييتي أن أموت أشرف الميتات . وقيل : إن صلاح الدين الأيوبي كان يختار أيام الجمع لمقاتلة الأعداء . ومن كلماته المشهورة : (نحن لسنا بحاجة إلى كلامكم ... نحن بحاجة إلى سلاحكم) ... أحفظوا على تلاوة القرآن الكريم لتحقيق النصر على الأعداء الصليبيين).

وكان متديناً في مأكله ومشربه ومركبه وملبسه ، فلا يلبس إلا القطن والكتان والصوف ، وكان يواظب على الصلاة في الجماعة ، ويواظب على سماع الحديث ، حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفيين ويتجج بذلك ، وقال : هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً ، وبالجمل ، فإن مناقبه الحميدة كثيرة لا تستقصى إلا في مجلدات.

وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد خلفاء الراشدين ؓ وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى.

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء ، وغسله أبو القاسم ضياء الدين عبد الملك ابن زيد الدولعي خطيب دمشق ، وأخرج تجبوت السلطان - رحمه الله تعالى - بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فوط ، فارتفعت الأصوات عند شهادته ، وعظم الضجيج ، وأخذ الناس في البكاء والعيول ، وصلوا عليه أرسالاً ، ثم أعيد إلى داره التي في البستان وهي التي كان ممرضاً بها ، ودفن في الصفة الغربية منها ، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر ،

لقد كان - رحمه الله تعالى - من معاصري الدنيا وغرائبها . ثم ذكر ابن شداد أنه مات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا ٤٧ درهماً ناصرية وجرمأً واحداً ذهباً سورياً ، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة.

كتب القاضي الفاضل قاضي دمشق في ساعة موته إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الأحزاب: ٢١) (إِنَّكَ زَلَّزِلَةُ السَّاعَةِ) (الأنعام: ١٠١) كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة ، وقد زلزل المسلمون زلماً شديداً ، وقد حضرت الدموع المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد دعت أبائك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده ، وقد قبلت وجهه عني وعنتك ، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضياً عن الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وبالباب من الجنود المجندة ، والأسلحة المعدة ، ما لم يدفع البلاء ، ولا ملك يرد القضاء ، وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب ، وأنا عليك لمحزونون يا يوسف . وأما الوصايا فما تحتاج إليها والآراء فقد شغلني المصائب عنها ، وأما لائح الأمر ، فإنه إن وقع اتفاق فما عدتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير فإلمصائب المستقبل أهونها موته ، وهو الهول العظيم والسلام).

سيرة صلاح الدين : كان صلاح الدين يجمع بين حكمة أبيه نجم الدين أيوب ، وشجاعة عمه أسد الدين شيركوه ، وزهد أميره نور الدين ، وهي خصال ثلاث كفيلة بأن ترشحه للقيادة ، وعبر استقراء مسيرة صلاح الدين الجهادية يتضح أن صلاح الدين كان صاحب مشروع حضاري إسلامي.

عرف أعداؤه وأصحابه عدل صلاح الدين ورحمته وأحبوه لها، وكما يقال بمصطلحات القيادة المعاصرة: حازم عادل، ورحيم بلا خوف أو تزلف (بالإنجليزية: Fair and Firm with mercy but without fear or favour).

كتب بها: الدين بن شداد الأسدي عام ٥٣٩-٥٨٩هـ (١١٤٥-١٢٨٥م) كتابه "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، أو سيرة صلاح الدين الأيوبي وهو مصاحب لصلاح الدين في غزواته بعد فتح القدس في ٢٦ رجب عام ٥٨٢هـ. جعل صلاح الدين ابن شداد قاضي عسكري، وأول قاضٍ للقدس وناظرًا لأوقافها بعد تحريره، وواحدًا من أقرب أصفياه ويراثته في أكثر معاركه. وغدا كذلك شيخاً له يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحت على الجهاد، ويبتهل معه إلى الله عند الشدائد، ويواسيه في النكبات، ويحمد الله معه في الانتصارات.

لم يرض ابن شداد يعلمه الغزير على غيره، بل أوصله إلى أعلام عصره الذين أتوا إليه وإلى مدرسته في حلب. ومنهم ابن خلكان، وابن واصل الحموي مؤرخ الأيوبيين الذي افتخر بتلمذته عليه، وأبو شامة صاحب كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الذي جعل كتاب سيرة صلاح الدين لابن شداد مصدراً مهماً من مصادره. تحدث ابن شداد عن عقيدة صلاح الدين السليمة التي أخذها عن العلماء بالدليل، وأنه كان محافظاً على الصلاة بوقتها جماعة. وأما الزكاة فإنها لم تحب عليه؛ لأن عطاياء لم تمكنه من أن يملك نصابها، حتى إنه عندما توفي لم يخلف لورثته شيئاً قط ما عدا ٤٧ درهماً وديناراً واحداً. وكان حريصاً على صيام رمضان وقضاء ما قلته منه بسبب الجهاد ومقتضياته. وأما بالنسبة إلى الحج، فقد شغله عنه الجهاد المستمر.

وكان يحب قراءة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وسماعهما، وكثيراً ما كانت تسمع عيناه في أثناء القراءة والسماع. وكان أيضاً كثير التعظيم لشعائر الدين حسن الظن بالله، كثير الاعتماد عليه، عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً الضعيف على القوي، يجلس للعدل كل اثنين وخميس مجلساً عاماً، وأما كرمه، فقد كان عظيماً يدل عليه أنه لم تحب عليه زكاة قط، وأنه لم يترك لورثته شيئاً، وضرب المثل الأعلى بشجاعته ويسالته وشدة بأسه وعظيم ثباته، وكان لا بد من أن يطوف حول العدو يومياً مرة أو مرتين إذا كان قريباً منه.

ويبين ابن تغري بردي مواصفات صلاح الدين في ترجمته في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة".

(قال العلامة أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاعلي في تاريخه "مرآة الزمان": كان السلطان صلاح الدين شجاعاً شهماً مجاهداً في سبيل الله. وكان مغرماً بالاتفاق في سبيل الله، وحسب ما أطلقه ووهبه مد مقامه على عكا مزابطاً للفرنج من شهر رجب سنة ٥٨٥هـ إلى يوم انفصاله عنها في شعبان سنة ٥٨٨هـ فكان اثني عشر ألفه رأس من الخيل العرب والأكايش الجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال).

قال العماد الكاتب: لم يكن له فرس يركب إلا وهو موهوب، ولا جاءه قود إلا وهو مطلوب، وم كان يلبي إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف. وكانت مجالسه منزهة عن الهزل والهزل، ومحافظه حافظ بأهل العلم والفضل، ويؤثر سماع الحديث، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه.

قال: ورأى معي يوماً دواة محلاة بفضة فأذكر علي؛ وقال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها، وكان محافظاً على الصلوات في أوقاتها لا يصلي إلا في جماعة، وذكره القاضي ابن شداد في السيرة فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وإذا جاء وقت صلاة وهو زاكب نزل فصلى، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام).

وكان قد قرأ عقيدة القحطب النيسابوري وعلمها أولاده الصغار؛ لترسخ في أذهانهم وكان يأخذها عليهم، (أو القحطب النيسابوري هو عالم فاضل تأدب على أبيه، وتفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، ودرس بالزاوية الغزالية، ودفن

بصاير الصوفية، كما يحكي ابن العماد في "شذرات الذهب" ج ٢، ص ٢٦٣). كان جلاب خير على تلميذه صلاح الدين، فغمزه بروحانيته وانتشله من مجونه إلى عالم الرجولة، فكان الرجل الذي لقياً عنه ونسمع. يقول شهاب الدين القندسي في "كتاب الروضتين" (ج ٢، ص ٦٩) عن بطلنا صلاح الدين: (وهو... مقوم مذهب السنة، غارس في البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين... وهو - رحمه الله - لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً). كانت خطوة في تربية الأمة وعداها وتأهيلها لواجب النصر والجهاد خطاها الناصر صلاح الدين، فكان لمن بعده نموذجاً لمن أراد سلوك منهاج النصر والفتح. ويزيد الدكتور البوطي في "الجهاد" (ص ٢٠٤)، توضيحاً للمسألة، فيقول استناداً إلى أحد مراجع التاريخ: "فقد عمد إلى سفوح قاسيون هذه من أقصاها إلى أقصاها وإلى جنابات القاهرة كلها، فغرسها جميعاً بتعاهد والمدارس الشرعية، وحشد فيها حشداً كبيراً من طلاب العلوم الشرعية، وأخذ يشرف بنفسه على مناهج التربية والتعليم فيها، بل كان كما قالوا يشترك مع أساتذة بعض منها موحهاً ومعلماً. ويشترك أنا آخر مع طلابها ملتقياً متعلماً، ثم إنه عمد فألف معظم جيشه الذي غزا به الصليبيين من خريجي هذه المعاهد في دمشق والقاهرة). ويزيدنا المؤرخ حسين مؤنس قائدة توضيحية فبقلت نظرننا في "الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام" (ص ١١) إلى أن المشاركين في معركة حطين مع صلاح الدين كانوا من الصوفية، وإليهم يرجع الفضل في إنقاذ الأمة من اتصليبيات ولسمون في المراجع بالخطوة إنما هم: زهاد ومتصوفة ومريدون يخرجون للقتال حسبة لله تعالى، ويبلون أعظم مما يبلي الجنود المحترفون.

وأما الزكاة فإنه مات ولم تحب عليه قط، وأما صدقة النواقل فاستثقت أمواله كلها فيها. وكان يحب سماع القرآن، واجتمع يوماً على صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة.

وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدفعة، شديد الرغبة في سماع الحديث. وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يحضر عنده، استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالعود عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن لم يكن ممن يحضر عنده ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه.

وكان مفضلاً كتب الفلاسفة وأرباب المنطق وعن يعانده الشريعة. ولما بلغه عن السهروردي ما بلغه أمر ولده تلك الظاهر بقتله.

وكان محباً العدل يجلس في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز. وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته. واستغاث إليه ابن زهير لدمشقي على تقي الدين عمر ابن أخيه، وقال: ما يحضر معي مجلس الشرع. فأمر تقي الدين بالحضور معه. واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال، فباع ضيعة وهرق ثمنها فيهم.

قال بن شداد: وسألت باليان بن بارزان يوم انعقاد الصلح (بعد فتح القدس) عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا تحت قبلى القدس ثم حاصرها الصليبيون بالحملة الثالثة واستولوا عليها ثانية، وهو جالس بين يدي السلطان، فقال: ترجمان: قل له: كانوا من خمس مئة ألف إلى ست مئة ألف، قتل منهم أكثر من مئة ألف وغرق معظمهم.

قال: وكان يوم المصاف يدور على الأطلاب ويقول: وهل أنا إلا واحد منكم. وكان في الشتاء يعطي العساكر ستوراً وهو نازل على برج عكا، ويقوم طول الشتاء في نمر يسير. وكان على الرملة فجاء كتاب بوفاة تقي الدين بن أخيه. فقال وقد خنقته العبرة: مات تقي الدين، اكتموا خبره مخافة العدو.

قال: وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل ويسرقونهم، فسرقوا ليلة صبيلاً رضيعاً، فباتت أمه يكي طول الليل، فقال لها الفرنج: إن سلطانهم رحيم القلب فادهبي إليه. فجاءته وهو على تل الخروبة راكباً،

فغفرت وجهها وبكت، فسأل عنها فأخبر بقصتها، ففرق لها ودعيت عيناها، وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل، ولم يزل واقفاً حتى أحضره، فلما رآته بكت وشهقت وأخذته وأرضعته ساعة وضمته إليها، وأشارت إلى ناحية الفرنج، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج، ففعلوا.

قال ابن شداد: وكان حسن العشرة، طيب الخلق، حافظاً لأسباب العرب، عارفاً بخيولهم، عاهاً للسلطان والقلم، فما شتم أحداً قط ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم، وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على من خلفه، وجبر قلبه، وأعطاه ما يكفيه، فإن كان له كافل سلمه إليه وإلا كفله. انتهى. (النجوم الزاهرة).

كان صلاح الدين من دعاة الحضارة والإصلاح، فاهتم بالمؤسسات الاجتماعية التي تساعد الناس وتحقق عنهم عناء الحياة، وتعهد بالإنفاق على الفقراء والغرباء الذين يلجؤون إلى المساجد للعيش فيها، وجعل من مسجد أحمد بن طولون في القاهرة مأوى للغرباء الذين يأتون إلى مصر من بلاد المغرب.

ومن أشهر أعماله التي أقامها في القاهرة: قلعة الجبل لتكون مقراً لحكومته، وحصناً منيعاً يمكنه من الدفاع عن القاهرة، وأحاط "المسقط" و"العسكر" و"القاهرة" بسور طوله (١٥ كم) وعرضه ثلاثة أمتار، وتخلله الأبراج: ولا تزال أجزاء منه قائمة حتى اليوم في جهات متفرقة.

ومدح ابن جبير الأندلسي (٥٤٠هـ-٦١٤هـ)، في رحلته الشهيرة، الناصر صلاح الدين بأن عرشه هو سرجه لكثرة جهاده، وذم كثيراً من الملوك المعاصرين بأنهم مجرد ألقاب رنانة وأسماء بلا مسمى. ومدح صلاح الدين لإبطاله المكس (الضريبة) المترتبة على الحجاج.

ومما قاله في قصيدته التي مدح بها السلطان صلاح الدين، يهنئه بفتح بيت المقدس:

ثارت لدين الهدى في العدا	فأثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله النوري	فسمك بالملك الناصر
فتحت المقدس من أرضه	فعادت إلى وصفها الظاهر
وأعليت فيه منار الهدى	وأحييت من رسمه الدائر

أسرار نجاح صلاح الدين:

إن عظمة صلاح الدين الحقيقية من وراء انتصاراته وفتوحاته وتحرير بيت المقدس لا ترتبط مباشرة بشخصه ولا تكمن في بسالة القتال العسكري المجرد، بقدر ما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمل الجماعي لغريق جماعة متكامل متواصل مع الله، ويمتلك رؤية واضحة، وخطة عمل مستقبلية تأخذ بأسباب النصر، وبضرورة تبادل المشورة وتطبيق ذلك في أرض الواقع (بالمفهوم المعاصر: روح الفريق والعمل المؤسساتي)، فصلاح الدين نفسه كان شجرة العمل الجماعي المؤسساتي الدؤوب للسلطان نور الدين محمود زنكي التركماني، وعمه أسد الدين شيركوه الكردي، بالتعاون مع الخليفة العباسي العربي الهاشمي المستضيء بالله، الذي خط في مرسومه لصلاح الدين معالم الطريق مع أولويات المسيرة لتوحيد بيضة الإسلام وتحريرها من الصليبيين.

كان فريق صلاح الدين فريقاً جماعياً من القادة العسكريين، ومن العلماء القضاة يصلون جماعة جنباً إلى جنب، ويوزعون المال والغنائم على الرجال (فلا يبقى منها شيء لصلاح الدين)، ويهتمون بأمر الرعاية المالي برفع المكوس والضرائب، فلا نصردون عدل مالي، ثم التركيز الكبير على الصحوة الإسلامية والثقافية.

فالقضاة والعلماء كانوا دعاة الإسلام والثقافة الدينية الرشيدة عن طريق دروسهم المتواصلة وحلقاتهم اليومية وهتواهم بين الحين والحين، وكان لهم أكبر الأثر في تثبيت دولة صلاح الدين. وعلى وجه الخصوص، فإن القاضي الفاضل كان مع باقي القضاة في أمن الحاجة إلى قائد يحفظ مصر ويبصق الإسلام من أطماع الفرنجة (فوجدوها في صلاح الدين). وبحكم وظيفة القاضي الفاضل (واسمه عبد الرحيم البيساني) بوصفه رئيساً للديوان التي تطلع بصورلية وزارات الداخلية والخارجية والإدارة المحلية في عصرنا كتب كتاب تولية صلاح الدين ولخص فيه لصلاح الدين المسؤوليات المطلوبة منه والمهام المتوقعة منه، فكان منها: التنبه على أحوال مصر الاقتصادية وضرورة التخفيف من أعباء الناس المالية، والحث على الجهاد وحماية الدولة من أطماع الفرنجة، فكانت هذه أول مبادرة من قم القاضي الفاضل لتنفيذ مشروع صلاح الدين، وتوالت بعد ذلك إسهامات قلم القاضي الفاضل من التوجيهات الإدارية للولاة والموظفين في شؤون الدولة كافة؛ لإنجاح مشروع صلاح الدين بإلغاء الضرائب الظالمة، وهذا قرب صلاح الدين إلى الرعية، والقيام بالدعاية لحكم صلاح الدين ومشروعه في البلاد عبر إشاعة العدل وفرض هيبة القانون، وكشف المؤامرات ضد صلاح الدين، وإرسال الرسائل لجلب التأييد لصلاح الدين من الخليفة العباسي ولقائد نور الدين، ومتابعة شؤون الإمدادات للوحدات المقاتلة، ورعاية إقامة التحصينات في الخطوط الخلفية لجيش صلاح الدين، والإشراف على المفاوضات التي يجريها صلاح الدين مع جيوش الصليبيين، ووضع نصوص المعاهدات والهدنة التي يعقدها صلاح الدين، مع تزويد صلاح الدين بتقارير وافية عن أحوال الدولة.

ويمكن تلخيص إنجازات صلاح الدين التاريخية فيما يأتي:

١. تأمين الديار المصرية داخلياً وخارجياً: إذ آمن مصر وخلصها من الفرنجة ومن حلفائهم العبيديين المتواطئين معهم، الذين انشقوا عن العالم الإسلامي، وأخسر صلاح الدين الحملة الصليبية على دمياط (قام المسلمون بإمرة صلاح الدين بشن الحملات، وأنزلوا سلاسل لمنع السفن، واستخدموا النيران المشتعلة، وساعدهم الله بالرياح وبمراجعة الفرنجة واستشراء الأوبئة بينهم، فأخفقت الحملة الصليبية).

٢. إنهاء الدولة العبيدية الإسماعيلية المتواطئة مع الصليبيين: وكان شر العبيديين يفوق خيرهم، بل هم الذين انشقوا من الخلافة العباسية، ودقوا إسفين الفرقة في العالم الإسلامي، وحاربوا السلاجقة، وتحالفوا مع النصارى البيزنطيين والفرنجة الصليبيين، وسلموا ديار الإسلام واحدة بعد الأخرى إلى البيزنطيين والنورمانديين والصليبيين ابتداء من صقلية، وحصون ساحل المتوسط، ثم القدس، وانتهاء بدعوتهم إلى دخول مصر نفسها، فصار تحالفهم وبالأوعاراً عليهم.

٣. إقامة العدل الإسلامي: ولأسيما العدل الاقتصادي المالي، ومحو المظالم العبيدية عن أهالي مصر. فهو الذي أسقط المكوس والضرائب، ووزع المال والصدقات، وأحيا الرزقة التي أسقطها العبيديون. وأسقط المكوس والضرائب عن حجاج بيت الله الحرام في مكة.

٤. الإعداد لروحي للجهاد والتعبئة العسكرية مع الثقافة الإسلامية الصحيحة من أجل تنفيذ مشروع الوحدة الإسلامية: فقام بصناعة السفن وإنشاء أسطول بحري قوامه ٢٠ سفينة، وقام بإعداد جيش إسلامي يبلغ مئة ألف لجهاد الصليبيين، نواته فرسان الفرقة الأسدية مع فرسان الفرقة الأيوبية مع جيش العاضد من المصريين من السودان والمغاربة وقبائل العرب. بعد تأهيلهم وتوجيههم الصحيح. وأدخل المطوعة من الصوفيّين والمريدين في جيشه.

٥. توحيد العالم الإسلامي: اتبع صلاح الدين إستراتيجية إرجاع مصر إلى حاضرة العالم الإنساني والخلافة العباسية، وتوحيد مصر مع الشام كفضي كمشاة (تزعاة) ضد الصليبيين.
 ٦. حماية الحرمين الشريفين، وتحرير الحرم الثالث (فتح القدس): حمى صلاح الدين مكة والمدينة برباً وحرراً، وأرسل جيشه من تبوك للحماية، ودخل أسطوله في البحر الأحمر لحمايته من المجرم الصليبي أوطا باحتلال جدة ورايع وينيع، إذ أمر أخاه العادل لهذا الأمر. وسماه ابن شداد خادم الحرمين الشريفين. وظل صلاح الدين يجاهد على فرسه، ولم يستطع تأدية مناسك الحج في زمنه لاشتغاله بالجهاد.
 ٧. الجهاد وحرب التحرير من احتلال الصليبيين: ابتداءً من مدن الشام وقلاعها، وانتهاءً بتحرير القدس وتأمينها عسكرياً. ومد سلطانته على الشام ومصر والحجاز واليمن وليبيا والسودان؛ لتوحيد لحمه العالم الإسلامي. كانت دولة نور الدين تضم الشام والحجاز واليمن، وضمت أجزاء من شمال إفريقيا. فأصبحت دولة صلاح الدين تضم شمال العراق والشام، ثم الحجاز واليمن ومصر والسودان وبعض شمال إفريقيا. لقد كان هذا أكبر اتحاد للقوى الإسلامية في ذلك الوقت الذي كانت فيه الدولة العباسية مثككة ضعيفة لا سلطان لها.
- تراث صلاح الدين:

بالرغم من كون صلاح الدين خصماً عنيداً للأوروبيين، لكنه ظل في الوعي الأوروبي نموذجاً للقائس الشهم الذي تبدو فيه أخلاق الفروسية بالمفهوم الأوروبي، حتى إن هناك ملحمة شعبية شعرية من القرن الرابع عشر تصف أعماله البطولية. وقد يكون اسم الشهرة الإنجليزي سليدن Sladen, Sladin هو تحويل لاسم صلاح الدين الذي يلفظ بالإنجليزية سلادين Saladin.

ثم إن الشاعر دانتي مؤلف "الكوميديا الإلهية" قد وضعه في الأعراف (المطهر) مع عدد من الشخصيات التي عدّها كافرة - وفق معتقده النصراني الكاثوليكي - لكنها في نظره شخصيات صالحة وسامية أخلاقياً.

ثم إن صلاح الدين يُصور بنحو مقبول في رواية والتر سكوت "التعويذة" (The Talisman) المكتوبة سنة ١٨٢٥م. وجسدت شخصية صلاح الدين في عام ٢٠٠٦ في فيلم "مملكة الجنة" (Kingdom of Heaven) بأسلوب فيه فروسية وأخلاق وكرم نفس، وقد جسّد الشخصية الفنان السوري غسان مسعود.

ويدرك الأوروبيون أنه بالرغم من المذابح التي أوقعها الصليبيون عندما غزوا القدس في ١٠٩٩ إلا أن صلاح الدين قد عفا عن كل المسيحيين الكاثوليك (الأوروبيين)، حتى عن الجنود المنهزمين إذا كانوا قادرين على دفع القدية. وعومل نصارى العرب ولاسيما الأرثوذكس دوماً بالحسنى؛ إذ إنهم كانوا أصلاً يعارضون الغزو الأوروبي الصليبي للشرق الإسلامي. ومدحه الأمراء الصليبيون، وحاول الملك ريتشارد تزويج أخته لأخي صلاح الدين أبي بكر العادل.

ونسر العقاب الذي يرمز إلى الدولة الأيوبية (اكتشف في قلعة صلاح الدين بالقاهرة) قد اتخذته العديد من الدول العربية في العصر الحديث شعاراً رسمياً لها، إذ يظهر النسر في العلم المصري، وفي شعارات سوريا والعراق وفلسطين.

خلدت سوريا ذكرى صلاح الدين بإقامة نصب صلاح الدين في دمشق، ويظهر تحت قدميه الأسير أرتا، الأمير الصليبي الذي غلب بحجج مكة وسب النبي محمد ﷺ، وحلف صلاح الدين إن ظهر به أن يقتله، فكان أسيره بعد معركة حطين، إذ عرض عليه الإسلام فرفض، فوفى بنذره وقتله.



نسّر العقاب أو نسّر صلاح الدين، يرمز إلى الدولة الأيوبية



نصب السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في دمشق ليلاً



نصب السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق نهاراً (الصورة في اليمين)

والأمير الصليبي أرناط (أي ريتو دو شاتيون) أسيراً (هو الذي قتل حجاج مكة وسب النبي ﷺ)
فعرض صلاح الدين عليه الإسلام فرفض، فوفى صلاح الدين بوعده وقتله، (الصورة في اليسار)

موقف أبناء صلاح الدين من الصليبيين: ولما مات صلاح الدين - رحمه الله - سنة ٥٨٩هـ - ١١٩٢م، وصل إلى بغداد الرسول (إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله) وفي صحبته لامة الحرب التي لصلاح الدين، وفرسه، ودينار واحد، وستة وثلاثون درهماً. لم يخلف من المال سواها، وحكمت أسرته من بعده، فاستقرت مصر لابنه عماد الدين عثمان الملك العزيز، ودمشق لابنه الملك الأفضل نور الدين علي، وحلب لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازي.

ومات السلطان طغرل بك شاه بن أرسلان بن طغرل بك آخر ملوك السلجوقية في سنة ٥٩٠هـ. قال الذهبي: (وكان عددهم ثيماً وعشرين ملكاً، أولهم طغرل بك الذي أعاد القائم إلى بغداد، ومدة دولتهم مئة وستون سنة).

ومات لذلك العزيز بمصر سنة ٥٩٥هـ، وأقيم ابنه المنصور بدله، فوثب الملك العادل سيف الدين أبو بكر العادل بن أيوب (أخو صلاح الدين) فحكم مصر ومعظم أجزاء الشام، وخلقه ابنه الكامل، الذي سقطت دمياط في عهده بأيدي الصليبيين لما هاجموا مصر سنة ٦١٥هـ، ثم انسحبوا منها مدحورين، بعد هزيمة فادحة أدت إلى إجلاء عن مصر سنة ٦١٨هـ (بعد الصلح مع الملك الكامل). وقطع المصريون جسر النيل فغرقت الأرض بالمياه

وأوشك الصليبيون على الهلاك، فطلبوا الصلح. ثم سلم الملك الكامل بن العادل الأيوبي عام ٦٢٦هـ. اقدس صلحاً إلى قائد الحملة الصليبية السادسة إمبراطور الألمان فريدريك، وأضاع جهود عمه صلاح الدين العظيمة في سبيل تحريرها، ولكنها حررت ثانية عام ٦٣٧هـ بيد الملك الناصر الأيوبي داود أمير الكرك، الذي سلمها إلى الصليبيين مرة أخرى عام ٦٤١هـ؛ لأجل التحالف مع عمه الخائن الملك الصالح إسماعيل ضد الملك الصالح أيوب بن الملك العادل الأيوبي (ملك مصر)، وحررها ثالثة الملك الصالح أيوب (صلاح الدين الثاني)، الذي فتحها عام ٦٠٢هـ، وبقيت القدس مع المسلمين وثبتت من حينها، حتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م.

واستطاع صلاح الدين قيادة جيش كبير مؤلف من الشاميين والمصريين يصل تعدادهم إلى مئة ألف محارب متمرس وتحول تركيز الصليبيين من الاهتمام بالشرق إلى الاهتمام بمصر على نحو استثنائي، وذلك بسقوط مملكة القدس عام ١١٨٧م. وهذا ما نجده في الحملة الصليبية الثالثة، عندما أدرك ريتشارد قلب الأسد أهمية مصر. وأي هجوم على المشرق لن يتجح دون موارد الثروة وتمويل الرجال الذي لا ينضب في أرض مصر. ولاتزال مصر إلى اليوم تزود قدرات العالم الإسلامي بمزايا حاسمة. من هنا كانت مصر هدفاً للحملة الأوروبية في الحملة الصليبية الرابعة، التي انحرف مسارها إلى احتلال القسطنطينية، والخامسة (دمياط)، والسادسة (دمياط)، وحملة الإسكندرية، وأسفرت عن انتصارات مؤقتة أعقبتها هزائم فادحة، أو جلاء، أو مفاوضات وانتهت أخيراً بلا شيء. وكانت عكا، في عام ١٢٩١م، آخر حصن كبير منيع للصليبيين في الأرض المقدسة، فتحه السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، وأنهى الوجود الصليبي في أرض المشرق الإسلامي، ولم تبقى إلا جزيرتان في البحر الأبيض المتوسط تستخدمان بوصفهما قاعدتين للإغارة والكر والفر، هما جزيرة أرواد وجزيرة قبرص، أسقطتهما وفتحتهما للإسلام في القرن اللاحق كل من السلطان محمد بن قلاوون، والسلطان الأشرف برسباي على التوالي، وكلاهما من مصر.

الحملة الصليبية الرابعة عام ٦٠٠هـ.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج ١٢، ص: ٤٥-٤٦): (في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقاً منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم، فحاصروها حتى فتحوها قسراً، وأباحوها ثلاثة أيام قتلاً وأسراً، وأحرقوا أكثر من ربعها، وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلاً أو فقيراً أو مكبولاً أو أسيراً، ولجأ عامة من بقي منهم إلى كنيسة العظمى المسماة بـ "آيا صوفيا"، فقصدهم الفرنج فخرج إليهم القسيسون بالأتاجيل ليتوسلوا إليهم ويتلوا ما فيها عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك؛ بل قتلوهم أجمعين أكتعج أيضاً. وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلي والأذهاب والأموال التي لا تحصى ولا تعد، وأخذوا ما كان على الصليبان والحيطان؛ والحمد لله الرحيم الرحمن، الذي ما شاء كان.

ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة وهم: دوق البنادقة، وكان شيخاً أعمى يقاد فرسه، ومركيس الإفرنجيين، وكندا بلند، وكان أكثرهم عدة وعدداً. فخرجت القرعة له ثلاث مرات فلوله ملك القسطنطينية، وحشد الملك الأخران بعض البلاد، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة. ولم يبق بأيدي الروم هناك إلا ما وراء الخليج، استحوذ عليه رجل من الروم يقال له: تسكري، ولم يزل مالكاً تلك الناحية حتى توفى.

ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقروا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستنصر الجيوش المصرية والشرقية ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد وحصار عظيم، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة وأطلق لهم شيئاً من البلاد؛ فبنا لله وبنا إليه راجعون.

الملك الكامل بن الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي:

استقل الملك الكامل بمصر عام ٦١٥هـ-١٢١٨م، بعد وفاة والده الملك العادل الذي كان قد قسم مملكته بين أولاده قبل وفاته وأعطى مصر للملك الكامل. والملك الكامل هو من أكمل بناء قلعة الجبل التي بدأ في تشييدها جده صلاح الدين الأيوبي، وكان الكامل أول من سكن قلعة الجبل من ملوك مصر، وفيها ولد الصالح أيوب. في سنة ٦٠٢هـ-١٢٠٥م، في سنة ٦١٥هـ-١٢١٨م، عندما كان الصالح أيوب طفلاً في الثانية عشرة من عمره، تعرضت مصر لحملة صليبية يقودها "جان دي بريين" ملك القدس (الحملة الصليبية الخامسة). وكان ذلك تطوراً خطراً في الحروب الصليبية، إذ إن مصر منذ ذلك الحين أصبحت هدفاً للصليبيين الذين أدركوا أن مصر بإمكاناتها الإستراتيجية والاقتصادية هي حصن الإسلام ومصدر الإمدادات القوية الوفيرة من الرجال والسلاح، إن استولوا عليها سهل عليهم استعادة بيت المقدس وامتلاك الشام.

تجمعت جيوش ممالك أوروبا في عكا ومنها أبحرت إلى مصر ونزلت بالبر الغربي من دمياط، وخرج الملك الكامل، والملك الصالح أيوب، بالجيش إلى دمياط لمواجهة الصليبيين. لكن القوات الصليبية نجحت في الاستيلاء على برج دمياط، ولما سمع السلطان العادل (والد الملك الكامل وجد الصالح أيوب) بما حدث، وكان وقتها مقيماً بـ"برج الصفر" في الشام، دق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض ومات بعد بضعة أيام. صار ملك مصر بموت العادل إلى الملك الكامل محمد، ووقع عليه عبء الدفاع عن مصر. بعد حصار دام نحو ١٦ شهراً سقطت دمياط في أيدي الصليبيين فقتلوا سكانها وحولوا جامعها إلى كنيسة. ولما حاول الصليبيون التقدم داخل الأراضي المصرية حاصروهم المسلمون من كل الجهات حتى لحقت بهم الهزيمة، فطلبوا الأمان مقابل رحيلهم عن دمياط، وسلمت دمياط إلى المسلمين في ٨ أيلول ١٢٢١م-١٩ رجب ٦١٨هـ، ودخلها الملك الكامل على رأس إخوته وقواده وأجناده، وعقدت هدنة مدتها ٨ أعوام بين المسلمين والصليبيين.

الحملة الصليبية الخامسة:

استهل عام ٦١٥هـ، والعاقل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج، وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور، فأخربه ونقل ما فيه من آلات حرب وغيرها إلى البلدان؛ خوفاً من الفرنج أعاد المعظم في رجب من السنة نفسها ضمان القيان والخمور والمغنيات وغير ذلك من الفواحش والمتكررات التي كان أبوه قد أبطلها، إذ إنه لم يكن أحد يتجاسر على أن يتقل ملء كفه خمرًا إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزي الله العادل خيراً، واعتذر المعظم في ذلك بأنه إنما صنع هذا المتكر؛ لئلا الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج. وكما يقول ابن كثير في "البداية والنهاية": "وهذا من حيله وقلة دينه وعدم معرفته بالأمور، فإن هذا الصنيع يبدل عليهم الأعداء، ويتضررهم عليهم، ويتمكن منهم الداء، ويثبط الجند عن القتال، فيولول بسببه الأدبار، وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويبدل الدول، كما في الأثر: (إذا عصاني من يعرفني سطت عليه من لا يعرفني)، وهذا ظاهر لا يخفى على فطن".

لكن في العام اللاحق ٦١٦هـ أمر الشيخ محيي الدين بن الجوزي محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهي (عكس ما أمر به المعظم)، وخرب سور بيت المقدس في مستهل سنة ٦١٦هـ، أمر بذلك المعظم؛ خوفاً من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة لأخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم المحرم، فهرب منه أهله خوفاً من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلاً أو نهاراً، وتركوا أموالهم واثاثهم وتمزقوا في البلاد كل ممزق، وظهر الفلاء، وضج الناس، وابتهلوا إلى الله عند الصخرة، وفي الأقصى يهي أيضاً قلعة شتعاء من المعظم مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك:

في رجب حُلّ المحرم وأخرب القدس في المحرم

فإذا بالحملة الصليبية الخامسة تقدم على مصر: لتستأصلها قبل التقدم للاستيلاء على القدس، فقد استحوذت الفرنج في سنة ٦١٦هـ على مدينة دمياط ودخلوها بالأمان، وغدروا بأهلها، وقتلوا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، وفجروا بالنساء، وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة. (بن كثير في "البداية والنهاية" ج ١٣، ص: ١٠٠).

وللتفصيل: يحكي ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة": (يقول أبو المظفر في تاريخه: في شعبان ٦١٦هـ أخذ الفرنج دمياط وكان المعظم عيسى (أخو الملك الكامل محمد سلطان مصر) قد جهز إليها "التأهض بن الجرخي" في ٥٠٠ رجل، فهاجموا على الخنادق، فقتل ابن الجرخي ومن كان معه وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق، وكان الفرنج قد طموها: يعني الخنادق.

وضعف أهل دمياط وأكلوا الميتات، وعجز الملك الكامل عن تصرفهم ووقع فيهم الوباء والفساء، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد (بالأمان) ويخرجوا منه بأموالهم وأهلهم، واجتمعوا وحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب وزحفوا في البر والبحر، وفتح لهم أهل دمياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسرًا، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ويفتصون البنات، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة، ووقع على المسلمين كآبة عظيمة، وبكى الكامل وأخوه المعظم بكاءً شديداً، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة.



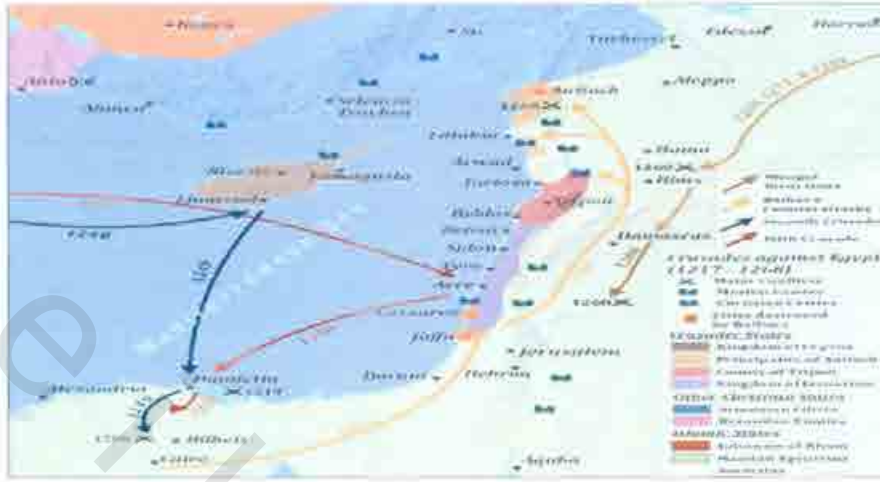
الصليبيون يهاجمون دمياط في ٦١٦هـ - ١٢١٨م

ومن شعر الكامل يستحث أخاه الأشرف موسى بالمجيء من بلاد الجزيرة إليه حين كان محاصراً بدمياط:

يا مسعفي إن كنت حقاً مسعفي	فأرحل بغير قيد وتوقف
واطو المنازل والديار ولا تنح	إلا على باب الملك الأشرف
قبل يديه - لا عدمت - وقل له:	عني بحسن تعطف وتلطف
إن مات صنيوك عن قريب تلقه	ما بين حد مهتد ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه	يوم القيامة في عراض الموقف

ثم قال الكامل لأخيه المعظم: قد فات المطلوب وجرى المقدر بما هو كائن، وما في مقامك هاهنا فائدة، والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج وتستجلب العساكر من بلاد الشرق.

واستمر الملك الكامل في مقاتلة الفرنج إلى أن فتح الله عليه في سنة ٦١٨ هـ، وطلب من إخوته النجدة، وتوجه المعظم في أول السنة إلى أخيه الأشرف موسى، وكان المعظم أحضر الناس على خلاص دمياط والغزاة، وكان مصافياً لأخيه الكامل، وكان الأشرف مقصراً في حق الكامل مياناً له في الباطن، فلما احتضرت



الحملة الصليبية على مصر (١٢١٧-١٢٢٨ م)، والدويلات الصليبية عام ١٢٠٠ م

عساكر على حران، خرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري بصيح: الرحيل الرحيل إلى دمياط، وخرج عساكره وعساكر أخيه إلى دمياط، وقطع بهم المعظم القنرات وسار الأشرف في آثاره.

وأما الفرنج فأنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائداً جداً فجاءوا إلى ترعة فارسوا عليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان وأحرق بهم عساكر الكامل فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء أسطول مسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعواهم عن أن تصل إليهم الميرة من دمياط، وكانوا خلقاً عظيماء، وانقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مئة كند وثمان مئة من الخيالة المعروفين وملك عكا والدوك واللوكان نائب البابا، ومن لرجاءة ما لا يحصى، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن وسلمون دمياط، فمن حرص نكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم (كان الكامل عرض عليهم أن يرد إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد السواحل على أن يتركوا دمياط، فامتنعوا من ذلك، فقدر لله أنه صافت عليهم الأقوات، فقدمت عليهم مراكب فيها ميرة، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى، حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن).

أوقع الكامل في ٦١٧ هـ بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديداً، فقتل منهم عشرة آلاف، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم، ولله الحمد. فبعث الكامل إليهم ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب (وابن أخيه شمس الملوك) وجاء ملوكهم إلى الكامل، فالتقاهم واتعم عليهم وضرب لهم الخيام.

ووصل المعظم عيسى والأشرف موسى في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلساً عظيماً في خيمة كبيرة عالية، وقد مد سماطاً عظيماً، وأحضر ملوك الفرنج ووقف المعظم والأشرف والملوك في خدمته، وقام راجع الحلي الشاعر - رحمه الله تعالى - فأنشد:

هنيئاً، فإن السعد أضحي مخلداً وقد أنجز الرحمن بالتصبر موعداً

حبانا إله الخلق فتحاً بدأ لنا
ولنا طغى البحر الخضم بأهله ال
أقام لهذا الذين من سل سيفه
فلم ينج إلا كل شلو مجنل
ونأدى لسان الكون في الأرض را
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه
مبيناً وإتماماً وعزاً مؤيداً
طفاء وأضحى بالمراكب مريدا
صقيلاً كما سل الحسام مجردا
ثوى منهم أو من تراه مقيداً
فعا عقيرته في الخافقين ومنشدا
وموسى جميعاً يخدمون محمد

صح للشاعر فيما قصد من التورية في المعظم عيسى والأشرف موسى لما وقف في خدمة الكامل محمد، فله
دوره لقد أجاد فيما قال، ووقع الصلح بين الملك الكامل وبين الفرنج في يوم الأربعاء التاسع عشر شهر رجب سنة ثمان
عشرة وست مئة، وسار بعض الفرنج في البر وبعضهم في البحر إلى عكا وتسلم الكامل دمياط.
الحملة الصليبية السادسة عام ٦٢٥هـ-١٢٢٨م:

بدأت بعد مرور أقل من ١٠ سنوات من نهاية الحملة الصليبية الخامسة، وترأسها الإمبراطور فريديك الثاني
(هوهنشتاوفن) الألماني الذي نذر الاتخراط في الحملة الصليبية السابقة (أي: الحملة الخامسة)، ولكنه لم يف
بنذره حينها، وأراد الإمبراطور أن يحقق مقاصده دون أن يسحب سيفه من غمده، فتزوج في صيف ١٢٠٥م من ابنة
ملك القدس يوحنا دي بريان (يولاندي) والمعروفة أيضاً باسم إيزابيلا)، وتزوج كذلك من ماري من مونتفيرات، ثم
أخذ يطالب بعرش مملكة قد زالت أصلاً من الوجود، ودخل في مفاوضات مع السلطان الكامل سلطان مصر
والشام، دون دعوة البابا، وهذا الأمر أغضب بابا روما الجديد غريغوريوس التاسع الذي حرم فريديك الثاني من
الكنيسة، فكان هذا رد فعل ضد البابا.

وأبحر الإمبراطور إلى سوريا في صيف ١٢٢٨، فما كان من البابا إلا أن منع الحملة الصليبية، ووصف
فريديك بأنه قرصان، وبأنه يريد سرقة مملكة القدس، فكانت أول حملة صليبية لا يباركها البابا. لكن
فريديك الثاني لم يأبه لذلك، وخرج على رأس حملة صليبية صغيرة قوامها ٦٠٠ فارس فقط (وهذا يوضح أنه لم
يكن يجهز لحرب حقيقية)، فاستولى على قبرص ووصل إلى عكا، حيث بدء مفاوضات الصداقة مع السلطان
الكامل، فأرسل إليه الملك الكامل رسوله فخر الدين يوسف بن انشيوخ للتفاوض على عقد معاهدة بينهما،
وأسفرت في شباط/فبراير ١٢٢٩م عن صلح مدة ١٠ سنوات.

تنازل بمقابله السلطان الكامل عن الأماكن النصرانية في القدس للإمبراطور الألماني باستثناء منطقة الحرم
(المسجد الأقصى)، ومسجد قبة الصخرة وأوقافهما)، على أن يتعايش النصارى والمسلمون في القدس جنباً إلى جنب،
وتنازل السلطان له عن الأماكن النصرانية الأخرى: بيت لحم، والناصرية وجميع القرى المؤدية إلى القدس، وقسم
من صيدا وطورون (تبتين حالياً)، على أن يتعهد فريديك بمحاربة الملك الكامل ضد جميع أعدائه، ولو كانوا
صليبيين، وأن يضمن فريديك عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإمارات الصليبيتين أنطاكية وطرابلس. ووقع مع
مصر عدة اتفاقيات تجارية. واشترط أيضاً ألا يُجدد بناء جدار القدس ولا قلاعها (توكيداً للسلام بينهما).

وأكد فريديك الثاني للسلطان مساعدته ضد أعدائه أيًا كانوا، مسلمين أم مسيحيين، وضمن عدم تلقي
القلع الصليبية الباقية (خارج سيطرته) أي مساعدة من أي مكان.



الإمبراطور فريديريك الألماني (على يسار الصورة)

وهو يصافح السلطان الملك الظاهر (على اليمين) على توقيع صلح القدس

ودخل فريديريك الثاني بيت المقدس في حماية قواته الألمانية في ١٧ آذار ١٢٢٩م، وتوج فريديريك الثاني نفسه في كنيسة القيامة، ورفض رجال الدين تتويج الإمبراطور المحروم من الكنييسة، وفرضت البابوية منعاً لممارسة الطقوس الدينية في القدس، ودفع البابا مواليه إلى ممتلكات فريديريك في إيطاليا، فأسرع فريديريك إلى المغادرة، ونشب صراع مسلح ضد الحبر الأعظم، والحق الهزيمة بالبابا؛ فألقى البابا، في سنة ١٢٣٠م، الحظر الكنسي عن فريديريك، وصادق في السنة الثانية على معاهداته مع السلطان الكامل في دمشق ومع المسلمين.

ويذكر ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" هذا الصلح في السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن النادل أبي بكر بن أيوب على مصر، وهي سنة ٦٢٦هـ. إذ أعطى فيها الملك الكامل بيت المقدس لملك لفرنج الأنبيور (أي: الإمبراطور الألماني). وفيها خرج الملك الكامل في صفر من مصر ونزل تل العجول. وكان الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق قد كاتب عمه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، فوصل إليها ونزل بالنيبر، وكان عز الدين أيبك قد أشار على الملك الناصر داود بمداواة عمه الملك الكامل محمد صاحب مصر فخالفه، وقال الناصر لعمه الأشرف في قتال عمه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه، واجتمع لأشرف وأخوه الملك الكامل واتفقا على حصار دمشق.

ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الأنبيور، فقامت قيامة الناس لذلك ووقع أمور، وتسلم الأنبيور القدس، والكامل ولأشرف على حصار دمشق، فلم يبق الأنبيور بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس ولم يغير من شعائر الإسلام شيئاً. واستطاع الكامل برحابة عقله توظيف هذا الصلح المحدود المشروط توظيفاً عظيماً في توحيد دار الإسلام، فعاش بعد الصلح مدة ٩ سنوات (توفي عام ٦٣٥هـ)، وهو مترفع على عالم إسلامي موحد.

قال ابن خلكان (فيما يرويه ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة"): (واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدتها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، وخادم الحرمين الشريفين: الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين).

صحيح أن هذا الصلح المحدود المشروط لم يكن مرحباً به، لا من قبل النصارى ولا من قبل المسلمين، حتى قيل: إن السلطان الكامل تقدم لتنازله (سلباً من دون قتال) عن كل ما حارب لأجله صلاح الدين الأيوبي، لكن

الحقيقة أن الصلح هذا إذا وضع بالميزان فإن تعايش الجيرة بين المسلمين والصليبيين الأوروبيين المتوحشين أول مرة كانت له آثار مستقبلية حميدة طغت على سلبات الماضي، تمكن الإمبراطور الألماني (بمساعدة ٦٠٠ فارس فقط)، وباستخدام الدبلوماسية والقوة الناعمة (دون حرب ودون دعم بابوي) فعل ما لم يستطعه أحد قبله، وبعده ملوك فرنسا (مثل الملك لويس التاسع) بالحرب ضد مصر والشام، بالرغم من مباركة البابا وبرغم جيوشهم المدججة بالسلاح والمتفوقة عدداً وعتاداً.

والحقيقة أن ألمانيا انضردت من دون دول أوروبا منذ ذلك الحين فصارت صديقة للمسلمين فقد وقف الإمبراطور الألماني ضد قيام الحملة الصليبية السابعة من بعد ذلك، بل عارض البابا وكان هو الذي أخبر ابن صديقه الملك الكامل (الملك الصالح أيوب) سلطان مصر والشام آنذاك عن قدوم الحملة الصليبية السابعة (قبل مجيئها)، ووقفت ألمانيا من بعد ذلك ضد بابوية روما الكاثوليكية، بل كانت ألمانيا هي مركز اللوثرية وحركة الإصلاح البروتستانتي، ومن ثم وقفت ألمانيا مع الدولة العثمانية، ثم مع العرب عموماً. ومن هنا كان اختيار الرئيس المصري حسني مبارك للعلاج الجراحي خارج مصر في ألمانيا مرتين، من دون دول أوروبا وأمريكا والعالم كله.

الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٠٣ ٦٤٧هـ): صلاح الدين الثاني، ومؤسس المماليك بمصر (أو مفرخة صلاحات الدين).

ابن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية (وأخو صلاح الدين الأيوبي)، والملك الصالح (كما يقول ابن تغري بردي) هو أعظم ملوك بني أيوب وأجلهم وأحسنهم رأياً وتديباً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (أخي جده الملك العادل أبي بكر بن أيوب)، ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلده على مقابلة العدو الصليبي بالمتصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد، والذب عن المسلمين لكفى. قاله يرحمه. ما كان أصبره وأغزر مروءته!

ولا بد من تفصيل لهذا السلطان المغبون حقه في التاريخ، بل لا يعرفه إلا القليل من أبناء العروبة والإسلام، ومن الأفضل ذكره تحت عناوين خمسة: ابتلاؤه قبل سلطنته، وتحرير بيت المقدس، وتوحيد الشام مع مصر وجهاده ضد الحملة الصليبية السابعة (أكبر حملة أساطيل بحرية على مصر)، وتنشئته المماليك الذين صاها من بعده سلاطين مصر والشام والعالم الإسلامي (كل منهم يمثل قائداً من طراز صلاح الدين).

كان الصالح أيوب ابناً للسلطان الأيوبي الملك الكامل محمد، وأمه جارية سوداء اسمها ورد لمنى، وأخ للسلطان العادل سيف الدين أبي بكر، وحفيداً للسلطان الملك العادل أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي.

أولاً، ابتلاء الله الملك الصالح قبل سلطنته:

كان ابتلاء الله الملك الصالح قبل سلطنته منحة ربانية تتناسب وعظم المهمة الملقاة عليه (فأشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، كما في الحديث النبوي)، وكان من وراء هذا الابتلاء والتمحيص حكمة الله البالغة في تجرد الملك الصالح من الاعتماد على الأسرة الأيوبية، التي صارت مؤسسة مقسمة ذات أنانيت ومطامع شخصية، تنبئ باضمحلال البيت الأيوبي وهبوط قوة دولة الإسلام. وأفرزت منحه الملك الصالح اختياراً غنياً بالتجارب، زودته بمناخه مكتسبة ضد مطامع أفراد البيت الأيوبي، وأعطته رؤية ثاقبة للمستقبل أدت إلى تميز الملك الصالح وانفراذه عن جميع السلاطين الأيوبيين بشراء المماليك واستكثارهم لحمايته وحماية مصر والعالم الإسلامي، وصدق حدسه وفراسته بالأمور، إذ صار هؤلاء المماليك الأبطال من بعده أعظم سلاطين مصر والعالم.

زوال الدولة الخوارزمية (١١٩٠-١٢٢٠م) ووفاة السلطان الكامل:

بينما تلك الأحداث تجري في مصر، كان المغول يتقدمون نحو حدود العالم الإسلامي الشرقية، وكان المغول بحلول عام ٦٣٥هـ-١٢٢٨م، قد توغلوا في بلاد الدولة الخوارزمية - الجبهة الأولى للعالم الإسلامي - ودخلوا في معارك طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزمشاه، وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن انهزم جلال الدين بالكامل في سنة ٦٢٨هـ-١٢٣٠م، وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية وتمزقوا كل ممزق، وتحول جودهم الذير تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة. يقول الذهبي في تاريخ الإسلام: «وأما الخوارزمية فرألت دولتهم، وتمزقوا، وقطعت أذنابهم، وبصوا حرامية، يقتلون ويسبون الحرير، ويشعلون كل قبيل».

توجه السلطان الكامل ومعه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق إلى الشرق في سنة ٦٢٢هـ-١٢٢٥م، وصرما الروم واستولوا على حران والسويداء والرها وقطينا، ثم عاد الكامل إلى مصر، وسلم جميع بلاد الشرق إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهذا أغضب الأشرف الذي كتب إلى الكامل يقول: «أخذت الشرق مني وأعطيت له ولدك، وقد افتقرت، وأيش هي دمشق إلا بستان؟ وعالي فيها رزق»، فأرسل الكامل إليه ١٠ آلاف دينار، ولكن الأشرف ردها إليه قائلاً: «أنا أعطي هذا أميراً عندي». واتفق الأشرف وملوك حماة وحلب وغيرها على الانتقام من السلطان الكامل، لكن الأشرف مات بعد ذلك بقليل، وتملك دمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فتوكل السلطان الكامل ابنه الملك العادل نائباً عنه في مصر، وسار بالاجتاد المصرية إلى الشام وحاصر دمشق ودخلها، ثم توفي في ٢١ رجب عام ٦٢٦هـ.

توفي السلطان الكامل تاركاً ابنه العادل في مصر وابنه الصالح أيوب في بلاد الشرق، وكان الصالح أيوب وقت وفاة أبيه ينازل الرحبة للاستيلاء عليها بمساعدة الخوارزمية، بعد أن كان قد استولى على سنجار ونصيبين وخابور، وكانت الرحبة تابعة للملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، فلما علم الخوارزمية بوفاة السلطان الكامل، طمعوا في الرحبة وأردوا أخذها لأنفسهم، فخرجوا عن طاعته، وهبوا بالقبض عليه، فقرر منهم أن سنجار، فحاصره هناك الخائن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وأراد القبض عليه ونقله إلى بغداد في قفص حديد. لشدة كراهيته إياه، فأرسل الصالح أيوب إلى ابنه المغيث فتح الدين الذي كان هو الآخر قد فر إلى حران خوفاً من الخوارزمية، وطلب منه استمالة الخوارزمية وإحضارهم إلى سنجار. ونجح المغيث وقاضي سنجار بدر الدين في استمالة الخوارزمية، بعد أن أكدوا لهم أن الصالح أيوب سيمنحهم سنجار وحران والرها، فذهبوا معهما إلى سنجار وقرر بدر الدين لؤلؤ بعسكر الموصل. هويت شوكة الصالح أيوب بعودة الخوارزمية إليه وسيرهم إلى آمد لمساعدة ابنه المعظم غياث الدين توران شاه الذي كان محاصراً هناك، عن طريق عسكر السلطان كيخسرو صاحب الروم، وتجمع الخوارزمية في إبعاد الروم عن آمد، وانتقل الصالح أيوب من سنجار إلى حصن كيفا.

محاولة تهيمش الملك الصالح:

ولي السلطان الملك الناصر داود بن السلطان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سلطنة دمشق عام ٦٢٤هـ بعد ولده، وأخيه أهل دمشق. ثم سار عنه الملك الكامل من الديار المصرية؛ لأخذ الملك منه، فاستتجد يعمه الأشرف بجاء لنصرته، ثم تغير عليه، ومال إلى أخيه الكامل، وأوهم الناصر بأنه يصلح قضيته، فسار إلى الكامل، واتفقا على الناصر وحاصراه أربعة أشهر، وأخذاً منه دمشق، وسار إلى الكرك، وكانت لوالده، وأعطى معها الصلت

وتابلس وعجلون وأعمال القدس، ثم إن الناصر بعد الثلاثين قصد الإمام المستنصر بالله، وقدم له تحفاً وثقاساً وسار إليه على البرية، والتمس الحضور بين يديه كما فعل بصاحب إربل، فامتنعوا عليه، فنظم هذه القصيدة:

ألا يا أمير المؤمنين، ومن غدت	على كاهل الجوزاء تعلو مرتبة
أخسُن في شرع المعالي ودينها	وأت الذي تغزى إليه مذاجنة
يأتي أخوض الدؤ والدؤ مقفر	سيارته مغبرة وسياسة
وقد رصد الأعداء لي كل مرصد	وكلهم نحوي تدب عقاركة
وأتيك والعضب المهتد مضت	طير شياه، قانيات ذوائه
وأنزل أمالي ببابك راجياً	فواصل جاء يهز النجم ثاقبه
فتقبل مني عبد رقي فيغندي	له الدهر عبداً طائعاً لا يغلبه

فوقعت هذه القصيدة من المستنصر بموقع، وأدخله عليه ليلاً، وتكلم معه في أشياء من العلوم والآداب، ثم خرج سراً، وقصد المستنصر بذلك رعاية الملك الكامل. ثم حضر الناصر بالمدرسة المستنصرية، وبحث واعترض واستدل، والخليفة في روشن بحيث يسمع، وقام يومئذ الوجه القبرواني فمدح الخليفة بقصيدة جاء منها:

لو كنت في يوم السقيفة حاضراً كنت المقدم والإمام الأورعاً

قال الناصر: أخطأت، قد كان حاضراً العباس جد أمير المؤمنين، ولم يكن المقدم إلا آيا بكر رحمته الله فخرج الأمر بنفي الوجه، فذهب إلى مصر، وولي بها تدریس مدرسة ابن سكر. ثم إن الخليفة خلع على الناصر، فألبسه الخلع بالكر، وركب بالأعلام الخليفة وزيد في القايه: "المولى المهاجر"، ثم اتفق موت الملك الأشرف وموت الكامل، وكان الناصر بدمشق، فتطلع إلى السلطنة، ولم يكن حينئذ أميراً منه، ولو بذل المال حلفوا له، ثم سلطنوا الملك الجواد، فخرج الناصر عن البلد وسار إلى عجلون وندم، فجمع وحشد ونزل على السو حل فاستولى عليها، فخرج الجواد بالعساكر، فوقع المصاف بين نابلس وجنين، فانكسر الناصر، واحتوى الجواد على خزانته وأمواله، وكان ثقل الناصر على سبع مئة جمل، فاهتقر ولجأ إلى الكرك، ونزل الجواد على نابلس، وأخذ ما فيه للناصر (انظر فيما سيأتي).

وهكذا اتفق الأمراء، ومن بينهم عماد الدين إسماعيل والناصر داود، على نصيب الملك العادل سلطاناً على مصر أما الشام فقد تقاسمها إخوته وأقاربه من بني أيوب، فصارت دمشق من نصيب الملك الجواد مظفر الدين، وحلب من نصيب الملك الناصر صلاح الدين يوسف (على اسم صلاح الدين الأيوبي)، وحمص من نصيب الملك المجاهد أسد الدين شيركوه (على اسم أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي)، وحماء من نصيب الملك المظفر تقي الدين محمود، وبعلبك من نصيب الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، والكرك من نصيب الملك الناصر داود.

فأقيم بعد الملك الكامل ولده الملك العادل أبو بكر (ويسمى العادل الصغير على اسم جده العادل): وسبب تسلطه وتقدمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيوب أنه لما مات أبوه، الملك الكامل محمد، بقلعة دمشق، كان ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب - وهو الأكبر - نائب أبيه على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان ابنه الملك العادل أبو بكر هذا - وهو الأصغر - نائب أبيه بديار مصر. فلما مات الكامل قعد الأمراء يتشاورون فيمن يولون من أولاده، فوقع الاتفاق بعد اختلاف كبير على إقامة العادل هذا في سلطنة مصر والشام، وأن يكون نائبه بدمشق ابن

عمه، الملك الجواد يونس، وأن يكون أخوه، الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله، فكان ذلك. وتسلمن الملك العادل في أواخر سنة ٦٣٥هـ. فبلغ ذلك أخاه الأكبر، الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقدم ووقع له من مؤامرات أخيه العادل، وحبسه عند ابن عمه، الملك الناصر داود. وغيرهما من الأمور الجسام والابتلاء العظيم، ولله فيه الحكمة البالغة. ثم برز العادل إلى بليس قاصداً للقتال، فاختلفت عليه الأمراء، فقيده، واعتقلوه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب فوصل إليهم، فملكوه يوم الإثنين ٢٥ ذي الحجة سنة ٦٣٧هـ. وأقام في الملك عشر سنين إلا أربعة أشهر.

لما تسلمن العادل بمصر، واستقر تائبه الجواد بدمشق، وبلغ هذا الخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب، عظم عليه ذلك؛ لكونه الابن الأكبر، فسار بعساكر الشرق ودخل دمشق سنة ٦٣٦هـ - ١٢٣٨م، فخرج إليه الملك الجواد والتفاه وتلقى وإياه على مقايضة دمشق بسنجار وعانة من بلاد الشرق (وكان من أسباب ذلك خوف الملك الجواد من الملك الصالح عماد الدين إسماعيل)، ثم خرج الجواد واجتمع الخلق يسيرون في وجهه، وكان قد أساء السيرة في أهل دمشق. ثم خرج الصالح من دمشق على عزم الديار المصرية؛ لأخذ حقه بالسلطنة بعد موت أبيه، فكتب عمه صاحب بعلبك، الملك الصالح إسماعيل بن العادل، وسار الملك الصالح نجم الدين إلى نابلس (ضمن ملك الناصر داود) فاستولى عليها، فتوجه ابن عمه الناصر داود (ابن الملك المعظم عيسى بن العادل) إلى مصر داخلاً في طاعة الملك العادل، فأكرمه العادل وتأمراً عليه. وأقام الصالح بنابلس ينتظر مجيء عمه الصالح إسماعيل، فلم يلتق الملك الصالح إسماعيل إلى ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب هذا، وتوجه نحو دمشق وهجم عليها فدخلها سنة ٦٣٧هـ.

وبقي الصالح في ممالিকে وعلمانه ليس غير، ومعه جاريته شجرة الدر أم خليل، حتى طمع فيه أهل الفور فكسروهم مماليكه. ثم وصل بعد ذلك الملك الناصر داود من مصر إلى الكرك، فركب الصالح أيوب والتفاهم، فخدموه ونقموا عليه بالسلطنة وقالوا له: طيب قلبك، إلى بيتك جئت. فقال الصالح: لا ينظر ابن عمي فيما فعلت، فلا زال الملوك على هذا، وقد جئت إليه أستجير به. فقالوا: قد أجارك وما عليك بأس. وأقاموا عنده أياماً حول لدار. وقالوا للصالح: تطلع إلى الكرك فإن ابن عمك له بك اجتماع وأخذ سيفه. وكانت شجرة الدر حاملاً فسقطت وخدوه وتوجهوا به إلى الكرك. (نقل الصالح أيوب إلى الكرك مع شجرة الدر التي كانت قد أنجبت منه في أثناء ذلك بنتها خليل، وحجز الثلاثة هناك في القلعة، ومعهم مملوكه ركن الدين بيبرس الهندقاري (وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلمن من بعد)).

واستفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر: بالقبض على أخيه الصالح هذا، وأخذ وأعطى وأمر ونهى فتمدح عليه بعض أمراء مصر، ولكن ما أمكنهم يومئذ إلا السكات، وأركبوه بغلة بغير مهماز ولا مقرعة وساروا به إلى البرية في ثلاثة أيام وهو لا يكلم أحداً منهم كلمة ولا يأكل لهم طعاماً، ثم أدخلوه إلى الكرك ليلاً، وأقام بماليكه بنابلس.

واستمر الحال على ذلك إلى أن بلغ الملك العادل ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح ودقت الكؤوسات عزيت القاهرة.

(أطمئن السلطان العادل على عرشه في مصر: باعتقال أخيه الصالح أيوب في الكرك، فزيت القاهرة ووزعت الحلوى بتلك المناسبة، وأرسل العادل إلى الملك الناصر داود في الكرك يطلب منه إرسال أخيه الصالح أيوب إليه في قصص حديد، مقابل منحه أربع مئة ألف دينار وفوقها دمشق. فرد عليه الناصر داود برسالة تقول: "وصل كتاب السلطان، وهي يطلب أخاه إلى عنده في قصص حديد، وأنت تعطيني أربع مئة ألف دينار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هي بيده وتعطيني إياها، فأما الذهب فهو عندي كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هي معه، وسلمتها إلي، سلمت أخاك إليك. وهذا جوابي والسلام".

ولما وصل العادل، ردّ ابن عمه الناصر داود قائمًا بالتجهيز للخروج إلى الشام للاستيلاء على دمشق التي كانت في يد عمه الملك عماد الدين إسماعيل. أطلق الناصر داود ابن عمه الصالح أيوب على كتاب أخيه العادل، وكتب له أبياتاً من الشعر ليست من تأليفه، فيها:

فأمرنا إذا توالست توالست	فأصطبر وانتظر بلوغ الأماني
فردّ عليه الصالح شاكرًا، وأضاف هو الآخر أبياتاً شعرية من بينها بيت يقول:	
ويستقر بأقصى قعره الدرر	أما ترى البحر تطفوا فوقه جيف
والبيت للإمام الشافعي من قصيدة يقول فيها:	
والعيش عيشان ذا صفو وذا صدر	الدهر يومان ذا أمن وذا خطر
وتستقر بأقصى قاعه الدرر	أما ترى البحر تعلو فوقه جيف
وليس يكسف إلا الشمس والقمر	وفي السماء نجوم لا عداد لها

ثم كاتبه عمه الملك الصالح صاحب بعلبك في إرساله إلى الملك العادل إلى مصر. كل ذلك والعادل في قلق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم، وأقام الصالح مدة في الحبس، حتى أشار بعضهم على الملك الناصر بالاتفاق مع الصالح نجم الدين أيوب وإخراجه. تحرير القدس المؤقت، وإطلاق سراح الصالح أيوب:

بينما ملوك بني أيوب في صراعاتهم مشغولون، قام الصليبيون ببناء قلعة في القدس، وكان هذا خروجاً على أحد شروط معاهدة الملك الكامل وفرديريك الثاني، فلما بلغ الملك الناصر داود ذلك سار إلى القدس يحنود من مصو وضربها بالمجانيق، واستولى عليه، وأخرج الصليبيين منها في جمادى الأولى ٦٢٧هـ / كانون الأول ١٢٢٩م، بعد أن حاصرها ٢١ يوماً.

وكتب جمال الدين بن مطروح مادحاً الناصر داود حفيد الناصر صلاح الدين أبياتاً قال فيها:

المسجد الأقصى له عادة	سارت وصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً	أن يبعث الله له ناصرا
فتناصر طهره أولاً	وتناصر طهره آخرها

ثم اشتبك الصليبيون والعسكر المصري المقيم بساحل الشام، فهزموا وقتل منهم الكثيرين ونقلت أسراهم إلى مصر. ثم يعط السلطان العادل دمشق للملك الناصر داود، ولم يرسل الناصر داود الصالح أيوب إلى السلطان العادل. وتعقدت الأمور بينهما، وزدادت العلاقة بينهما سوءاً، ولم تنجح محاولات إقامة صلح بينهما من جهة، وبينهما وبين الملك عماد الدين إسماعيل من جهة أخرى. ثم أرسل الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماء رسالة إلى الخوارزمية، نقلها إليهم جمال الدين بن مطروح، يستحثهم فيها على مناصرة الملك الصالح أيوب ضد أخيه السلطان العادل. ومع الرسالة وضع رسالة أخرى من الملك الناصر داود كتب فيها:

"إني لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لهجته، خوفاً عليه من أخيه الملك العادل، ومن عمه الملك الصالح عماد الدين، وسأخرجه وأملكه البلاد، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص". (ثم ما لبث أن سلم الناصر داود القدس ذنية إلى الصليبيين عام ٦٤١هـ: لأجل التحالف مع عمه الخائن الملك الصالح إسماعيل ضد الملك الصالح أيوب بن الملك العادل الأيوبي (ملك مصر)، كما سترى فيما سيأتي).

أطلق الملك الناصر داود، بعد ٧ أشهر من احتجاز الصالح أيوب بقلعة الكرك سراحه، فأخرجه الناصر وتحالفاً واتقفاً، وذلك في آخر شهر رمضان، وكان تحليف الناصر داود للصالح أيوب على شيء ما يقوم به أحد من الملوك، وهو أنه يأخذ له دمشق وحمص وحماه وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما في الخزائن من المال والجواهر والخيل. ولما علم الملك العادل بخلاص أخيه الصالح، اتفق وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك الذي ملك دمشق، فسار الملك العادل من مصر والملك الصالح من دمشق ومعه أسد الدين صاحب حمص، ثم عزموا على قصد الناصر والصالح، فأول من برز لهم الملك العادل بعساكر مصر حتى وصل بلبس (وكان قد أساء السيرة في أمرائه وحواشييه) فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الصالح نجم الدين أيوب يعرفونه ويسألونه الإسراع في المجيء إلى الديار المصرية.

فسار وعنه الملك الناصر داود صاحب الكرك، فكان وصول الصالح إلى بلبس في يوم الأحد ٢٤ ذي القعدة، فنزل في خيمة العادل، والعادل معتقل في خرصاء، ومنذ أن فارق الصالح غرة تغير عليه داود وهو طامع في الملك وتحدث مع مماليك الصالح لقتله فأبوا، وشرب ليلة وصل إلى بلبس وشطخ إلى العادل، فخرج له من الخرصاء، فقبل الأرض بين يديه فقال له: كيف رأيت ما أشرت عليك ولم تقبل مني؟ فقال: يا خوند التوبة، فقال: طيب قلبك الساعة أطلقك، وجاء فدخل على الصالح الخيمة ووقف، فقال الصالح: باسم الله، اجلس، فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل. فقلت: أقعد، وهو يكرر الحديث، ثم سكت ونام، فما صدقت بنومه، وقمت في باقي الليل فأخذت العادل في محفة ورحلت به إلى القاهرة، ولما دخلنا القاهرة، بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إلي مع غلمانني، وغضب وأراد نصف ما في خزائن مصر، واستولى الصالح على ملك مصر وقبض على أخيه العادل في يوم الإثنين ٢٥ ذي الحجة وحبسه عنده بالقلعة سنين.

كشفت السلطان الصالح أيوب بيت المال والخزانة السلطانية، عند تسلطه، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم، فطلب القضاة والأمراء الذين قبضوا على العادل وسألهم عن سبب قبضهم عليه، فأجابوا: "لأنه كان سفيهاً". فسألتهم: "يا قضاة، السفه يجوز تصرفه في بيت مال المسلمين؟" فلما أجابوا بالنفي، قال لهم: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، كانت أزواجكم عوضه". فخرجوا وعادوا بمبلغ كبير من المال، فتركهم، ولكنه قبض عليهم واحداً تلو الآخر فيما بعد.

ولما أحس الصالح أن الأمراء والمماليك الأشرفية (مماليك عمه الملك الأشرف موسى) يتآمرون عليه قبض على عدد منهم، من بينهم مقدمهم أيلك الأسمر. وشرع الصالح في تنظيم أمور دولته وتقوية ممالكه، وبدأ في تشييد مقر جديد له في جزيرة الروضة، فأقام فيها الدور السلطانية والأسوار، ولما اكتملت، انتقل إليها من قلعة الجبل وسكنها مع أهله وحرمة ومماليكه.

ثانياً. الملك الصالح نجم الدين أيوب: تحرير بيت المقدس النهائي:

اتفق الناصر داود وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور صاحب حمص، على حرب الملك الصالح أيوب، وكان الصليبيون يراقبون الوضع باهتمام إلى حين.

وفي الوقت الذي كان الإمبراطور الألماني (صديق الملك الكامل وابنه الملك الصالح) يعارض البابا في الدعية الباباوية المستمرة إلى حملة صليبية جديدة، تحركت فصائل فرنسية قليلة من ليون بقيادة الملك تيمودي نافر والدوق هونغ الرابع البورغوني وغيرهما من الأسياد، وأبحر القسم الأكبر في حريف ١٢٢٩م إلى سوريا، إذ حاولوا بإصرار من الفرسان الهيكلين، عقد حلف مع أمراء دمشق وحمص والكرك الأيوبيين الانفصاليين ضد مصر. ولكن المصريين هزمهم جوار عسقلان في شهر تشرين الثاني ١٢٢٩، وبدأت المحاصصات بين الصليبيين.

نشأ في الشام صراع بين الصالح إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الكرك، وطلب الصالح إسماعيل من الصليبيين مساعدته في مقابل تسليمهم جميع ما فتحه صلاح الدين الأيوبي، ثم تطور ذلك الصراع إلى إقامة حلف مناهض للصالح أيوب في مصر، وكان من ضمن ذلك الحلف الناصر داود صاحب الكرك والصالح إسماعيل صاحب دمشق والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص.

وانضم، إلى هذا الحلف، الصليبيون الذين وعدهم الملوك الأيوبيون المتحالفون معهم بتسليمهم جزءاً من مصر بعد هزيمة الصالح أيوب. ومنح الصالح إسماعيل الصليبيين صفد وشقيف ونصف صيدا وطبريا وسائر بلاد الساحل، وسمح لهم بدخول دمشق وشراء السلاح منها، وهذا أغضب المسلمين، فأفتى الشيخ عز الدين ابن عز الدين عبد السلام بتحريم بيع الصليبيين السلاح، وقطع الدعاء للصالح إسماعيل في جامع دمشق، فعزله الصالح إسماعيل، فسار إلى مصر حيث ولاه الصالح أيوب الخطاية بجامع عمرو بن العاص، وفلده قضاء مصر والوجه القبلي.

تسلم الصليبيون في سنة ٦٤١هـ طبريا وعسقلان من الحلف المناهض للصالح أيوب، وتمكنوا من الصخرة بالقدس، وجلسوا فوقها يحتسون الخمر، وعلقوا جرساً على المسجد الأقصى كاتب، عندئذ، السلطان الصالح أيوب الخوارزمية في بلاد الشرق وطلب منهم الحضور إلى مصر لمعاونته في محاربة الملوك الذين تحالفوا مع الصليبيين وسلموهم أراضي المسلمين. (دخل المغول في السنة نفسها بلاد الروم، وهزموا السلطان غياث الدين كيخسرو، واستولوا على مملكته وعلى سيواس وقيسارية، وفر غياث الدين إلى القسطنطينية، أما بلد الدين لؤلؤ الخائن صاحب الموصل، فإنه خضع بإرادته للمغول، فقد راح يجبي المال من أهل الشام لمصلحة المغول).

عبر الخوارزمية نهر الفرات في نحو عشرة آلاف مقاتل، بقودهم الأمير حسام الدين بركة خان مع عدة من الأمراء، واقتحموا بعلبك وغوطة دمشق، فتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، ثم هاجم الخوارزمية القدس (مدينة بلا أسوار: لأن الملك المعظم خرب أسوارها)، وقتلوا أعداداً من الصليبيين، ومنها ساروا إلى غزة وأرسلوا إلى الصالح أيوب يعرفونه بقدمهم، فحرب بهم وسمح لهم بالإقامة في غزة، وأرسل إليهم الخيل والأموال، وجهاز الصالح أيوب جيشاً تحت قيادة جنرال الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، أحد مماليكه الأخصاء الذي كان معه في الكرك وقت احتجازه (وهو ليس الظاهر بيبرس الذي تسلط فيما بعد)، وخرج الجيش بقيادة بيبرس إلى غزة حيث انضم إلى الخوارزمية. أما في الشام، فقد جهز الصالح إسماعيل عسكر دمشق بقودهم الملك المنصور صاحب حمص وانضمت إليه قوات من الكرك والعربان بقودها الظهير بن سنقر الحلبي، والوزير، والقوت الصليبية القادمة من عكا التي كانت تضم فرسان المعبد (الداوية) والأسباترية وفرسان التوتون الألمان، وفرسان القديس لازاروس، وجيش بيت المقدس بقيادة "والتر الرابع" و"أرمند دو بريجورد" و"هيليوب منوتفورت"، ورفق الصليبيون الصليبان فوق رؤوس عسكر الشام، وساروا جميعاً بحلفهم نحو مصر والقساوسة يباركونهم.

حطين الثانية: معركة غزة أو معركة الحربية، وتسمى أيضاً معركة لافوريي:

سن الصليبيون، في ١٧ تشرين الأول ١٢٤٤م - جمادي الأولى ٦٤٢هـ، في تحالف صليبي - أيوبي كبير (من الأيوبيين الانفصاليين في دمشق وحمص والكرك)، هجوماً برياً ضخماً على مصر، واسطلم الجمع في شمال

شرقي غزة في معركة عرفت أيضاً باسم معركة الحربية أو معركة لافوريي La Forbie؛ وكان الصليبيون في معنة جيش الشام بأكبر جيش دفعوا به إلى ميدان القتال منذ معركة حطين (١٥٠٠ هـ/ ١٠ هـ)، وفي المعركة عسكر الناصر صاحب الكرك والعريان، وفي القلب المنصور صاحب حماه، وهجم الخوارزمية على السكسر الشامي في حين تصدى المصريون للصليبيين، وانهزم المنصور وفر الوزير وأسرى الظهير الحلبى، وأحيط بالصليبيين الذين حصر جيشهم بين الخوارزمية والمصريين، وهزم التحالف الصليبي - الأيوبي هزيمة منكرة في عدة ساعات فقط، وفر المنصور إلى دمشق.

وقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة على ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقساوستهم وأساقفتهم، وخلقوا من أمراء المسلمين، وقتل من بينهم مقدم الداوية ورئيس أساقفة صور وأسقف الرملة. وانهزم الحلف الشامي - الصليبي هزيمة منكرة. وبث الخوارزميون بالأسارى، وعددهم ٨٠٠، وبألرووس إلى مصر. ووصلت بشارة النصر إلى الملك الصالح أيوب في ١٥ جمادى الأولى، فزينت القاهرة وقلعتي الجبل والروضة، وسبق الأسرى إلى القاهرة، وكان من بينهم كونت باقا ومقدم الأسباترية، وطوف بهم في الشوارع وهم محملون على الجمال. واستخدم الصالح أيوب الأسرى الصليبيين في إكمال تشييد جزيرة الروضة. مكن نصر غزة المسلمين من تعضيد نصرهم، وحرص سيادتهم الكاملة على بيت المقدس وتحريرها النهائي مع بعض معاقل الصليبيين في الشام.

أما يبرس، فقد انطلق إلى عسقلان التي حوصرت عن طريقه براً وعن طريق السفن المصرية من البحر، ودخلت القوات القدس وحررتها - ولم يتمكن الصليبيون منذ ذلك اليوم من الاستيلاء على القدس مرة أخرى - ودخلت الخليل وبيت جبرين والأغوار. ثم أرسل الصالح أيوب جيشاً إلى دمشق تحت قيادة معين الدين الحسن بن شيخ. وتحصن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم وحاصرت القوات دمشق، فأرسل الصالح إسماعيل إلى معين الدين سجادة وإبريقاً وعكازاً ومعها رسالة تقول: "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك". فأرسل إليه معين الدين جنكاً وزمراً وغلالة من حرير أحمر وأصفر، ومعها رد يقول: "السجادة والإبريق والعكاز يعقون بي، وأنت أولى بالجنك والزمزم والغلالة". واستمر الحصار.

جرت مفاوضات بين معين الدين والصالح إسماعيل، وتقرر أن يقوم الصالح إسماعيل بتسليم دمشق على أن يخرج منها سالماً هو والمنصور بأموالهم، وأن يعوض الصالح إسماعيل ببيعليك ويصرى ومواقع أخرى، وأن يعوض المنصور بحمص وتدمر والرحبة، وغادر الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم دمشق بهذا الاتفاق، فدخلها معين الدين في ٨ جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ، وخطب للسلطان الصالح أيوب في مساجدها. وعين الأمير حسام الدين أبا علي إيداني نائباً للسلطان في دمشق.

ولشيء من التفصيل والتوثيق العربي، يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" تحت سنة ٦٤٢هـ (ج ١٣، ص ١٩٣):
(وفيها: كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية الذين كان الصالح أيوب صاحب مصر استقدمهم ليستجدهم بهم على الصالح إسماعيل أبي الحسن صاحب دمشق، فنزلوا على غزة وأرسل إليهم الصالح أيوب الخلع والأموال والأقمشة والمساكن، فاتفق الصالح إسماعيل لأي عم الملك الصالح نجم الدين أيوب والناصر داود صاحب الكرك، وللمنصور صاحب حمص وأولاد عم الملك الصالح نجم الدين) مع الفرنج، واقتتلوا مع الخوارزمية قتالاً متديداً، فهزمتهم الخوارزمية كسرة منكسة فظيعة، وهزمت الفرنج بصلباتها وراياتها العالية، على رؤوس أطلاب المسلمين، وكانت كؤوس الخمر دائرة بين الحيوش، فتابت كؤوس المنون عن كؤوس الزرجون. فقتل من الفرنج في يوم واحد زيادة على ثلاثين ألفاً، وأسروا جماعة من ملوكهم وقساوستهم وأساقفتهم، وخلقوا من أمراء المسلمين، يعثوا بالأسارى إلى الصالح أيوب بمصر، وكان يومئذ يوماً مشهوداً وأمرأ محموداً، ولله الحمد. وقد قال بعض مرء المسلمين (المنصور): قد علمت أنا لما وقفنا تحت صليب الفرنج أنا لا نفلح).

واستغل المسلمون هذه الظروف، وأشرف الملك الصالح نجم الدين أيوب في ١٢٤٤م بجيشه المصري بسانده ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين يفتح القدس ثانية، وقضوا على الصليبيين فيها عن بكرة أبيهم، وانتقلت المدينة بفسوخ إلى المسلمين.

يحكي ابن تفردي بردي في "النجوم الزاهرة" عن حكمة الله في أن معركة غزة كانت سبباً في استرجاع القدس، ومن ثم توحيد الشام ومصر على يد البطل الجديد الملك الصالح نجم الدين أيوب: (وأما الخوارزمية بعد أن أزال التتار دولتهم، فإنهم تغلبوا على عدة قلاع وعادوا وخربوا البلاد لوكانوا مرتزقة شراً من التتار). ووقع الصالح في سنة ٦٤١هـ بين الصالحين أي الملك الصالح أيوب وعمه الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص على أن تكون دمشق للصالح إسماعيل، وأن يقيم هو والحلبيون والحمصيون الخطية في بلادهم لصاحب مصر، وأن يخرج له الملك الصالح أيوب المغيث من اعتقال الملك الصالح إسماعيل - والملك المغيث هو ابن الملك الصالح نجم الدين - كان معتقلاً قبل سلطنته في واقعة جرت. قلت: يعني: إن الصالح إسماعيل (عم الملك الصالح أيوب) قبض على المغيث بن الملك الصالح أيوب بعد خروج الصالح من دمشق قاصداً الديار المصرية قبل أن يقبض عليه الناصر داود ثم ساروا إلى مصر واتفق الملوك على عداوة الناصر داود، وجهر الصالح إسماعيل عسكرياً بإحاصرون عجلون (وهي للناصر)، وخطب لصاحب مصر الصالح نجم الدين في بلاده، وبقي عنده المغيث حتى تأتته نسخ الأمان.

قال ابن واصل: فحدثني جلال الدين الخلاطي قال: كنت رسولاً من جهة الصالح إسماعيل، فورد عليّ من كتاب، وفيه عليه كتاب من الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية يحثهم على الحركة ويعلمهم أنه إنما صالح عمه الصالح ليخلص ابنه المغيث من يده، وأنه باقٍ على عداوته، ولا بد له من أخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى صاحب معين الدين، فأوقفته عليه فما أبدى عنه عذراً يسوغ.

ورد الصالح إسماعيل المغيث بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، وقطع الخطبة، ورد عسكرياً عن عجلون، وأرسل إلى الناصر داود، واتفق وإياه على عداوة صاحب مصر، وكذلك رجع صاحب حلب وصاحب حمص عنه وصاروا كلمة واحدة عليه. واعتقلت رؤسهم بمصر، واعتضد صاحب دمشق بالفرنجة وسلم إليهم القدس وطبريا وعسقلان.

وتجهز صاحب مصر الملك الصالح أيوب لقتالهم، وجاءته الخوارزمية فساهموا إلى غزة واجتمعوا بالمصريين وعليهم ركن الدين بيبرس البندقداري الصالح

وتسلم الفرنج حرم القدس وغيره، وعمرُوا قلعتي طبريا وعسقلان لخلها لصالح الملك الكامل مع الإمبراطور الألماني، ووعدهم الصالح إسماعيل عم الملك الصالح أيوب بأنه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكر الشام إلى غزة، ومضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكا وطلبها فأجابوه وصعد الزهبان على الصخرة وعليها فتاني الخمر والجرس في المسجد الأقصى، وأبطل الأذان بالحرم وأعلن الكفر، وقدم الناصر داود إلى القدس فنزل بغربيته.

ولما عدت الخوارزمية الفرات، وكانوا أكثر من عشرة آلاف، ما مروا بشيء إلا نهبوه، وتقهقروا الدين بغزة منهم، وطلع الناصر إلى الكرك، وهربت الفرنج من القدس، فهجمت الخوارزمية على القدس وقتلوا من به من النصاري وهدموا مقبرة القمامة (أي المرفقة بكنيسة القيامة)، وجمعوا بها عظام الموتى، فحرقوها ونزلوا بغزة ورأسوا صاحب مصر: يعني الملك الصالح هذا، فبعث إليهم بالخلع والأموال وجاءتهم العساكر، وسار "أمير حسام الدين بن أبي علي بعسكر ليكون مركزاً بنابلس، وتقدم المنصور إبراهيم على الشاميين لقتال المصنعيين (وكان شهماً شجاعاً) ورافقته الفرنج من عكا وغيرها بالفارس والراجل، ونفذ الناصر داود عسكرياً فوق المساب بظاهر غزة، فانكسر المنصور شر كسرة، وأخذت سيوف المسلمين الفرنج فأفقتهم قتلاً وأسراً، ولم يفت منهم إلا الشارد، وأسبر أيضاً من عسكر دمشق والكرك جماعة من المتقدمين.

قال ابن واصل: حكى لي عن المنصور أنه قال: (والله، لقد قصّرت ذلك اليوم ووقع في قلبي أنه لا تنتصر، لاقتصارنا بالفرنج) - قال ابن بردي: (عليه من الله ما يستحقه من الخزي. وأيش يفيد تقصيره بعد أن صار هو وأعزرج يداً واحدة على المسلمين)؛ قال: ووصلت عسكر دمشق معه في أسوأ حال.

وأما مصر، فزيت زينة لم ير مثلها، وضربت البشائر، ودخلت أسارى الشام، الفرنج والأمراء، وكان يوماً مشهوداً بالقاهرة.

ثم عطف حسام الدين بن أبي علي وزكن الدين بيبيرس فنزلوا عسقلان وحاصروها وبها الفرنج الذين تسلموها، فخرج حسام الدين وأمتعت عليهم عسقلان لحصانتها. ثم ترحلوا إلى نابلس وحكموا على فلسطين والأغوار إلا عجلون وكانت بيد سيف الدين بن قليج نياية عن الناصر داود).

كان سقوط بيت المقدس في يد قوات الملك الصالح نجم الدين أيوب صدى قوي في أوروبا يشبه صدى سقوطها في يد صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م. إذ قام "روبرت" بطريق بيت المقدس بإرسال "جاليران" أسقف بيروت إلى ملوك أوروبا وأعرانها، يستعجلهم بإرسال إمدادات إلى الأراضي المقدسة؛ لمنع زوال مملكة بيت المقدس برمتها، وذلك في أثناء شهر من سقوط القدس بأيدي المسلمين. وبدأ الأوروبيون بدعم من بابا الكاثوليك "إنوسنت الرابع" Pope Innocent IV يجهزون لحملة صليبية كبرى ضد مصر، تمكنهم من استعادة بيت المقدس. وكان ملك فرنسا لويس التاسع من أكبر المتحمسين للحملة الجديدة. كان الصليبيون يدركون أن مصر صارت قلعة الإسلام وقرساته العسكرية، ومصدر القوة العشرية الرئيس للمسلمين، وهي العائق الرئيس الذي يعترض طموحاتهم لاسترجاع بيت المقدس. وقرروا أنهم لن يتمكنوا من احتلال كل الشام وبيت المقدس دون الإجهاد أولاً وبداية على مصر.

ثالثاً. توحيد الشام مع مصر (القضاء على تمرد الخوارزمية والصالح إسماعيل الخائن):

عزم الصالح أيوب صاحب مصر، في ٦٤٠هـ، على دخول الشام فقبل له: إن العساكر مختلفة، فجهز عسكراً إليها وأقام هو بمصر يدير مملكتها. ثم بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين بن الشيخ على جيشه، وقامه مقام نفسه. وأنفذ معه الخزائن وحكمه في الأمور، وصار هو إلى الشام ومعه الخوارزمية، فنالوا دمشق وبها عنة الخائن الصالح إسماعيل، والمنصور صاحب حمص، فذل الصالح إسماعيل (وبعث وزيره أمين الدولة مستشفعاً بالخليفة: ليصلح بينه وبين ابن أخيه الملك نجم الدين فلم يظفر بطائل ورجع).

واشتد الحصار على دمشق، وأخذت بالآمان (لقلة من مع صاحبها، ولعدم الميرة بالقلعة، ولتخلي الحلبين عنه: فدخل). ولما رأت الخوارزمية أن السلطان قد تملك الشام بهم وهزم أعداءه، صار لهم عليه إذلال كثير فطمعوا، فلما لم يحصلوا على شيء، فسدت نيتهم له وخرجوا عليه وكاتبوا الأمير زكن الدين بيبيرس البندقداري (وهو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيوب وكان بغزة فأصغى إليهم - فيما قيل) وراسلوا صاحب الكرك فنزل إليهم ووافقهم، وكانت أمه أيضاً خوارزمية، وتزوج منهم ثم طلع إلى الكرك واستولى حيثن على القدس ونابلس وتلك الناحية، وهرب منه نواب صاحب مصر. ثم راسلت الخوارزمية الملك الصالح إسماعيل وهو في بعلبك وحلفوا له، فصار إليهم واتفقت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر، فطلق الصالح لذلك، وطلب زكن الدين بيبيرس فقدم مصر، فاعتقله، وكان آخر العهد به. (وهذا غير بيبيرس البندقداري الظاهري وإنما هذا أيضاً على اسمه وشهرته، وهذا أكبر من الظاهر بيبيرس وقدم. وقد قبض عليه الملك الصالح بعد ذلك لتمرده وأودعه السجن حيث قضى نحبه).

ثم خرج الملك الصالح نجم الدين أيوب بعساكره فخيم بالعباسة، وكان قد نفذ رسوله إلى الخليفة المستعصم (بغداد) يطلب تقليداً بمصر والشام أو الشرق، فجاءه التشريف والطق الذهب والتركوب، فلبس التشريف الأسود

والعمامة والجبّة وركب الفرس بالحليّة الكاملة، وكان يوماً مشهوداً. ثم جاء عمه الخائن الصالح إسماعيل والخوارزمية ونزلوا دمشق، وليس بها كبير عسكر، وبالقلة الطواشي رشيد، وبالبند ثائيبها حسام الدين بن أبي علي الهذلي، فحسبها وقام بحفظها بنفسه ليل نهار، واشتد بها (أي بدمشق) الغلاء وهلك أهلها جوعاً ووباء.

وتوجه السلطان الصالح نجم الدين أيوب في ٦٤٤هـ إلى مصر، وتصدق في القدس بألفي دينار، وأمر بعمارة سورها، وقال: اصرفوا دخل البلد في عمارة السور.

فعند ذلك اتفق عسكر حلب والمتصور صاحب حمص على حرب الخوارزمية، فقصدهم وتركوا حصار دمشق وساقوا يقصدونهم، فالتقى الجمعان ووقع المصاف في أول سنة ٦٤٤هـ على القصب قرب حمص، فشنت القتال، والصالح إسماعيل مع الخوارزمية، فانكسروا عندما قتل مقدمهم حسام الدين بركة خان، وانهزموا ولم تقم لهم بعدها قائمة، وعلق رأس بركة خان على قلعة حلب، وتشتت الخوارزمية، وخدم طائفة منهم بالشام، وطائفة بمصر، وطائفة مع كسلوخان ذهبوا إلى التتار وخدموا معهم، وكفى الله شرهم ووصل الخبر إلى القاهرة، فزيّنت، وحصل الصلح التام بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب وبين صاحب حمص والحلبين.

وأما الصالح إسماعيل الخائن، فإنه التجأ إلى ابن أخته الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. وسار نائب دمشق حسام الدين إلى بعلبك وحاصرها وبها أولاد الصالح إسماعيل فسلموها بالأمان، ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة: هم والوزير أمين الدولة والأستاد ناصر الدين بن يغمور، فاعتقلوا بمصر. وصفت البلاد لذلك الصالح (بفضل الله ومنته عليه).

وبقي الملك الناصر داود - سامحه الله - بالكرك في حكم المحصور، ثم رضي السلطان على تخر الدين الشيخ، وأخرجه من الحبس وسيره إلى الشام واستولى على جميع بلاد الناصر داود، وخرب ضياع الكرك ثم نازها أياماً، وقتل ما عند الناصر من المال والذخائر، وقتل ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيم له عنده من اليد: من الذب عنه وتمليكك ديار مصر (كان مزاجي الطبع، يتوي قتل الملك الصالح نجم الدين أيوب) وهي:

قبل للذي قاسمته ملك اليد	وتهضت فيه نهضة المستأند
عاصيت فيه ذوي الحجا من أسرتي	وأطعت فيه مكارمي وتديدي
يا قاطع الرحم التي صلتني بها	كثبت على الفلك الأثير بعسجد
إن كنت تقدر في صريح مناسبي	فانصبر بعزمك للهيبة المرصد
عمي أيولك والدي عم به	يلو انتسابك كل ملك أصيد
صالا وجالا كالأسود ضواريا	فارتد تيار الفرات المزبد
دع سيف مقولي البايغ يذب عن	أعراضكم بفرشه المتوقد
فهو الذي قد صاغ تاج فخاركم	بمفضل من لؤلؤ وبرجد

ثم أخذ يصف نفسه وجوده ومحاسنه وسودده، إلى أن قال:

يا محرجي بالقول والله الذي	خضعت لعزته جباء السجد
والله يا بن العم لولا خيفتي	لرميت ثغرك بالعداء المرد
لكنني ممن يخاف حرامه	ندماً يجرعني سمام الأسود
فأراك ربك بالهدى ما ترتجي	لنراك تقبل كل قعل مرشد

لتبديد وجه الملك طلقاً ضاحكاً
كي لا ترى الأيام فينا فرصة
لا زال هذا البيت مرتفع البناء
وترد شمل البيت غير مبدد
للخارجين وضحكة للحساد
يزهو بأمجد بعد آخر أمجد

ثم إن صاحب الكرك هذا الملك الناصر داود سافر إلى بغداد، فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، وسلم إليه الكرك، ففرح بها مع ما فيه من الأمراض، وزينت بلاده، وبعث إليها بالطواشي بدر الدين الصوابي نائباً. ثم قدم عليه أولاد الناصر داود، فبالغ الملك الصالح في إكرامهم وأقطعهم أخياراً جليلاً. ولم يتزايد به لمرض إلى أن مات، وأخفى موته، قال: ثم إن السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبي علي وولاه نيابة الديار المصرية، واستتاب على دمشق صاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، ثم قدم الشام وجاء إلى خدمته صاحب حمام ملك المنصور وهو ابن اثنتي عشرة سنة وصاحب حمص وهو صغير، فأكرمهما وقربهما ووصل إلى بعلبك، ثم رد إلى الشام، ثم رجع السلطان ومرض في الطريق إلى مصر.

وقد أذاق الله تعالى الملك داود هذا طعم الحبس بنفسه، مثلما حبس ابن عمه الملك الصالح أيوب ظمناً وعدواناً (سراء من جنس العمل). وعاد الملك الناصر داود في عام ٦٥٢هـ من الأنبار إلى دمشق، بعد أن حبسه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بقلعة حمص ثلاث سنين، وبعث به إلى بغداد، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، ثم عاد في سنة ٦٥٣هـ إلى العراق وحج وأقام بالحلة، وكان قد جرى بين الحج العراقي وأصحاب أمير مكة فتنة فاصلح بينهم. وقد أوجع الملك داود وديعة للخليفة المستعصم قد جرحها عليه. وذكر أنه حضر أول درس ذكر بالمستصرية في سنة ٦٣٢هـ، وأن أشعراء أشدوا المستعصم مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لو كنت في يوم السقيفة شاهداً كنت المقدم والإمام الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر: (اسكت فقد أخطأت، فلو كان جد أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئذ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا أبو بكر الصديق عليه السلام)، فقال الخليفة: صدقت، فكان هذا من أحسن ما نقل عنه رحمه الله تعالى وعفا عنه.

ربعا. الحملة الصليبية السابعة (٦٤٧هـ-١٢٤٩م):

كانت هذه الحملة الهائلة رداً عسكرياً صارماً على تحرير القدس الثاني، يقودها ملك أوروبي مع أمراء أوروبا وإيلانها (تشبه الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ملك إنكلترا). كان أول أهداف هذه الحملة هزيمة مصر لإخراجها من الصراع، والقضاء على الدولة الأيوبية التي تحكم مصر والشام، ومن ثم إعادة احتلال بيت المقدس. وقد جهز الصليبيون هذه الحملة بتأني في ثلاث سنوات، وحاولوا التحالف مع المغول: ليعاونوهم على تطويق العالم الإسلامي من المشرق والمغرب، فيصعب على مصر القتال على جبهتين في آن واحد، ويسهل عليهم إذاك الإطاحة بالعالم الإسلامي بضمرة واحدة. وهام البابا بإرسال سفارتين إلى المغول، فأرسل مبعوثه الفرنسي سكاكي "جيوفاني دا بيان كارييني" إلى "جويوك" خان المغول الأعظم يطلب منه تحالفه مع الصليبيين. لكن رد "جويوك" كان مخيباً لآمال البابا، إذ رد عليه برسالة يطلب منه أن يعترف له بالسيادة، ويعلن خضوعه له مع ملوك أوروبا، بل طالبه بأن يأتي إلى بلاطه مع جميع ملوك أوروبا لتقديم الجزية ومبايعة الخان الأعظم وسيد العالم.

لكن إنوسنت الرابع لم يفقد الأمل، فقام في أيار/مايو عام ١٢٤٧م بإيقاد "أسكلين اللومباردي" "Asclen of Lombardy" القائد المغولي الإيلخان "بايشو" في تبريز. وبدأ بايشو أكثر استعداداً للتحالف مع الصليبيين ضد المسلمين، إذ اقترح أن يقوم الصليبيون في ذات الوقت بمهاجمة الشام فيحصل تطويق المسلمين، وأوفد رسولين إلى

روما بقيا في ضيافة بابا الكاثوليك نحو عام، ثم عادا إلى "بياتشو" ومعهما شكوى من البابا بأنه لم يلحظ أن "بياتشو" قد أقدم على فعل شيء، مشر يخدم التحالف المأمول؛ وأخفق عملياً التحالف الصليبي - المغولي.

وأبحر لويس، في جمادى الأولى ٦٤٦هـ - آب ١٢٤٨م، من مرفأ إيجو - مورت، وتبعته سفن من المرفأ ومن مرسيليا. كان الأسطول الفرنسي الصليبي ضخماً، ويتكون من نحو ١٨٠٠ سفينة محملة بنحو ٨٠ ألف مقاتل بعناهم وسلاحهم وحيولهم. كان يصحبه لويس زوجته "مرجريت دو بروفنس Marguerite de Provence"، وأخوه الأول "شارل دي أنجو (Charles d'Anjou)" وأخوه الثاني "روبير دي آرتوا (Robert d'Artois)" ولبلاء من أقاربه ممن شاركوا في حملات صليبية سابقة مثل: "هيو دو بورجوندي (Hugh de Burgundy)" و"بيتر دو بريتاني Peter de Brittany"، وغيرهم. وتبته سفينة على متنها فرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف سالزبري (William of Salisbury)" و"هيروراموند (Fair Rosamond)"، وكانت هناك فرقة إسكتلندية مات قائدها "باتريك أوف دونبار (Patrick of Dunbar)" في سفره إلى مرسيليا، أُرِد الملك لويس التوجه مباشرة إلى مصر من أجل عنصر المباغتة، لكن مستشاريه وباروناته فضلوا القيام بوقفه تعبوية لتجميع كل السفن والمقاتلين، فتوقف بجزيرة قبرص، إذ انضم إليه عدد كبير من بارونات سوريا وقوات من قرسان المعبد، المعروفون بالداوية والإسبارية التي قدمت من عكا تحت قيادة مقدميها.

قام لويس، في أثناء توقفه بقبرص، باستقبال وفد مغولي سلمه رسالة ودية من خان المغول يعرض عليه فيها خدماته؛ للاستيلاء على الأراضي المقدسة، وطرد المسلمين من بيت المقدس. فأرسل لويس هدية إلى خان المغول، وكانت خيمة ثمينة على هيئة محراب كنيسة، عليها رسم يمثل بشاراة الملائكة لمريم العذراء؛ لترغبه في اعتناق النصرانية، لكن لسوء حظ لويس، عند المغول هديته لهم بمنزلة رسالة تعني قبولهم الخضوع للصليبيين؛ فطلبوا منه إرسال هدايا لهم في كل عام لكونهم الأسياد، وهذا أصابه بصدمة (ويضعف الله ما يريد).

الاستخبارات المصرية: بلغت أخبار حملة لويس التاسع لغزو مصر إلى السلطان الصالح أيوب عن طريق إمبراطور ألمانيا "فريدريك الثاني" بسبب صداقته مع الأيوبيين والملك الظاهر وابنه الملك الصالح، فأرسل رسولاً من قلبه، تنكر في زي تاجر؛ ليحذر الملك الصالح من تلك الحملة. وكان الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني في صراع مع بابا الكاثوليك، وضد أي حملة صليبية ضد المسلمين، وهذا منح السلطان أيوب فرصة للاستعداد وإقامة التحصينات، ثم إن توقف الحملة الصليبية في قبرص أدى إلى تسرب أنباتها إلى مصر قبل وصول سفنها إلى المياه المصرية.



الحملة الصليبية السابعة لغزو دمياط (مصر) في ١٢٤٩م

ولما علم الصالح أيوب أن مدينة دمياط سوف تكون طريق الصليبيين المفضل لغزو مصر، انتهى حصاره لحمص، وعاد من الشام إلى مصر على محفة؛ بسبب مرضه الشديد، ونزل في شهر محرم سنة ٦٧٠ هـ - هيسان

١٢٤٩م، وعسكر بجيوشه جنوبها في بلد "آشوم طنج" (اليوم "آشمون الرمان") التابع لمحافظة الدقهلية - شمالي مصر - على **البحر الشرقي** من الفرع الرئيس للنيل. وأمر بتحسين دمياط، وأصدر أوامره بالاستعداد وشحن دمياط **بالسلاح** والأقوات والأجناد، وأمر نائبه بالقاهرة الأمير حسام الدين بن أبي علي بتجهيز الأسطول، وأرسل الأمير **فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ**، وكان أميراً في نحو الثمانين، على رأس جيش كبير ليحضر في البحر الغربي **لدمياط** حتى يواجه الفرنج إذا قدموا، ويمنع نزول العدو إلى الشاطئ.

أقلع الملك لويس، في ٦٤٧هـ - أيار عام ١٢٤٩م، في سفينته الملكية "لو مونت - جوي"، وأمر باروناته باتباعه بسفنهم إلى مصر، فأبحرت السفن من ميناء ليماسول القبرصي وقفت عاصفة بحرية قوية، في أثناء التوجه إلى مصر، تسببت رياحها في جتوح نحو ٧٠٠ سفينة من سفن الحملة إلى عكا وسواحل الشام. كان ضمن المقاتلين على متن السفن الجائحة نحو ٢١٠٠ من فرسان لويس التاسع الذين كان مجموعهم نحو ٢٨٠٠ فارس، فتوقف لويس وقتاً قصيراً في جزيرة المورة اليونانية، حيث انضم إليه "هيو دو بورجوندي" الذي كان ينتظر هناك، ثم أبحر جنوباً صوب مصر. وكان هذا سبباً ثالثاً لمصلحة الاستخبارات المصرية وإحكام التحصينات المصرية.

الاستيلاء على دمياط: دخلت سفن الفرنج المياه المصرية، ووصلت إلى شاطئ دمياط ورست بإزاء المسلمين. كان المقاتلون الصليبيون، وهم ينظرون من فوق أسطح سفنهم، قد راعهم كثرة أجناد المسلمين على الشاطئ، وريق أسنحتهم، وصهيل خيولهم. وأرسل لويس كتاباً إلى السلطان الصالح أيوب يهدده ويتوعده ويطلب منه **الاستسلام**، وكان السلطان الصالح مريضاً. اغرورقت عين الصالح أيوب بعد أن قرئ عليه كتاب لويس، ورد **عليه** (يحذره من عاقبة عدوانه وصلفه، ويبيته أن بغيه سيصرعه وإلى البلاء سيقبله)، ولما وصل رد الملك الصالح إلى **لويس** برفض الاستسلام، قرر لويس بدء عملية الإنزال.

وصل الأسطول الصليبي إلى المياه المصرية أمام دمياط (صفر ٦٤٧هـ - حزيران ١٢٤٩م) وبدأ في اليوم الثاني فجر السبت ٢٢ صفر ٦٤٧هـ - ٥ حزيران ١٢٤٩م إنزال القوات الصليبية على بر دمياط. وكانت القوات تضم نحو ٥٠٠ مقاتل وفارس. ضربت للويس خيمة حمراء كبيرة على الشط، ونشب قتال عنيف بين المسلمين والصليبيين، **انتهى** بتراجع المسلمين.



الإنزال العسكري الضخم للحملة الصليبية السابعة والاستيلاء على مدينة دمياط

وارتكب الأمير فخر الدين يوسف، في المساء، خطأ تكتيكياً فادحاً فانسحب هو وقواته المكلفة بحماية **مدينة** من دمياط إلى المعسكر السلطاني في "آشوم طنج"، بعد أن ظن أن السلطان قد فارق الحياة؛ لأنه لم يرد على رسائله التي بعث بها إليه بالحمام الزاجل. ترك فخر الدين دمياط خلفه بكل ما فيها من سلاح ومؤونة

وأقوات، ففرغ السكان وفروا هم أيضاً منها، وخلفهم العربان الذين كانوا مسؤولين بالمشاركة في حماية المدينة. فغير الجنود الصليبيون إلى المدينة المهجورة، سيراً على الجسر الذي تسيث الحماية الأيوبية تدميره قبل انسحابها، واحتلوا دمياط دون مقاومة، حتى إنهم ظنوا بإدائ الأمر أنها مكيدة من المسلمين. استولى الصليبيون على المدينة بكل ما فيها من سلاح وعتاد ومؤونة، وحصنوا أسوارها. وهكذا سقطت دمياط في أيدي القوات الحملة الصليبية السابعة دون قتال.

وكما يقول ابن تغري بردي: (ووقع الخذلان على أهل دمياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم، حتى لم يبق بها أحد. وكان هذا من قبيل رأي فخر الدين: فإن دمياط كانت في ثوبه سنة خمس عشرة وست مئة أقل ذخائر وعدداً وما قدر عليها الفرنج إلا بعد سنة، وإنما هرب أهلها لما رأوا هرب العسكر وضعف السلطان، فلما أصبحت الفرنج ملكوها صفوا بما حوت من العدد والأسلحة والذخائر والغلال والمجانيق؛ وهذه مصيبة لم يجر مثلها).

اغتنبت الفرنج بالاستيلاء على دمياط بهذه السهولة، لكن لويس فضل التمهّل في التقدم نحو الدلتا إلى أن تصل السفن الجائحة في الشام وإلى أن ينتهي موسم فيضان النيل: حتى لا يسقط في غلطة الحملة الصليبية الخامسة التي أغرقها فيضان النيل، وتحولت دمياط إلى مستعمرة صليبية، وعاصمة لمملكة ماوراء البحار (أوتريميه) وصلح جامعها الكبير كاثدرائية، ونصب أحد القساوسة أسقفاً عليها. وأنشأت الأسواق الأوروبية، وأمسك تجار جنوا وبيزا بزمام التجارة فيها. واستقبل لويس صديقه بالدوين الثاني Baldwin II أميراً طور القسطنطينية، وحضرت زوجته من عكا للإقامة معه، وكانت قد توجهت من قبرص إلى عكا عند إبحاره إلى مصر.

المقاومة الإسلامية: أما في الجانب المصري، فقد وقعت آباء سقوط دمياط في أيدي الصليبيين كالصاعقة على الناس، واشتد حنق السلطان الصالح أيوب على الأمير فخر الدين، وقال له: "أما قدرتم تقفون ساعاً بين يدي الفرنج؟" وأمر بإعدام نحو ٥٤ من أمراء العربان الذين تهاونوا وغادروا دمياط بغير إذن، وصلبهم لكونوا عمرة للمنهزمين المتولين في أثناء الزحف. يقول ابن تغري بردي: (فلما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان، حنق على الشجعان الذين كانوا بها وأمر بهم فشنقوا جميعاً ثم رحل بالجيش وسار إلى المنصورة، فنزل بها في المنزلة التي كان أبوه نزلها، وبها قصر بناه أبوه الكامل ووقع النفي العام في المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوعة والعربان، وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومتناوشتهم وتحطفهم، واستمر ذلك شهراً، والسلطان يتزايد مرضه، والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به. وتقدم السلطان المجاهد وهو في مرض الموت ليقود القتال والمقاومة بنفسه، فحمل السلطان المريض في حراقة إلى قصر المنصورة.

واشتعلت روح الجهاد، وقدمت الشوائب (السفن) بالمحاربين والسلاح من أنحاء مصر كافة إلى المنصورة. استجابة لنفير الجهاد العام لأجل الجهاد ضد الغزاة، وتوافد على المدينة أفواج من المجاهدين الذين نزحوا من بلاد الشام والمغرب الإسلامي. وقامت حرب عصابات ضد الجيش الصليبي المتحصن خلف الأسوار والخنائق. وراح المجاهدون يشنون هجمات على معسكراته ويأسرون مقاتليه وينقلونهم إلى القاهرة، ويروي المزيخ الصليبي "جوانفيل Joinville" الذي رافق الحملة، أن المسلمين كانوا يتسللون في أثناء الليل إلى المعسكر الصليبي، ويقتلون الجنود وهم نيام ويهربون بروؤسهم. ويذكر المؤرخ ابن أبيك الدواداري أن الصليبيين كانوا يخافون من العوام المتطوعين أكثر من الجنود، واقتصروا الأمر على الغارات التي يشنها الفدائيون المسلمون على معسكر الصليبيين واختطاف كل من تصل إليه أيديهم، وابتكروا لذلك وسائل تثير الدهشة والإعجاب. من ذلك أن مجاهداً من المسلمين قور بطيخة خضراء، وأدخل رأسه فيها ثم غطس في الماء إلى أن اقترب من معسكر الصليبيين، فظننه بعضهم بطيخة عائمة في الماء، فلما نزل لأخذها خطفه الفدائي المسلم وأتى به أسيراً. وتعددت موكب أسرى الصليبيين في شوارع القاهرة على نحو زاد من حماسة الناس، ورفع معنويات المقاتلين إلى السماء.

التقدم الصليبي إلى المنصورة باتجاه القاهرة، وفي الوقت نفسه قامت البحرية المصرية بحصار قوات الحملة وطلعت خطوط إمدادها في فرع دمياط. استمر هذا الوضع ٦ أشهر منذ قدوم الحملة، ولويس التاسع ينتظر في دمياط مقدم أخيه الثالث، ووصل في ٢٤ تشرين الأول إلى دمياط من فرساً ألفونس دي بواتيه "Alphonse de Poitiers" الشقيق الثالث للملك لويس، ومعه إمدادات وقوات إضافية. تشجع الصليبيون بوصول الإمدادات، وعقد الملك مجلساً للحرب لوضع خطة الزحف، فقررُوا التحرك من دمياط، وكان على لويس الاختيار بين السير إلى الإسكندرية: كما اقترح "بيتر أوف بريتي" والبارونات، أو السير إلى القاهرة، كما أصر "روبرت دو أرتوا" شقيق لويس الذي أشار: "إذا أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها". واختار لويس ضرب رأس الأفعى (أي القاهرة)، فأمّر بالسير إلى القاهرة. وبعد نحو خمسة أشهر ونصف من احتلال دمياط، خرج الصليبيون يوم السبت ١٢ شعبان ٦٤٧هـ - ٢٠ تشرين الثاني ١٢٤٩م من دمياط، وساروا على البر، في حين إن شوانيهم في بحر النيل توازيهم (أي: سارت سبتهم) بحدائهم في فرع النيل، وبقيت في دمياط حامية صليبية.

وقالتوا اسلمين هنا وهناك، حتى وصلوا في ٢١ كانون الأول إلى ضفة بحر أو قناة أشموم (يعرف اليوم بالبحر الصغير)، فحاصر على يمينهم فرع النيل، وأمامهم قناة أشموم التي تفصلهم عن معسكرات المسلمين القائمة على الضفة الأخرى، عند مدينة المنصورة. وصارت مياه بحر أشموم الحاجز الطبيعي الفاصل بينهم وبين معسكر المسلمين. حصّن الصليبيون مواقعهم بالأسوار، وحفروا خنادقهم، ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين، ووقفت شوانيهم في بحر النيل، ووقفت شواني المسلمين بإزاء المنصورة، ووقع قتال شديد بين الصليبيين والمسلمين في البر ومياه النيل. حاول الصليبيون إقامة جسر ليعبروا عليه إلى الجانب الآخر، ولكن المسلمين ظلوا يمتطرونهم بالقذائف ويحرقون الأرض في جانبيهم كلما شرعوا في إكمال الجسر، حتى تخلوا عن الفكرة. وراحت المساجد تحضّ الناس على الجهاد ضد الغزاة مُرددة: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فصار الناس يتواردون من أنحاء مصر على منطقة الحرب بأعداد غفيرة.

وفاة السلطان الصالح أيوب: وبينما كان الصليبيون يتقدمون جنوباً داخل الأراضي المصرية، اشتد المرض على السلطان الصالح أيوب، وشارك الحياة بالمنصورة في ١٥ شعبان ٦٤٧هـ - ٢٣ تشرين الثاني ١٢٤٩م، فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته، بالاتفاق مع الأمير فخر الدين يوسف أتاك العسكر والطواشي جمال الدين محسن رئيس القصر: خوفاً من حدوث فتنة بين صفوف المسلمين، وكلي لا يعلم الصليبيون فيريد عزهم ويشدّ بأسهم، وكلي لا تتأثر معنويات الجيش والعوام. أدارت أرملة السلطان الصالح شجرة الدر الأمور بحساسة، واستحثّت الأمير فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية الصالحية أن يرسل رسالة عاجلة إلى حصن كيفا في شمال العراق لإحضار (توران شاه) ابن السلطان المتوفى لتسلم تحت السلطنة بقيادة البلاد في حربها ضد الغزاة. لكن نبأ وفاة السلطان الصالح تسرّب إلى الملك لويس بطريقة أو بأخرى، فتشجّع الصليبيون أكثر، وظنّوا أن التحالف القيادي القائم بين شجرة الدر، وهي امرأة، والأمير فخر الدين، وهو رجل طاعن في السن، لن يصمد طويلاً وسوف يتهاوى عاجلاً ومعه مصر.

الهجوم الصليبي غير المخاضة، ونصر الله في معارك المنصورة: وجب على الصليبيين مواصلة الزحف أن يعبروا فرع دمياط إلى قناة أشموم، فاختار لويس التاسع القناة. وفي ٥ ذي القعدة ٦٤٧هـ - ٨ شباط ١٢٥٠م، تمكّنت فرقة يقودها أخو الملك روبرت دي أرتوا "مع فرسان المعبد (الداوية)"، وفرقة إنجليزية يقودها "وليم أوف ساليزبري" William of Salisbury، بمساعدة أحد الخوّة الذي ذلّ الصليبيين على مخاض في بحر أشموم، من العبور حيولهم وسحبهم إلى الضفة الأخرى ليفاجأ المسلمون بهجوم صليبي كاسح على معسكرهم في "جديلة" على نحو ثلاثة كيلومترات من مدينة المنصورة. قتل في هذا الهجوم المباغت الأمير فخر الدين يوسف، ابن الشيخ مقدم معسكر المصرية، وهو خارج من الحمام مدهوشاً بعدما سمع جلبة وصياحاً في المعسكر، وأدى الهجوم إلى تشتت

الأجناد وتقهقرهم مذعورين إلى المنصورة. وبعد أن احتل الصليبيون معسكر جديدة، تقدموا خلف "روبرت دي أرتوا" نحو المنصورة على أمل القضاء على الجيش المصري برمته بعد أن أخذتهم العزة وظنوا أنهم لازيب منتصرون.

أمسك المماليك بزمام الأمور بقيادة فارس الدين أقطاي، الذي أصبح القائد العام للجيش المصري. وكان هذا أول ظهور للمماليك بوصفهم قواد عسكريين داخل مصر. تمكن المماليك من تنظيم القوات المنسحبة وإعادة صفوفها، ووافقت شجرة الدر - الحاكمة الفعلية للبلاد - على خطة بيبرس البندقداري، باستدراج القوات الصليبية المهاجمة داخل مدينة المنصورة. فأمر بيبرس بفتح باب من أبواب المنصورة وبتأهب المسلمين من الجنود والعوام داخل المدينة مع التزام السكون التام.

وبلعت القوات الصليبية الطعام، فظن فرسانها أن المدينة قد خوت من الجنود والسكان، كما حدث من قبل في دمياط، فاندفعوا إلى داخل المدينة بهدف الوصول إلى قصر السلطان، فخرج عليهم بفتة المدليك البحرية والجمدارية، وهم يصيحون كالزعد القاصف، وأخذوهم بالسيوف من كل جانب ومعهم العريان والعول والفلاحون يرمونهم بالرمح والمقاليع والحجارة، وقد وضع العوام على رؤوسهم طاسات نحاس بيضا عرضا عن خوت الأجناد، وسد المسلمون طرق العودة بالخشب والناثري، فصعب على الصليبيين الفرار، وأدركوا أنهم قد سقطوا في كمين محكم داخل أزقة المدينة الضيقة، وأنهم متورطون في معركة حياة أو موت، فالتقى بعضهم بأنفسهم في النيل وابتلعهم المياه. قتل عدد كبير من القوات الصليبية المهاجمة، ولم ينج من فرسان المعبد وفرسان الإسبانيات سوى ثلاثة مقاتلين، وهبت الفرقة الإنجليزية تقريبا عن آخرها. واضطر أخو الملك لويس "روبرت دي أرتوا" إلى الاختباء في أحد الدور، ثم قتل هو ووليم أوف ساليزيري قائد الفرقة الإنجليزية.

وفي أثناء المعركة راح الفرنج على الضفة المقابلة لبحر أشموم يكدون ويجدون لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور لمساعدة فرسانهم، ولكن لما وردتهم أنباء سحق الفرسان، عن طريق "بيتر أوف برنتي" الذي قرأ إليهم بوجه مشجوج من ضربة سيف، وشاهدوا بقايا فرسانهم مديرين إلى جهنم والمسلمين في أعقابهم، راحوا يلقون بأنفسهم في مياه النيل بغية العودة إلى معسكراتهم، وكاد لويس ذاته يسقط في الماء. يصف المؤرخ "جوانفيل" الذي حضر الواقعة كالآتي: (في تلك المعركة أعداد كبيرة من الناس، من ذوي الهبات المحترمة، ولوا منبرين فوق الجسر الصغير في مشهد مخز إلى أبعد الحدود. لقد كانوا يهرولون وهم في حالة من الدعر الشديد، وبدرجة جعلتنا لا نتمكن من إيقافهم على الإطلاق، أستطيع ذكر أسمائهم، ولكني لن أفعل ذلك: لأنهم صاروا في عداد الأموات).

وبذلك أصبح الصليبيون في ذات الموقع الذي باتوا فيه في الليلة السابقة على الضفة الشمالية من بحر أشموم. إذ أداروا عليهم سوراً، وبقوا تحت هجوم مستمر طوال اليوم. وقد اتهم بعض الفرسان لويس التاسع بالجن والتخاذل. عقد الأمير فارس الدين أقطاي القائد العام للجيش المصري مجلس الحرب في اليوم اللاحق لمعركة المنصورة لمناقشة أمر يتعلق بالعثور بين قتلى الفرنج على إشارة تحمل علامة البيت الملكي الفرنسي، كان صاحب الإشارة هو شقيق الملك لويس، "روبرت دي أرتوا" الذي لقي مصرعه في المعركة، وعرض الأمير أقطاي على ضباطه معطف الكونت أرتوا ظناً منه أنها ستر الملك، وأعلن أن مقتل الملك يتطلب مهاجمة الصليبيين على الفور، مسوفاً ذلك بقوله:

"كما أن المرء لا يهاب جسداً بلا رأس، فإنه أيضاً لا يهاب قوماً بلا قائد"، فاتفق الجميع على ضرورة الهجوم الفوري على معسكر الصليبيين.

قام الجيش الإسلامي المصري بشن هجومه الكاسح الواسع على معسكر الفرنج، في فجر يوم الجمعة ٨ ذي القعدة ٦٤٧هـ - ١١ شباط ١٢٥٠م، لكن الملك لويس تمكن من الثبات بعد أن تكبد خسائر فادحة؛ وفي هذا الهجوم فقد مقدم فرسان المعبد "وليم أوف سوناك" William of Sonnac إحدى عينيه، ثم فقد الأخرى بعد بضعة أيام ومات.

وبذلك انتهت معركة المنصورة الثانية، وهي المعركة التي أيقن الصليبيون بعدها أنهم لن يستطيعوا البقاء في مراكمهم، وأن عليهم الانسحاب إلى دمياط قبل قوات الأوان.

توران شه وخبطته وانتصاره في معركة فارسكور: لم تمض أيام بعد معركة المنصورة الثانية، حتى وصل توران شاه في ٢٢ ذي القعدة ٦٧٤هـ - ٢٧ شباط ١٢٥٠م، وتولى قيادة الجيش، وأخذ في إعداد خطة لإجبار الملك لؤيس التاسع على التسليم، بقطع خط الرجعة على الفرنسيين. فأمر بنقل عدة سفن مفعكة على ظهور الجمال، وغزّالها خلف الخطوط الصليبية في النيل.

وتمكنت الأساطيل المصرية بهذه الوسيلة من مهاجمة السفن الصليبية المحملة بالمون والأقوات، والاستيلاء عليها وأسر من فيها، وأدى هذا إلى سوء الحال بالفرنسيين، وحلول المجاعة بمسكنهم، وتفشي الأمراض والأوبئة بين الجنود، فطلب لؤيس التاسع الهدنة وتسليم دمياط مقابل أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبعض بلاد ساحل الشام، فرغض المصريون ذلك وأصرّوا على مواصلة الجهاد.

لم يجد الصليبيون بداً من الانسحاب إلى دمياط تحت جنح الظلام، وأمر الملك بإزالة جسر قناة أشموم، غير أنهم في غمرة فرغهم نسوا قطع الجسر، فعبه المصريون في الحال، وتعقبوا الصليبيين، وطاردهم حتى فارسكور، وطوّقوهم هناك، وانقضوا عليهم في يوم الأربعاء الموافق ٣ محرم سنة ٦٤٨هـ - نيسان ١٢٥٠م، وقتلوا منهم أكثر من عشرة آلاف، وأسروا عشرات الألوف.

وكان في عسكر المسلمين الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكانت النصره أولاً للفرنج، وقويت الريح على المسلمين، فقال الشيخ عز الدين، بأعلى صوته، مشيراً بيده إلى الريح: (يا ريح خذهم) عدة مرار، فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها، وكان القبح، وغرق أكثر الفرنج، وصرخ من المسلمين صارخ: (الحمد لله الذي أرانا في أمة محمد ﷺ رجالاً سخر له الريح)، وكان ذلك في يوم الأربعاء ٣ محرم.

وأسر الفرنسيين ملك الفرنج بين آلاف الأسرى في قرية "منية عبد الله" شمال مدينة المنصورة، ونقل إلى دار قاضي فخر الدين بن لقمان، إذ بقي سجيناً مدة من الزمان. وحبس مقيداً بدار ابن لقمان، ووكل بحفظه طواشي يسأل له: صبيح.



تمثال لؤيس التاسع في مصلى القديس بياريس. ملك فرنسا لؤيس التاسع أتى غازياً مصر ورحل أسيراً

نتائج معركة المنصورة (أو بالأحرى معارك المنصورة الأولى والثانية وفارسكور)، كان النصر كنه يعود، بعد فضل الله تعالى أولاً، إلى المجاهد الملك الصالح (على الرغم من موته)، فهو الذي تولى قيادته، وخطط له، وألهم حماسه عند الانكسار، وهو الذي ربي روح الجهاد في زوجته شجرة الدر، وفي ابنه، وفي مهاليكه، الذين تنفسوا أنفاسه، وعاشوا هموم أستاذهم وجديته، بل عايشوا روح أستاذهم الوثابة في الجهاد والمصابير، وفي القتال والاستشهاد حتى النصر. انطلق الحمام من المنصورة نبأ الانتصار على الصليبيين وخط بالقاهرة، فضربت البشائر بقلعة الجبل، وفرح الناس، وأقيمت الزينات.

وتحققت نبوءة الصالح أيوب أن (يغي لويس التاسع سيصرعه وإلى الياء سيقليه)، قتل في حملة لويس التاسع استناداً إلى المصادر الإسلامية أكثر من ٣٠ ألف، وقيل ١٠٠ ألف، من الجنود الصليبيين. أسر لويس التاسع في ثنية عبد الله (ميت الخولي عبد الله الآن)، بعد أن استسلم مع نبلائه للطواشي جمال الدين محسن الصالح، وأودع مغلاً في بيت القاضي إبراهيم بن لقمان، كاتب الإنشاء، تحت حراسة طواشي يدعى صبيح المعظمي. وأسر أيضاً أخواه "شارل دنجو" و"ألفونس دو بويتي" وعدد كبير من أمرائه ونبلاته، وقد سجن معظمهم معه في در ابن لقمان. أما الجنود العاديون الذين أسروا، فقد أقيم لهم معتقل خاص خارج المدينة. وانتشرت بعض الأمراض بين الأسرى كالمالاريا والذئب ونظارياء والإسقيوط، حتى إن الملك أخذت أسنانه تسقط، وتعين جملة لقضاء حاجته.

سمع للويس التاسع بمغادرة مصر مقابل تسليم دمياط إلى المصريين، والتعهد بعدم العودة إلى مصر مرة أخرى، وأخلي سبيل لويس مقابل فدية ضخمة ٨٠٠ ألف بيضة ذهبية. على أن يدفع نصفها مباشرة فدفعت ٤٠٠ ألف دينار ذهبي تعويضاً عن الأضرار التي ألحقها بمصر (دفع نصف المبلغ بعد أن جمعت زوجته في دمياط. ووعد بدفع النصف الباقي بعد وصوله إلى عكا، وهو ما لم يفعله بعد أن تهرب من الدفع فيما بعد).

بعد احتلال دام (١١ شهراً) و٩ أيام، سلم لويس التاسع دمياط في ٢ صفر ٦٤٨هـ - ٨ أيار ١٢٥٠م، وغادرها إلى عكا مع أخويه و١٢٠٠٠ أسير كان من ضمنهم أسرى من معارك سابقة. أما زوجته "مرجريت دو برافنس"، التي كانت في أثناء ذلك قد أنجبت طفلاً في دمياط أسمته "جان ترستان Jean Tristan" أي "جان الحزن"، فقد غادرت دمياط مع وليدها قبل مغادرة زوجها ببضعة أيام. وكانت مرجريت تعاني كوايبس مرعبة في أثناء نوحها، وتخشى أن غرقنها تقتص بالمسلمين، فكانت دائماً تصرخ في الليل: "أغيثوني... أغيثوني".

أما "جان ترستان" فقد مات مع لويس التاسع في سنة ١٢٧٠م في أثناء الحملة الصليبية الثامنة على تونس، وهي الحملة التي كان من أهدافها تحويل تونس إلى قاعدة صليبية ينطلق منها لويس التاسع لمهاجمة مصر مرة أخرى: مع أن هذا القديس الكاذب كان قد أقسم بعدم العودة إلى مصر (وهو أخذ شروط إطلاق سراحه).

ثم اتفقت شجرة الدر والآراء على إطلاق الفرنسيين، بشرط أن يردوا دمياط إلى المسلمين، ويعطوا ثمانمائة ألف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الخواصل، ويطلقوا أسرى المسلمين. فأطلق على هذا الشرط، فلما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط، فتدمت الأمراء على إطلاقه؛ وقال الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، وكتب ويحث بها إليه، يعني إلى ملك الفرنسيين وهي:

قل للفرنسيين إذا جنته	مقال صدق من قول نصيح
أجرك الله على ما جرى	من قتل عماد يسوع المسيح
أتيت مصر تبقي ملكها	تحسب أن الزمر بالظيل ربح
فسألك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسنيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح

تسعين ألفاً لا ترى منهم
وفقتك الله لأمثالها
إن كان بابكم يذا راضياً
وقل لهم، إن أضمرؤا عودة
دار ابن لقمان على حالها
الإقتيلاً أو أسيراً جريح
لعل عيسى منكم يستريح
قرب غشّي قد آتى من نصيح
لأخذ ثار أو لعقد صحيح
والقيد يلاق والطواشي صحيح

قله درّة فيما أجاب عن المسلمين، مع اللطف والبلاغة العربية وحسن التركيب وحمه الله.

قال سعد الدين في تاريخه: اتفقوا على أن يسلم الفرنسيين دمياط، وأن يعطي هو والكنود ثمانين مئة ألف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل ويطلقوا أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا، وركبت العساكر ثانياً سفر إلى دمياط قرب الظهر، وساروا حتى دخلوها ونهبوا وقتلوا من بقي من الفرنج، حتى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم وقوموا الحواصل التي بقيت في دمياط بأربع مئة ألف دينار، وأخذوا من الملك الفرنسيين أربع مئة ألف دينار، وأطلقوه العصر هو وجماعته فأنحدروا في شينبي إلى البطس وأنفذ رسولاً إلى الأمراء الصالحية، يقول: (ما رأيت أقل عقلاً ولا ديناً منكم! أما قلة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب، يعني لما قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظم نوران شاه بعد أخذ دمياط بأيام. وأما قلة العقل، فكذا مثلي ملك البحر وقع في أيديكم بعموه بأربع مئة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص). ثم لما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط فأهلكه الله تعالى، ونذمت الأمراء على إطلاقه.

لم يعد لويس إلى وطنه فرنسا بل أتر البقاء في مدينة عكا بعد أن سمح لإخوته ومعظم نبلائه بالسفر إلى فرنسا، وحملهم رسائل إلى ملوك أوروبا يطلب فيها النجدة والمدد، لعله يتمكن من إحراز نصر في الشام يمسح به وصمة الإخفاق والهزيمة التي لحقت به في مصر، ودعا البارونات إلى حملة صليبية، ولكن الدوقات والكونتات والبارونات وفرنسان تجاهلوا هذه الدعوة، فاضطر الملك لويس التاسع إلى مغادرة عكا والعودة إلى فرنسا في نيسان ١٢٥٤م بعد أربع سنوات، بعد أن توفيت والدته "الملكة بلانش القسطنطية" التي كانت تدير شؤون الحكم في فرنسا وقت عيابه، وكان عمره إذ ذاك ٤٠ سنة، وقد ضاعت أمواله هباء منثوراً،

كان عصره ٥٦ سنة (أيام السلطان الظاهر بيبرس) في ١٢٧٠م، قام هذا الملك لويس التاسع بالحملة الصليبية الثامنة (مكذباً أقواله ومخلفاً وعده) إلى تونس لإيجاد قاعدة عسكرية في شمال إفريقيا يتطوّل منها إلى مصر. فسلط الله على عسكريه وبه الطاعون، فضرعه الله تعالى هو وابنه هناك، وماتت معه حملته الصليبية الثامنة والأخيرة.



الملك لويس التاسع جاء ثانية غازياً تونس، وخرج منها ميتاً بوباء الطاعون هو وابنه، وانتهت حملته الصليبية الثامنة بالخسران أيضاً

على الرغم من الهزيمة الساحقة التي مني بها لويس وجيشه والأعداد الغفيرة من قتلاه وجرحاه وسراه، وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من الوصول إلى رأس الأفعى في القاهرة، بل لم يتمكن من الاستيلاء على المنصورة، وفي النهاية بقواته ووقع في الأسر وقيد بالسلاسل مع ياروثاته، ووضع في السجن تحت حراسة خاصة، يكاد أن يقتل لولا موافقة شجرة الدر والمماليك على إطلاق سراحه مقابل دفع دية، على الرغم من كل ذلك فإن بعض المؤرخين الغربيين أشاروا إلى أن لويس انتصر في معركة المنصورة! وعدوا الهجوم الخاطف على معسكر المسلمين في جديلة وضمود لويس عند الجسر في أثناء هرا فرسانه عدوه انتصاراً، وأن هذا الضمود هو معركة المنصورة!! هذا، على الرغم من أن بعض الفرسان الفارين اتهموا لويس بسبب توقفه عند الجسر بالحن والتخاذل، وأضافوا أن استسلامه في فارسكور كان نتيجة لخيانة جندي صليبي رشاه المسلمون، كي يصيح في الجنود على لسان لويس بالقاء السلاح والاستسلام. وأضافوا أن المسلمين طلبوا منه بعد القبض عليه أن يوافق على تنصيبه سلطاناً على مصر ولكنه رفض في عزة وكبرياء، متحججاً بأنه في حالة تنصيبه سلطاناً سيضطر إلى تخيير رعيته المسلمة بين اعتناق النصرانية أو القتل!!!

ويعبر وصف المؤرخ الصليبي "ماثيو بارس" المتوفى عام ١٢٥٨م، الذي سجله في كتابه بعد أحداث معركة المنصورة، عن مدى الألم الذي شعر به الصليبيون بعد هزيمتهم: "كل الجيش المسيحي تمزق إرباً في مصر، وأسفاه، كان يتكون من تيلاء فرنسا، وفرسان الداوية والإسبانية وتيوتون القديسة ماري وفرسان القديس لازاروس"، عززت هزيمة القوات الصليبية في المنصورة اسم تلك المدينة المرتبط بالانتصار الذي يرجع إلى تاريخ أقدم من الحملة الصليبية السابعة.

توزعت الخريطة السياسية والعسكرية في شرق حوض البحر المتوسط بعد هزيمة الصليبيين سنة ١٢٥٠م - ٦٤٨هـ على أربع قوى أساسية: المماليك في مصر، والأيوبيون في الشام، والصليبيون في عكا ومداخل الشام (طرابلس، وصيدا، وصور)، ومملكة قليقيا الأرمنية، وإمارة أنطاكيا الصليبية.

تسلطن الملك المعظم: بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو أربعة أشهر ونصف؛ لأن الملك الصالح أيوب كانت وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، والفرنج محدة بعساكر الإسلام، فأخذت زوجته له ولده خليل شجرة الدر موته مخافة على المسلمين، وبايعوا لابنه المعظم هذا بالسلطنة في غيبته وصارت شجرة الدر تدبر الأمور وتخفي موت السلطان الملك الصالح، إلى أن حضر المعظم توران شاه هذا من حصن كيفا إلى المنصورة في أول المحرم من سنة ثمان وأربعين وستة، وكان المعظم هذا نائباً لأبيه الملك الصالح على حصن كيفا وغيره من ديار بكر. ولما وصل المعظم إلى المنصورة، فتح الله على يديه ونصر الله الإسلام في يوم دخوله، فتيمن الناس بطلعته.

وسبب النصر أنه لما استهلكت سنة ٦٤٨هـ، والفرنج على المنصورة والجيوش الإسلامية بإزائهم، وقد طال القتال بين الفريقين شهراً، ضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، ووقع في خيلهم وباء وموت، وعزم ملكهم الفرنسي على أن يركب في أول الليل، ويسير إلى دمياط، فعلم المسلمون بذلك.

وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسوها عن قطعه، فعبر منه المسلمون في الليل إلى برهم وخيامهم على حالها وثقلهم وأحرق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً، فالتجروا إلى قرية تسمى منية أبي عبد الله وتحصنوا بها ودار المسلمون حولها، وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم فغنموا جميع المراكب بمن فيها.

واجتمع إلى الفرنسيين ٥٠٠ فارس من أبطال الفرنج وقعد في حوش منية أبي عبد الله، وطلب الطواشي رشيد الدين والأمير سيف الدين القميري فحضروا إليه، فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه، فأجاباه. وهرب باقي الفرنج على حمية وأحذق المسلمون بهم، وبقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة حتى أبيدت الفرنج ولم يبق منهم سوى قرسين، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا، وغنم المسلمون منهم ما لا يوصف، واستغنى خلق وأزل الفرنسيين في حرافة وأحذقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات والطبول. وأحصى عدة الأسرى فكانوا ثيماً وعشرين ألف آدمي، والذي غرق وقتل سبعة آلاف نفس.

ستر القتل وجه الأرض من كثرتهم، وكان الفارس العظيم يأتيه وسائق يسوقه وراءه كأنه أذل ما يكون وكان يوماً لم يشاهد المسلمون مثله ولم يقتل في ذلك اليوم من المسلمين مئة نفس، ونفذ السلطان الملك المعظم توران شاه للفرنسيين والملوك الذين معه والكتود خلعاً، وكانوا ثيماً وخمسين قلبس كلهم سواء. وقال: (إن بلادي يسدر بلاد صاحب مصر كيف ألبس خلعتي). وعمل السلطان من الغد دعوة عظيمة، فامتنع الملعون أيضاً من حضورها، وقال: (أنا ما أكل طعامه، وما يحضرني إلا ليهزأ بي عسكره، ولا سبيل إلى هذا). وكان عنده عقل ونيات وذین، فالتنصاري كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك، وانتقى الملك المعظم الأسرى، وأخذ أصحاب الصنائع، ثم أمر بضرب رقاب الجميع.

وقال غيره: وحيسوا الفرنسيين بالمنصورة بدار ابن لقمان يحفظه الطواشي صبيحاً مكرماً غاية الكرامة. وقال المظفر في تاريخه "مرآة الزمان": "وفي أول ليلة منها يعني سنة ثمان وأربعين، كان المصاف بين الفرنج والمسلمين على المنصورة بعد وصول المعظم توران شاه إلى المخيم، ومسلح الفرنسيين وقتل من الفرنج مئة ألفاً، ووصل كتاب المعظم توران شاه إلى جمال الدين بن يغمور: يعني إلى نائب الشام، يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا مَرْءٌ ﴿١٢٥﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴿١٢٦﴾ وَإِنْ يُؤْمِدْ يُفْرِحْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾) (الروم: ١-٥) ﴿وَأَمَّا نِيعَةٌ رَيْكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١) ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٢٤)، تبشر المجلس السامي الجمالي، بل تبشر الإسلام كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره وبنس العباد من البلاد والأهل والأولاد فنودوا: ﴿وَلَا تَأْتُوا مِنْ رِجِّ اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٧) الآية.

ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها فتحن الخزائن وبذلنا الأموال جهرتنا السلاح وجمعنا العريان والمطوعة، واجتمع خلق لا يحصيه إلا الله تعالى، فجاؤوا من كل فج عميق ومن كل مكان بعيد سحيق. ولما رأى العدو ذلك، أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل أبي بكر غايينا.

ولما كان في الليل، تركوا حياتهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هارين، فسرنا في آثارهم طالين، وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ويدخل فيهم الخزي والويل. فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج، والتجأ الفرنسيين إلى المنية وطلب الأمان، فأمناه وأخذناه وأكرمناه وتسلمنا دمياط بعونه وقوته وجلاله وعظمته).

وأرسل الملك المعظم مع الكتاب إلى ابن يغمور المذكور بغقارة الفرنسيين، فلبسها ابن يغمور في دست صلكته بدمشق، وكانت سقراط أحمر بفرو ستجاب.

فكتب ابن يغمور في الجواب إلى السلطان الملك المعظم المذكور بيتين لابن إسرائيل وهما:

أسيد أملاك الزمان بأسرهم تنجرت من نصر الإله وعموده
فلا زال مولانا ينيح حمى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده

وقال غيره: وبقي الفرنسيين في الاعتقال إلى أن قتل الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجه الدين أيوب. فدخل حسام الدين بن أبي علي نائب السلطان في قضيته، على أن يسلم للمسلمين دمياط ويحمل خسر مئة ألف دينار، فأركبوه بغلة وساقته معه الجيوش إلى دمياط، فما وصلوا إلا والمسلمون على أعلاها بالتكبير والتهليل والفرنج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب وأخلوها فخاف الفرنسيين واصفر لونه.

فقال الأمير حسام الدين بن أبي علي للملك المعز: هذه دمياط، قد حصلت لنا، وهذا الرجل في أسرنا وهو عظيم النصرانية وقد أطلع على عوراتنا، والمصلحة ألا نطلقه. وكان قد تسلط ابنك التركماني الصالح أو صابح حاكماً عن الملكة شجرة الدر، فقال أيبك وغيره من المماليك الصالحة: ما نرى الغمر! وكانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فمقوا عليه وأطلقوه طمعاً في المال! فركب في البحر الرومي في شينى.

وذكر حسام الدين أنه سأل الفرنسيين عن عدة العسكر الذي كان معه لما قدم لأخذ دمياط، فقال: كان معي تسعة آلاف وخمسة مئة فارس ومئة ألف وثلاثون ألف طيبي سوى الغلمان والسوقة والبحارة. انتهى

وهكذا كانت سنة ٦٤٨هـ سنة حاسمة في التاريخ الإسلامي: فهي سنة كسرة الفرنج على دمياط، والقبض على الملك لويس التاسع، وفيها: أخرج المماليك الترك دمياط، وحملوا آلتها إلى مصر وأخربوا الجزيرة، أعني الروضة، وأخلوها (لكي لا يستخدمها الصليبيون بوصفها قواعد لهم عند الإغارة على مصر). لما غرغ المماليك والمصريون من خراب دمياط وتفرق أهلها، نقلوا أخشاب بيوتهم وأبوابهم منها وتركوها خاوية على عروشها، ثم بنيت بعد ذلك بليدة بالقرب منها تسمى: المنشية. وكان سور دمياط من عمل المتوكل على الله. ونقلوا، في السنة اللاحقة (٦٤٩هـ)، تابوت الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى تربته بالقاهرة بـ (بين القصرين). ولبس الأمراء ثياب العزاء وناحوا عليه بـ (بين القصرين)، وتصدقته زوجته (جارية وأرملة) شجرة الدر في ذلك اليوم بمال عظيم.

قتل الملك المعظم توران شاه وأسياب القتل: قتل، في السنة نفسها ٦٤٨هـ، الملك المعظم توران شاه. وسبب قتل الملك المعظم توران شاه هو أنه عند وصوله إلى مصر، في أثناء كسرة الفرنج، تيمّن الناس بطلعته، غير أنه بدت منه أسياب نضرت القلوب عنه، فاتفقوا على قتله. كان فيه نوع خفة، فكان يجلس على السماط فيأت سمع فقهاء يذكر مسألة وهو بعيد عنه يصيح: لا تسلم! ثم احتجب عن الناس أكثر من أبيه، وكان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها، ويقول: كذا أقول بالبحرية! يعني ممالك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الروضة، ثم يسمي ممالك أبيه بأسمائهم، وأهانهم وقدم الأراذل وأبعد الأماثل، فقرب ممالكه، وأبعد ممالك أبيه، وما حفظ للمماليك البحرية حسن صنيعهم بقتال المنصورة. ولا هو أحسن لأرملة أبيه على ما ضحت وقامت به من جهاد بالمال وعظيم النعمان: وهي التي أرسلت في طلبه لتسلم السلطنة. فضلاً على أنه عند الفارس أقطاي أن يؤمره (وهو قائد الجيوش الفعلي قبل مجيئه)، ولم يف له فاستوحش منه.

وكانت أم خليل: يعني شجرة الدر زوجة والده الملك الصالح، لما وصل إلى القاهرة مضت هي إلى القدس، فبعث يهدها ويطلب المال والجواهر منها، فخافت منه فكاتبت فيه، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله. وفي هذا عبرة للملوك، ألا يقتروا وأن يحفظوا للناس موافقتهم، فالله يبدل من حال إلى حال بلمحة من لمحات النصر. وقتلوه بعد شهرين من ملكه، في يوم الإثنين ٢٧ المحرم، ضربه بعض الأمراء، وهو عز الدين أيبك التركماني: ضربه في

يدم فقطع بعض أصابعه وصاح: من جرحني؟ قالوا: الحشيشية. فقال: لا والله إلا البحرية، والله لا واستدعى المزين فحيط يده وهو يتوعدهم، فقال بعضهم لبعض: تمموا ولا أبادكم! فهرب إلى قصر من خشب في المخيم، فحاصروه فيه وأحرقوه عليه، فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة فلم يقبلوا منه، فهرب إلى النيل فانغمر فيه ثم خرج فقتل سريعاً شر قتلة، وهو يستغيث فلا يثاثر.

وكان الذي يأسر قتله أربعة، وكان أبوه الملك الصالح أيوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخي العادل إلى الحبس وخذ منك من الممالك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع الممالك فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة، فإنهم مضوا معه وحقنوه: فسلطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قتلة، ومثلوا به أعظم مثلة، لما فعل بأخيه! ويُقال: إنه، في ٥ شوال سنة ٦٤٦هـ، جهز الصالح أخاه العادل (الذي أراد أصلاً قتل أخيه الصالح) ونفاه إلى الشوبك وبعث إليه الخادم محسناً، فقال: إن أردتم أن تقتلوني في الشوبك فهاهنا أولى، ولا أروح أبداً. فعذله محسن، وعرف الصالح أيوب بقوله، فقال: دبر أمره. فآخذ المحسن ثلاثة ممالك، ودخلوا عليه ليلة الإثنين ١٢ شوال، فخنقوه بشاش وعلقوه به وأظهروا أنه شق نفسه، وأخرجوا جنازته مثل بعض الغرياء، ولم يتجاسر أحد أن يترحم عليه أو يبكي حول نعشه، وعاش بعده الملك الصالح ١٠ أشهر، وأى في نفسه العير من مرض تمادى به وما نفعه الاجترار.

فكان كذلك، وقع بعد ذلك قتال بين المصريين والشاميين، وعلم من المصريين طائفة كثيرة. وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء وتسلمن بعده زوجة والده أم خليل، شجرة الدر، باتفاق الأمراء وخشداشيتها الممالك الصالحية، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة.

وكانت ولاية توران شاه هذا على مصر دون الشهر، وقتل في يوم الإثنين سابع عشرين المحرم من سنة ثمان وأربعين وست مئة، وكان قدومه من حصن ٧ كيما إلى المنصورة في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة حسب ما تقدم ذكره.

قال الأمير حسام الدين بن أبي علي: كان توران شاه لا يصلح للملك، كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب: ما تفدّ تحضره إلى هاهنا! فيقول: دعوني من هذا فآلحننا عليه يوماً فقال: أجيبه إلى هاهنا أقتله! وقال عماد الدين بن زرباس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول:

قتلوه شر قتلة	صار للعالم مثله
لم يراعوا فيه إلا	لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب	لأقل الناس أكله

فكان أسرى الفرنج وإعدام الصالح إسماعيل: قال الذهبي في تاريخ الإسلام تحت سنة ٦٤٨هـ: (وقال ابن الساعي: لما قتل المعظم، ثارت أسرى الفرنج وفكوا قيودهم وقتلوا خلقاً، فأحاط بهم العسكر وقتلوا منهم زيادة على ١٣ ألفاً، ودخلت الصالحية والأسرى والسنجاق منكسة مكسرة، والخيول والطبول مشققة، فلما عبروا على نوبة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، أحاطوا بالصالح إسماعيل لعمه الخائن وصاحوا: يا خوند، أين عينيك ترى عدوك؟ ثم رموا الأسارى في الحب، وجمعوا بين الصالح وبين أولاده أياماً، ثم أفردوه وأعدموه سراً، ولم يدر أين دفن).

خامساً: تنشئة المماليك أو مفرخة صلاح الدين:

إذا كانت الأمور تقاس بنتائجها، فإن النتائج التاريخية العالمية لهزيمة الحملة الصليبية السابعة على مصر تكمن في نهاية الصليبيين المساوية في فارسكور عام ١٢٥٠م وحسب، وإنما تكمن في تغيير ميزان القوى العالمية معلنة عن بدء عصر تاريخي جديد وظهور المماليك بوصفهم قوة إقليمية كبرى على مسرح الأحداث العالمي: لتتصدى لجميع قوى العالم آنذاك من الصليبيين والمغول. أثبتت مصر ثأية أنها قلعة الإسلام وترسانته العسكرية الكبرى. لم يتمكن الصليبيون من تحقيق حلمهم باحتلال بيت المقدس مرة أخرى، وفقد ملوك أوروبا، باستثناء لويس التاسع، اهتمامهم بإطلاق حملة صليبية جديدة.

ومهد هذا الانتصار للمماليك البحرية، الذين ألبوا بلاءً منقطع النظير في مقاومة تلك الحملة، أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة الأيوبيين في مصر: فلم يكبد يمضي شهر من تحقيق هذا النصر حتى تخلص المماليك من توران شاه، وأقاموا شجرة الدر سلطانة على مصر، وكان ذلك إيذاناً ببزوغ عصر دولة سلاطين المماليك في مصر والشام. بعد اعتلاء الملكة شجرة الدر (وهي تركية) في أواخر عام ١٢٤٩م بداية قيام دولة المماليك، لكن بعض المؤرخين يعدّ اعتلاء الأمير أيك التركماني لعرش السلطنة بعد زواجه من الملكة شجرة الدر عام ١٢٥٠م هو التاريخ الأدق لقيام هذه الدولة. وقد أطلق المؤرخون اسم المماليك البحرية على هذه الدولة إشارة لإسكانهم في جزيرة الروضة التي أنشأها الملك الصالح، وجعلها الكلية العسكرية والتدريب المتقدم على فنون القتال شتى تخرج هؤلاء المماليك قادة لجيوش الجهاد المصرية والإسلامية.



تدريبات المماليك على استخدام السيوف والرماية بالرمح والألعاب النارية

وقد نظم جمال الدين المصري المعروف بالجزار الشاعر أرجوزة سماها "العقود الدرية في الأمراء المصرية" ضمنها أمراء مصر المماليك قائلين:

ثم تولاهما ابنه المعظم
وظابت الأفعال فيها وزكت
فلم يدبر عقدها وانحلا
ثم ابنه ووافقت له القر
وحظته من نصره موفر
لا زال للأعداء وهو قاهر!

ثم أتى الصالح وهو الأعظم
وبعده أم خليل ملكوت
والملك الأشرف كان طفلاً
ثم استبد الملك المغر
ثم حواها الملك المظفر
ثم حوى الأمر المليك الظاهر

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب أشد الناس اهتماماً بوحدة دار الإسلام والمصلحة العامة لأمة الإسلام، وقدّمهما على كل المصالح الشخصية الضيقة لبني أيوب. قال ابن واصل: حكى لي الأمير حسام الدين قال: لما بعني السلطان قال:

(إني مسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر فيأخذ البلاد، وما يجري عليكم منه خير، فإن مرضت - ولو أنه حمى يوم - فأعدمه فإنه لا خير فيه، وولدي توران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتي، فلا تسلم البلاد لأحد من أهلي، بل سلمها للخليفة). انتهى

لقد شاعت القدرة الربانية أن يُقتل الخليفة المستعصم في بغداد، ليحمل هموم الصالح أيوب زوجته شجرة الدر بمالكيه الذين ساروا على نهجه بالجهاد، فأدهشوا العالم. والملك الصالح هذا هو الذي أنشأ المالكي الأتراك بمرهم بديار مصر.

أيقن الملك الصالح أيوب منذ وقت مبكر أنه لا يستطيع الاعتماد على المرتزقة كالعسكر الخوارزمية الذين هزمهم جنكيز خان، فساحوا في البلاد يعرضون خدماتهم على من يدفع أكثر (وإن كان بداية قد استطاع استخدامهم للإسلام، فقد ينصر الله بالعبد الفاجر أحياناً)، ثم حصل تمردهم الخطر حتى قضى عليهم، وتحقق للملك الصالح أيضاً فساد نيات الأشرفية (عسكر عمه الأشرف) وأنهم يريدون الوثوب عليه، فأخذ في تفريقهم وانقبض عليهم، قبضت مقدم الأشرفية وكبيرهم أيلك الأشقر نائباً على جهة ثم سير من قبض عليه ثم مسكهم عن صكرة أبيهم وسجنهم، وأقبل على شراء المالكي الترك والخطائبة واستخدام الأجناد: ثم شرع يؤمر غلمانه: يعني مماليكه فأكثر من ذلك وأخذ في بناء قلعة الجزيرة، وأخذها سكيناً، وأنفق عليها أموالاً عظيمة، وكانت الجزيرة قبلاً عتزاها لوالده، فشيدها في ثلاثة أعوام وتحول إليها.

بائع الملوك والأمراء، سلطان العلماء: الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨-٦٦٠هـ): أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن مهذب السلمي، مغربي الأصل، ولد بدمشق وتوفي بمصر، اشتهر باسم العز بن عبد السلام، وتولى خطابة الجامع الأموي الكبير بدمشق. وفي عام ٦٢٨هـ أعطى الخائن الصالح إسماعيل (صاحب دمشق) حصن الصنفد للصليبيين، وسلم حصن شقيف أزبون لصاحب صيدا الفرنجي، وسمح لهم بدخول دمشق لشراء السلاح والطعام: تمهيداً للتحالف مع الفرنجة لغزو ابن أخيه البطل الملك الصالح أيوب ملك مصر.

فاشتم الإنكار عليه: بسبب ذلك من الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب البلد: والشيخ أبي عمرو بن الحاجب شيخ المالكية. صعد العز بن عبد السلام المنبر وخطب في الناس خطبة عصماء، وافتي بحرمة بيع السلاح للفرنجة وحرمة الصلح معهم، ثم قطع الخطبة عن الصالح إسماعيل، وكان ذلك بمنزلة إعلان للعصيان العام. وقال في آخر خطبته: اللهم أبرم أمر رُشد لهذه الأمة، يُعر فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك، ويُؤمر بالعرف وينهى فيه عن المنكر، ثم نزل، علم الملك الصالح إسماعيل بخروج العز عن طاعته، فغضب عليه غضباً شديداً، وأمر بإبعاده عن الخطابة، وسجنه، وبعدما حصل القيل والقال، واضطرب أمر الناس، أخرجته من السجن ومنعه عن الخطبة. وعزل الصالح إسماعيل أبا عمرو أيضاً، واعتقلهما مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما (إقامة حيرية)، وولى الخطابة والتدريس غيرهما. ومن ثم خرج الشيخان من دمشق، فقصده أبو عمرو الناصر داود بالكرك، ودخل الشيخ عز الدين الديار المصرية عام ٦٢٩هـ، فلتقاه صاحبها أيوب بالاحترام والإكرام، وولاه خطابة القاهرة وقضاء مصر، واشتغل عليه أهلها فكان ممن أخذ عنه الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد (رحمهما الله تعالى). (انظر أيضاً البداية والنهاية: ج ١٢، ص ١٨٢).

وكان الملك الصالح أيوب مهيباً جداً، دبر المملكة على أحسن وجه، وبني المدارس الأربعة بين القصرين، وعمر قلعة بالروضة، واشترى ألف مملوك وأسكنهم بها، وسماهم البحرية، وهو الذي أكثر من شراء الترك وعنتهم وتأميرهم. ولم يكن ذلك قبله، فقام الشيخ عز الدين بن عبد السلام القومة الكبرى في بيع ولئك الأمراء الممالك، وصرف ثمنهم في مصالح المسلمين.

كان أول ما لحظه الشيخ، بعد توليه القضاء، قيام الأمراء الممالك المملوكين للدولة الإسلامية بالبيع والشراء وقبض الأثمان، وهذا يتعارض مع الشرع، إذ إنهم في الأصل مملوكين، لا يحق لهم البيع والشراء والزواج من حرائر نساء مصر، فكان لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، وأصدر العز بن عبد السلام، الذي لا يخاف في الله وفي الحق لومة لائم، فتواه بعدم جواز ولاية الممالك على الأحرار، حتى شكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه فتوى الشيخ العز، فذهب إلى الشيخ يسأله أن يعدل من فتواه، فطلب منه الشيخ ألا يتدخل في القضاء، فليس هذا للسلطان، فإن شاء أن يتدخل، فالشيخ يقبل نفسه، فاجتمع أمراء الدولة من الأتراك وأرسلوا إليه، فقال الشيخ: نعقد لكم مجلساً وننادي عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين؛ فاستشاط نائب السلطنة غضباً، وكان من الممالك، وأقسم ليقبض الشيخ بسيفه، فذهب إليه نائب السلطنة مع جماعة من الأمراء فطرق بابه، ففتح اناب ابنه عبد اللطيف، فراه منظر نائب السلطنة؛ إذ رأى سيفه مسلولاً، والغضب يعلو وجهه فدخل على والده وقال: انج بنفسك، إنه القتل، فرد عليه الشيخ بقوله: (أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله)، ثم خرج وحين وقع بصره على النائب، سقط السيف من يد النائب وارتعد، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي ماذا ستفعل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم.

وأرسل السلطان من يتلطف إليه، بأن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأن أمر السلطان واجب، وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين؛ فأنكر الشيخ تدخل السلطان في القضاء، وقام فجمع أمتعه ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى، وساق الحمير ماشياً، تجمع الناس وراءه وتبعه العلماء والصلحاء والتجار والنساء والصبيان، حتى كادت مصر أن تخلو من سكانها، فأسرع الملك الصالح بنفسه خلف الشيخ ليسترضيه، فقال له: إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلا بد من أن يباعوا أولاً، ثم يعنتهم الذي يشتريهم، وما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع من بيت مال المسلمين، فلا بد أن يرد الثمن إلى بيت مال المسلمين. ووافق الملك الصالح أيوب، وتولى الشيخ العز بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء، وبدأ يعرض الأمراء واحداً بعد الآخر في مزاد، ويفالي في صنتهم، ودخل الشعب في المزاد، حتى إذا ارتفع الصعر جداً، دفعه الملك الصالح أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير، ثم يعنته بعد ذلك أمام الشعب، فيأخذ المال الشيخ العز بن عبد السلام ليضعه في بيت مال المسلمين.

وهكذا بيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها، وصارت لهم الصفة الشرعية بالإمارة على الأحرار، وكلهم مدين لأستاذهم ومليكهم الذي أعنتهم جميعاً لله (رحم الله الملك الصالح أيوب رحمة واسعة)، ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يعرف بـ (بائع الملوك والأمراء).

توفي الشيخ العز بن عبد السلام في جمادى الأولى ٦٦٠ هـ / ٩ نيسان ١٢٦٦م في سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، وعلى الرغم من شجاعة بيبرس وجراته، لكنه كان يهاب الشيخ العز كثيراً ولا يخالف رأيه. يقال: إنه عندما مرت جنازته أسفل القلعة ورأها السلطان بيبرس، قال: اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: أخرجوا عليه لانتزع الملك مني.

قال ابن واصل، في سيرة الملك نجم الدين أيوب هذا: (وكان مهيباً عزيز النفس عفيفاً طاهر اللسان والذليل، لا يرى الهزل ولا العبث، شديد الوفا، كثير الصمت، اشترى من الممالك الترك ما لم يشتريه أحد من أهل بيته حتى صاروا معظم عسكره، ورجعهم على الأكراد وأمّرتهم، واشترى وهو بمصر خلقاً منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدليله وسماهم "البحرية". حكى لي حسام الدين بن أبي علي أن هؤلاء الممالك مع قرط جبروتهم وفسطونتهم كانوا أبلغ من معظم هيئته: كان إذا خرج وشاهدوا صورته يرمعون خوفاً منه، وأنه لم يقع منه في حال غضبه كلمة قبيحة قط؛ أكثر ما يقول إذا شتم: "يا متخلف". وكان كثير الباه بجواريه فقط، ولم يكن عنده في آخر وقت غير زوجتين: إحداها شجرة الدر، والأخرى بنت العالمة، تزوجها بعد مملوكه الجوكندار، وكان إذا سمع تغناء لا يتزعزع ولا يتحرك وكذلك الحاضرون يلتزمون حالته، كأنما على رؤوسهم الطير، وكان لا يستقل أحد من أرباب دولته بأمر، بل يراجعون القصص مع الخدام فيوقع عليها بما يعتمده كتاب الإنشاء، وكان يحب أهل الفضل والدين، وما كان له ميل إلى مطالعة الكتب، وكان كثير العزلة والانفراد، وله نهمة باللعب بالصوالة في إنشاء الأضية العظيمة الفاخرة). انتهى كلام ابن واصل.

كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة وسعة صدر في إعطاء العساكر والإنفاق في مهمات الدولة، لا يتوقف فيما يخرجها في هذا الوجه، وكانت همته عالية جداً وأماله بعيدة، ونفسه تحدثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها والتغلب عليها وانتزاعها من يد ملوكها، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق (أي: بدلاً من السلاجقة لخدمة الخلافة العباسية، وجبر ضعفها)، وكان لا يمكن القوي من الضعيف، وينصف المشروف من الشريف، وهو أول من استكثر من الممالك من ملوك البيت الأيوبي ثم اقتدوا به لما آل الملك إليهم، على الرغم من أن الخليفة المأمون والمعتصم كانوا أول من غذى جيشه بزائد الممالك، وكذلك صلاح الدين.

وكان المصدر الأساسي للممالك إما بالأسر في الحروب، أو الشراء من أسواق العبيد والنخاسة، ولاسيما للممالك من بلاد ما وراء النهر: أي: نهر جيحون شمال تركمانستان وأفغانستان. وعلى الرغم من كل ذلك فإن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أول من سنّ امتلاك الممالك منذ الصغر؛ ليكونوا غاية في الإخلاص له وللإسلام (في مناخ سياسي متقلب وظروف صعبة)؛ فكانوا أولاً سرية حراسة وحماية خاصة بشخصه، ثم أكثر منهم

وأمرهم على الجيش ومرافق الدولة، وجعلها سنة قائمة قيمين بعده، فكل من ولي مصر بعد الصالح بن بني أيوب ومن غيرهم اقتنى المماليك، وهو آخر ملوك الأيوبيين بمصر، ولا غير بولاية ولده الملك المعظم توران شاه، عدا الذي بالبلاد الشامية، وأما بمصر فلا.

استحدث الملك الصالح (وتبعه سلاطين المماليك) أنه لا يأتي إلا بالمماليك الصغار السن، فكان الصالح أيوب يتعامل معهم كالأبناء لا الأرقاء، ولم تكن رابطة بهم رابطة السيد بالعبد، بل رابطة المعلم والتلميذ أو الأب والابن، حتى إنهم كانوا يطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) لا لقب السيد.

ويشرح المقرئ كيف يتربى المملوك الصغير عندما يشتري، وهو في طفولته المبكرة:

(إن أول المراحل في حياة المملوك هي أن يتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة،

ثم بعد ذلك يُدفع إلى من يعلمه القرآن الكريم،

ثم يبدأ في تعلم مبادئ الفقه الإسلامي وآداب الشريعة الإسلامية،

ويُهمَّ جداً بتدريبه على الصلاة،

وكذلك على الأذكار النبوية،

ويراقب المملوك مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه،

فإذا ارتكب خطأ يمس الآداب الإسلامية نبه لذلك، ثم عوقب)، انتهى

ثم إذا وصل المملوك إلى سن البلوغ، جاء معلمو الفروسية ومدربو القتال يعلمونهم فنون الحرب والسال وركوب الخيل والرمي بالسهم، والضرب بالسيوف، حتى يصلوا إلى مهارة قتالية وقوة بدنية بتحمل المشاق ولصعاب، ثم يتدربون على القيادة والإدارة ووضع الخطط الحربية، فينشأ المملوك متفوقاً تماماً في المجال العسكري، إضافة إلى الحماية الدينية الكبيرة. وكان الصالح أيوب يطمئن عليهم إلى أن زاد عدد المماليك الصالحة، حتى بنى قلعة لهم مع قصره على النيل في منطقة الروضة بالقاهرة، وكان النيل يعرف بالبحر، فيسمون المماليك الصالحة والبحرية نسبة إلى سكنهم جوار بحر النيل. ومن ثم تأهل هؤلاء المماليك ليكونوا ملوك العالم الإسلامي، بل ملوك الدنيا.

وظهر في عصر دول المماليك علماء أفاضل، أمثال:

العز بن عبد السلام (سلطان العلماء)، وتقى الدين بن دقيق العيد، والإمام النووي (صاحب رياض الصالحين)، وابن تيمية (شيخ الإسلام وصاحب الفتاوى الضخمة والمؤلفات الكثيرة)، وابن قيم الجوزية (تلميذ ابن تيمية، وله مؤلفات عديدة)، وأحمد بن حجر العسقلاني (صاحب فتح الباري شرح صحيح البخاري)، والمؤرخ المحقق الحافظ ابن كثير (صاحب البداية والنهاية)، والمؤرخ تقى الدين المقرئ، وابن جماعة، وابن قدامة المقدسي، والإمام الذهبي (صاحب تاريخ الإسلام في ٥٢ مجلداً، وسير أعلام النبلاء)، وابن تقي الدين (صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، وابن منظور (صاحب لسان العرب)، والنويري (صاحب نهاية الأرب)، وأحمد بن فضل الله العمري (صاحب مسالك الأبصار)، والقلقشندي (صاحب صبح الأعشى)، والإمام جلال الدين السيوطي (صاحب المؤلفات العديدة)، وشمس الدين السخاوي.

وكانت ولاية أستاذ المماليك: الملك الصالح أيوب بمصر قرابة ١٠ سنوات (٩ سنين و٧ أشهر و٣٠ يوماً) - ولي السلطنة في ٢٠ ذي الحجة سنة ٦٢٧هـ، ومات في نصف شعبان سنة ٦٤٧هـ. وكان عفيف الذيل، طاهر اللسان،

قليل الفحش في حال غضبه، ينتقم بالفعل لا بالقول - رحمه الله تعالى. ولما مات رثاه الشعراء بعدة مرثي. وأما عدائحه فكثيرة: من ذلك ما قاله فيه كاتبه وشاعره بهاء الدين زهير من قصيدته:

وسريت في ليل كان نجومه	من قرط غيرتها إليّ تحدى
حتى وصلت سراق الملك الذي	تقف الملوك ببابه تستررق
ووقفت من ملك الزمان بموقف	ألفيت قلب الدهر منه يخفق
فإليك يا نجم السماء فإني	قد لاج نجم الدين لي يتالق
الصالح الملك الذي لزماته	حسن يتيه به الزمان ورونيق
ملك تحدث عن أبيه وجده	نسب لعنري في العللا لا يلحق

وبعد رحيل لويس التاسع إلى عكا، بعد اغتيال السلطان الأيوبي توران شاه بفارسكور بأيدي المماليك أنفسهم، الذين دحروا الصليبيين في المنصورة وفارسكور، أصبح هؤلاء المماليك منذ ذلك الحين حكاماً لمصر وبعد قليل جداً حكاماً للشام، ومن ثم سلاطين العالم الإسلامي قرابة ٢٥٠ عاماً.

تسلطن الملكة شجرة الدر على مصر: هي الملكة شجرة الدر بنت عبد الله جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل، وكانت ذا حظوة كبيرة عنده، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك ومعها ولدها خليل أيضاً، فعاشت مع الصالح تلك الأهوال والحن، ثم قدمت معه مصر لما تسلطن، وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفي صغيراً.

وما زالت في عظمتها من الحشم، وإليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته. والأمور تدبرها على أكمل وجه إلى أن قدم ولد زوجها الملك المعظم توران شاه، فلم يشكر لها ما فعلته من الإخفاء لموت والده، وقيامها بالتدبير أتم قيام، حتى حضر إلى المنصورة وجلس في دست السلطنة.

ولم تدع أحداً يطمع في الملك لعظمتها في النفوس، فترك توران شاه ذلك كله وأخذ في تهديدها وطلب الأموال منها. واتفقوا على ولايتها: لحسن سيرتها وعزير عقلا وجودة تدبيرها، وجعلوا المعز أيك التركماني أتابكاً لها، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة، لكنها لم تلبس خلعة السلطنة الخليفة على العادة، غير أنهم يابعوها بسلطنة في أيام إرسالهم أمرها. وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيك الصفدي في تاريخه:

(شجرة الدر أم خليل الصالحية وجارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل. كان الملك الصالح يحبها حباً عظيماً، ويعتمد عليها في أموره ومهمات، وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينله أحد في زمانها. ولما مات الملك الصالح في شعبان سنة ٦٤٧هـ على دمياط في حصار الفرنج، أخفت موته وصارت تعلم بخطها مثل علامة الملك الصالح، ويقول: السلطان ما هو طيب، وتمنع الناس من الدخول إليه. وكان أرباب الدولة يحترمونها، ولما علموا بموت السلطان ملكوها عليهم أياماً.

وتسلطن بعد قتل السلطان الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخطب لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: "واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل المستعصمية صاحبة السلطان الملك الصالح".

ووافق الماليك البحرية والأعيان على تولية شجرة الدر أم خليل جارية الملك الصالح لزوجته، فملكوها ونُقش اسمها على الدينار والدرهم، وكانت تعلم عل المناشير وتكتب: والددة خليل. ولم يل مصر في الإسلام امرأة قبلها؛ غير أن المصريين استذكروا وجود سيدة تتحكم في رقاب الأمراء والكبراء والسادة، وخصموا غضبا شديداً، وخرجت المظاهرات الغاضبة تستذكر هذا الحضور والنقود السياسي الكبير لسيدة من سيئات القصر. وقاد المعارضة العز بن عبد السلام، ووقف وسط جموع المتظاهرين، مندداً بجلوس امرأة على عرش مصر، مبيناً أن هذا الجلوس يخالف للشرع الحكيم، وكتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ما إذا ابتلي المسلمون بولاية امرأة، وأرسل الخليفة المستعصم يعاتب أهل مصر في ذلك، ويقول: (إن كان ما بقي عندكم رجل تولونه، فقولوا لنا ترسل إليكم رجلاً).

وأقامت شجرة الدر في المملكة ثلاثة أشهر، ثم عزلت نفسها. واتفقوا على أن يملكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الكامل، فملكوه وله ثماني سنين، وذلك في يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى سنة ٤٨. وجعل عز الدين أيوب التركماني مملوك الصالح أتاكبه، وخطب لهما، وضربت السكة باسمهما. وعظم شأن الأتراك من يومئذ، ومدوا أيديهم إلى العامة، وأحدث وزيره الأسعد الفاطري ظلمات ومكسباً كثيرة.

ثم إن عز الدين خلع الملك الأشرف، واستقل بالسلطنة في سنة ٦٥٢هـ، ولقب الملك المعز؛ وهو أول من ملك مصر من الأتراك، فلم يرض الناس بذلك حتى أراضى الجند بالعطايا الجزيلة. وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك، وتم يزالوا يسمعون ما يكره إذا ركب، ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً ولد على الفطرة، وكان المعز تزوج شجرة الدر. ثم إنه خطب ابنة صاحب الموصل، فغارت شجرة الدر فقتلته في أواخر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ، وأقيم بعده ولد علي ولقب المنصور، وعمره نحو ١٥ سنة، فأقام سنتين وثمانية أشهر، وفي أيامه أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة.

وكانت تركيا ذات شهامة وسيرة حسنة شديدة الغيرة. فلما بلغها أن زوجها الملك المعز أيوب يريد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، تخيلت منه أنه ربما عزم على إبعادها أو إعدامها؛ لأنه سئم من حجرها عليه واستطالها، فعاجلته وعزمت على الفتك به وإقامة غيره في الملك.

ودبرت قتل الملك المعز في الحمام. وأعانها على ذلك جماعة من الخدام، في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ. وكان ملكاً شجاعاً كريماً عاقلاً سيوساً كثير البذل للأموال، أطلق في مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يحصى كثرة، حتى رضي الناس بسلطان منه الرق. وكان أهل مصر يسمعون ما يكره إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: (لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة). على أن الملك المعز كان عفيفاً حليماً كثير الاحتمال لتجنهم عليه، وشر أخلاقهم وجدت شجرة الدر مقتولة مسلوبة خارج القلعة في يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الآخر، فحملت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة - رحمها الله تعالى - فدفنت هناك. ولشجرة الدر أوقاف على التربة المذكورة وغيرها.

ظهور التتار أو المغول، وأسبابه:

- يخطئ من يظن أن جنكيز خان كان مجرد قائد مغولي عظيم!!!
- ويخطئ من يظن أن الخليفة الناصر لدين الله هو الذي تعاون مع التتار لإزالة الدولة الخوارزمية؛ حامية الجناح الشرقي لديار أمة الإسلام!!!
- ويخطئ من يظن أن أول من أسقط الخلافة العباسية هو هولاكو!!!
- ويخطئ من يظن أن التتار هاجموا بغداد أول مرة عام ٦٥٦هـ، بقيادة هولاكو خان!!!

- ويحطى من يظن أن خيانة ابن العلقمي (وزير المستعصم) مع التتار إنما بدأت عام ٦٥٤هـ بوصفها زدة فعل لفئة الكرخ بين الشيعة والسنة في ذلك العام!!!

الخلاصة التاريخية وحقيقة جنكيز خان: بدايةً، فإن بعض المؤرخين يسميهم المغول، ويرى أن التتار فرع من المغول، لكن المغول بقيادة جنكيز خان تغلبوا على التتار فتلاشوا في دولة واحدة، فصاروا يسمون مرةً بالمغول ومرةً بالتتار. وهم يعبدون الكواكب ويسجدون للشمس، ويرون أن (شكري) وهو الرب الذي يعلو السماء الزرقاء، يبارك خطلواتهم، وأنهم خلقوا ليحكموا العالم كله، ولهذا سمي زعيمهم نفسه بجنكيز خان؛ أي: حاكم العالم. وينطلقون من قاعدة أن في السماء رياً واحداً، فليكن هناك حاكم واحد على الأرض) وهو الخان، ولا يختلفون بذلك عن الصليبيين في رؤيتهم للعالم. بدأ ملك جنكيز خان في الصين عام ٥٩٩هـ، ثم بدأ ملكه بالتوسع في أوائل القرن السابع، حتى فتح (بكين) عام ٦١٢هـ، أما في جهة الغرب، فقد وصل ملكه إلى أواسط آسيا عام ٦٠٧هـ وتصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم؛ لأن الغريب لا يشبههم.

كان أعداء ملك جنكيز خان سنة ٥٩٩هـ، وكان قتاله لخوارزم شاه في حدود سنة ٦١٦هـ، ومات خوارزم شاه في سنة ٦١٧هـ، فاستحوذ حينئذ على الممالك بلا منازع ولا ممانع، وكانت وفاة جنكيز خان عام ٦٢٤هـ، فجعلوه في تابوت من حديد وريطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هناك. وأما كتابه (الياسا)، فإنه يكتب في مجلدين يخط غليظ، ويحمل على بغير عندهم؛ وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلاً ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل مراراً حتى يعي ويقع مغشياً عليه، ويأمر من عنده أن يكتب ما يلقي على لسانه حينئذ، فإن كان هذا هكذا، فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها. (وهذا يعني أن جنكيز خان لم يكن قائداً عسكرياً وحسب، إنما لبس لبوس الأنبياء الكذابين، مدعياً نزول الوحي عليه في كتاب المغول المقدس "الياسا" أو "اليسق". وهذه النبوة المزعومة وبهذا الكتاب بقوة شخصيته وشد جموع التتار تحت إمرته وقيادته لاكتساح العالم).

وذكر الجويني: أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة فسمع قائلاً يقول له: إنا قد ملكنا جنكيز خان وذريته وجه الأرض، قال الجويني: فمشايخ المغول يصدقون هذا، يأخذونه مسلماً. والاحتكام إلى كتاب "الياسا" كفر، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى "الياسا" وهمها عليه؟ فمن فعل ذلك كفر، بإجماع المسلمين؛

قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْمَلَكِيَّةِ يَقُولُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا يَقُولُونَ قُلُوبُهُمْ خُفِيَ عَنْ أَهْلِ الدِّينِ﴾ (النساء: ٥٠)، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا وَرَئِكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥)، وقد ذكر علاء الدين الجويني طرماً كبيراً من أخبار جنكيز خان ومكائدهم كان يفعلها لسجيته وما أدام إليه عقله، وإن كان مشركاً بالله، وقالوا: أهدي له رجل جام زجاج من معمول حلب، فاستحسنه جنكيز خان، فوهب أمره عنده بعض خواصه وقال: خوند هذا زجاج لا قيمة له.

فقال: ليس قد حملة من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالماً؟ أعطوه مني باليس.

قال: وأهدي له إنسان رمانة، فكسرها وفرق حبها على الحاضرين، وأمر له بعدد حبها باليس ثم أنشد:

فلذلك تزدحم الوفود ببابه مثل ازدحام الحبيب في الرمان

وقد قتل من الخلائق ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم.

الأخطاء الفادحة للدولة الخوارزمية، وزوالها (١١٩٠-١٢٢٠م):

بدأ اجتياح التتار العالم الإسلامي في بداية القرن السابع الهجري، ويخطئ من يظن أن الدولة الخوارزمية هي التي أبطأت اجتياح التتار، ومنعته من اجتياح العالم الإسلامي؛ لأن هذه الدولة كانت أصلاً السبب المباشر لاجتياح التتار العالم الإسلامي، فجلبت عليه ويلات المغول. وتمثل دولة الحشاشين في قلعة "الموت" والقلاع الإسلامية سبباً آخر لاجتياح المغول.



صحيح أن الدولة الخوارزمية وقفت بوجه تقدم المغول إلى أن سقطت (وهذا الأمر عجل سقوط بغداد بعدها)، لكن خوارزم شاه أخطأ أولاً في حق الخلافة العباسية، فقام بخلعها وإهانة رسول الخليفة فأهانته الله، وأخطأ خوارزم شاه خطأ فادحاً بفعل ٣ كبائر مع جنكيز خان، عادت عليه بالشر وبإستئصاله من ملكه العريض في سنة واحدة فقط، وعادت على العالم الإسلامي بالوبال والدمار.

أما خطؤه مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله، أحمد بن المستضيء، فيقول الذهبي في تاريخ الإسلام: "تحت سنة ٦١٤هـ: (قال أبو المظفر: وفيها قدم خوارزم شاه محمد بن تكش في أربع مئة ألف، وقيل في ست مئة ألف، فوصل همذان، قاصداً بغداد، فاستعد الخليفة وفرق الأموال والعدد، ورأسه مع الشيخ شهاب الدين السهروردي، فأهانته ولم يحتفل به، واستدعاه، وأوقفه إلى جانب الخيمة، ولم يجلسه... فسلمت عليه فلم يرد، ولا أمرني بالجلوس، فشرعت فخطبت خطبة بليغة، ذكرت فيها فضل بني العباس، ووصفت الخليفة بأزهد والنوع والتقى الدين، والترجمان يعيد عليه قولي، فلما فرغت، قال للترجمان: قل له: هذا الذي تصفه ما هو في بغداد، بل أنا آجي، وأقيم خليفة يكون بهذه الصفة، ثم ردتنا بغير جواب. ونزل عليهم بهمدان الثلج فهلكت خيلهم، وركب الملك خوارزم شاه يوماً فعثر به فرسه، فتطير ووقع الفساد في عساكره، وقتل الميرة، وكان معه سيمون ألفاً من الخطى، فردّه الله تعالى عن بغداد).

وقال الذهبي أيضاً: (ولم يل الخلافة أحد أطول مدة منه أي: الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء ٥٥٢-٦٢٢هـ، فإنه أقام فيها ٤٧ سنة، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة وقمع الأعداء واستظهار على الملوك، ولم يجد ضيقاً ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوء رماه الله بالخذلان، وكان مع سعادة جده شديد الاهتمام بمصالح الملك، لا يخفي عليه شيء من أحوال رعيته كبارهم وصغارهم، وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظاهرة والباطنة، وكانت له حيل لطيفة ومكائد غامضة وخدع لا يفتن لها أحد: يوقع الصداقة بين ملوك متعادين وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين ملوك متعقين وهم لا يفتنون...

وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفية وكتاب مختوم، فقبل له؛ أرجع فقد عرفنا ما جئت به، فرجع وهو يظن أنهم يعلمون الغيب، قيل: إن الناصر كان مخدوماً من الجن. وظهر خوارزم شاه بخراسان وما وراء النهر وتجر وطغى يستعيد الملوك الكبار وأباد أمماً كثيرة، وقطع خطية بني العباس من بلاده، وقصد بغداد فوصل إلى همدان، فوقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوماً، فغظاهم في غير أوانه، فقال له بعض خواصه: إن ذلك غضب من الله، حيث قصدت بيت الخلافة، وبلغه أن أهم الترك قد تألبوا عليه، وطعموا في البلاد لبعده عنها، فكان ذلك سبب رجوعه، وكفى الناصر شره بلا قتال.

وأما بالنسبة إلى أخطائه مع جنكيز خان، فإنه قام بقتل تجار جنكيز خان عام ٦١٦هـ، ثم قتل رسوله له، ومن ثم يادر فذهب أموال قبيلته، وسبى ذراريهم وأطفالهم، وجنكيز خان في شغل شاغل بقتال أعدائه من قبيلة أخرى، يقول ابن كثير في "البيداء والنهاية" (ج ١٢، ص ١٤٠-١٤١): (ولكن كان البداء من خوارزم شاه، فإنه لما أرسل جنكيز خان تجاراً من جهته، معهم بضائع كثيرة من بلاده (في رواية: يتضعون له ثياباً للكسوة) انتهوا إلى إيران فسلمهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وهو والد زوجة كشلي خان لقائد تتاري يعادي جنكيز خان، وأخذ جميع ما كان معهم، فأرسل جنكيز خان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضى منه، أو أنه لا يعلم به، فنكره، وقال له فيما أرسل إليه: "من المعهود من الملوك أن التجار لا يقتلون؛ لأنهم عمارة الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفيسة، ثم إن هؤلاء التجار كانوا على دينك فقتلهم نائبك، فإن كان حراً أمرت به طلبنا بنماتهم، وإلا فأنت تنكره وتقتص من نائبك".

فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيز خان، لم يكن له جواب سوى أنه أمر بضرب عنقه فأساء تدبير، وقد كان خرف وكبرت سنه، وقد ورد الحديث: (اتركوا الترك ما تركوكم)، فلما بلغ ذلك جنكيز خان، تجهز لقتاله وأخذ بلاده، فكان بقدر الله تعالى ما كان من الأمور التي لم يسمع بأغرب منها ولا أبشع).

ويقول ابن كثير (ج ١٢، ص ٩٩-١٠٥)، تحت أحداث عام ٦١٦هـ: (وفيها: عبرت التتار نهر جيحون بضعية سلكهم جنكيز خان من بلادهم... وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكيز خان بعث تجاراً له (الحادثة)، ولم يكن فعله خوارزم شاه فعلاً جيداً، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلي خان، فذهب خوارزم شاه أموالهم، وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين، فاقبضوا أربعة أيام قتالاً لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء. وكان من جملة من قتل من مسلمين نحو من عشرين ألفاً، ومن التتار أضعاف ذلك.

ثم تحاجز الفريقان، وولى كل منهم إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصنها، بالغ في كثرة من ترك بها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة،... ثم كان اجتياح جحافل المغول على العالم الإسلامي، فيقول ابن كثير، تحت أحداث عام ٦١٦هـ وعام ٦١٧هـ:

(فقصدت التتار بخارى، فأمنهم جنكيز خان ودخلها، فأحسن السيرة فيهم مكرراً وخديعة، ثم عاد إلى البلد فسطفى أموال تجارها وأهلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، فغفلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسرف عذاباً بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها وساجدها، فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها. ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند، وفعلوا مثل ذلك.

ثم دخلت سنة ٦١٧هـ، عمّ البلاء في هذه السنة وعظم العزاء بجنكيز خان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين، واستفحل أمرهم، واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة، وهي هذه السنة، سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج واللاذقية والخزر وغيرهم. وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار ما لا يحصى ولا يوصف، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحرقيق إن لم يحتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار، وهم ينظرون إليه، ويحربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع.

وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين، فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتل قتلوهم. ثم قاتلت التتار ابنه جلال الدين تكش (ويقال له محمود بن علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش الخوارزمي، وهم من سلالة طاهر بن الحسين، وجدهم تكش هو اندي أزال الدولة السلجوقية). كانت التتار قهروا أبا، حتى شردوه في البلاد، فمات في بعض جزائر البحر، ثم ساقوا وراء جلال الدين هذا حتى مزقوا عساكره شذراً مذبذباً، وتفرقوا عنه أيدي سباً، وانفرد هو وحده فلقية فلاح من قرية بارض ميافارقين، فأنكره لما عليه من الجواهر الذهب، وعلى فرسه، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية - وكانوا قد قتلوا للفلاح أخاً - فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأس كانت عنده، وأخذ ما عليه، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازي بن العادل صاحب ميافارقين، فاستدعى الفلاح فأخذ ما كان عليه من الجواهر وأخذ الفرس أيضاً، وكان الأشرف يقول: هو سد ما بيننا وبين التتار، كما أن السد بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

كان المغول، بحلول عام ٦٢٥هـ - ١٢٢٨م قد توغلوا في بلاد الدولة الخوارزمية - الجبهة الأولى للعالم الإسلامي - ودخلوا في معارك طاحنة مع جيش جلال الدين خوارزمشاه. وظلت المعارك تتواصل بين المغول والخوارزمية إلى أن انهزم جلال الدين بالكامل في سنة ٦٢٨هـ - ١٢٢٠م، وقتل وانتهت دولته، وتشتت الخوارزمية، وتمزقوا كل ممزق وتحول جنودهم الذين تشردوا إلى مرتزقة يعرضون خدماتهم على ملوك المنطقة الإسلامية المجاورة.

يقول الذهبي في تاريخ الإسلام: (وأما الخوارزمية، فزال دولتهم، وتمزقوا، وقطشت أديابهم، وبقي حرامية، يقتلون ويسبون الحريم، ويفعلون كل قبيح).

وفتحت الجبهة الشرقية للعالم الإسلامي على مصراعيها أمام جحافل المغول الذين لم يتبق لهم سوى دخول بغداد والتوغل في الأراضي العربية.

أول سقوط للخلافة العباسية في بغداد: الفتنة العظمى:

لا يعلم كثيرون أن محاولة إسقاط الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ على يد هولاكو إنما كانت هي المحاولة الثانية!

أما أول محاولة لإسقاط الخلافة العباسية، فقد تمت عام ٤٥٠هـ على يد البساسيري، ولها دلائلها الخطرة في تعاضم الخطر الباطني، الذي أدى إلى إلغاء الخلافة العباسية تماماً مدة سنة واحدة، ونقل السلطة للركزية من بغداد إلى العبيديين في مصر، حتى سُمي الحافظ الذهبي هذه الواقعة في كتابه "سير أعلام النبلاء" (الفتنة العظمى).

آلت الدولة العباسية، في سنة ٤٢٢هـ، إلى عبد الله بن أحمد القادر الملقب بـ "القائم بأمر الله"، وكان الخليفة ٢٦٠ من خلفاء بني العباس، والرابع والأخير في خلفاء العصر البويهي. وكان البويهيون زيدية المذهب، لا يسيرون أبدا بكرة وعمر، ويعترفون بهم، ولكن كانوا أصحاب بدعة ويؤمنون بأفضلية عليّ عليهما. وكانوا يمدّون الجسور إلى العبيديين إخوانهم في العقيدة، وتجري بينهم المراسلات، بل كانوا يشاورونهم في إمكان إعلان الحاكم العبيدي خليفة للمسلمين عامة.

وبرز نجم أرسلان البساسيري التركي، أحد قوّاد البويهيين، وكان الخليفة القائم بأمر الله قد قدّمه على جميع الأتراك، وقلّده الأمور بأسرها. وكان على سدة الحكم العبيدي في مصر آنذاك الخليفة المستنصر محمد بن عليّ، تغاضم شأن البساسيري، وانتشر ذكره وطار اسمه وتهيّته أمراء العرب والعجم... وجبى الأموال وخرب اضياع، ولم يكن الخليفة يقطع أمراً دونّه، ولا يحلّ ولا يعقد إلاّ عن رأيه. ثم استمر في انتزاع الصلاحيات، حتّى لم يبق للملك الرحيم البويهي ولا الخليفة القائم بأمر الله معه إلاّ الاسم. وراسل البساسيري المستنصر العبيدي في سنة ٤٤٧هـ، وأطلعه على عزيمته إلغاء الخلافة العباسية، وأرسال شارات الخلافة إليه: تمهيدا لاستخدامه إلى بغداد ومبايعته خليفة للمسلمين عامة، وطلب منه الدعم بالمال والسلاح. وساءت علاقة الخليفة القائم بالبساسيري، وأرسل إلى الملك البويهي يقول له: إن البساسيري خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، وإن الخليفة له على الملك عهد، وله على الخليفة مثله، فإن أثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعد، وأصعد إلى بغداد، تولى الديوان تدبير أمره.

ففقد الخليفة ثقته بمن حوله، ورأى أن المصلحة تقتضي الاتصال بقوة السلاح لجماعة لحماية الخلافة وكسر شوكة البساسيري، خاصة أنها كانت تدّين بالمذهب السني، وتحترم الخلافة، فاستدعى الخليفة طغرلبيك القائد السلجوقي إلى بغداد من الريّ، فخرج البساسيري بعسكره إلى مكان بين الرقة وبغداد يسمى الرّحية، وأمدّه استنصر بما أراد من مال وسواه، انطلقاً من مواقع نفوذه في الشام.

وعندما دخل طغرلبيك بغداد، أظهر العامة تذرهم، وقتلوا عدداً من جنده، فاستاء من ذلك، واتهم الملك (رحيم) البويهي وأتباعه، فقبض عليهم، وأرسل الملك البويهي إلى قلعة السيروان قرب الري (طهران اليوم)، إذ ظلّ معتقلاً بها ٣ أعوام ثم توفّي، واستولى على إقطاعات عسكره، وهذا دفع أكثر هؤلاء إلى الخروج من بغداد، وانضموا إلى البساسيري، فكثرت بهم عدد أنصاره.

وبدأ العصر السلجوقي ذو المسار الإسلامي الصحيح بدخول طغرلبيك إلى بغداد، واستعد طغرلبيك لقتال البساسيري، لكن البساسيري ودعاة الإسماعيلية معه مثل (هبة الله الشيرازي) تمكنوا من الإيقاع بين طغرلبيك وأخيه إبراهيم بنال، عن طريق مراسلة الأخير، وإطعامه بإقضاء أخيه، والاستيلاء على منصبه.

واضطّر طغرلبيك إزاء تمرد أخيه إبراهيم بنال إلى أن يغادر بغداد، ويعود إلى الري لحاربة أخيه والقضاء على ثورته. واستغل البساسيري هذا الوضع، وزحف على بغداد - بعد أن كان قد احتل الأنبار - على رأس قوة عسكرية تقو بأربع مئة شخص، حاملاً الرايات المستنصرية، وقد كتب عليها "الإمام المستنصر بالله أبو تميم محمد أمير المؤمنين"، وسار معه أمير الموصل قريش بن بدران العقيلي، وكان حليفاً للبساسيري، في منتهى فارس، وتمكنا من دخول بغداد في ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ دون مقاومة تذكر.

واضطّر الخليفة القائم إلى طلب الأمان من قريش بن بدران، فأجابه إلى طلبه. وأرسله إلى حديثة غانة تحت إقامة الجبوية، وكان البساسيري يرغب في إرساله إلى مصر عند المستنصر العبيدي، وأرغم البغاة الخليفة العباسي قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس، ولا له هو، في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء، ثم بعثوا بهذا العهد إلى القاهرة، وأرسلوا ثوب الخليفة وعمامته وشباكه الذي كان يجلس فيه، مع الهدايا والتحف، وقد أثار وصولها إلى القاهرة موجة عارمة من الفرح لدى المستنصر العبيدي وأنصاره.

دعا البساسيري للمستنصر العبيدي في جامع المنصور ببغداد في يوم الجمعة ١٣ ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ، وقطع الخطبة للعباسيين، وزيد في الأذان "حي على خير العمل"، ثم أقيمت الخطبة للعباسيين في جميع مساجد بغداد، وكان أول من أيده ودعا للمستنصر أهل الكرخ. ونهبت دار الخلافة، وقتل البساسيري بعض رجال الدولة، ومنهم رئيس الرؤساء وقاضي القضاة، واستمرت الخطبة للخليفة العبيدي، وامتد احتجاز الخليفة في عانة عاماً كاملاً كذلك. وتناهت الأنباء في هذه الأثناء، أن "ينال" حاصر أخاه طغرل بك في همدان، فبلغ من سوء الحال وتردي الأوضاع أن سمي الحافظ الذهبي هذه الواقعة «الفتنة العظمى»، وبلغ من ذلك أنه نهب الحرم ودار الخلافة، وسلمت زوجة الخليفة إلى أحد مظاهري البساسيري من العرب. وملك البساسيري بغداد والبصرة والكوفة وواسط والموصل وخوزستان وغيرها. وشمخت أنوف الرافضة، واستأسدوا به على أهل السنة، ورُفعت رايات المستنصرية العبيديين.

أما في الشرق، فقد بدأت الكفة تميل إلى مصلحة طغرل بك بعد أن جاءت إمدادات من ابن أخيه البطل ألب أرسلان، فتمكن طغرل بك عام ٤٥١هـ من التغلب على أخيه وقتله، ثم زحف نحو العراق لإعادة الأمور إلى نصابها. فطلب من البساسيري وقريش بن بدران إعادة الخطبة للخليفة القائم، مقابل عدم دخوله بغداد، فرفض البساسيري إجابة طلبه.

ثم إن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش العقيلي، حاكم حديثة عانة؛ ليمنع عودة الخليفة إلى بغداد. وبالرغم من النجاحات التي حققها البساسيري، والمناطق التي استولى عليها، لكنه لم يتمكن من مواجهة الجيش السلجوقي القادم؛ لذلك خرج البساسيري من بغداد مع جنده، وقصد الكوفة في السادس من ذي القعدة سنة ٤٥١هـ. لكن لماذا لم يقدم المستنصر العبيدي الدعم الكافي للبساسيري على الرغم من إخلاصه له؟

الذي يظهر أن أحد وزراء المستنصر - أبا الفرج محمد بن جعفر المغربي - كان يكره البساسيري، فلذلك كان يفر عنه المستنصر وحذره منه. فضلاً على أن المستنصر لم يكن يملك القوة الكافية لإمداده. وأياً كان الباعث، فإن المستنصر لم يثق تماماً بالبساسيري، فاستغنى بتقديم الدعم المادي، وكان هذا من في مصلحة المسلمين. علق ابن تغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة" (ج ٥/ ص ١١) على موقف المستنصر العبيدي من البساسيري بعد خروجه من بغداد، بقوله: (ولولا تحوُّف المستنصر من البساسيري، وترك تحريضه على ما هو يصنّده، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلاً).

وكتب القائم من إقامته الجبرية في عانة تظلماً إلى الله عز وجل في رقعة جاء فيها: «إلى الله العظيم من المسكين عبده»، وبعث بها إلى الكعبة. وهو أمر لطيف أن ينفذ الإنسان رسالة إلى رب العالمين في بيته الأعظم! وإن كان سبحانه قريب يجيب دعوة المضطر إذا دعاه أياً كان. أما هذه القصاصة، فقال الحافظ الذهبي فيها: (نفعت وأخذ الله بيده).

وتناهم طغرل بك والأمير محيي الدين مهارش لإعادة الخليفة العباسي القائم إلى بغداد، واستقبله عند وصوله إلى النهراوان، وبالغ في الاحتفاء به، وأبدى سروره لعودته، واعتذر له عن تأخره في نجدة لاشتغاله في إخماد ثورة أخيه، وأبدى نيته في المضي خلف البساسيري الذي التجأ إلى الكوفة. وعزم طغرل بك على المسير إلى اشام، ثم إلى مصر ليعامل المستنصر العبيدي معاملة تتلاءم وأفعاله، وأعيدت الدعوة للعباسيين في بغداد بعد انقطاع دام سنة.

ولم يكد الخليفة يستقر في بغداد، حتى عهد السلطان طغرل بك إلى القائد خمارتكين الطغراني بالمسير على رأس ألفي فارس إلى الكوفة، حيث يقيم البساسيري، وضم إليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخاسجي، وسار بنفسه في إثرهم. ودارت بين الطرفين معركة ضارية عند الكوفة منتصف شهر ذي الحجة سنة ٤٥١هـ. أسفرت عن انتصار السلاجقة، ومقتل البساسيري وهزيمة جيشه، وحمل رأسه إلى بغداد، فطوَّف به، وعلق إزاء دار الخلافة.

وبذلك تمكن فلغريك من القضاء على فتنة السياسيري التي أقصت مضاجع الخلافة العباسية، وطوي فصل من فصول التآمر الباطني. وقيل: إن القائم لم يضع رأسه بعد ذلك على وسادة، ولازم الصيام والقيام وقضاء الحوائج، واستمر في الحكم بعد ذلك قرابة ١٦ سنة.

أول هجوم للتتار على بغداد:

شن المغول أول هجوم لهم على بغداد سنة ٦١٧هـ، ولكنهم أخفقوا في الاستيلاء عليها. ففي تاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث ٦١٧هـ: (قال الموفق عبد اللطيف: الشعب من التتار فرقان، كما ينشعب من جهنم لسانان: فرقة قصدت أذربيجان وأران ثم بلاد الكرج، وفرقة أتت على همدان وأصبهان، وخالطت حلوان تقصد بغداد. أما الفرقة التي قصدت بغداد، فردهم الله بقوة العقل وحسن التدبير:

أما (أولاً) صاحب إربل، فشحن الدربندات بالأكراد، وألنهم ينتهي العلم بالصوصية، فسلطهم عليهم يسرقونهم ويقتلونهم صبراً في نومهم، فيصبحون وقد نكبوا تكبات في جهات لا يدرون من أين ولا كيف.

ثم لثانيه إن الخليفة الناصر لدين الله جمع الجموع وعسكر العساكر وحشر فتادی، وأقبلت إليه اليعوث من كل حذب ينسلون، فلما سمعوا بوصول رسول التتار، تقدموا إلى صاحب إربل أن يحتفل ويظهر جميع عسكره، **ودخل** بينهم عن العوام والفلاحين من يشتبه بهم. فلما وصل الرسول إربل، تلقاه عساكر قطعت قلبه، وصاروا يتكرورون عليه، كلما مرّ يقوم سبقوه وعادوا ووقفوا بين يديه، فلما دخل ولاية دقوقا، عثى له من العساكر أضعاف ذلك.

ثم انشأ أخرج إلى بغداد فلقبته عساكر بغداد، صغرت في عينه ما رأى، لم يتركوا ببغداد فرساً ولا جمللاً ولا حماراً حتى أركبوه رجلاً، ومعه شيء من السلاح، وأكثرهم بالأعلام والبرك أسطوانات (أي جل مزركش)، وخلق يلعبون بالنفط، ويرمون بالبندق الزجاج فيه النفط، فامتلات البرية بالنيران. ثم حمل إلى دار، ثم أخرجوا **بالليل** خفية على طريق غير مسلوكة، وردوا إلى إربل، وقيل للرسول: إنما هريشاك في الخفية: خوفاً عليك من العامة. ففصل، وقد امتلأ قلبه رعباً ودماغه خيالاً، وأبى قومه ما أثبتته عينه، فعلموا أنهم لا قبل لهم ببغداد، فرجعوا خائبين). انتهى

وجاءت فرقة من التتار إلى إربل، في ٦٢٢هـ، فواقوا عسكرها، فقتل جماعة من التتار، وقتل من الأربلة نصر **يسير**، ثم إن لتتار ساقوا إلى الموصل ونهبوا وقتلوا، فاهتم المستنصر بالله (أبو المستعصم بالله الذي قتله التتار) وقرق الأموال والسلاح، فرجع التتار.

ونزل التتار إربل وحاصروها في ٦٢٤هـ، ونقبوا السور وأخذوها عنوة، وقتلوا وسبوا، وجافت إربل بالقتلى، وكان باتكين نائب البلد بالقلعة فقاتلهم. ثم إن التتار نقبوا القلعة، وجعلوا تحتها سرباً وطرقاً، فقلت المياه على أهل القلعة، ومات بعضهم من العطش، ولم يبق إلا أخذ القلعة، ثم لطف الله بمن بقي بالقلعة، ورحلت التتار **بمكاسب** لا تحصى. ويقول ابن كثير: (ثم دخلت سنة ٦٢٤هـ: فيها: حاصرت التتار إربل بالمجانيق ونقبوا الأسوار حتى فتحوها عنوة، فقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم، وامتعت عليهم القلعة مدة. وفيها: النائب من جهة الخليفة، فدخل **فصل الشتاء** فمألقوا عنها وأنشروا إلى بلادهم، وقيل: إن الخليفة جهز لهم جيشاً فانهزم التتار). (البداية والنهاية ج ١٣، ص ٢٧) وامتتع الحج من العراق عام ٦٢٤هـ وعام ٦٢٥هـ.

ثم دخلت سنة ٦٤٣هـ (وهي سنة الخوارزمية؛ وذلك أن الصالح أيوب بن الكامل صاحب مصر بعث الخوارزمية، ومعهم ملكهم بركات خان في صحبة معين الدين، ابن الشيخ، فأحاطوا بدمشق يحاصرون عم الصالح). وفي هذه السنة: كانت وقعة عظيمة بين جيش الخليفة وبين التتار لعنهم الله، فكسروهم المسلمون كسر عظيمة وفرقوا شملهم، وهزموا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم ولم يتبعوهم: خوفاً من غائلة مكرهم، وعملاً بقوله: (اتركوا الترك ما تركوكم). (البداية والنهاية ج ١٣، ص ١٩٧).

وفي ذلك يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام": (وفيها أي: سنة ٦٤٣هـ وصلت التتار إلى يعقوباً فعاثوا وأفسدوا فخرج من بغداد الدوادر الصغير في عسكر بغداد، فالتقاهم في ربيع الآخر فكسروهم وردّ ومعه الأسرى).

قتلت التتار يخانقين في ٦٤٧هـ خلقاً عظيماً من النزال، ونهبوا أغنامهم وأبقارهم، ثم نهبوا ناحية تبت والراذان أمن قرى بغداد وأخربوا تلك النواحي، فخرج من بغداد عسكر لذلك. وأمر الناس في جمادى الآخرة بالمبيت في أسواق بغداد وفي دروبها وبالقعيد. وحجّ الركب العراقي في ٦٥٠هـ، بعد انقطاعه عشر سنين. أقاله التتار في تاريخ الإسلام.

كارثة الإسلام والعربية الكبرى: سقوط بغداد عاصمة الإسلام، على يد المغول بقيادة هولاكو.

أما المحاولة الثانية لإسقاط الخلافة العباسية، فكانت على يد هولاكو المغول، وثمت بإسناد واقضي أيضاً، وتمثل الغزو التتاري الثاني على بغداد. وهو هولاكو بن تولي خان بن جنكيز خان المغولي. ولي الملك بعد موت أبيه تولي خان، واتسعت ممالكه، وعظم أمره، وكثرت جيوشه من المغول والتتار، وما زال أمره في زيادة حتى ملك مدينة "الموت"، وقتل متوليها شمس الشموس، وأخذ بلاده.

وقد بسط ابن الأثير في كامله خبرهم في هذه السنة بسطاً حسناً مفصلاً، وقدم على ذلك كلاماً هائلاً في تعظيم هذا الخطب العجيب.

قال: (فتقول: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عمت الليالي والآيام عن مثله. عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم وإلى الآن، لم يبتلوا بمثله لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب بيت المقدس، وما ألحقه بالبيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بتو إسرائيل بالنسبة إلى ما قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل).

كانت انخلاء العباسية في بغداد تعاني أشد درجات الضعف والوهن، فأرسل له هولاكو رسالة يطالبه فيها بالاستسلام دون شروط، وكان من أهم العوامل التي عجّلت بسقوط بغداد بيد التتار - بالإضافة إلى ضعف الخلافة - هو سوء البطانة والحاشية التي كان يستعين بها الخليفة العباسي، فلم يكن وزيره ابن العلقمي إلا منفذاً لمخططات الأعداء، فقام بإعفاء الجيش وتسريحه، وأثار الفتنة بين أهل بغداد نفسها أكثر من مرة، وكان عوناً للتتار فيما بعد على دخول بغداد؛ بسبب مشورات المدسوسة التي كان يبغى منها تمكين العدو من رقاب المسلمين.

لم يكن الخليفة المستعصم بالله (٦٥٦-٦٥٩هـ/١٢١٣-١٢٥٨م) نبهاً ولا مهتماً بالأخطار المحدقة بالخلافة الإسلامية، كآبئه المستنصر بالله ولا جدّه الناصر لدين الله اللذين أنفقوا الأموال الكثيرة على إعداد الجيوش.

وجعلها على العساكر. حكم المستعصم ١٦ عاماً (٦٤٠-٦٥٦ هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨ م)، وكان يحب جمع الأموال، يل
يفكر ودائع اللوك، ويستجمع المال بتسريح جنده وعساكره (بمشورة وزيره ابن العلقمي).

(أودع الملك الناصر داودُ وديعةً عند الخليفة المستعصم، في ٦٤٧ هـ، قيمتها مئة ألف دينار فجعلها الخليفة،
تكرر وقوده إليه، وتوسله بالناس في ردّها إليه، فلم يرد من ذلك شيئاً، فوقف عليه في ٦٥٤ هـ، فتوقف في ردّها
والتجّ بحجج ياردة. وجرت أمور قبيحة لم يعهد مثلاً من أمير فضلاً على أمير المؤمنين.

ثم سر إلى بغداد في سنة ثلاث وخمسين: بسبب الوديعة والحجج، وكتب معه الناصر صاحب الشام كتاباً
إلى الخليفة يشفع فيه في رد وديعته، ويخبر برضاه عنه، فسافر ونزل بمشهد الحسين بكربلاء، وسير إلى الخليفة
قصيدة يمدحه ويتلطفه، والقصيدة طويلة مطلعها:

مقامك أعلى في النفوس وأعظم
وحلمك أرجى في النفوس وأكرم

فلم ينفع ذلك، ثم أحضر شيخ الحرم والخدام، ووقف بين الضريح مستمسكاً بسجف الحجرة الشريفة،
وقال: اشهدوا أن هذا مقامي من رسول الله ﷺ قد دخلت عليه مستشفعاً به إلى ابن عمه أمير المؤمنين في رد وديعتي.
فأعظم الناس هذا وبكوا، وكتب بصورة ما جرى إلى الخليفة. ولما كان الركب في الطريق، وقع القتال بين
الحجج، فجاء الناصر يشق الصفوف، وأصلح بينهم. وكان الناصر داود قد حج، وعاد إلى العراق بسببها، فأنزل
بالحلة وأجرى عليه راتب ضعيف، فعمل قصيدة تلطف فيه وعده خدمة وخدم آياته فما نفع، بل سبوا إليه من
حاسبه على حميع ما اتصل إليه من النفقات والمأكول وما حملوه إليه من الهدايا في تردده، ثم أوصلوا إليه شيئاً
يسيراً، وقالوا: قد وصل إليك قيمة وديعتك فهات خطك بوصوله، وإنك لم يبق لك شيء، فكتب كارهياً. ولم يصل
إليه من قيمتها العشر. ثم رجع ثم قدم دمشق ونزل بقرية البويضا بقرب البلد، وأخذ يتجهز للمسير، فلم ينشب أن
جاءت الأخبار بما جرى على بغداد). (البداية والنهاية ج ١٢، ص ٢٤٩، وتاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث ٦٥٤ هـ)

ولي وزارة العراق مؤيد الدين محمد بن العلقمي في ٦٤٢ هـ. بعد موت ابن الناقد الوزير. وابن العلقمي ٥٩٢-
٦٥٦ هـ (١٩٧-١٢٥٨ م) هو محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، اشتغل في صباه بالأدب. وارتقى إلى رتبة الوزارة
عام ٦٤٢ هـ، فولّوها ١٤ عاماً، ووثق به "المستعصم" فألقى إليه زمام أمور. وكان حازماً خبيراً ب سياسة الملك، كاتباً
فصيح الإنشاء اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصغاني "العباب" وصنف له ابن أبي الحديد
شرح نهج البلاغة.

خيانة ابن العلقمي: متى؟ ولماذا؟

قدم رسولان من التتار في ٦٤٤ هـ، أحدهما من بركة، والآخر من باجو، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين بن
العلقمي، وتغتمت على الناس بواطن الأمور.

وفي ٤٨ هـ ثارت الجند ببغداد: لقطع أرزاقهم. وتمعوا يوم الجمعة الخطيب عن الخطية، واستغاثوا لأجل قطع
أرزاقهم. وكان ذلك كان من عمل الوزير ابن العلقمي الرافضي: فإنه كان حريصاً على زوال دولة بني العباس
وقلها إلى العلويين، وكان يرسل إلى التتار في السر والخليفة المستعصم لا يطلع على باطن الأمور، ولا له غرض في
صلحة. وهذا يعني أن خيانة ابن العلقمي بدأت من عام ٦٤٤ هـ. عندما اجتمع هو شخصياً مع رسولي التتار، وليس
من عام ٦٥٤ هـ بعد فترة الكرخ كما يقال.

وكثير اللصوص ببغداد في العام ٦٤٨هـ نفسه، وصار لهم مقدم يقال له: غيث، وتجرؤوا على دور الأمراء. وكان أمر الله بتدبير أموال الخليفة وأمراته وخزائنتهم في سنة ٦٥٤هـ (عقاباً من جنس العمل بقطع أرزاق الجند).

فقد غرقت ببغداد الفرق العظيم الذي لم يعهد مثله لفرقت بغداد أيضاً عام ٦١٤هـ وعام ٦٤٦هـ بأسوأ من الأول، إذ انتقل الخليفة ودخل الماء إلى دار الوزير، وغرقت خزانة الخليفة وجرى شيء لم يجر مثله، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، وكان ظهور النار العظيمة بالمدينة الشريفة في سنة ٦٥٤هـ... وحدثت فتنة الكرخ في ٦٥٤هـ (انظر فيما سيأتي).

وكان وزير الخليفة المستعصم بالله، مؤيد الدين بن العلقمي ببغداد، رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية، ونقل الخلافة إلى العلويين، ويبدو ذلك في الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك. اكان استاذ الخلافة ثم ولي الوزارة في ربيع الأول عام ٦٤٢هـ بعد موت ابن الناقد الوزير، وما زال يؤثر الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف، وقتل جماعة من الرافضة ونهبوا، فاشتكى أهل باب البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدوادار والأمير أبي بكر بن الخليفة، فتقدموا إلى الجند بنهب الكرخ، فركبوا من وقتلهم وجمعوا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة، وارتكبوا معهم العظائم أوقفهم أقارب الوزير وأصدقائه وجمعة علويون. فحقق الوزير ابن العلقمي، ونوى الشر في الباطن، وأمر أهل الكرخ الرافضة بالصبر والكف عن القتل، وقال لهم: (أنا أكفيكم غيهم).

وثيقة الخيانة الخطرة: إن رسالة ابن العلقمي إلى ابن صلاح الدين العلوي تمثل الإدانة الصريحة لهذا الوزير الخائن. وتبين أنه كان يخطط لخيانة الإسلام مع مجموعة متواطئة معه تعلم جيداً خيانتة للإسلام، فما أفشوا بسرهم، بل عاونوه في توأطئه مع المغول ضد الإسلام، منهم رسولاه أخوه وغلماؤه، ومنهم أمراته التي استهجنحت احتقار المغول تزوجها الذي صار يركب كديشاً بعد أن كان الوزير المعلى، ومنهم ابن صلاح الدين العلوي هذا، ومنهم أهل الكرخ الذين صاروا من مقدمة جيش هولاكو على بغداد. ولخطورة هذه الرسالة نوردتها كاملة، كما ذكرنا الذهبي في ترجمته لابن العلقمي عام ٦٥٦هـ في تاريخ الإسلام:

(فكتب - أي ابن العلقمي - إلى نائب إربل تاج الدين محمد بن صلاح الدين العلوي الرسالة التي يقول فيها:

كتب بها الخادم من النيل إلى سامي مجدك الأتيل. ويقول فيها: نهب الكرخ المكرم والعترة العلوية. وحسن التمثل بقول الشاعر:

أمور يهزجك السفهاء منها ويبيكي من عواقبها اللبيب

فلهم أسوة بالحسين حيث نهب حرمه وأريق دمه ولم يعثر فمه:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الغد

وقد عزموا - لا أتم الله عزمهم، ولا أنفذ أمرهم - على نهب الحلة والنيل، بل سولت لهم أنفسهم مراً، قصير جميل. وإن الخادم قد أسلف الإنذار، وعجل لهم الأعداء.

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها صرام

وإن لم يطفئها غفلاء قوم يكون وقودها جئت وهام

فقلت من التعجب: ليت شعري أيقاظ أميئة أم نيام

فكان جوابي (أي إجابتهم له) بعد خطابي: لا بد من الشيعة ومن قتل جميع الشيعة، ومن إحراق كتابي "توسيلة" و"الشرعة"، فكن لما نقول سميعاً، وإلا جرّ عنك الحمام تجريعاً، فكلامك كلام، وجوابك سلام، ويتركب في بغداد أحمل من المشط عند الأصلع، والخاتم عند الأقطع، ولتتبدل بيد الفلاسفة بحظوزات الشرائع، ولتقى لقاء أهل القرى أسرار الطبائع، فلا فعلن يلبي كما قال المتنبي:

قوة إذا أخذوا الأقلام من غضبي ثم استمدوا بها ماء المنيات
نألوها بها من أعاديهم وإن تعدوا ما لا يُنال بحدّ المشرفيات

﴿فَلَنَأْيِسُنَّ لَكُمْ جُودًا لَا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّ مِنْهَا آلَافًا مِّنْهُمْ سَبْعُونَ﴾ (النمل: ٢٧).

ووديعه من سر آل محمد أولعته إذ كنت من أمثاتها
فلما رأيت الكوكبين تقاربا في الجدي عند صباحها ومساها
فهناك يؤخذ ثأر آل محمد لطلابها بالترك من أعدائها

هكذا بدأ الأمر بالمرصاد، وتربّأ أول النحل وآخر صاد، والخير يكون إن شاء الله. انتهى

وكان خليفة المستعصر بالله (أبو المستعصم) قد استكثر من الجند قبل موته حتى بلغ عدد عسكره مئة ألف. وكان الوزير ابن العلقمي يصانع التتار في الباطن ويكاتبهم ويهاديهم، فلما استخلف المستعصم بعد موت أبيه استعصر، وكان المستعصم خلياً من الرأي والتدبير، أشار عليه ابن العلقمي المذكور بقطع أرزاق أكثر الجند (تقوية اقتصاد البلاد)، وأنه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود ولا حاجة إلى كثرة الجند، ففعل خليفة ذلك! (وكلمة الشيخ مطاعاً)، ثم إن الوزير بعد ذلك كاتب التتار، وأطمعهم في البلاد سراً، وأرسل إليهم غلامه وأخاه، وسهل عليهم فتح العراق، وأخذ بغداد، وطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد، فوعدهم بذلك وهاهبوا لقصد بغداد، وكاتبوا لولأ صاحب الموصل في تهيئة الإقامات والمسالخ، فكاتب لولأ الخليفة سراً وحذره، ثم هبأ لهم الآلات والإقامات.

وكان الوزير ابن العلقمي المذكور ليس لأحد معه كلام في تدبير أمر الخليفة، فصار لا يوصل مكاتبات لولأ ولا غيره إلى الخليفة، وعمى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرأها هو ويحجب عنها بما يختار، ففتح أمر التتار بذلك غاية النجاح، وأخذ أمر الخليفة والمسلمين في إديار (وكان تاج الدين بن صلاح نائب الخليفة بإربل حذر الخليفة وحرك عزمه. والخليفة لا يتحرك ولا يستيقظ، فلما تحقق أن خليفة حركة التتار نحوهم، سبر إليهم شرف الدين بن يحيى الدين بن الجوزي رسولا يهدمهم بأموال عظيمة، ثم سير مئة رجل إلى الدربند يكوّنون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر! لأن الأكراد الذين كانوا هناك دلوا التتار عليهم فهجموا عليهم وقتلواهم أجمعين.

وبعد استنفاد الطرق الدبلوماسية، وأخفاق المراسلات المتكررة بين هولاكو والمستعصم، اتخذ هولاكو إقراراً بالهجوم على بغداد، فصار إليها في مئتي ألف مقاتل، وكان بصحبته جمع ممن ينتسب إلى الإسلام، منهم نسير الدين الخطوسي الفيلسوف الذي كان أحد مستشاري هولاكو، ومنهم أمير شيراز، ووصل الجيش التتري إلى بغداد في محرم سنة ٦٥٦ هـ.



ثم ركب هولاءكو بن تولي خان بن جنكيز خان في جيوشه من المغول، وقصدوا العراق، وكان على مقدمة الأمير بايجو نوين، وفي جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة. فوصلوا إلى قرب بغداد، واقتلوا من جهة البر الغربي عن دجلة، فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن الدين الدوادار، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، فانكسر البغداديون، وأخذتهم السيوف، وغرق بعضهم في الماء، وهرب الباقون، ثم ساق بايجونوين مقدمة هولاءكو، فنزل القرية مقابل دار الخلافة وبينه وبينها دجلة ليس غير.

وقصد هولاءكو بغداد من البر الشرقي، وضرب سوراً وخندقاً على عسكره وأحاط ببغداد، فأشار الوزير ابن العلقمي على الخليفة المستعصم بالله بمصانعتهم.



تصوير فارسي من القرن الرابع عشر لحصار بغداد في شباط ١٢٥٨م قبيل تدميرها على أيدي التتار

وقال له: اخرج إليهم؛ أنا في تقرير الصلح. فخرج إليهم واجتمع بهولاءكو وتوثق لنفسه ورد إلى الخليفة، وقال: (إن الملك قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر، وبيتيك على منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف هو عنك بحيوشه فتحييه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد والرأي أن تخرج إليه. فسمع له الخليفة، وخرج إليه في جمع من الأعيان من أقاربه وحواشييه وغيرهم. فلما توجه إلى هولاءكو، لم يجتمع به هولاءكو، وأنزل في خيمة، ثم ركب الوزير وعاد إلى بغداد ياذن هولاءكو، واستدعى الفقهاء والأعيان والأمثّل ليحضروا عقد هولاءكو على ابن الخليفة، فخرجوا من بغداد إلى هولاءكو، فأمر هولاءكو بضرب أعناقهم، ثم سد الجسر ودخل بايجو نوبن بمن معه إلى بغداد وبذلوا السيف فيها، واستمر القتل والنهب والسبي في بغداد بضعة وثلاثين يوماً؛ فلم ينج منهم إلا من اختفى.

ثم أمر هولاءكو بعد القتل، قبلوا ألف ألف وثمان مئة ألف وكسراً، وقال الذهبي - رحمه الله - في تاريخ الإسلام: والأصح أنهم بلغوا ثمان مئة ألف. ثم تودي بعد ذلك بالأمان، فظهر من كان اختفى وهم قليل من كثير. وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يبدنون السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً، وراح مع لطافتين أيضاً أمم لا يحصون كثرة، وذاق ابن العلقمي الهوان والذل من التتار ولم تطل أيامه، وقال ابن كثير في "لبداية والنهاية" في ترجمته: (ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدي التتار الذين مالهم وزال عنه ستر الله، وذاق الخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى. وقد رآته امرأة، وهو في الذل والهوان، وهو راكب في أيام التتار برذوناً مرسماً عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقضت إلى جانبه، وقالت له: يا ابن العلقمي، هكذا كان بنو العباس يعاملونك؟ فوقعت كلماتها في قلبه وانقطع في داره إلى أن مات كمدماً وغيبنة وضيقاً وقلة وذلة، في مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة، وله من العمر ثلاث وستون سنة، ودفن في قبور الروافض ليمكان قريب من مشهد الإمام موسى الكاظم بالكاظمية ببغداد، وقد سمع بأذنيه، ورأى بعينه من الإهانة من التتار والمسلمين ما لا يحصى ولا يوصف.



وحشية المغول بلا حدود ولا رحمة: تلال بل جبال من رؤوس المسلمين المقطوعة

وتولى بعده ولده الخبيث الوزارة لواسمه أبو الفضل محمد بن محمد، وكان أبو الفضل كاتباً منشئاً بليغاً معظماً في دولة أبيه، ثم أخذته الله أخذ القرى وهي ظالمة سريعاً، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

أسفاً على ما حلّ بالمستعصم
لابن الفرات فصار لابن العلقمي

يا فرقة الإسلام نوحوا وانذبوا
دست الوزارة كان قبل زمانه

قال الذهبي في تاريخ الإسلام وفيات تحت سنة ٦٥٦هـ: (وكان في قلبه غل على الإسلام أهله، فأخذ يكاتب التتار، ويتخذ عندهم يداً ليتمكن من اغراضه الملعونة. وهو الذي جراً هولاءكو وقوى عزمه على المجيء، وقرر معه لنفسه أموراً انعكست عليه، وندم حيث لا ينفع الندم، وبقي يركب كديشاً، فرائته امرأته فصاحت به: يا ابن العلقمي، أهكذا كنت تتركب في أيام أمير المؤمنين؟).

ثم ضرب هولاءكو عنق مقدم جيشه بليجو نوين: لأنه بلغه عنه من الوزير ابن العلقمي أنه كاتب الخليفة المستعصم لما كان بالجانب الغربي.

ولما تم أمر هولاءكو، طلب الخليفة وقتله خنقاً، وقيل: غم في سباط، وقيل جعله هو وولده في عدلين وأمر برقسهما حتى ماتا.

ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدوادار، والخدام إقبال الشراي صاحب الرباط بحرم مكة، والأستاذار مجي الدين بن الجوزي وولديه وسائر الأمراء الأكابر والحجّاب والأعيان. ويقال: إن هولاءكو حينما استحل بغداد، حبس الخليفة وأمر جنوده بوضع طويق من ذهب فيها كنوزها (التي ادخرها في قبه قصره)، فقال هولاءكو كل (يقصد بالذهب)، فردّ الخليفة: أيؤكل؟ فأجابه هولاءكو: لو أنفقت هذا على جنودك وشعبك لما كنت أنا هاهنا. والقصة مع ما فيها من حكمة، إلا أنها من تلفيق ماركو بولو: لأن هولاءكو والتتار كانوا عازمين على اكتساح الأرض (مما كان حكامها ظالمين أم عادلين).

وللتوثيق العربي، يقول ابن كثير في البداية والنهاية عن هولاءكو بعد تدميره بغداد، واحتجاز الخليفة عنه ليقرر ماذا يبت في أمره: (ثم عاد لهولاءكو إلى بغداد، وفي صحبته خوجة نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملائ من الرافضة وغيرهم من المناققين على هولاءكو أن يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك. وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاءكو أمر بقتله.

ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي. وكان النصير عند هولاءكو قد استنصحه في خدمته لما فتح قلاع "الألوت"، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا يُنسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي.

وانتخب هولاءكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاءكو وتهيب من قتل الخليفة هو عليه الوزير ذلك فقتلوه رفساً، وهو في جوالق: لثلا يقع على الأرض شيء من دمه؛ خوفاً من أن يؤخذ بنارده فيما قيل لهم، وقيل: بل حنق، ويقال: بل أغرق، قاله أعلم.

فياؤوا بإثمهم، وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلادهم، ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس في الأيبار وأماكن الحشوش، وقتي الوسخ، وكنوا كذلك أياماً لا يظهرون، (ج ٢٢، ص ٢٣٥).



صورة تخيلية من عصور أوروبا الوسطى. حسب رحلات ماركو بولو الذي ادعى أن هولاءكو (الليبار) سجن الخليفة المستعصم في غرفة مع كتوزة دون ماء ولا طعام. وقال له: (كل أموالك ما استطعت: لأنك كنت مغرماً بجمعها). وحسب المصادر العربية، فإن هولاءكو سجن الخليفة ثم قتله رحمه الله بعد أن لفته في بساطه، رفضاً بسبابك خيله.

شهادة خضرة لشاهد عدل مسلم شهد قتل الخليفة ونجا من القتل:

يوردها الذهبي في "تاريخ الإسلام"، تحت ترجمة المستعصم عام ٦٥٦هـ، ولخطورتها نوردها كاملة، وتعليقات الذهبي قبلها وبعدها: (قلت: وكان - المستعصم - يلعب بالحمام، ويهمل أمر الإسلام، وابن العلقمي يلعب به كيف أراد، ولا يطلعه على الأخبار. وإذا جاءته نصيحة في السرّ أطلع عليها ابن العلقمي ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً، فحكى جمال الدين سليمان بن عبد الله بن رطلين قال:

جاء هولاءو لأي: هولاءكو في نحو مئتي ألف نفس، ثم طلب الخليفة، فطلع ومعه القضاة والمدرسون والأعيان في نحو سبع مئة نفس، فلما وصلوا إلى الحربية، جاء الأمر بحضور الخليفة ومعه سبعة عشر نفساً، فاتفق أن أبي كان أحدهم، فحدثني أنهم ساقوا مع الخليفة، وأنزلوا من بقي عن خيلهم، وضربوا رقابهم، ووقع السيف في بغداد، فعمل القتل أربعين يوماً. وأنزلوا الخليفة في خيمة صغيرة، والسبعة عشر في خيمة، قال أبي: فكان الخليفة يحيي إلينا كل ليلة، ويقول: ادعوا لي. وقال: فاتفق أنه نزل على خيمته طائر، فطلبه هولاءو، وقال: أين عمل هذا الطائر؟ وأبشّر قال لك: ثم جرت له مجاورات معه ومع ابن الخليفة أبي بكر. ثم أمر بهما فأخرجا، ورفسوهما حتى ماتا، وأطلقوا السبعة عشر، وأعطوهم نشابة، فقتل منهم رجلاً وطلب الباقيون بيوتهم فوجدوها بلاقع، فأتوا المدرسة المقيثية، وقد كنت ظهرت فبقيت أسأل عن أبي، فدللت عليه، فأتيته وهو ورفاقه، فسلمت عليهم، فلم يعرفني أحد منهم، وقالوا: ما تريد؟ قلت: أريد فخر الدين بن رطلين. وقد عرفته، فالتفت إليّ، وقال: ما تريد منه؟ قلت: أنا ولده. فنظر إليّ وتحققتني، فلما عرفني بكى، وكان معي قليل سمسم فتركته بينهم. وأقمنا هناك إلى صفر، إلى أن رفع السيف، فأتينا دار فخر الدين أحمد بن الدماغي صاحب الديوان، وقد أراد ابن العلقمي أن يضربه، فقل هولاءكو: هذا يعرف أموال الخليفة وذخائره وأمواله، وهذا كان يتولاها. فقال: إذا كان الخليفة احتاره لنفسه، فانا أولى أن أوليه. وكتب له القرماني، وقال للوزير: لا تفعل شيئاً إلا بموافقتي.

ثم إن ابن العلقمي عمل على أن لا يُخطب بالجوامع، ولا تُصل الجماعة، وأن يبني مدرسة على مذهب الشيعة، ولم يحصل أملة، وفتحت الجوامع، وأقيمت الجماعات. وحدثني أبي فخر الدين، قال: كان قد مشى حال الخليفة بن يكون للتتار نصف دخل البلاد، وما بقي شيء أن يتم ذلك، وإنما الوزير ابن العلقمي قال: ما هذا مصلحة، والمصلحة قتله، وإلا ما يتم ملك العراق.

قلت: تُوَفِّي الخليفة في أواخر المحرم أو في صفر، وما أظنه ذهن، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وكان الأمر أعظم من أن يوجد مؤرخ لموته، أو موارٍ لجسده. وزاح تحت السيف أممٌ لا يحصيه إلا الله، فيقال: إنهم كثر من ألف ألف. واستغنت التتار إلى الأبد، وسبوا من النساء والولدان ما ضاق به الفضاء. وقد بينا ذلك في الحوادث. وقتل الخليفة خنقاً، وقيل: غموه في سباط حتى مات. والأشهر أنه رفس حتى خرجت روحه.

وحكى جمال الدين بن رطلين، عن أبيه أنه قال: أخذوا الخليفة ليقتلوه، وكان معه خادم يقال له: قرنفل، فألقى عليه نفسه يقيه من القتل، فقتلوا الخادم، وعادوا إلى رفس الخليفة حتى مات؛ وكانوا يسمونه الأبله.

وحدثني شيخنا ابن الدباهي، قال: لما بقي بين التتار وبين بغداد يومان، أعلم الخليفة حينئذ، فقال: عدلان يروحان يبصران إن كان هذا الخبر صحيحاً، ثم طلب والدي، فحضر إلى بين يديه، وطلب منه الرأي، وقال: كيف نعمل؟ فصاح والدي وقال: فأت الأمر كنتم صبرتم زاده، انتهى.

ويقول الذهبي في "تاريخ الإسلام" تحت أحداث سنة ٦٥٦هـ:

(اخيانة ابن العلقمي وأولى هولاءكو على العراق نوابه، وعزم ابن العلقمي على أن يحسن لهؤلاءكو أن يقيم ببغداد خليفة علويًا، فلم يتهيا ذلك له، وأطرحته التتار، وبقي معهم على صورة بعض الفلمان، ثم مات كمد رحمة الله، ولا خفف عنه.

لقتل ابن صلايا وسار هولاءكو قاصداً إلى أذربيجان، فنزل إليه بدر الدين صاحب الموصل، فآكرمه وردّه إلى الموصل، ونزل إليه تاج الدين بن صلايا فقتله، فقيل: إن صاحب الموصل كان في نفسه من ابن صلايا، فقتل لهؤلاءكو هذا شريف علوي، فربما تناول إلى الخلافة، وتقوم معه خلق؛ فلهذا قتله هولاءكو، ولم تطل لصاحب الموصل بعد ذلك حياة، انتهى.

وعادت بغداد بعد ما كانت آس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط أسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مئة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كعلوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه في أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعد ما كان يبرأ للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء.

وانقضت الخلافة من بغداد، وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا، قيل: إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر، وقيل غير ذلك، وكانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ٦٥٦هـ، ونزل هولاءكو بظاهر بغداد في عاشر المحرم، وبقي السيف يعمل فيها ٢٥ يوماً، وآخر جمعة خطب الخطيب ببغداد كانت الخطبة: (الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار... إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلاً، وإنا لله وإنا إليه راجعون).

عمل الخائن الخواجه نصير الدين الطوسي الرصد بمدينة مراغة في سنة ٦٥٧هـ، ونقل إليه شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد، وعمل دار حكمة، ورتب فيها فلاسفة، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة

دراهم. ودار طب، فيها للطبيب في اليوم درهمان. ومدرسة، لكل فقيه في اليوم درهم. ودار حديث، لكل محدث نصف درهم في اليوم.

وواكيت اللغة العربية، بحزن شديد، نكبة الإسلام، يسقط بغداد أم الدنيا وحاضرة خواضر العالم الإسلامي، فعمل الشعراء والعلماء قصائد في مرثي بغداد وأهلها، وعمل الشيخ تقي الدين إسماعيل بن عبد الله التوحي قصيدته المشهورة، وهي:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار
يا زائرين إلى الزوراء لا تغفروا
تاج الخلافة والريغ الذي شرفت
أضحى لعطف اليلى في ريعه أثر
يا نار قلبي من نار لحرب وعى
على الصليب على أعلى منابرها
وكم بدور على البدرية انخسفت
وكم ذخائر أضحت وهي شائعة
وكم حدود أقيمت من سيوفهم
وهم يساقون للموت الذي شهدوا
والله يعلم أن القوم أغفلهم
فأهملوا جانب الجبار، إذ غفلوا
يا للرجال بأحداث تحدثنا
من بعد أسر بني العباس كلهم
ما راق لي قط شيء بعد بينهم
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا
إن القيامة في بغداد قد وجدت
آل النبي وأهل العلم قد سبوا
ما كنت أمل أن أبقي وقد ذهبوا

فما وقوفك والأحباب قد ساروا
فما بذاك الحمى والدار ديار
ببه المعالم قد غناه إقفار
والدموع على الآثار آثار
شبت عليه ووافى الربيع إحصار
وقام بالأمر من يحويه زار
ولم يعد ليدور منه إبدال
من النهاب وقد حازته كفار
على الرقاب، وحطت فيه أوزار
النار يا رب من هذا ولا العار
ما كان من نعم قبيح إكثار
فجاءهم من جنود الكفر جبار
بما غدا فيه إعدار وإنذار
فلا أنار لوجه الصبح إسفار
إلا أحاديث أرويهما وأثار
سوق لمجد وقد بانوا وقد باروا
وحدها حين للإقبال إديار
فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
لكن أبي دون ما أختار أقدار

وقال غيره في فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد:

خلفت المنابر والأسرة منهم
فعلهم حتى الممات سلام

وقال سبط التعاويذي في دمار بغداد من أجل بقاء ابن العلقمي:

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم
ببقاء مولانا الوزير خراب

وهكذا، لم تمض إلا بضعة أسابيع حتى دخل التتار بغداد، وقتلوا كل من استطاعوا قتله من أهلها، وكان يحايا هذه المجزرة الجماعية ثمان مئة ألف إنسان، ولم ينج من الناس إلا أهل الدمة من اليهود والنصارى، وبعض التجار، ومن التجأ إلى دار الوزير ابن العلقمي، وامتألت بغداد بالجثث حتى صارت كالتلال والجبال في الطرقات،

وتعفت الأسيلاء، وتلوث الهواء؛ فانتشر الطاعون في بغداد، فمات منه خلق كثير. وكان كثير من الناس قد اختبئوا في الآبار وقنوات الأوساخ والنجاسات، فلما تودي في بغداد بالأمان، خرجوا كأنهم الموتى من قبورهم. يعرف الوالد ولده، ثم أخذهم الطاعون فالحقهم بمن سبقهم، فلما لله وأنا إليه راجعون.

وبعد سقوط بغداد، فوض الطاغية هولاءكو أمرها إلى الأمير (علي بهادر)، وجعل معه الوزير ابن العلقمي الذي كان يطمع في الملك، فأخزاه الله في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْثَرُ﴾ (فصلت: ١٦)، ولما لم يحصل له الملك، انقطع في داره فمات هما وكعداً، ثم تولى الوزارة بعده ولده الخبيث فأخذ الله سريعاً وألحقه بو لده، ثم قور هولاءكو مغادرة بغداد بعد أن صارت خراباً فخرج إلى أذربيجان، وبدأت استعداداته للمرحلة الثالثة من الحملة، وهي غزو سوريا وفلسطين ومصر.

التحالف الصليبي المغولي:

كان هولاءكو حفيد جنكيز خان معلناً دينه الشاماني (عبادة الشمس)، لكنه كان متسامحاً مع النصرانية؛ والسبب في ذلك أن أمه "سورغاخاتني - بيكي"، وزوجته المفصلة "دقور خاتون"، والعديد من معاونيه المقربين كانوا نصارى نسطوريين، بل إن واحداً من أهم جنرالاته هو القائد "كتبغاوتين"، كان نصرياً نسطورياً. صار التعاون العسكري بين المغول وبين تابعيهم النصاري الصليبيين متيناً وكبيراً في المدة ما بين ١٢٥٨م - ١٢٦٠م. تمكن جيش هولاءكو بمساندة قوات النصاري من البلاد الخاضعة له: بوهيمند الرابع ملك أنطاكية الصليبي، وهيثوم الأول ملك أرمينيا، ونصاري جورجيا، من التحطيم الكامل لاثنتين من أهم السلالات الإسلامية آنذاك: السلالة العباسية في بغداد، والأيوبية في سوريا.

وعلى الرغم من توغل جيوش المغول شرقي أوروبا والعالم الإسلامي، كان الصليبيون يأملون في التحالف مع المغول ضد العالم الإسلامي، وخضعت مملكة قليقيا بإرادتها للمغول في عام ١٢٤٧م، وقام "هيثوم" ملك أرمينيا الصغرى بزيارة "قاراقوروم" عاصمة المغول في عام ١٢٥٤م، (بعد أربع سنوات من إخفاق الحملة الصليبية السابعة). وأرسل لويس التاسع من عكا الكاهن الفرنسيسكاني "وليم أوف روبروك" إلى عاصمة المغول في عام ١٢٥٢م للتشاور، وكان وليم هذا يصحب لويس في مصر في أثناء حملته عليها. فقد كان من ضمن أهداف الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع إنشاء حلف صليبي - مغولي ضد العالم الإسلامي.

اجتاح المغول بغداد في عام ١٢٥٨م، عاصمة الخلافة الإسلامية ومركز العلوم والمعرفة في العالم الإسلامي، ودمروها، وأسقطوا معها الخلافة العباسية، وقتلوا أعداداً غفيرة من علمائها المسلمين، ودمروا المكتبات بما فيها من أعمال وإنجازات علمية لا تعوض، فانمحي بذلك جزء كبير من التراث الثقافي والعلمي للمسلمين. ومن ثم احتلوا بلاد الشام ودمروها.

بغداد؛ حاضرة العباسيين وعاصمتهم، جوهرة الإسلام، وواحدة من أعظم مدائن العالم وأكبرها قرابة ٣٠٠ سنة، سقطت في ١٥ شباط ١٢٥٨م، الحادثة التي تعدّ النكبة الكبرى في تاريخ الإسلام. كان نصاري جورجيا هم أول من صدع جدران المدينة، وكما يصفهم المؤرخ ستيفن رانسيمن: (كانوا من أشرس الناس في تحطيمها). وعندما استولى هولاءكو على المدينة، قام المغول بتدمير مبانيها، وحرقوا ما يجوارها، وذبحوا قرابة ٨٠٠ ألفاً من الرجال والنساء والأطفال على أقل تقدير. لكن بتدخل زوجة هولاءكو النسطورية النصرانية دقور خاتون، بقي على حياة السكان النصاري.

بالنسبة إلى النصارى الآسيويين، يُعد سقوط بغداد سبباً للانتهاج والاحتفال. صار (هولاكو وملكته دقوز خاتون) وكلاء الرب ضد أعداء النصارية، ووصف الزوجان المغوليان، من قبل المؤرخين الأرمن، على أنهما "قسطنطين وهيلين" الجدد بالنسبة إلى الكنيسة الأرمنية لقسطنطين هو أول إمبراطور روماني يعتنق النصارية مع زوجته هيلين. بل ظهر الزوجان المغوليان في صور وهما يمثلان "قسطنطين وهيلين". وأشار قسيس من الكنيسة الأرثوذكسية السريانية على أنهما "قسطنطين وهيلين"، وكتب عن هولاكو بأنه لا يُضاهي ملك الملوك هذا أحدًا في حكمته، وفي عقله الراجح، وفي أعماله الباهرة!!!



التحالف النصارى المغولي، "هولاكو وملكته دقوز خاتون" وهما مُصَوَّران باحتفاء على أنهما "قسطنطين وهيلين" الجدد، كما يظهران في إنجيل باللغة السريانية



تحت ظل جنكيز خان: زار الرئيس الأمريكي (هولاكو بوش) رئيس منغوليا المغولي (أولانباتار) في ٢٠٠٥/١١/٢١؛ لينسق أمور سقوط بغداد في ٢٠٠٣م. التاريخ يُعيد نفسه، فما أشبه اليوم بالبارحة! وهل يلام من يسمون الرئيس الأمريكي هولاكو-بوش.



الرئيس يوش في أثناء زيارته إلى متغوتيا (في ٢١/١١/٢٠٠٥م)،

وهو يلتقي بالممثلين المغول في أثناء أدائهم السينمائي لبعث تراث جنكيز خان

عين جالوت: المعركة المفصلية العالمية الكبرى، وفتاحة الانتصارات الإسلامية

كان مسار الأحداث التي زلزلت العالم الإسلامي يجري بسرعة منقطعة النظير، وحسب المسار العربية الموثقة للتاريخ الإسلامي كـ (البداية والنهاية) لابن كثير، و (النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة) لابن تفرج بردي، مطعمة بمقتطفات من المصادر العربية والغربية الأخرى، فإن مسار الأحداث هو كما يأتي:

سقوط الشام (ميفارقين، حلب، دمشق) وهروب أهاليها إلى مصر:

قدم رسول من ملك التتار تولى بن جنكيز خان إلى ملوك الإسلام: يدعوه إلى طاعته ويأمرهم بتخريب أسوار بلدانهم، وعنوان الكتاب: (من تأيب رب السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب قان قان). وقبل هولاكو خان، فقصده الشام بجنوده وعساكره، وقد امتعت عليه ميفارقين مدة سنة ونصف (ولم يسعها أحد من بلاد الشام)، فأرسل إليها ولده أشموط، فافتتحها قسراً، وأرسل ملكها المجاهد البطل الكامل بن الشهاب غازي بن العادل، فأرسله إلى أبيه وهو محاصر حلب فقتله بين يديه، واستتاب عليها بعض مماليك الأشرف (ملك حمص الذي أجبر للتعاون مع التتار)، وطوف برأس الكامل في البلاد. ودخلوا برأسه إلى دمشق، فنصب على باب القرايس البراني، ثم دفن بمسجد الرأس داخل باب القرايس الجواني، فنظم أبو شامة في ذلك قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده، وشبهه بالحسين في قتله مظلوماً ودفن رأسه عند رأسه.

بطل ميفارقين: أسطورة الشهيد الذي دوخ المغول:

خرج خفيد صلاح الدين الأيوبي، في زمن عز فيه الرجال: ليقاوم التتار على الرغم من خذلان المسلمين المجاورين له، إنه الملك الكامل الشهيد ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن السلطان الملك العادل أبي بكر محمد ابن أيوب. تملك ميفارقين عام ٦٤٥هـ عقيب وفاة والده، ودام في الملك سنين إلى أن جفل من التتار بعد أن كان يداريهم سنين، وقدم على الملك الناصر صلاح الدين يوسف بدمشق عام ٦٥٦هـ بعد سقوط بغداد، واستجده على التتار فوعده الناصر بالنجدة أدون أن يوفي بوعده، وآخر الأمر أنه رجع إلى بلاده وحصره التتار بها نحو سنين حتى استشهد بأيديهم - رحمه الله تعالى - عام ٦٥٨هـ.

لما وصلت الأنباء إلى الملك الكامل محمد بسقوط بغداد، أعد العدة للجهاد، ولما بلغ الأمر إلى هولاكو، أراد أن يقتل في ساعد الملك الكامل، فأرسل إليه رسولاً يوحي إليه بالاستسلام كغيره من الأمراء الأيوبيين، وكان

الرسول يكون نصرانياً عربياً اسمه "قسيس يعقوبي"، وذلك لأمرين؛ حتى يستطيع التفاهم مع الملك الكامل بلغته، ولأمر الثاني: لتوصيل رسالة غير مباشرة إلى الكامل أن النصارى مع هولاءكو. فوقع الكامل بين أرمينيا النصرانية المتحالفة مع التتار من الشرق، والكرج النصرانية في الشمال الشرقي، ومن الجنوب الشرقي التتار، إلا أن كل هذا لم يفت في ساعد الملك الكامل. ولكي يعلن الحرب على التتار، ولا يعطي فرصة لنفسه أو لمن معه بالتخاذل، فقد أقدم على قتل الرسول معلناً بذلك الحرب على التتار. لقصة التتار للدكتور راجب السرجاني.

يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء": (فحاصره عسكر هولاءكو نحواً من عشرين شهراً، حتى فني الناس جوعاً وباءً، وحتى لم يبق بالبلد سوى سبعين رجلاً فيما قيل، فحدثني الشيخ محمود بن عبد الكريم الفارقي، قال:

سار الكامل إلى قلاع بتواحي آمد فأخذها، ثم نقل إليها أهله، وكان أبي في خدمته، فرحل بنا إلى قلعة منها، فعبرت التتار علينا، فاستزلوا أهل الملك الكامل بالأمان من قلعة أخرى، وردوا بهم علينا، وأنا ضيبي مميّز، وحاصروا ميفارقين شهراً، فنزل عليهم الثلج، وهلك بعضهم، وكان الكامل يبرز إليهم ويقاثلهم، وينكي فيهم ضبابوه، ثم بنا عليهم سوراً بإزاء البلد، بأبرجة، ونفذت الأقوات، حتى كان الرجل يموت فيؤكل، ووقع فيهم أسوت، وفتر عنهم التتار وصابروهم، فخرج إليهم غلام أو أكثر وجلوا للتتار أمر البلد، فما صدقوا، ثم قربوا من السور وبقوا أياماً لا يجسرون على الهجوم، فدلى إليهم مملوك للكامل حبلاً فطلعوا إلى السور فبقوا أسبوعاً لا يجسرون، وبقي بالبلد نحو التسعين بعد الوف من الناس، فدخلت التتار دار الكامل وأمنوه. وأثوا به هولاءكو بلرها، فإذا هو يشرب الخمر، فتناول الكامل كأساً فأبى، وقال: هذا حرام، فقال لامراته: ناوليه أنت، فتناولته قنبي، وشتم وبصق - فيما قيل - في وجه هولاءكو. وكان الكامل ممن سار قبل ذلك ورأى القان الكبير، وفي اصطلاحهم، من رأى وجه القان لا يقتل، فلما واجه هولاءكو بهذا استشاط غضباً وقتله).

يقول الذهبي في "سير أعلام النبلاء": (كان شاباً، عاقلاً، شجاعاً، مهيباً، محسناً إلى رعيته، مجاهداً، غازياً، ديناً، تقياً، حميد الطريقة، وكان الكامل شديد البأس، قوي النفس، لم ينقهر للتتار، حتى إنهم أخذوا أولاده من حصنهم، وأثوه بهم إلى تحت سور ميفارقين، وكلّموه أن يسلم البلد بالأمان، فقال: ما لكم عندي إلا السيف).

يقول الصفي في كتابه "الوافي بالوفيات" عن الملك المظفر محمد بن غازي: (كان ملكاً جليلاً ديناً خيراً عالماً مهيباً شجاعاً، محسناً إلى الرعية، كثير التعمد والخشوع، لم يكن في بيته من يضاهيه. ومدحه الشعراء: لمواقفه المحمودّة وصموده في وجه التتار، فقالوا:

ابن غاز غزاً وجاهد قوماً	انخنوا في العراق والمشرقين
ظاهراً غالباً ومات شهيداً	بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه أن طيف بالرأس منه	قله أسوة برأس الحسين
وافق السبط في الشهادة	لقد حاز أجره مرثين
جمع الله حسن زين الشهيدين	على فتح تينك القلعتين
ثم واروا في مشهد الرأس ذاك	الرأس فاستعجبوا من الحالين
وارتجوا أنه يجيء لدى البعث	رفيق الحسين في الجنّتين

يقول الذهبي: طيف برأسه بدمشق بالطبول، وعلق على باب الفراديس، فلما انقلعوا، وجاء المظفر لقلعته دهن الأرماس.

أرسل هولاءكو في عام ٦٥٧هـ (بعد سقوط بغداد) إلى الملك الناصر صاحب دمشق يستدعيه إليه فأرسل إليه ولده العزيز وهو صغير ومعه هدايا كثيرة وتحف، فلم يحتفل به هولاءكو بل غضب على أبيه: إذ لم يقبل إليه بنفسه، وأخذ ابنه، وقال: أنا أسير إلى بلاده بنفسي، فانتزع الناصر لذلك، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ليحصنهم بها، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، ولا سيما لما بلغهم أن التتار قد قطعوا القرات، فسافروا كثير منهم إلى مصر في زمن الشتاء، فمات ناس كثير منهم ونهبوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولا بد من استشارة المفسد في الشام (كما في العراق) مع انتشار الظلم، لتستوجب غضب الله بتسليط الأعداء عليهم، ويصف الذهبي في "تاريخ الإسلام" مفسد دمشق تحت أحداث عام ٦٥٥هـ: (قال ابن حمويه بعد أن ترك الجندية وتصفوا في "تاريخه": ولما عاندي الدهر في أموري، وباعد سروري، وكدر مشاريبي، وعسر مآربي، وانقطعت الأرزاق، وانحل كيس الإنفاق، خرجت من مصر، فلما حلت بدمشق، مسقط رأسي، وجدتها وقد صوّح وأديها، وخلا من الأنيس تاديها، وارتفعت عنها البركات، وأحيط بها الظلم والظلمات. والأسواق كاسدة، والرعايا فاسدة. عدم ركبا، وظهert الحياتات وشغل المودف، وعلت المنكرات، وأحدثت من الرسوم ما لم يعهده، وحملوا أثقالاً مع أقوالهم، إن استغاثوا بالملك أجابهم بالضرب والرد، وإن استجدوا بالوزير عاملهم بالإعراض والصد، وإن سألوا الحاجب طلب الرشأ بلا حمد، إلى أن قال: لا يحضرهم أحد على مأثدة، ولا يرجع من عندهم بمأثدة. قوم بها أكلوا أخفوا كلامهم واستوثقوا من رتاج الباب والدار، يكذبون ويخلفون، ويفترون ويخلفون، وعلى حريم أصحابهم بالفاحشة يخلفون. قد قنع كل منهم بلومه، ولت ذنبه على خيشومه. قيل لوزيرهم: إنا نطيل الجلوس، فلو جعلت علامة لقيامنا، قال: إذا قلت، يا غلام، هات الغداء، هانصرفوا، وقال صاحب ديوانهم لقلامه: هات غدائي وأغلق الباب، فقال: بل أغلق الباب وأجيء بالطعام، قال: أنت أحذق مني، فأنت حر لوجه الله بعد موتك. وحضر شاعر مأثدة أكبر أمرائهم، قرمى لثمة للهر، فقال الأمير: لا تطعمها فإنها هرة خيرنا. ومن غرائب الظلم أن رجلاً جاء بحمل عسل، فأخذ للخوشخاناه، فطولب بمكس العسل، فقال: خذوا من تحت أيديكم، قالوا: ما نعرف ما تقول. فذهب بالبلل يبيعه، فأخذه أمير الإصطبل، وطولب بحقه في السوق، فقال: ادفعوا لي ثمنه وخذوا حقكم، قالوا: ما نعلم ما تقول. وحبسوه على مكسه. فكتب إلى أهله: انفذوا لي دراهم حتى أستفك روحي، فقد راح العسل والبلل، وأنا محبوس على المكس. ومما يناسب هذه الحكاية أن امرأة ذهب عنها حلبي بخمسة آلاف، فوجده منار يسوق الرحيه فردده عليها، فوهبته خمس مئة درهم، فتمنع وقال: إنما رددته لله، فالزمته فأخذ الدراهم. فسمع به الوالي فأحضره وأخذ منه الدراهم وضربه وقال: ليس ما جيت بالحلي إلى عندنا؟).

يقول الذهبي في "تاريخ الإسلام" تحت أحداث ٦٥٦هـ:

(اكتاب هولاءكو إلى صاحب الشام) وفيها جاءت رسل قاء أن من بلاد ما وراء النهر ورسل هولاءكو إلى صاحب الشام، فصوره كتاب هولاءكو:

"يعلم السلطان الملك الناصر - طلال بقاءه - أنه لما توجهنا إلى العراق وخرج إلينا جنودهم، فقتلناهم بعين الله تعالى، ثم خرج إلينا رؤساء البلد ومقدموها، فكان قصارى كلامهم سبباً لهلاك نفوسهم يستحق الإذلال فأعدمناهم أجمعين، وذلك بما قدمت أيديهم وبما كانوا يكسبون. وأما ما كان من صاحب البلدة، فإنه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عبوديتنا، فسألناه عن أشياء كاذبنا فيها، فاستحق الإعدام. وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً، أجب ملك البسيطة، ولا تقولن: قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات. ولقد بلغنا أن شذرات من العسكر التجأت إليك هاربة، وإلى جنبك لاأذنة،

ولنا البسيطان الثرى والماء)

(أين المفر ولا مفر لهاري)

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماها أرضاً، وطولها عرضاً، والسلام. ومن كتاب ثان: خدمة
ملك ناصر - طال عمره، أما بعد، فإننا فتحنا بغداد، واستأصلنا ملكها وملكها، وكان ظن وقد ضن بالأموال،
ولن يناهس في الرجال أن ملكه يبقى على ذلك الحال، وقد علا ذكره، ونما قدره، فحسب في الكمال بدوه،
(إذا تم أمر يدا نقصه) توقع زوالاً إذا قيل ثم)

نحن في طلب الازدياد، على ممر الآباد، فلا تكن كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، وأبد ما في نفسك، إما
عساك بمعرفة أو تسريح بإحسان. أجب ملك البسيطة تأمين شره، وتقل بره، واسع إليه برجالك وأموالك، ولا تعوق
جسولنا، والسلام.

لوصول فرسان من العراق إلى دمشق ووصل نحو خمس مئة فارس من عسكر العراق، ذكروا أن التتار خالوا
بينهم وبين بغداد، ثم جاء بعدهم نحو ثلاث مئة فارس إلى دمشق.

اشتداد الوباء بالشام واشتد الوباء بالشام في أثناء السنة، ومات خلق حتى لقد قيل: إنه خرج من حلب في يوم
واحد ألف وعشاً جنازة. وأما دمشق فكان فيها من المرض ما لا يحد ولا يوصف، واستغنى العطاريون، ونسدت
لأدوية، وعز الأطباء إلى الغاية، وبيع الفروج بدمشق بثلاثة دراهم، وبحلب بعشرة دراهم، ومبدأ الوباء في جمادى
الأولى لفساد الهواء بملحمة بغداد، انتهى

وعرض طاعون بالشام عقيب ما حدث في العراق، فطعن الناصر داود في جنبه (وهو الذي حرر القدس من
تتليبيين ثم أرجعها لهم، وهو الذي اعتقل الملك الصالح أيوب ثم أطلق سراحه)، قال ابن واصل: وكثر الطاعون
بالشام مع بعد مسافة بغداد. وحكى جالينوس أنه وقعت ملحمة في بلاد اليونان، فوقع الوباء بسببها في بلاد النوبة
مع بعد المسافة

قال ابن واصل: حكى لي عبد الله بن فضل أحد أئمة الناصر داود، قال: اشتد الوباء فتسخطنا، فقال لنا
الناصر: لا تفعلوا، فإنه لما وقع بعمواس زمن عمره قال بعض الناس: هذا رجز، فذكر الخبر بطولته، وأن معاذاً
قال: اللهم أدخل على آل معاذ منه أوفى نصيب، فمات معاذ وابنه، ثم ابتهل الناصر، وقال: اللهم اجعلنا منهم وارثين
ما رزقتهم ثم أصبح من الغد أو بعده مطعوناً، وقال ابن واصل: عمره نحو ثلاث وخمسين سنة، وكان قد استولى
عليه الشيب ستياً، كثيراً، رحمه الله لو هذا من تطهير الله له، غفر الله ذنبه.

تواترت الأخبار، في بداية ٦٥٨هـ، أن المغول بصحبة ملكهم هولاكو خان جازوا الفرات على جسور عملوها،
وصولوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة، وقد كان أرسل هولاكو يقول لأهل حلب: نحن إنما جئنا لقتال
الملك الناصر بدمشق، فاجعلوا لنا عندكم شحنة، فإن كانت النصر لنا فإلبلاد كلها في حكمنا، وإن كانت
علينا، فإن شئتم قبلتم الشحنة، وإن شئتم أطلقتموه. فاجابوه ما لك عندنا إلا السيف، فتعجب من ضعفهم
وجوابهم، فزحف حينئذ إليهم وأحاط بالبلد، وكان ما كان بقدر الله سبحانه، فحاصروها سبعة أيام ثم افتتحوها
بالأمان، ثم غدروا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ونهبوا الأموال، وسبوا النساء والأطفال،
وجرى عليهم قريب مما جرى على أهل بغداد، فجاسوا خلال الديار، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، فإننا لله وإننا إليه
راجعون.

وامتعت عليه القلعة شهراً ثم تسلموها بالأمان، وخرب أسوار البلد وأسوار القلعة، وبقيت حلب كأنها حمار
أجرب، وكان نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين وكان عاقلاً حازماً، لكنه لم يوافق الجيش على
قتال، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولما فتحت حلب أرسل صاحب حماه بمقاتلتها إلى هولاكو، فاستتاب عليها

رجلاً من المعجم يدعى أنه من ذرية خالد ابن الوليد يقال له: خسرو شاه، فخر ب أسوارها كمدينة حلب. (البداية والنهاية ج ١٣/ص ٢٥٤)

يقول عمر بن أحمد الحلبي، المعروف بابن النديم الذي قدم مصر لما جفل الناس من التترثم عام بعد خراب حلب إليها، فصُدع بما رأى، وقال قصيدته المحزنة (وتوفي بعد ذلك بالقاهرة ٦٦٠ هـ بعد أن أنعم الله على المسلمين في معركة عين جالوت) قال في حلب:

هو الدهر ما تبثيه كفّاك يُهدم	وإن رمت أنصافاً ليديه فتظلم
آباد ملوك القرس جمعاً وقيصراً	وأصمت لدى قرسانها منه أسهم
وأقنى بني أيوب مع كثرة جمعهم	وما منهم إلا عليك معظلم
وملك بني العباس زال، ولم يدع	لهم أثراً من بعدهم وهم هم
واعتابهم أضحت ثداس وعهداًها	تباس بأفواه الملوك وتلثه
وعن حلب ما شئت قل من عجائب	أحل بها يا صاح، إن كنت تعلم
فيا لك من يوم شديد لغامه	قد أصبحت فيه المساجد تهدد
وقد درست تلك المدارس وارتفعت	مصاحفها فوق الثرى وهي ضخم
ولكنه ما لله في ذا مثليته	فيقعل فيها ما يشاء ويحكم

ارسل هولاءكو، وهو نازل على حلب جيشاً مع أمير من كبار دولته يقال له كتيبانوين، فوردوا دمشق في آخر صفر فأخذوها سريعاً من غير مناعة ولا مدافع، بل تلقاهم كبارها بالرحب والسعة، وقد كتب هولاءكو أمناً لأهل البلد، فقرئ بالميدان الأخضر وتؤدى به في البلد، فأمن الناس على وجل من الغدر، كما فعل أهل حلب، هذا والقلعة ممتعة مستورة، وفي أعاليها المجانيق منصوبة، والحال شديدة، فأحضرت التتار منجنيق يحمل على عجل والخيول تجرها، وهم راكبون على الخيل وأسلحتهم على أبقار كثيرة، فنصب المجانيق على القلعة من غربيها، وخرّبوا حيطاناً كثيرة، وأخذوا حجارتها، ورموا بها القلعة رمياً متواتراً كالطمر المتدارك، فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتها وتداعت، فأجابهم متولّوها في آخر ذلك النهار للعصانة، ففتحوها وخرّبوا كل يدنة فيها، وأعالي يروجها، وذلك في نصف جمادى الأولى من هذه السنة، وقتلوا المتولي بها بدر الدين بن قراجا، وهبّوها جمال الدين بن الصيرفي الحلبي، وسلموا البلد والقلعة إلى أمير منهم يقال له: إبل سيان، وكان - لعنه الله - معظماً لدين النصاري، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم، فعظمهم جداً، وزار كنائسهم، فصارت لهم دولة وصولية بسمية.

وذهب طائفة من النصاري إلى هولاءكو، وأخذوا معهم هدايا وتحفاً، وقدموا من عنده، ومعهم أمال فرمان من جهته، ودخلوا من باب توما، ومعهم صليب منضوب يحملونه على رؤوس الناس، وهم ينادون بشعارهم، ويقولون: (ظهر الدين الصحيح دين المسيح)، ويدعون دين الإسلام وأهله، ومعهم أوالي فيها خمر لا يمرون على باب مسجد إلا رشوا عنده خمرأ، وقماقم ممثلة خمرأ يرشون منها على وجوه الناس وثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأوقّة والأسواق أن يقوم لصليبيهم.

ورحل الملك الناصر صلاح الدين يوسف لأيوبي (باسم جده صلاح الدين، لكنّه اسم هذا دون سماءه) ملك دمشق آنذاك إلى الديار المصرية جافلاً من التتار، وكان ضعيف الهمّة غير ثابت الرأي، ولما تحقق الناصر بحركة التتار، رحل إلى "برزة" شمالي دمشق ونزل بها بعساكره، واجتمع إليه أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمطوعة، فلم يعجب الناصر حاله؛ لتخوفه لما رأى من تحاذل عسكره، وعلم أنه إذا لاقى التتار لن يثبت

عسكره لهم لكثرتهم ولقوتهم، فإن هولاء كانوا خلق لا يحضهم إلا الله تعالى من المغول والكرج والعجم وغيرهم، وأما هولاء كانوا فإنه مازال يأخذ بلداً بعد أخرى إلى أن استولى على حلب والشام وأضمحل أمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعد أمور ووقائع وقعت له وانفل عنه أصحابه. فلما وقع ذلك هارقه الأمير بيبرس اليقذاري إلى مصر (انظر نهاية الناصر يوسف تحت عين جالوت).

السلطان المظفر قطز: الرجل المناسب للمقام المناسب وللوقت المناسب

وقدم القاضي الوزير كمال الدين عمر بن أبي جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولاً من صاحب دمشق الناصر بن العزيز، يستجد المصريين على قتال التتار، وأنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام، وقد استولوا على بلاد الجزيرة وغيرها. واستفحل أمر قطز بديار مصر، وصار هو المشار إليه فيها، لصغر الملك المنصور على وكثرة حواشي قطز، ثم تحقق قطز مجيء التتار إلى البلاد الشامية، وعلم أنه لا بد من خروجه من الديار المصرية بالعساكر للذب عن المسلمين، فرأى أنه لا يقع له ذلك، فإن الآراء مغولة لصغر السلطان واختلاف الكلمة.

فجمع قطز كمال الدين بن العديم الحنفي وغيره من الأعيان والأمراء بالديار المصرية وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد وينتصب للجهاد في التتار، وبأن عذر قطز الذي اعتذر به إلى الفقهاء والقضاة وإلى ابن العديم، حين قال: (لا بد لأس من سلطان قاهر يقاتل عن المسلمين عدوهم، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة).

فأجابه الجميع: ليس لها غيرك!

وخلع الملك المنصور في الحال من الملك، وبويع الأمير قطز ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز. وحلف قطز لنفسه وتم أمره، وذلك في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ؛ ولهذا قبض الأمير سيف الدين قطز على ابن أستاذه أبيك: نور الدين علي الملقب بالمنصور (البالغ من العمر ١٥ سنة)، واعتقله مع والدته بالدور السلطانية من قلعة الجبل. فلما مسكه، سيره مع أمه وأبيه وأخوته إلى بلاد الإشكري، وتسلطن هو، وسمى نفسه بالملك المظفر. وكفى هذا من رحمة الله بالمسلمين، فإن الله جعل على يديه كسر التتار (وسيتأتي بيانه إن شاء الله تعالى).

ولم يكن قطز أصلاً من الرقيق. حكى الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه قال: كان قطز في بيت ابن الزعيم بدمشق في القصعين، فصر به أستاذه فيكي، ولم يأكل شيئاً يومه، ثم ركب أستاذه للخدمة وأمر أقرأش أن يترضاه ويطلععه، قال: فحدثني الحاج علي القرأش، قال: فجننته، وقلت: ما هذا البكاء من لملسة (أي لطمه)، فقال: إنما بكائي من لعنة أبي وجدي وهم خير منه، فقلت: من أبوك؟ واحد كافر! فقال: والله، ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود ابن محمود، ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكته وترضيته. وتقلت به أحوال إلى أن تملك مصر، ولما تملك أحسن إلى الحاج علي القرأش المذكور وأعطاه خمس مئة دينار وعمل له راقياً.

وعن حسام الدين البركتخاني، قال: تسلطن قطز وتملك الديار المصرية وبكسر التتار. قال تاج الدين ابن كثير: فبقيت متعجباً من حديثه، وقلت له: أيش هذا القول، ومن أين لك هذا؟ قال: والله هذا قطز خشداشي، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كثير، فكنت أسرح رأسه، على لني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلساً أو صفيغته، ثم قلت في أثناء ذلك: والله، ما أشتهي إلا أن الله يرزقني امرأة خمسين فارساً، فقال لي: طيب قلبك، أنا أعطيك امرأة خمسين فارساً فصفغته، وقلت: أنت تعطيني امرأة خمسين! قال: نعم، فصفغته، فقال لي: والله علة! أيش يلزم لك إلا امرأة خمسين فارساً، أنا والله أعطيك. قلت:

ويلك! كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت. قلت: ويلك أنت مجنون! أنت يملكك تملك الديار المصرية، قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام، وقال لي: «أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار»، وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه، قال: فسكت، وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب، قال تاج الدين: فلما قال لي هذا، قلت له: قد وردت الأخبار بأنه تسلطن. قال لي: والله وهو يكسر التتار.

قال تاج الدين: فرأيت حسام الدين البركتخاني - الحاكلي ذلك بالديار المصرية - بعد كسر التتار فسلم علي، وقال: يا مولاي تاج الدين، تذكر ما قلت لك في الوقت السلافي. قلت: نعم، قال: والله، عندما عاد الملك الناصر من قطيا دخلت الديار المصرية فأعطاني إمرة خمسين فارساً كما قال لا زائد على ذلك.

وحكى عز الدين محمد بن أبي الهيجاء: أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي قال: كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس - رحمهما الله تعالى - في حال الصبا كثيراً ما تكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا منجماً في بعض الطريق بالديار المصرية فقال له الملك المظفر قطز: أبصر نجمي، فسر به بالسر وحسب، وقال: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار، فسرنا نهرًا به، ثم قال له الملك الظاهر بيبرس: أبصر نجمي، فقال: وأنت أيضاً تملك الديار المصرية وغيرها فتزايد استهزاؤنا به، ثم قال لي: لا بد أن تبصر نجمك، فقلت له: أبصر لي نجمي، فحسب وقال: أنت تخلص لك إمرة مئة فارس يعطيك هذا، وأشار إلى الملك الظاهر، فاتفق أن وقع الأمر كما قال، ولم يخرم منه شيء. وهذا من عجيب الاتفاق.

يقول الإمام الذهبي في ترجمة قطز بن عبد الله في "تاريخ الإسلام" تحت وفيات عام ٦٥٨هـ: (قطز بن عبد الله: السلطان الشهيد الملك المظفر، سيف الدين المعزي، كان أكبر مهاليك المعز أيك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً، حازماً، حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة، حكى شمس الدين بن الجزري في "تاريخه"، عن أبيه قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القضاة، فضربه أستاذة فيكس، ولم يأكل شيئاً يومه، ثم ركب أستاذة للخدمة، وأمر الفرس أن يترضاه ويطعمه، قال: فحدثني الحاج علي الفرائش، قال: جئته فقلت: ما هذا البكاء، من لطمشة؟ فقال: إنم بكائي من لعنته أبي وجدي، وهم خير منه. فقلت: من أبولاء؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن مودود، ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكت وترضيت به الأحوال إلى أن تملك، وثا تملك الشام أحسن إلى الحاج علي الفرائش، وأعطاه خمس مئة دينار، وعمل له راتياً. قلت: وكان مدير دولة أستاذة الملك المنصور علي بن المعز، فلما دهم العدو الشام رأى أن الوقت يحتاج إلى سلطان مهيب كامل الرجولية، فعزل الصبي من الملك وتسلطن، وتم له ذلك في أواخر سبع وخمسين، ثم لم يلب ريقه، ولا تهنى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار، فتجهز للجهاد وشرع في أهبة الغزو، والتف عليه عسكر الشام وباعوه، فسار بالجيوش في أثل رمضان لقصد الشام، ونصر الإسلام، فعمل المصاف مع التتار، وعليهم كتيفاً على عين جالوت، فتصره الله تعالى، وقتل مقدم التتار.

قال الشيخ قطب الدين: حكى عنه أنه قُتل جواده يومئذ، ولم يصادف أحداً من الوشاقية، فبقي أجلاً، فترد بعض الأمراء الشجعان، فترجل وقدم له حصانه، فامتنع وقال: ما كنت لأمتع المسلمين الانتفاع بك في عدا الوقت، ثم تلاحت الوشاقية إليه، حدثني أبي أحمد أن الملك قطز لما رأى انكشافاً في ميسرته، رمى الخوة عن رأسه وحمل وقال: (وا دين محمد)، فكان النصر.

قال: وكان شاباً أشقر، كبير اللحية. قلت: ثم جهز الأمير ركن الدين بيبرس، أعني الملك الظاهر، في آفقية التتار، ووعده بنياية حلب، فساق وراءهم إلى أن طردوهم عن الشام، ثم إنه أنشئ عزمه على إعطائه حلب، وولاهها

لعلاء الدين بن صاحب الموصل، فتأثر ركن الدين من ذلك، ودخل الملك المنصور دمشق، فأحسن إلى الرعية، وأحبوه حباً زائداً، ثم استناب على البلد علم الدين سنجر الحلبي، ورجع بعد شهر إلى مصر، فقتل بين الغرابي والصالحية في آخر الرمل، ودفن بالقصير).

وقال ابن الجوزي في "تاريخه": (حدثني أبي قال: حدثني أبو بكر بن النزيه الإسعدي والزكي إبراهيم الحنبلي أستاذ الفارس أقطايا قال: كنا عند سيف الدين قطر لما تسلطن أستاذ المعز، وقد حضر عنده منجم مغربي، فصرف أكثر علماته، فأردنا القيام، فأمرنا بالنعوذ، ثم أمر المنجم فضرب الرمل، ثم قال: اضرب لمن يملك بعد أستاذي، ومن يكسر القنار، فضرب، وبقي زماناً يحسب، وقال: يا خوند، يطلع معي خمس حروف بلا نقط ابن خمس حروف بلا نقط، فقال: لم لا تقول محمود بن ممدود، فقال: يا خوند، لا يقع غير هذا الاسم، فقال: أت هو، وأنا أكسرهم وأخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فتعجبنا من كلامه وقلنا: إن شاء الله يكون هذا يا خوند، فقال: اكتموا هذا، وأعطى المنجم ثلاث مئة درهم، انتهى).



غارات المغول العدوانية عام ١٢٦٠م على أرض المشرق.

أدت انتصارات المغول المبكرة على حلب ودمشق إلى هجمات صغيرة على أهداف ثانوية، مثل بعلبك، والصبيبة، وعجلون. بالإضافة إلى غارات على المدن الفلسطينية، وربما شملت القدس أيضاً. وبلغت غارات التتار إلى غزة وبلد الخليل عليه السلام، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والصبيان، واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً.

العدل المالي والاقتصادي أساس النصر والتمكين:

كان للبي كك وللخلفاء الراشدين من بعده، سياسة العدل في المال والغنائم، فلا تكاد الأموال والغنائم تصل، حتى يوزعونها كلها في الحال، بل لا يهتأ لهم بال ولا يناموا براحة إلا والمال كله قد توزع على الرجال، فلا يملكون ولا يفتنون بالمال، لكنهم كسبوا قلوب الرجال بهذا العدل في توزيع المال، فكان الرجال يقاتلون بأرواحهم عند لقاء العدو، وكانت الانتصارات من الله، فجاء من بعدهم من لا هم له إلا جمع المال، والاعتناء به على حساب الرجال، فكسبوا عداوة قلوب الرجال، الذين خذلوهم عند لقاء العدو الذي استولى بدوره على المال كله، وبذلك أضاعوا المال والرجال والبلاد، فالعدل المالي لا يقلل عن الجهاد بوصفه سبباً أساسياً للنصر والتمكين، وهكذا كان نور لدين محمود القائد الزاهد، ففتح الله عليه، وهكذا كان صلاح الدين القائد الزاهد، ففتح الله عليه.

والتحضير لمعركة مصيرية مع المغول لا يتسع معه مال الأمير ولا يقني عنه؛ لأنها معركة الوجود والأرض والعرض. وبعد وصول قطز إلى سدة حكم مصر، وظهر خطر التتار، ووصول أخبار فظائعهم ورسهم المهددين والاستعداد للملاقاة التتار الزاحفين، أمر قطز بجمع الأموال للإعداد للحرب، ووقف العلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام أمام الأمراء وقادة الجند، فقررُوا ألا يؤخذ من الناس شيء إلا إذا كان بيت المال فارغاً، وبعدما يخرج الأمراء والتجار وأغنياء الناس من أموالهم وذهبهم حتى يتساوى الجميع، فقال العز بن عبد السلام:

(إذا طرقت العدو البلاد، وجب على العالم كله قتالهم (أي: العالم الإسلامي)، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به على جهازهم (أي: فوق الزكاة) بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء (وهذا هو الشرط الأول)، وأن تبقي ما لكم من الممتلكات والآلات (أي: يبيع الحكام والأمراء والوزراء ما يمتلكون)، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامّة (هذا هو الشرط الثاني)، وأما أخذ الأموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة، فلا!!!) بمعنى آخر: إذا لم يبق في بيت المال شيء، ثم أنفقت أموال الحوائص المذهبة وغيرها من الفضة والزينة، وتساويتم أنتم والعامّة في الملابس، سوى آلات الحرب حيث لم يبق للجندى سوى فرسه التي يركبها، ساء للحاكم حينئذ أخذ شيء من أموال الناس (أي: فرض ضرائب) في دفع الأعداء عنهم؛ لأنه إذا دهم العدو البلاد، وجب على الناس كافة دفعهم بأموالهم وأنفسهم.

على الرغم من أن الفتوى عجيبة في جرأتها، فإن قطز كان أول من استجاب لها بنفسه، فباع كل ما يملك وأمر الوزراء والأمراء أن يفعلوا ذلك؛ فأنصاع الجميع. وتم تجهيز الجيش المسلم بالطريقة الشرعية، واكتشف المسلمون أن مصر غنية جداً.

وحصلت مشكلة شبيهة حين نودي بالنفير العام إلى الغزو في سبيل الله تعالى، اجتمع عند الملك قطز من عساكر مصر نحو أربعين ألفاً، وبرزت مشكلة جمع الأموال اللازمة لهذا الجهاد، فعقد مجلساً للعلماء على رأسه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واستشاره السلطان في شأن المال، فقال الإمام كلاماً عظيماً لا يصدر إلا ممن وثق بنصر الله تعالى لعبيده، فقال: (أخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصير)، فقال السلطان: (إن المال في خزائني قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار)، فقال له الإمام ابن عبد السلام: (إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلي الحرام اتخاذهم، وضربته سكة وتقداً، وفرقتهم في الجيش ولم يبق بكفائتهم، ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك، فلا)، فأحضر السلطان والعسكر كلهم ما عندهم من ذلك بحضرة الشيخ، وكانت له عندهم عظمة، وله في أنفسهم مهابة، إذ لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا ما قاله.

وكان حين سار من مصر في خدمته خلق من كبار الأمراء البحرية وغيرهم ومعه المنصور صاحب حماء، وجماعة من أبناء الملوك، فأرسل قطز إلى صاحب حماء يقول له: (لا تتعنى في مد سماط في هذه الأيام، وليكن مع الجندي لحمه يأكلها، والعجل العجل)، وكان اجتماعه مع عدوه كما ذكرنا في العشر الأخير من رمضان يوم الجمعة، وهذه بشارة عظيمة، فإن وقعة بدر كانت يوم الجمعة في رمضان، وكان فيها نصر الإسلام.

توحيد العباد والبلاد فوق المصالح الشخصية:

لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب، وملك بعده ابنه الملك المعظم توران شاه وقتل، وأجمعوا على الأمير عز الدين أيبك التركماني، وولوه الأتابكية ثم استقل بالملك. كان مقدم المماليك الصالحية البحرية أيام الملك المعز أيبك هو فارس الدين أقطاي الجمدار، وكان جسوراً شرساً وفيه كبرياء وجبروت، وكان ينظر للملك المعز أيبك باحتقار، وتعله طمع بالملك. ثم قال للملك المعز أيبك: إنه يريد الزواج بابنة ملوك، ولا بد من السكن في قلعة الجبل

لحوتها من يات الملوك ولا يليق سكنها باليد، فاستشعر الملك المعز منه بما عزم عليه، وأخذ يدبر أمره وعمل على قتله. وكان المظفر سيف الدين قطز أخص مماليك الملك المعز وأقربهم إليه وأوثقهم عنده، وهو الذي قتل الأمير فارس الدين قطاي سنة ٦٥١هـ.

ركب الملك الظاهر بيبرس وأتباع أقطاي من المماليك البحرية الصالحية، وقصدوا قلعة الجبل، فلما لم ينالوا مقصودهم، خرجوا من القاهرة، مجاهرين بالعداوة للملك المعز أبيك التركماني، ومهاجرين إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام. وهم: الملك الظاهر بيبرس، وسيف الدين بلبان الرشيدي، وعز الدين أزدمل السيفي، وشمس الدين سنقر الرومي، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري الشمسي، وسيف الدين علاءون الألفي، وسيف الدين بلبان المستعرب وغيرهم. فلما شاركوا دمشق، سار إليهم الملك الناصر طيب قلوبهم، فبعثوا فخر الدين إياز المقرئ يستخلفه لهم، فحلف الناصر لهم، ودخلوا دمشق في العشر الأخير من شهر رمضان سنة ٦٥٢هـ، فأكرمهم الملك الناصر صلاح الدين وأطلق للملك الظاهر بيبرس ثلاثين ألف درهم وثلاثة قطر بفال وثلاثة قطر جمال وملبوساً، وفرق في بقية الجماعة الأموال والخلع على قدر مراتبهم.

وداموا على ذلك حتى قبض الأمير قطز على ابن أستاذه الملك المنصور علي، وتسلطن وتلقب بالملك المظفر قطز، شرع بيبرس يحرض الملك الناصر على التوجه إلى الديار المصرية ليملكها فلم يحبه، فكلمه بيبرس في أن يقدمه على أربعة آلاف فارس أو يقدم عليهم غيره ويتوجه بها إلى شط الفرات؛ لينتفع التتار من العبور إلى الشام، فلم يمكنه الملك الصالح إسماعيل لباطن كان له مع التتار (جزاه الله بما يستحق)!

بينما كان سلطان ديار مصر الملك المظفر سيف الدين قطز، (مملوك المعز أبيك التركماني) في بداية ٦٥٨هـ في حرب مع سلطان دمشق وحلب الملك الناصر ابن العزيز بن الظاهر، وسلطان الكرك والشوبك الملك المغيث بن عادل بن الكامل، ومعهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد عزموا على قتال المصريين، وأخذ مصر عنهم وبينما الناس على هذه الحال، تواترت الأخبار بقصد التتار بلاد الشام، إذ دخل جيش المغول صحبة ملكهم هولاكو خان، وجازوا الفرات على جسر عملوها، ووصلوا إلى حلب في ثاني صفر من هذه السنة. تغيرت الأولويات في خضم الأحداث من الصراع الداخلي إلى ضرورة جهاد التتار.

ثم حدث أن سلطان الشام الناصر في بداية السنة وهو مقيم في وطاء برزة، ومعه جيوش كثيرة من الأمراء وأبناء الملوك، وجحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب، وغيرهم، ليناجزوا التتار إن قدموا عليهم، وكان في جملة من معه الأمير بيبرس البندقداري في جماعة من البحرية، ولكن الكلمة بين الجيوش مختلفة غير موثقة، لذلك لما يريد الله عز وجل، وكان الناصر ضعيفاً عن مقاومة المغول، فأفرض ذلك الجمع، ولم يسر لا هو ولا هم، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فلما وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداري إلى مصر. (البداية والنهاية ج ١٤/ ص ٢٥١).

فاستمر بيبرس عند الناصر إلى سنة ٦٥٨هـ، ففارقه بمن معه وقصد الشهرزورية وتزوج منهم، ثم أرسل إلى الملك المظفر قطز من استخلفه له فخلف قطز، وقد عزم طائفة من الأمراء على خلع الناصر وسجنه ومبايعه أخيه الملك الظاهر علي، فلما عرف الناصر ذلك، هرب إلى القلعة وتفرقت العساكر شذراً منقطعاً، وفارقه الأمير ركن الدين بيبرس إلى مصر وساق في أصحابه المماليك البحرية إلى ناحية غزة، فاستدعاه الملك المظفر قطز إليه واستقدمه عليه، وأقطعته قلوب، وأنزله بدار الوزارة، وعظم شأنه لديه (وإنما كان ختفه على يديه).

ودخل بيبرس إلى القاهرة في يوم السبت ٢٢ شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، فركب الملك المظفر قطز للقائه، وأنزله في دار الوزارة وأقطعته قسبة قلوب، فلم تطل مدته بالقاهرة، وتهاى الملك المظفر قطز لقتال التتار، وسير بيبرس هذا في عسكر أمامه كالحاليش (مقدم الجيش) ليتجسس أخبار التتار، فكان أول ما وقعت عينه عليهم ماوشهم بالقتال في غزة (انظر فيما سيأتي).

وتوجه الملك الناصر نحو الديار المصرية، ونزل العريش ثم قطيا بعد أن تمزق عسكره عنه، وتوجه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأتقال.

فلما وصل الناصر إلى قطيا، عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفر صاحب مصر، ونزل بوانج موسى ثم نزل بركة زماء، فدخل الجاسوس حسين الكردي انطربادار التتار عليه، فكيسه التتار بها وهو في خواصه وقيل من مماليكه، فاستأمن الناصر من التتار وتوجه إليهم، فلما وصل إليهم، احتفظوا به وبقي معهم في دُلّ وهوان إلى أن قتل جاء في الأثر: (إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني).

رسالة المغول إلى سلطان مصر، وجوابه:

بينما كان قطر بعد الجيش والشعب للقاء التتار، وصل رسل هولاء يحملون رسالة تهديد لقطر جاء فيها: (بسم إله السماء الواجب حقه، الذي ملكنا أرضه، وسلطانا على خلقه... الذي يعلم به الملك المنحصر الذي هو من جنس المماليك) صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتائبها وعمالها، وبأديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها... أنا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطانا على من حل به غيظه... فكم يجمع الأمصار معتبر. وعن غرمانا مزدجر... فاعتظوا بغيركم. وسلموا إلينا أمركم... قبل أن يتكشف إعطاء، ويعود عليكم الخطأ... فنحن ما نرحم من يكي، ولا ترق لمن اشتكى... فتحنا البلاد، وظهرنا الأرض من الفساد... فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب... فأي أرض تأويكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ وأي ذلك ترى؟ ولنا الماء والثرى؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص: فحيولنا سوايق، وسيوفنا صواعق، ورماحنا خواق، وسهامنا لواحق، وقلوبنا كالجهال، وعديتنا كالرمال.

فالحصون لدينا لا تمنع، والجيش لقتالنا لا تقنع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، لأنكم أكثتم الحرام، وتعاضمتم عن رد السلام، وخنتم الأيمان، وقشاً فيكم العقوق والعصيان... فابشروا بالمدلة والهوان ﴿قَالِيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهَوْنِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠)، ﴿وَسِعَ الْعَيْنَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٧٧)... وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة... وقد سلطنا عليكم من يهد الأمور المديرة، والأحكام المقدرة... فكثيركم عندنا قليل. وعزيزكم لدينا ذليل، وبغير المدلة ما ملوكم علينا من سبيل... فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا ردّ الجواب... قبل أن تضرم الحرب نارها، وتوزي شرارها... فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كتاباً ولا حرزاً، إذ أنكم رماحنا أزاً... وتدهون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، وعلى عروشها خاوية... فقد أنصفتناكم، إذ أرسلنا إليكم، ومننا برسالتنا عليكم).

جمع قطر القادة والمستشارين، وأطلعهم على الرسالة، وكان من رأي بعض القادة الاستسلام لتتار وتجنب ويلات الحرب، فما كان من قطر إلا أن قال:

(أنا ألقى التتار بنفسي، يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للقرابة كرهون، وأنا متوجه، فمن أختار الجهاد يصعبي، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته، وإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين عن القتال).

فتحمس القواد والأمراء لرؤية قائدهم يقرر الخروج لمحاربة التتار بنفسه، بدلاً من أن يرسل جيشاً يبقى هو ثم وقف يخاطب الأمراء وهو يبكي ويقول: (يا أمراء المسلمين، من للإسلام إن لم تكن نحن). فقام الأمراء يعلنون موافقتهم على الجهاد، وعلى مواجهة التتار مهما كان الثمن.

وهنا قام قطز بقطع أعناق الرسل الأربع الذين أرسلهم إليه هولاكو بالرسالة التهديدية، وعلق رؤوسهم على باب زويلة في القاهرة. وأرسل الرسل في الديار المصرية تنادي بالجهاد في سبيل الله ووجوبه وفضائله، وكان العالم الرباني العامل العز بن عبد السلام ينادي في الناس بنفسه، فهب نضر كثير ليكونوا في قلب جيش المسلمين وميسرته، أما القوات النظامية من المماليك، فكانت الميمنة واختبأت بقيتها خلف التلال لتحسم المعركة.

ولكن جحافل المغول في أثناء اجتياح هولاكو الشام (وهو الوقت الذي أرسل وسائله إلى سلطان مصر) كان يتجاوز ٣٠٠ ألف مقاتل مغولي؛ أي: أكثر بـ ١٥ مرة من جيش المماليك البالغ تعداد ٢٠ ألفاً؛ أي: إن الكفة سترجح حتماً لصالح المغول في أي معركة مع ممالك مصر.

ثم إن الشريط الساحلي الفلسطيني كان بيد الصليبيين الذين كانوا معروفين بتحالفهم مع المغول (كما في سقوط بغداد ودمشق)، وهذا يزيد الطين بلة في تعقيد موقف المسلمين. وهنا تتدخل العناية الإلهية، حين تصدق النبأ مع أنه الناصر القاهرة فوق عباده، مالك الملك والملوك والملوك، وسدّل الجبابرة، وكاسر الأكاسرة، وحافظ القيصرة.



مخطوطة فارسية من القرن الرابع عشر تظهر جنكيز خان مع ثلاثة من أولاده الأربعة. ابنه الأصغر اسمه تولي (أبو ساتغى، وهولاكو)، كان موت ساتغى بداية ١٢٦٠م هو الذي دفع هولاكو إلى سحب قواته، تاركاً قوة مغولية أصغر كثيراً من جيشه لتتقدم إلى مصر.

انسحاب هولاكو من بلاد الشام، ونيابته للجنرال كتيغا نونين؛ ولكن قبل أن تتقدم جحافل المغول نحو مصر، كان عليهم (بحكمة الله وتقديره) أن ينسحبوا؛ بسبب الصراع الداخلي على السلطة ورئاسة إمبراطورية المغول الكبرى، وكان هولاكو يطمع فيها. فانسحب هولاكو بمعظم قواته، تاركاً قوة متوسطة الحجم قوامه ٢٠ ألفاً، بقيادة جنرال له المحنك كتيغا نونين لإدارة بلاد الشام التي استولوا عليها. وكان كتيغا نونين قد اشترك في تدمير بغداد، وفي الاستيلاء على دمشق.

يقول ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج ١٢/ص ٢٦٣): (معنى نونين: أمير عشرة آلاف، وكان هذا الخبيث قد فتح لأستاذه هولاكو من أقصى بلاد العجم إلى الشام، وقد أدرك جنكيز خان جد هولاكو، وكان كتيغا هذا يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها).

• كان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الآخر الذي يليه، ويطلب من أهل ذلك البلد أن يزوروا هولاكو إليهم، فإن فعلوا حصل مقصوده في تضيق الأطمعة والأشربة عليهم، فتقصر مدة الحصار عليه، لما ضاق على أهل البلد من أقواتهم، وإن امتنعوا من إيوانهم عندهم، قاتلهم بأولئك المقاتلة الذين هم أهل البلد الذي فتحه.

قبل ذلك، فإن حصل الفتح والا كان قد أضعف أولئك بهؤلاء حتى يفني تلك المقاومة، فإن حصل الفتح وا قاتلهم بجنده وأصحابه مع راحة أصحابه وتعيب أهل البلد وضعفهم حتى يفتحهم سريعاً.

• وكان بيعت إلى الحصن يقول: إن ماءكم قد قل فنخشى أن نأخذكم عنوة فنقتلكم عن آخركم، ونسبي نساءكم وأولادكم فما بقاؤكم بعد ذهاب مائكم، فافتحوا صلحاً قبل أن نأخذكم قسراً، فيقولون له: إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء، فيقول: لا أصدق، حتى أبعث من عندي من يشرف عليه، فإن كن كثيراً انصرفت عنكم، فيقولون: أبعث من يشرف عليه، فيرسل رجالاً من جيشه معهم رماح مجوفة محشوة سماً. فإذا دخلوا الحصن الذي قد أعياه ساطوا ذلك الماء بتلك الرماح على أنهم يفتشونه ويعرفون قدره، فيفتح ذلك السم ويستقر في ذلك الماء فيكون سبب هلاكهم وهم لا يشعرون، لغنه الله لعنة تدخل معه قبره.

الصدام بين الصليبيين والمغول: استمرت غارات المغول الإرهابية جنوباً إلى فلسطين باتجاه مصر، تاركين قرابة ألف مقاتل مغولي حامية لمدينة غزة التي استولوا عليها. فصارت أرض السيطرة المغولية متاحة لدويلات القرشجة، وهذا أدى احتكاكاً مباشراً مع بعض الحوادث، أدت إحداها لتفاقم الوضع في صيدا.

فقد قام جون رئيس بيروت، وجولييان دي غارثير رئيس صيدا وبيوفورت (يصغه معاصروه الصليبيون بأنه كان عديم المسؤولية وهاشياً) بالإغارة على منطقة اليقاع ونهبها، وكانت تحت السيطرة المغولية، عندها أرسل كتيف نوين (جنرال المغول) ابن أخته في قوة صغيرة مطالباً بالتعويضات، فإذا بهم يقتلون في هجوم بكمين بئر جولييان فكان جواب كتيفا نوين قوياً فقام بالإغارة على مدينة صيدا بنفسه، وبسلبها ونهبها وقتل أهلها الصليبيين. وأدت هذه الحوادث إلى انعدام الثقة بين المغول والقوات الصليبية، التي توجد قواتها في مدينة عكا الساحية. ثم جاءت الأخبار باكتساح المغول أوروبا وغزوهم بولندا.



كتيفا نوين يحاصر صيدا بعد مقتل ابن أخته على يد جولييان دي غارثير، لورد صيدا

رجع في الوقت نفسه تقريباً، وليم من روبريك، سفير الملك لويس التاسع (ملك الإفرنج الصليبي) المعوث إلى منقوليا لأجل التحالف الصليبي - المغولي: رجع بتقرير كامل مخيب لأمال البابوية الكاثوليكية تماماً. وبعد قراءته، بعث البابا أليكساندر الرابع برسائله لأرجاء العالم النصراني، محذراً بقصل كل من يتحالف والمغول من الانتماء الكنسي، وهذا حرم المغول من التعاون الصليبي.

باستثناء قرنجة أنطاكية (نصارى الأرمن شرقيون وليسوا صليبيين، لكنهم تحالفوا مع المغول تكاية بالإسلام)، وكان الصليبيون والنصارى الآخرون مترددون في تعاونهم مع المغول، وأحياناً يتخذون موقف مضادة للمغول.

رأى بطريق القدس أن المغول يمثلون خطراً واضحاً، وكتب إلى البابا يحذره منهم في ١٢٥٦م. لكن الصليبيين في عكا وقعوا في دوامة؛ إن هم تعاونوا مع قطز، صاروا أعداء للمغول وعرضة لوحشيتهم، ومن ناحية أخرى، فإن قطز هو أملهم الوحيد لتخليص المنطقة من شر المغول. اتخذ فرجة عكا في ١٢٦٠م موقفاً محايداً بين المغول وبين المماليك المسلمين.

فأرسل الفرجة دوميستيكاً ديسيد من آشبي إلى بلاط هولاكو في ١٢٦٠م، لكنهم في الوقت نفسه دخلوا يهدنة سلبية مع المماليك المصرية. سمح باروتات عكا بموجها لقوات المماليك بحرية الحركة عبر أراضي دويلتهم القصرية من دون التعرض لهم. في أثناء مسير المماليك شمالاً للاستيلاء على المغول، مقابل اتفاقية بشراء غنائم المماليك من الخيل المغولية بأسعار منخفضة، إن هم انتصروا.



تحالف الصليبيين مع المغول انعكس وبالا عليهم فتحوّل إلى صدام مغولي صليبي.
من الدعوات النبوية: (اللهم اهلك الظالمين بالظالمين، واخرجنا من بينهم سالمين).

زعام المبادرة، وعنصر المباغته بالخروج للقاء المغول خارج مصر:

والمقصود أن المظفر قطز، لما بلغه ما كان من أمر التنازع بالشام المحروسة، وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تهديد ملكهم بالشام، بادروهم قبل أن يبادروهم، وبرز إليهم، وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عسكرة وقد اجتمعت الكلمة عليه.

فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية، ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد نشئت من النصرة على التنازع، وأجمعوا على حفظ مصر ليس غير؛ لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه، ولم يبق خارجاً عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن.

قام قطز بزمام المبادرة، مع التخطيط العسكري لاستدراج المغول حسب خطة مدروسة إلى عين جالوت، بدل أن ينتظر مباغته المغول له ومجئهم إلى حصار بلاده، كما كانوا يفعلون مع باقي بلاد الإسلام. وكان بصحية قطز الملك المنصور صاحب حماه، وكان مقدم جيش قطز هو بيبرس البندقداري. وصمم الملك المظفر - رحمه الله - على لقاء التنازع، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في شهر رمضان، وبصحبته الملك المنصور صاحب حماه، وسير الملك المظفر قطز إلى صاحب حماه - وهو بالصالحية يقول له: لا تحتفل في مد سماط، بل كل واحد

من أصحابك يقطر على قطعة لحم في صولقة. سافر الملك المظفر بالعساكر من الصالحية، ووصل غزة والقلوب وجلة. وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا يمشون إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، وبقي الباقون في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد.

وكان معه بيبرس الذي كان مغرمًا بخالد بن الوليد وأبي عبيدة (ولهذا جدد مقام هذين الصالحين المجاهدين الحليين في سلطنته التي أعقبت سلطنة قطز)، واستلهم ذكريات صلاح الدين وخالد بن الوليد، يقول خالد بن الوليد: (ما ليلة ترقى إلي فيها عروس أنا لها محب - أو أبشر فيها غلام، بأحب عندي من ليك شديدة البرد في سرية من المهاجرين أصبح بهم أعداء الله). من هنا كان اختيار عين جالوت (جنوب حطين بـ ٦٥ كم حيث موقعة حطين عام ٥٨٢هـ: أي: قبل ٧٥ سنة)، وقرب اليرموك وفي ظلال معركة اليرموك، مع خطة شبيهة: الخروج من المدينة على السهل الفسيح وعمل الكمين وراء التلال وملاقاة العدو، ثم استدراجه بالانسحاب الكاذب لجره إلى الكمين المتصوب، وهذا يُفاجئ العدو ويباغته، ويحيط معنوياته القتالية.

تقع عين جالوت قرب المناطق الساحلية التي يسيطر عليها الصليبيون، وبالإضافة إلى كونها سهلاً تحوطه تلال ومرقعات متموجة، وهذا يمكن قوات قطز وبيبرس من الاختباء والترصد والرمية، ويوصفها ملجأ آمنًا للكر والفر دون ضرورة الاشتباك المباشر مع العدو على أرض مبسوطة مكشوفة، وهي أقرب إلى الشام من مصر، وهذا يعطي مرونة الحركة لتتبع ظلول المغول بعد الانتصار عليهم بمشيئة الله. وموقعها قرب الشام يمكن الشاميين السارحين والمقاتلين في جيش قطز من الاستئصال والتفاني في الجهاد، وطمعًا في العودة مرة أخرى إلى بلادهم وممتلكاتهم، وخاصة الأمراء الأيوبيين، واختار قطز لهذه المعركة الفاصلة شهر رمضان المبارك، صادف شهر آب/أغسطس الحار الذي سيؤثر في حركة المغول القادمة من صحاري منغوليا الباردة.

تحرك جيوش المسلمين: طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل، وحثهم على القتال، وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام، وقال لهم: (يا مسلمين، قد سمعتم ما جرى من أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تحكمت في الشام، وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حتى القيام، يا قوم، جاهدوا في الله بصدق النية، تجارتكم رابحة، وأنا واحد منكم، وأنا بين يدي رب لا ضام ولا يفوت فانت ولا يهرب منه هارب)، فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء، وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلا أن تكشف هذه الغمة، فعند ذلك جرد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وضعيته جماعة من العساكر وأرسله طليعة.

الانقضاض على حامية غزة المغولية (معركة غزة): تحركت طلائع الجيش المملوكي بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري نحو فلسطين، فسار حتى نزل غزة في شعبان ٦٥٨هـ - ٢٦ تموز ١٢٦٠م، واستطاع ركن الدين بيبرس أن يحقق انتصاراً ساحقاً على الحامية المغولية (١٠٠٠ مغولي) في غزة، واكتشف المغول أنه مازال في المسلمين نخوة، وفيهم من يتجرأ لحمل السيوف ضدهم دفاعاً عن الدين والأرض والعرض. هذا النصر لصغير كان فاتحة خير وبشارة أمل في النصر الكبير.

اتفاقية مع دولة الصليبيين في عكا

فتقدمت جيوش قطز إلى الشمال، باتجاه عين جالوت للقاء المغول، فأرسل إلى الصليبيين وعرفهم بأنه خارج لقتال المغول ليس غير، وتوصل معهم إلى هدنة سلبية، يُسمح بموجبها لقوات المماليك بحرية الحركة عبر أراضي دولتهم النصرانية من دون التعرض لهم، مقابل اتفاقية بيعهم الخيول المغولية بأسعار مخفضة، إن هم اتصروا.

وقال مهندوا الصليبيين: (والله العظيم، متى تبغهم منهم فارس أو راجل - يريد أذى عسكر المسلمين - قتلتمكم قبل ملتقاي التتار، وقد عرفتمكم ذلك)، عند ذلك كتب الملوك إلى أتباعهم بما سمعوه، ورفض السلطان قطز أي مساعدة عرضها الصليبيون عليه، فقد كان حريصاً كل الحرص على صيغ خروبه ضد المغول والصليبيين معاً بضيعة إسلامية خالصة، وألا يستعين بمشرك في قتال المغول، ثم إن هذا يشير إلى رغبة قطز، ومشروعه الجهادي الذي يستهدف دحر العدوان المغولي ومن ثم التوجه إلى الساحل الشامي لتطهيره من نير الاحتلال الصليبي، وحرص في الوقت نفسه على أن لا تكون للصليبيين عليه منه عند مهاجمتهم.

خروج المغول: وأما كتباً نوبن مقدم التتار على عسكر هولاكو (لما بلغه خروج الملك المظفر قطز) كان بالبقاع (لبنان)، فاستدعى الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص، وقاضي القضاء محيي الدين المجير بن الركي، واستشارهم في ذلك، فهمهم من أشار بعدم الملتقى والاندفاع بين يدي الملك المظفر إلى حيث يجيئه مدد من هولاكو ليقوى على ملتقى العسكر المصري، ومتهم من أشار بغير ذلك، وتفرقت الآراء، فاقترضى رأي كتباً نوبن الملتقى وتوجه من هوره لما أراد الله تعالى من إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه. بعد أن جمع كتباً نوبن من في الشام من التتار وغيرهم، وقصد محاربة المسلمين وصحبته الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان، وكان كتباً نوبن نصرانياً نسطورياً، وقد صحبه في عين جالوت كل من أمير أنطاكية الصليبية، وملك أرمينيا الصغرى.

معلومات استخبارية مهمة: بينما هو في الطريق، جاء رجل

من أهل الشام وقدم معلومات استخباراتية لسييف الدين قطز، وهو فرسل من قبل صارم الدين أيبك، وهو أحد المسلمين الذين أسره هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك وإياهم في مواقعهم المختلفة، وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، وقد نقل هذا الرسول إلى قطز - المعلومات الآتية:

(أ) جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، فلم يعد الجيش على الهيئة نفسها التي دخل بها الشام، فلا تخافوهم.

(ب) ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً ميسرتهم التي ستقاتل ميمنة التتار.



تحركات القططع العسكرية المؤدية إلى معركة عين جالوت شمال بيسان

ج) إن الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقة، ومع صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف يهزمون بين يدي المسلمين، أي: إن الرسالة تقول: إن الأشرف الأيوبي قد راجع نفسه وأثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار: مكيدة لهم، وتمكيكاً لمصنوعهم. ومع ذلك أخذ المسلمون حذرهم، وأعادوا من هذه الأمور دون تفريط في الإعداد أو تهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ، وقضى المسلمون الليل في القيام والابتهاال والدعاء والرجاء.

استدراج المغول إلى عين جالوت: كان سيف الدين قطز قد بعث الأمير ركن الدين بيبرس على رأس فرقة ظليعية صدامية من شجعان المسلمين للاشتباك مع الجيش المغولي ومنازلته ومناوشته ثم التظاهر بالهزيمة والانسحاب التمكيكي استدراجاً للمغول لجليهم إلى سهل عين جالوت، حيث يريض جيش قطز وراء تلاله.



فرسان المغول



الجيش المغولي



المغول يقعون في فخ عين جالوت محوطين بقوات الملك المظفر قطز.

والإسلاماد (معركة عين جالوت الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ٣ أيلول ١٢٦٠م).



عين جالوت معركة التاريخ المفصلية: استدراج المغول (مقدمة الصورة) إلى عين جالوت، حيث يكمن جيش المماليك خلف التلال (مؤخرة الصورة وجوانبها)

وأقام المسلمون ليلة القدر قبل يوم اللقاء، إذ التقى الجمعان، وذلك بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي بالناس وكثر ضياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كؤسات السلطان والأمراء أيداناً ببدا الهجوم، ويُقال: أنه استخدمت في عين جالوت مدافع يدائية تحدث انفجاراً وصوتاً مدوياً، وهذا أحدث اضطراباً في قوات العدو المغولي بقيادة كتيغ، وكان قطز يعرف جيداً تفوق جيشه في العدد على العدو؛ ولذا أحق قواته الرئيسة في التلال القريبة، ولم يعرض للعدو إلا المقدمة الطليعية التي قادها بيبرس، وما لبث كتيغ أن وقع في الفخ، إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه (وهو يظن أنه كل الجيش)، فأسرع بيبرس في تقهقره إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتيغاً له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطربت قوات المماليك بعض الوقت، وانكسرت ميسرة المسلمين في بداية الأمر كسرة شنيعة، كان قطز يقف في مكان عال خلف الصفوف يراقب الموقف برمته، ويوجه فرق الجيش إلى سد الثغرات، يخطط لكل كبيرة وصغيرة، وشاهد قطز المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بأخر الفرق النظامية من خلف التلال، ولكن الضغط المتري استمر، فما كان من قطز إلا أن نزل ساحة القتال بنفسه؛ وذلك لتثبيت

الجنود ورفع روحهم المعنوية، فحمل الملك المظفر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عساكره، وأردف الميسرة حتى جبر ضعفها، وتحاليل المغول وتراجعوا، ثم اقتحم الملك المظفر وباشر القتال بنفسه وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسناً، وهو يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت في سبيل الله ويكر بهم ككرة بعد ككرة، ألقى بخودته على الأرض تعبيراً عن اشتياقه إلى الشهادة، وعدم خوفه من الموت، ولكي يرى الجميع وجهه فيعرفونه فيقتدوا به، وصرخ بأعلى صوته مطلقاً صرخته الشهيرة عبر التاريخ (وا إسلاماه)، وحمل بنفسه وبمعونة حملة صادقة فأيده الله بنصوه، ورأى جنود الإسلام قائدهم أمامهم، يقاتل كالأسد، فالتفوا حوله، واستبسلوا في القتال، وانقضوا على التتار فخلخلوا صفوفهم، وكسروهم كسرة عظيمة، ولم تنقضي سوى ساعات حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وقبضوا خضرة الجيش المغولي.

وكانت دعوات الشيخ العز بن عبد السلام في أرض المعركة، ومعه دعوات العلماء ودعوات المجاهدين، ودعوات المقاتلين من المظلومين المهاجرين من الشام. فلاحت بشائر النصر، وولى التتار الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالمثل المجاور لمكان الوقعة فأخذت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنواهم قتلاً ونجا من نجا.

ونصر الله الإسلام وأعره، وانكسرت التتار وولوا الأدبار على أقيح وجهه، بعد أن قتل معظم أعينهم، وأصيب مقدم العساكر التتارية كتيباً نوين، فإنه أيضاً لما عظم الخطب باشر القتال بنفسه فأخزاه الله تعالى وقتل شر قتلة، وكان الذي حمل عليه وقتله الأمير جمال الدين أفوش الشمسي - رحمه الله تعالى.



صورتان تنسبان إلى الملك المظفر قطز في معركة عين جالوت، الأولى: وهو بلا خوذة، يطلع التتار بالرمح، ويتفادي زمية رمح من جانبه الأيسر، والصورة الأخرى، وهو يرمي بوابل من السهام يصدها بدرعه وهو يقاتل بالسيف، فتصاب فرسه لينزل منها ويقاتل راجلاً، حتى ياتوه بفرس آخر

وسعد التتار بقتل كتيباً نوين، وذهب بعدهم بقتله، وكان شيخاً كبيراً قد أسن، وكان مهيل إلى دير النصاري، ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيز خان في الياساق، قال الشيخ قطب الدين اليوتيني: وقد رأيت بعلبك حين حاصر قلعتها،

وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد صفرها مثل الدبوشة، وتارة يعلقها من خلفه بكتفه، وكان مهيباً شديد السنطوة، قال: وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها، ثم خرج من الباب الغربي فدخل

دکاناً خراباً فقضى حاجته والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة، فلما فرغ من حاجته مسح بعض اصحابه بقطن ملبد مسحة واحدة (الكبر سنة).

قال: ولما بلغه خروج المظفر بالعساكر من مصر، تلوم في أمره وحرار ماذا يفعل، ثم حملته نفسه الأبية على لقائه، وظن أنه منصور على جازي عاداته، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيد الله المسلمين وثبتهم في المعركة، فحملوا حيلة صارقة على التتار فهزموهم هزيمة لا تجبر أبداً، وقتل أميرهم كتبغا نوبين في المعركة وأسر ابنه، وكان شاباً حسناً، فأحضر بين يدي المظفر قطز، فقال له: أهرب أبوك؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه هوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى، ثم قال: أنام طيباً.

كان هذا سعادة التتار، وذهب سعدهم بقتله، وهكذا كان كما قال، ولم يفلحوا بعده قط، وكان قتله يوم الجمعة، لخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير أقوش الشمسي رحمه الله. وهكذا قتل القائد كتبغا نوبين الذي اشترك في تدمير بغداد، وتدمير الشام، وقائد جيش المغول في عين جالوت.

وفي حال الفراغ من المصافح حضر الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب (كان صاحب انصبيية وبانياس بعد أبيه)، ثم أخذنا منه وحبس بقلعة المنيرة، فلما جاءت التتار، كان معهم وردوا عليه بلائه، فلما كانت وقعة عين جالوت، أتى به أسيراً إلى بين يدي السلطان الملك المظفر قطز، وكان التتار لما ملكوا قلعة البيرة وجدوه فيها معتقلاً، فأطلقوه وأعطوه بانياس وقلعة الصبيبية، فانضم مع التتار وبقي منهم وقاتل يوم المصافح المسلمين قتلاً شديداً؛ لأنه كان قد لبس سرقوق التتار وناصحهم على المسلمين، فلما أيد الله المسلمين بنصره، وحضر الملوك عند الملك المظفر فحضر الملك السعيد هذا من حملتهم على رغم أنفه فلم يقبل المظفر عذره وأمر بضرب عنقه فضربت. واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التتار، فأمنه الملك المظفر، ورد إليه حمص، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها.

تقهقر المغول من عين جالوت إلى مدينة بيسان (على بُعد ١٢ كلم / ٧,٥ ميلاً من عين جالوت)، وبرز العسكر في إثر التتار إلى قرب بيسان، فرجع التتار، وانتقوا بالمسلمين لقاءً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم، وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: ((والسلامة)) ثلاث مرات: (يا الله، انصر عبدك قطز على التتار) فلما انكسر التتار الكسرة الثابتة، نزل السلطان من على فرسه، ومرغ وجهه على الأرض، وقبّلها وصلى ركعتين لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالفنائم. وقتل المسلمون منهم جمعاً كثيراً، وفر الباقون مدبرين.

وقاتل قطز مع الجيش قتلاً شديداً، حتى صوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطاه، ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز، فقتل الفرس من ساعته، فترجل قطز على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له، قال الإمام الذهبي: (ولما تسلطن، لم يبلغ ريقه ولا تهنى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار) ثم ساق الذهبي وقال الشيخ قطب الدين: (حكى عن الملك المظفر قطز أنه قتل جواده يوم القتال مع التتار، ولم يصادف المظفر أحد من الأوشاقية بقي زاجلاً، فرآه بعض الأمراء الشجعان، فترجل له وقدم له حصانه، فامتتع المظفر من ركوبه وقال: ما كنت لأمنع المسلمين الانتصاع بك في هذا الوقت! ثم تلاحت الأوشاقية إليه)، وأتوه بفرس من الخيول الاحتياطية.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه الذي دُيِّل على "مرآة الزمان": (وكان الملك المظفر بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير لم يكن يوصف بكرم ولا شج، بل كان متوسطاً في ذلك، وذكر حكايته لما أن قتل

جواده يوم الواقعة بنحو مما حكيناه لكتبه زاد بأن قال: فلام المظفر بعض خواصه على عدم ركوبه وقال: يا خوند - لو صادفك والعياذ بالله تعالى - بعض المغول وأنت راجل، كنت رحت وراح الإسلام، فقال: (أما أنا فكنت رحت إلى الجنة - إن شاء الله تعالى - وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه، فقد مات الملك الصالح نجه الدين أيوب - وقتل بعده ابنه الملك المعظم توران شاه، وقتل الأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العساكر يوم ذلك وتصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره) - يعني عن نوية آخذ الفرنج دمياط.

تقهقر المغول، ومعركة أفاميا: واستمر ركن الدين بيبرس في مطاردة قلول المغول حتى أفاميا، فوجدتهم قد تجمعوا بها ووجدوا صفوفهم مرة ثالثة استعداداً لمواجهةهم، فهاجمهم بكل شجاعة وكسرهم كسرة شنيعة وختم منهم أموالاً طائلة وخيولاً كثيرة، وتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع.

تتبع قلول المغول، وقتلهم من قبل الأهالي: واستمرت فرقة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري تتبعهم إلى أطراف البلاد، واستوفى أهل البلاد والضياغ من التتار آثارهم. وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً. استغرقت موقعة عين جالوت أقل من ٢ أيام في العشر الأواخر من رمضان ٦٥٨ هـ، وجاءت البشارة بنصرة المسلمين على التتار بعين جالوت.

تحرير دمشق وباقي بلاد الشام:

فكانت دمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار. وهي تقع على مسافة مئة وخمسين كيلومتراً تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها، فقبل وصوله إلى دمشق أرسل رسالة عظيمة تحمى بشرىات النصر الكبير، وكان مما جاء في هذه الرسالة:

(أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والظعن بنصيحته، فهو أن التتار - حذّ لهم الله - استعالموا على الأيام، وخاضعوا بلاد الشام، واستجدوا بقبائلهم على الإسلام، وهذه عساكر الإسلام مستولنة في مواضعها، ما تزلزل لموضع قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا تثبت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت بركة ناقوس إلا وحلها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن، ولم تزل أخبار المسلمين تنقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس، ولُسخت آية الليل بسورة الشمس، إلى أن تراءت العين بالعين، وأضرمت نار الحرب بين الفريقين، فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق ضوءاً، ويترك في بطن كل من المشركين شلواً، وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٦٦﴾).

استمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وفرقة من الشجعان يتبعون التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق عن التتار. وكان هربهم منها يوم الأحد ٢٧ رمضان صبيحة النصر الذي جاءت فيه البشارة بالنصر على عين جالوت.

فتبعهم المسلمون من دمشق، يقتلون ويأسرون وينهبون الأموال فيهم، ويقعون الأسارى من أيديهم قهراً، ولبه الحمد والمنن على جبره الإسلام، ومعاملته إياهم بلطفه الحسن، وجاءت بذلك البشارة السارة، فجاءت البشارة من القلعة المنصورة، وفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله فرحاً شديداً، وأيد الله الإسلام وأهله تأييداً وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين، وظهر دين الله وهم كارهون.

وهكذا بعد اجتياح المغول بغداد والشام، أرادوا اجتياح مصر، فبادرهم المماليك قبل ذلك، وهزمهم عند عين جالوت شر هزيمة، وأوقفوا زحفهم.

وكان الناصر يوسف في آخر إخفاقات الأيوبيين قد حاول التحالف مع المغول ضد مصر، بنصيحة وزيره صديق المغول زين الدين الحافظي، ولكنهم قبضوا على الناصر يوسف قبل عين جالوت، وسلموه إلى هولاكو الذي قتله بعد هزيمتهم في عين جالوت انتقاماً من المسلمين.

وقام مهديك مصر بتحرير الشام من المغول، وبقي بعض الأيوبيين تبعاً للمماليك في مصر.

وأصبح المماليك، الذين تكونت دولتهم في رحم الأخطار والصعاب بعد جهاد طويل ضد المغول، حكاماً لمصر والشام، والقوة المهيمنة على شرق البحر المتوسط وجنوبه عقوداً طويلة من الزمان.



فرسان المماليك: سرعة بدهة ولياقة بدنية وخفة حركة. مع التدريب المستمر على أنواع السلاح شتى

ثم كتب الملك المظفر كتاباً إلى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح وكسر العدو المخذول، ويغدهم بوصوله إليهم وتشر العدل فيهم فسُرَّ عوامُ دمشق وأهلها بذلك سروراً زائداً، وقتلوا فخر الدين أحمد بن يوسف بن محمد الكنجي في وسط جامع دمشق.

وكان للذكور شيخاً رافضياً خبيثاً، وكان مصانعاً للتتار على أموال الناس، وكان خبيث الطوية، وانضم مع التتار، فمالأ لهم على أموال المسلمين قبحه الله، وقتلوا أيضاً بدمشق من أعوان التتار ابن الماسكيتي وابن النفيل وغيرهما، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين، وكان الأمر كما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الألعام: ٤٥].

فلما هرب ثوب التتار حين بلغتهم الكسرة، أصبح الناس، وتوجهوا إلى دور النصراني يهينونها، ويأخذون ما استطاعوا منها، وأخربوا كنيسة اليعاقبة، وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً، وقتلوا منهم جماعة واحتشوا الباقيون. وكان النصراني بدمشق قد شتمخوا وتجرووا على المسلمين، واستطالوا بتعدد التتار إلى كتائبهم، وذهب بعضهم إلى هولاكو، وجازوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم. ودخلوا بالقرمان من باب

توما، وصلبانهم مرتفعة، وهم ينادون بارتضاع دينهم واتضاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد، فحصل عند المسلمين من ذلك همٌ عظيم (بسبب التحالف المَعُولِي - الصليبي، ولكون كتيبة نَوِين المَعُولِي الذي فتح دمشق كان نصرانياً تسطورياً).

وكانت النصاري في تلك الأيام ألزمو المسلمين القيام في دكاكينهم للصليب، ومن لم يَمُ أخرجوا به وأهانوا وشقوا السوق على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب، وفضل دين النصاري ووضع من دين الإسلام، وكان ذلك في ثاني عشرين شهر رمضان، ثم من القُد طلع المسلمون مع قضائهم وشهودهم إلى قلعة دمشق وبها التتار، فأهانهم التتار وهوا قسيس النصاري عليهم ثم أخرجوهم بالصرب، فصار ذلك كله في قلوب المسلمين، فتبادر عند ذلك المسلمون إلى كنيسة النصاري التي خرج منها الصليب فانتهبوا ما فيها وأحرقوها وألقوا النار فيما حولها، فاحترق دور كثيرة للنصاري وملا الله بيوتهم وقبورهم نارا، وأحرق بعض كنيسة اليعاقبة، وهُم طائفة بنهب اليهود، فقبل لهم أنه لم يكن منهم من الطفليان كما كان من عبدة الصليبان.

وصول سيف الدين قطز إلى دمشق: وصل البطل سيف الدين قطز إلى دمشق، في اليوم ٢٠ رمضان سنة ٦٥٨هـ، واستقبله الناس استقبال الفاتحين، وعلقت الزينات في الشوارع، وخرج الرجال والنساء والأطفال يستقبلون البطل المظفر. ثم وصل الملك المظفر قطز إلى دمشق مؤبداً منصوراً، فأخبرت بذلك قلوب الرعايا وتضاعف شكرهم لله تعالى. والتفاه أهل دمشق بعد أن عفوا آثار النصاري وخربوا كتائبهم: جاء ما كانوا سلفوه من ضرب النواقيس على رؤوس المسلمين ودخولهم بالخمر إلى الجامع. وفي هذا المعنى يقول بعض شعراء دمشق:

هلك الكفر في الشام جميعاً	واسجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر المليك الأرم	وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم	فاعتزنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فروضه

وفي نصرة الملك المظفر هذا، يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتار على البلاد فجاءهم	من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكتهم وبد شملهم	ولكل شيء أفة عن جنسه

(انظر البداية والنهاية ج ١٣/ص ٢٥٧)

ولما استقر الملك المنصور بحماه، قبض على جماعة كانوا مع التتار واعتقلهم، وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ المنصور بهذا النصر العظيم، ويعود المعرة بقصيدة منها:

رُعيت العدى، فضمنت لى عروشها	ولقيتها، فأخذت لى جيوشها
نازلت أملاك التتار، فأنزلت	عن محلها قسراً وعن إكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كماتها	حصد المناجل في بييس خيشها
هفت الملوك بيدل ما تحويه، إذ	ختمت خزائنها على مقوشها
وطويت عن مصر هسيح مراحل	ما بين بركتها وبين عريشها

حتى حفظت على العباد بلادها
فرشت حماه لوطئ تلك خدّها
وضربت سكبتها التي أخلصتها
وكذا المعزّة إذا ملكت قيادها
لا زالت تنعش بالنوال فقيرها
من رومها الأقصى إلى إحيوشها
فوطئت عين الشمس من مفروشها
عما يشوب النقد من معشوشها
دهشت سروراً سار في مدهوشها
وتقال أقصى الأجر من منعوشها

وقد اتفق في هذا العام أمور عجيبة، وهي: أن أول هذه السنة كانت الشام للسلطان الناصر بن العزيز، ثم في منتصف من صفر صارت لهولاكو ملك التتار، ثم في آخر رمضان صارت للمظفر قطز، ثم في أواخر ذي القعدة صارت للظاهر بيبرس، وقد شمره في دمشق الملك المجاهد سنجر.

وكذلك كان القضاء في أولها بالشام لابن سني الدولة صدر الدين، ثم صار للكامل عمر القليسي من جهة هولاكو، ثم لابن الزكي، ثم لنجم الدين بن سني الدولة. وكذلك كان خطيب جامع دمشق عماد الدين بن الحرستاني من سنين مطاولة، فعزل في شوال منها بالعماد الأسعدي، وكان صينياً قارئاً مجيداً، ثم أعيد العماد الحرستاني في أول ذي القعدة منها، فسبحان من بيده الأمور يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

ولا تقارن فرحة النصر لدين الله والرفعة للإسلام والعزة للمسلمين، بفرحة الطعام والشراب والمال والجاه والسلطان، ودخل الجيش المملوكي المسلم دمشق، واستتب الأمن الحقيقي بسرعة عجيبة، ولم يحدث شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد، واستقر الوضع بسرعة، وحفظ الأعراض والنفوس والأموال لكل الساكنين من نصارى ويهود، وقام قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عينه التتار وكان موالياً لهم، وعين مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة وبدأ يفصل في القضايا، ويحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى، حتى لا يظلم نصرائي في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصاري بالمسلمين في أثناء احتلال التتار للمدينة، وكان في اليوم الثاني لدخول قطز إلى دمشق عيد الفطر له طعمه الخاص ومكانته المتميزة؛ لأنه كان أيضاً عيداً للنصر والتمكين.

لم يضيع قطز وقتاً، بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس؛ لتتبع الفارين من التتار، وتطهر مدن الشام الأخرى من الحاميات التتارية، وطارد المغول في أعالي بلاد الشام حتى لحق بهم في حمص، وفرّ المغول بحياتهم، وألقوا ما كان معهم من متاع وغيره، وأطلقوا الأسرى وعرجوا نحو طريق الساحل، فتخطف المسلمون منهم، وقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كاتباً عظم عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه.

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق في شوال، بأن المنتهزمين من رجال التتار وتساقط لهم لحقهم الطلب من الأمير زكن الدين بيبرس البندقداري، فإن بيبرس كان تقدم قبل السلطان إلى دمشق يتبع آثار التتار إلى قرب حلب، فلما قرب منهم بيبرس، سبوا ما كان في أيديهم من أسارى المسلمين ورموا أولادهم، فتخطفهم الناس، وقاسوا من الجلاء ما يستحقونه. وبعد هذه المعركة تطهرت الشام من التتار، وانكفوا على أنفسهم، ولم يقدروا على شيء. واستطاع المسلمون تطهير بلاد الشام كلها، في بضعة أسابيع، وأعلن قطز توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت رعايته، بعد عشر سنوات من الفرقة، وذلك منذ وفاة السلطان المجاهد الملك الصالح نجم الدين أيوب - رحمه الله - في سنة ٦٤٨هـ، وخطب لقطز على المنابر في كل المدن المصرية والفلسطينية والشامية، حتى خطب له في أعالي بلاد الشام والمدن حول نهر الفرات، وعاش المسلمون أياماً من أسعد أيامهم.

ترتيب البيت الداخلي في الشام، شرع السلطان سيف الدين قطز في ترتيب أحوال الشام بسرعة، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، ولما قدم الملك المظفر إلى دمشق أحسن إلى الناس، وأجراهم على عواندهم وقواتهم إلى آخر أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف (الذي قتله التتار)، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه قطاعات الشام، وجعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي، وبعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، الذي كان هولاء قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يطلب الأمان، فاستجاب قطز وأمنه على عرشه، كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب ستجار ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له. كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على ما كان عليه (وكان حضر مع الملك المظفر قطز من مصر وقاتل معه)، فأقره على حماه وبارين، وأعاد له المعرة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ، ومن ناحية أخرى أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، وعين الأمير جمال شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العززية، وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحارب معه في عين جالوت (وهو الذي قتل كتيبة نوبن قائد جيش التتار)، ثم أمر بشنق حسين الكردي الطيزدار، فشنق: لأنه دل على الملك الناصر.

ويستوعب الذهبي نهاية الناصر يوسف، في تاريخ الإسلام، تحت وفيات ٦٥٩هـ:

(حكى علاء الدين بن نصر الله أن الملك الناصر جاء إلى داره بغته، قال: فمددت له في الوقت سباطاً بالدجاج المحشي بالسكر والفسق وغيره، فتعجب وقال: كيف تهيا لك هذا؟ فقلت: هو من نعمتك، اشتريته من عند باب القلعة، وكانت نفقة مطابخه وما يتعلق بها في كل يوم أكثر من عشرين ألف درهم...

وقال أبو شامة: وفي منتصف صفر، ورد الخبر إلى دمشق باستيلاء التتار على حلب بالصيف، فهرب صاحبها من دمشق بأمرائه الموافقين له على سوء تدبيره وزال علكه عن البلاد، ودخلت رسل التتار بعده بيوتهم إلى دمشق، وقرئ فرمان الملك بآمان دمشق وما حولها، ووصل الناصر إلى غزة، ثم إلى قطيا، فتفرق عنه عسكره، فتوجه في خواصه إلى وادي موسى، ثم جاء إلى بركة زيزا، فكبسه كتيبة، فهرب، ثم أتى التتار بالأمان، فكان معهم في ذل وهوان، وكان قد هرب إلى البراري، فساقوا خلفه، فأخذوه وقد بلغت عنده شربة الماء نحو مئة دينار. فأتوا به إلى مقدم التتار كتيبة وهو يحاصر عجلون، فوعده وكذبه، وسقاه خمرأ صرغاً، فسكر، وطلبوا منه تسليم قلعة عجلون، فجاء إلى نائبها، وأمره بتسليمها، ففعل، ودخلها التتار، فنهبوا جميع ما فيها، ثم ساروا بالناصر وأخيه إلى هولاء. قال قطب الدين: فأكرمه وأحسن إليه، فلما بلغه كسر عسكره بعين جالوت غضب، وأمر بقتله، فاعتذر إليه، فأمسك عن قتله، لكن أعرض عنه، فلما بلغه كسرة بيده على حمص استشاط غضباً، وقتله ومن معه، بنوى ولده الملك العزيز. وقيل: إن قتل الناصر كان عقيب عين جالوت، في الخامس والعشرين من شوال سنة ثمان، وعاش إحدى وثلاثين سنة وأشهرأ، فيقال: قتل بالصيف، وقيل: إنه حصَّ بعداب دون أصحابه. وقد اشتهر عنه أنه لما مر به التتار على حلب، وهي خاوية على عروشها، قد هدت أسوارها، وهدمت قلعتها، وأحرقت دورها الفاخرة، وباد أهلها، وأصبحت عبرة للناظرين، انهلت مقلته بالمعرة، وقال:

وكانت به آيات حسنكم نسي

يعز عليا أن نرى ريعكم نيل

وقد أورد له ابن واصل عدة قصائد، ووصفه بالذكاء والفضيلة والكرم، إلى أن قال: وفي سابع جمادى الأولى، عُقد عزاءه بدمشق بالجامع، لما ورد الخبر بمقتله. قال: وصورته على ما ثبت بالتواتر أن هولاًكو لما بلغه **مقتل كُتُبغا**، ثم كسرة أصحابه بحمص، أخذ الناصر وأخاه وقال للترجمان: قل له: أنت زعمت أن البلاد ما فيها أحد، وأن من فيها في طاعتك، حتى غررت بي وقتلت المنفل. فقال الناصر: أما إنهم في طاعتي لو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه غلمانك بسيف. ومن يكون ببلاد توريز، كيف يحكم على من في الشام فرماه هولاًكو بالشاب فأصابه فقال: الصنيعة يا حوُند. فقال أخوه الملك الظاهر: اسكت، تقول لهذا الكلب هذا القول وقد حضرت. فرماه هولاًكو بفردة ثانية فقتله. ثم أخرج الملك الظاهر وبقية أصحابهم، فضربت أعناقهم).



مقاتل المماليك: بداية بشرية مدمجة بأنواع السلاح

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول. توجه السلطان سيف الدين قطز في اليوم ٢٦ شوال ٦٥٨هـ بجيشه الطافر صوب مصر، وبينما كانت القاهرة تزخر لاستقبال القائد المنتصر، جاء أجل سيف الدين قطز.

نتائج الانتصار في عين جالوت وإفرازاته وأبعاده:

١. حطم الانتصار الإسلامي الساحق في معركة عين جالوت أسطورة جيش المغول الذي لا يقهر، وكسرت عين جالوت الحاجز النفسي بالنقص أمام تفوق المغول العسكري.
٢. مثل انتصار عين جالوت معلماً جهادياً متميزاً، وبداية الفتوح المباركة لبلاد الشام كلها، وأرجع الحقوق المسلوقة إلى نصابها، والممتلكات المغتصبة إلى أصحابها.

٣. يمثل اضطدام المماليك بالمغول في عين جالوت المعركة المفصلية الكبرى في التاريخ العالمي وفي التاريخ الإسلامي، وأمن سلامة المستقبل لمسارات كل من الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، على السواء. لقد كان انتصار الإسلام في عين جالوت انتصاراً للغة العربية، لغة الإسلام، فلو انتصر المغول على مصر

العروبة والإسلام، لانتهى الإسلام - لا قدر الله - ولما تمت لغته العربية، ولكن يابى الله إلا أن يتم نوره كذلك لو نجح المغول في احتياح مصر لكانت لهم القدرة، بعد عودة هولاكو، من الاستمرار في احتياح الشمال الإفريقي والتقدم إلى مضائق جبل طارق، ولكن المغول يحوملون أوروبا كالسوار حين المعصم من بولندا شرقاً ومن إسبانيا غرباً. وتحت ظروف كهذه، ما كان للنهضة الأوروبية أن تحدث، ولكن من المؤكد أن تكون ضعيفة الأساسات، بل لكان العالم كله يختلف تماماً عما هو عليه اليوم.

٤. كان الانتصار الإسلامي الساحق الماحق على المغول في عين جالوت بداية النهاية للمغفل الكفار، وإرهاصات البداية لهداية المغول واعتناقهم الإسلام فلا يقل الحديد إلا الحديد، والحديد بالحديد يفلح ونصر الإسلام في عين جالوت هو نصر الله لدينه الحق وإظهاره على الدين كله، ولو كره الكافرون.

٥. وبقدر ما أنقذت المعركة مدينة القاهرة من مصير الدمار الأكيد الذي حل ببغداد وحلب وباقي مدن الشام، فإن معركة عين جالوت وضعت اللمسات الأخيرة ومسك الختام في القضاء المحتوم على الدويلات الصليبية المتبقية والضعيفة نسبياً.

٦. وارتفعت، بهذه المعركة، مصر الممالك إلى قمة الذروة والقوة الإسلامية سياسياً، وعسكرياً، وثقافياً، واستطاعت المحافظة على مركزها الطليعي هذا قرابة ٢٥٠ سنة، حتى يزوغ نجم العثمانيين. وصدق المصطفى في أحاديثه عن مناقب مصر، حين قال ﷺ: «الله الله في قبط مصر؛ فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله». لصحة الألباني: السلسلة الصحيحة ١٣١١٣

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم دمةً ورحماً». قال الإمام النووي، في شرح مسلم وفي رياض الصالحين: أما الرحم فليكون هاجر أم إسماعيل منهم، وأما الصهر فليكون مارية أم إبراهيم منهم. وروى ابن عبد الحكم في فتوح مصر: «إذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جنداً كثيراً، فذلك الجند خير أجناد. فقال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة». أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، والدارقطني في المؤتلف والمختلف، وابن عساكر في تاريخ دمشق وإسناده ضعيف؛ لأن مداره على ابن لهيعة وهو ضعيف، وفيه الأسود بن مالك لا يوجد له ترجمة، وبحير بن ذاخر مجهول الحال.

٧. موقف هولاكو من الهزيمة: ثم استطاع هولاكو، بفضل الله ومنته الكبرى على المسلمين، لتقدم غرباً لمساعدة جيوشه المهزومة في عين جالوت؛ لاشتغاله في حروب طاحنة مع منافسيه من أهل بيته (بفضل الله ومنه على المسلمين حين يصدقون النية لله)، وعلى رأسهم ابن عمه زعيم القبيلة الذهبية، بكركة خان المسلم المجاهد، واكتفى هولاكو بأن عمل على مراسلة الخان الأعظم في قراقورم، فأخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك رفع معنويات هولاكو وجيوشه، وتشجيعه على معاودة حرب الممالك، وبدأ هولاكو يستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله بجلطة في المخ كان أصلاً مصاباً بالصرع في سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م، فتوفي دون أن يحقق حلمه بضم مصر والشام إلى ممتلكاته (أهلكه الله - انظر ترجمته فيما سيأتي: اعتناق المغل الإسلام). ولكن حصلت معركة حمص الأولى بين بقايا المغول في الشام والبيث الأيوبي، وكانت مسك الختام لانكسار المغول في الشام (انظر فيما سيأتي).

خفاة الملك المظفر قطز:

وكان الملك المظفر قطز قد وعد الأمير بيبرس بحلب وأعمالها، فلما انتصر على التتار، انشئ عزمه عن عطائه حلب وولاهما علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس والملك المظفر قطز. فقد ساق بيبرس وراء التتار إلى حلب، وطردهم عن البلاد، ووعد السلطان بحلب، ثم رجع عن ذلك، فتأثر بيبرس ووقعت الوحشة بينهما، فاضمر كل لصاحبه الشر، فاتفق بيبرس وجماعة من الأمراء على قتل المظفر، علماً أن المظفر قطز قد قتل سابقاً مقدمهم فارس الدين أقطاي الجمندار). فقتلوه في الطريق في ١٦ ذي القعدة سنة ٥٥٨هـ بين العرابي والصالحية.

يذكر الإمام الذهبي في تاريخ الإسلام، تحت حوادث عام ٦٥٨هـ:

(لَعُوذُ المظفر إلى مصر) وأقام المظفر نحو الشهر، وسار إلى الديار المصرية. ونقل الضاحب عز الدين بن شداد بن المظفر لما ملك دمشق، عزم على التوجه إلى حلب لينظف آثار التتار من البلاد، فوشى إليه واش أن ركن الدين البندقداري قد تنكر له وتغير عليه: وأنه عامل عليك. فصرف وجهه عن قصده، وعزم على التوجه إلى مصر وقد ضمير الشر للبندقداري، وأسر ذلك إلى بعض خواصه، فأطلع على ذلك البندقداري.

أقفل المظفر قطزاً ثم ساروا والحقود ظاهرة في العيون والخدود، وكل منهما متحرس من الآخر. إلى أن أجمع ركن الدين البندقداري على قتل المظفر، واتفق الأمراء: سيف الدين بلبان الرشيدي، وبهادر المعزي، وبيدغان لركني، ويكنوت الجوكندار، وبلبان الهاروني، وأنس الأصبهاني. فلما قارب القصر الذي بالرميل عرج للصيد، ثم رجع، فسأله البندقداري وأصحابه، وحادثه، وطلب منه امرأة من سبي التتار، فأنعى له بها، فأخذ يده ليقلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين أولئك، فبادره بدر الدين يكنوت الجوكندار المعزي، فضربه بالسيف على عاتقه فأبانه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم قضى عليه، وذلك يوم سادس عشر ذي القعدة.

اسلمت بيبرساً ثم ساروا إلى الدهليز، وضربوا مشورة قيمين يملكوه عليهم، فاتفقوا على ركن الدين البندقداري، وتقدم الأمير فارس الدين أقطاي المعروف بالأتابك قبايعه، ثم تلاه الرشيدي، ولقب بالملك القاهر، ثم ساق هو والأتابك، وقلاوون الذي تسلطن، والبيسري، وجماعة، وقصد قلعة مصر، ورتب أقوش النجيبى آستاد أزم، وعز الدين الأخرم أمير جندار، فخرج نائب الملك المظفر على القاهرة للقائه، وهو الأمير عز الدين الحلبي، فصادف هؤلاء فأخبروه بما وقع، فحلف لركن الدين، ورد إلى القلعة ووقف على بابها ينتظره، وكانت القاهرة قد تمت لقدوم لمظفر وهم في فرجة، فلما طلع الضوء، لم يشعروا إلا والمنادي يقول: معشر الناس، ادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدنيا والدين. ووعدهم بالإحسان وإزالة... لأن المظفر كان قد أحدث على المصريين حوادث كثيرة، منها تصقيع الأملاك وتقويمها وزكاتها، وأخذ ثلث الزكاة، وثلث التركات، وعن كل إنسان دينار واحد، ومضاعف الزكاة، فبلغ ذلك في العام ست مئة ألف دينار، فأطلق لهم ذلك. وجلس على تخت الملك يوم الأحد، وذلك اليوم الثاني من قتله للمظفر، فأشار عليه الوزير زين الدين بن الزبير، وكان منشئاً بليفاً، بأن يغير هذا اللقب، وقال: ما لقب به أحد فأفلق لقب به القاهر بن المعتضد فسُمل بعد قليل وخلع، ولقب به الملك القاهر بن صاحب الموصل فسُمل. فأبطل السلطان هذا اللقب ولقب بالملك الظاهر). انتهى

ولم يخف الملك المظفر قطز ولداً ذكراً، وكان قتله يوم السبت ١٦ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ فتكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يوماً واحداً، فإنه تسلطن يوم السبت ١٧ ذي القعدة من سنة ٦٥٧هـ. أما الملك المظفر قسز، فإنه دفن موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. ثم عمى بيبرس على

موضع دهن قطر. قال عنه الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام: (وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيمن التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حزمياً حسن التدبير يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شهابه بالجنة ورضي عنه).

وكانت مصر قد زينت للملك المظفر فاستمرت الزينة، ركب بيبرس، وساق في جماعة من أصحابه، حتى وصل إلى قلعة الجبل، فدخلها من غير ممانع واستقر ملكه. وكان الذي ركب معه من الصالحية إلى القلعة، وهذه خواصه من خشداشيتة وهم: فارس الدين الأتابك، وببسر، وقلاوون الألفي، وبيليك الخازندار، وبلبان الرشيد، ثم في يوم الأحد ١٧ ذي القعدة وهو صبيحة قتل المظفر قطر، وهو أول يوم من سلطنة الظاهر بيبرس، جلس بالإيوان من قلعة الجبل.

ولما جلس الظاهر بالإيوان، رسم أن يكتب إلى الأقطار بسلطنته، فأول من بدأ به الملك الأشرف صاحب حمص، ثم الملك المنصور صاحب حماه، ثم الأمير مظفر الدين صاحب صهيون، ثم إلى الإسماعيلية، ثم إلى الملك السعيد المظفر علاء الدين علي بن لؤلؤ صاحب الموصل الذي صار نائب السلطنة بحلب، ثم إلى من في بلاد الشام يعرفهم بما جرى.

ثم أخرج عمن بالحبوس، من أصحاب الجرائم، وأقرّ صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير على الوزارة، وتقيد بالإفراج عن الأجناد المحبوسين، والإنعام عليهم وزيادة من رأى استحقاقه من الأمراء، وخلع عليهم وسير الأمير جمال الدين أقوش المحمدي بتوقيع للأمير ستجر الحلبي نائب دمشق، فتوجه إليه فوجده قد تسلط بدمشق ودعا لنفسه وحلف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد، فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس، وأخذ في إصلاح أمره معه والإحسان إلى خشداشيتة البحرية الصالحية وأمر أعيانهم، ثم إنه أخرج الملك المنصور نور الدين علياً بن الملك المعز أيمن التركماني وأمه وأخاه ناصر الدين قاقان من مصر إلى بلاد الأشكري، وكانوا معتقلين بقلعة الجبل. ودخل مصر، وأزال عن أهلها ما كان المظفر أحدثه عليهم من المظالم.

وقفة مع قتل ملوك المماليك: عدل الله وفضله، وجزاء من جنس العمل:

- الحظ أن الملك المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب قد قتل، قتله فارس الدين أقطاي.
- ثم إن فارس الدين أقطاي قد قتل، قتله قطر بامر الملك المعز أيمن.
- ثم إن شجرة الدر قامت فقتلت الملك المعز أيمن.
- ثم إن جوارى الزوجة الأولى للملك المعز أيمن، قتل شجرة الدر.
- ثم إن بيبرس قد قتل قطر، لنقضه الوعد بتأميره على حلب، ولقتله فارس الدين أقطاي.

وما هذا إلا عدل إلهي، وفضل رباني، بتطهيرهم من الذنوب في الدنيا بالقتل جزاءً من جنس عملهم: لكي يلاقوا الله تعالى يوم القيامة وهم أنقياء من ذنوبهم، فإن الله لا يثني عليهم العقوبة في الدنيا والآخرة. عما الله تعالى عنهم جميعاً، وتغمدهم برحمته الواسعة، فلقب أبلوا خير بلاء في نصرة الإسلام، في أهلك مدة في تاريخ الإسلام.

معركة حمص الأولى، أو وقعة حمص "القيقان": (لأن غير واحد حدث أنه رأى قيقاناً عظيمة - جمع قوق، وهو طائر مائي طويل العنق - قد نزلت وقت المصاف على التتار تضرب في وجوههم)، تمثل مسك الختام والامتداد النهائي لمعركة عين جالوت، ومعارك حمص الأولى والثانية والثالثة، وموقعة شحجب كلها قريبة من مرقد خالد بن الوليد في حمص، حيث استلهم البطولة وذكريات الانتصارات لسيف الله المسلول في أرض الشام المباركة.

ولما صبح عند التتار قتل الملك المظفر قطز - رحمه الله تعالى - وكان النائب ابن صاحب الموصل أساء السيرة في الجند والرعية، فاجتمع رأي الأمراء والجند بحلب على قبضه وإخراجه من حلب، وتحالفوا على ذلك، وعينوا إقحام بالأمير حسام الدين الجوكنداري العززي، فبينما هم على ذلك، وردت عليهم بطاقة نائب البيرة، يخبر من التتار قاربوا البيرة لمحاصرتها، واستصرخ بهم لينجدوه بعسكر.

وكان التتار قد هدموا أبراج البيرة وأسوارها، فلما وصلوا إلى عمق البيرة، صادفوا التتار بجموعهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة، وما سلم منهم إلا القليل. وورد هذا الخبر لحلب، فجفل أهل حلب إلى جهة القبة ولم يبق بها إلا القليل، ثم بعد أيام قلائل دهم العدو حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الجوكنداري لمقدم على عسكر حلب بمن معه إلى جهة دمشق، ودخلت التتار حلب، وأخرجوا من كان فيها إلى ظاهر حلب، ووضعوا السيف فيهم فقتل بعضهم وفر بعضهم.

ونزل العسكر الحلبى بظاهر حماة، فقام الملك المنصور بضيافتهم ثم تقدم التتار إلى حماة، فلما قاربوا منها، حل صاحبها الملك المنصور ومعه الجوكنداري بعساكر حلب إلى حمص، ونزل التتار على حماة، فامتعت عليهم، فاندفعوا من حماة طالبين العسكر، وجفل الناس بين أيديهم، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، وأقام الجميع على حمص، حتى قدم إليهم التتار في أوائل المحرم من سنة ٦٥٩ هـ، وكانوا في ستة آلاف فارس فخرج إليهم الملك المنصور صاحب حماة، والأشرف صاحب حمص، والجوكنداري العززي بعساكر حلب، وحملوا عليهم حملة رجل واحد، فهزمهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب الأمير بيدرا مقدم التتار في نفر يسير، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه، ثم عاد التتار إلى حلب، وفعلوا بأهلها تلك الأفعال القبيحة على عادتهم، ثم جهز الملك الظاهر عسكراً لخروج التتار من حلب، فساروا إليها وأخرجوهم منها على أقبح وجه. كل ذلك والدنيا بلا خليفة من سنة ست وخمسين وست مئة.

يذكر إمام الذهبى في "تاريخ الإسلام" بركات الله على المسلمين بأحداث سنة ٦٥٩ هـ، فيقول: (أوقعة حمص) وكانت في خامس المحرم. اجتمع عدد من التتار الذين نجوا من عين جالوت، والذين كانوا بحران والجزيرة، وكانوا قد ملكوا من القمح فأغاروا على حلب، وقتلوا أهلها بقرتبا، ثم ساقوا إلى حمص لما علموا بقتلة الملك المظفر، وأن العساكر مختلفة، فوجدوا على حمص الأمير حسام الدين الجوكنداري ومعه العسكر الذين كانوا بحلب، والملك المنصور صاحب حماة، والملك الأشرف صاحب حمص، وعدتهم ألف وأربع مئة، فحملوا على التتار وهم في ستة آلاف فارس حملة صادقة فكسروهم وركبوا أقينتهم قتلاً حتى أتى القتل على معظمهم، وهرب مقدمهم بيدرا في نفر يسير بأسوأ حال، وكانت الوقعة عند تربة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وتسمى وقعة حمص "القيقان"، لأن غير واحد حدث أنه رأى قيماً عظيمة قد نزلت وقت المصاف على التتار تضرب في وجوههم، وحكى بدر الدين محمد بن عمر الدين حسن القيصرى، وكان صدوقاً، قال: كنت مع صاحب حماة، فوالله، لقد رأيت بعينى طليوراً بيضاء وهي تضرب في وجوه التتار يومئذ. نقله عنه الجزرى في "تاريخه". وقال أبو شامة: جاء الخبر بأن التتار كسروا بأرض حمص كسرة عظيمة وضربت البشائر، وكانت الوقعة عند قبر خالد إلى قريب الرستى، وذلك يوم الجمعة خامس المحرم، وقتل منهم فوق الألف، ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد. ثم جاءت رؤوسهم إلى دمشق. قلت: حكى أبى أنهم جابوها في شراع، وكنا نتعجب من كبير تلك الرؤوس كأنها رؤوس المفل.

أهزيمة الفرنج: قال: وفيه، يعني ربيع الأول، خرج الفرنج في تسع مئة قطارية، وخمس مئة تركيلى، ونحو ثلاثة آلاف راجل، فأخذ الجميع قتلاً وأسراً، ولم يفلت منهم سوى واحد. قلت: انتدب لقتالهم الفاخرية التركمان، فأخلوا لهم بيوتهم وهربوا، وكمّنوا لهم، ثم نزلوا عليهم وبيوتهم، وأراح الله منهم. وكان خروجهم من عكا وصيدا.

أول العزاء بالملك الناصر يوسف، عُقد العزاء في جمادى الأولى بجامع دمشق للملك الناصر، جاء الخبر أنه ضُربت رقبته مع جماعة لما بلغهم أن المصريين كسروهم على عين جالوت.

الخلف بين هولاءكو وبركة، ووقع الخلف بين هولاءكو وبركة، وأظهر بركة عداوته، وبعث الرسل إلى الملك الظاهر بالمواددة واجتماع الكلمة، ويحرضه على حرب هولاءكو، ثم جرى بينهما مصاف، كما يأتي إن شاء الله تعالى.

أدخول أول دفعة من التتار في الإسلام، ووصل إلى دمشق في ذي الحجة من التتار نحو المثنى هاربن إلى المسلمين، فأعطوا أخباراً. وهم أول من هز من التتار ودخل في الإسلام.

استرجاع الروم القسطنطينية من الفرنج، تحزبت نصارى الروم في سنة ستين وحشداوا، وأخذوا مدينة القسطنطينية من الفرنج، وكان الفرنج قد استولوا عليها من سنة ست مئة أرخ ذلك الملك المؤيد رحمه الله انتهت وقائع هذه الطليقة، والحمد لله وحده.

الملك الظاهر، أبو الفتوح، الأسد الضاري، ركن الدين بيبرس البندقداري (حكم ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م - ٦٧٠م)

يمثل بيبرس ظاهرة فريدة جداً في التاريخ الإسلامي وتاريخ الجهاد المزدوج ضد الصليبيين والمغول في أن واحد، وفي مدة عصبية جداً من أخطر مدد التاريخ الإسلامي على الإطلاق، وكان طوال حكمه مُكلاً بالامتصاصات وقضى معظم سنوات حكمه مُجاهداً بنفسه قائداً لجيوشه في معارك متكررة ضد الصليبيين والمغول وحلفائهم، وكانت الغلبة فيها دائماً إلى جانبه والنصر حليفاً له، بتوفيق الله وفضله، فلا غرابة في شعبية هذا السلطان المجاهد في جميع أرجاء العالم الإسلامي. وتسمى الكثير من المسلمين باسمه، فهو الذي قهر ٣ حملات صليبية (الحملة الصليبية السابعة على مصر، والحملة الصليبية الثامنة على تونس، والحملة الصليبية التاسعة على فلسطين). وليبيبرس الفعل الأكبر في الانتصار بعين جالوت، المعركة المفصلية الكبرى في تاريخ الإسلام والعالم، وهو الذي انقضى على حامية غرة المغولية وهزمها شر هزيمة، وهو الذي كان رأس الحرية للفرقة الطليعية التي صدمت المغول، وهو الذي تصنع الانكسار والانسحاب، ونجح بجر جيش المغول واستدراجه إلى كمين المسمين في عين جالوت ومباغتته هناك بجحافل الإسلام، حسب الخطة المسماة عسكرياً بالانسحاب الكاذب، وهو الذي قاد فرقة الشجعان لمطاردة قلوب المغول الهاربة وقتلها وتمشيظ حلب وحمص وباقي مدن الشام منهم. استمر حكم هذا السلطان المجاهد بيبرس البندقداري مدة ١٩ عاماً، كانت بركة وفتحاً للإسلام وحفظاً لبيضة الإسلام من كل أعدائه.

وكان بيبرس عبقرياً، متوقفاً الذكاء، ذا فكر خلاق، فمن بنات أفكاره: إعادة إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، بعد قضاء المغول عليها في اجتياحهم وتدميرهم بغداد، وتكثيف الدعوة الإسلامية للمغول وإقامة حلف دفاعي مع المغول المسلمين ضد المغول الكفار، واستقدام المسلمين منهم لمصر لبايعه الخليفة ومعايش الإسلام في مصر، وعسكرة العالم الإسلامي بالتدريب والجهاد والرباط والمصابرة الدائمة في الثغور ضد الصليبيين والمغول. بل قام أيضاً بتوظيف الحشاشين في الشام عام ٦٧٢م لمصلحة الإسلام، باستجارتهم للقيام بالاغتيالات ضد الصليبيين وأعداء الإسلام، مقابل أجر ثابت لكل عملية فدائية، ثم إنه سجل ذلك الرحالة العربي ابن بطوطة (بدلاً من استخدام أعداء الإسلام والصليبيين لهم ضد زعماء المسلمين).

ولإسناد حملاته العسكرية أيضاً، قام بيبرس بإنشاء دور صناعات السلاح (الترسانات)، وتصنيع السفن الحربية وسفن الحمولة لإنشاء الأسطول المصري وتقويته. وحدث أيضاً الكثير من آلة الحرب البحرية الثقيلة لحصار

احتلاع الحصون، ويقال: إنه أول من استخدم المتفجرات في المدافع اليدوية المنقلة في الحروب، في عين جالوت، وفي حملاته العسكرية (هذه المدافع يدائية تحدث صوت انفجار مدوي، وهذا يحدث اضطراباً في قوات العدو)، وامتدت حملاته العسكرية إلى آخر أطراف الشام وسواحلها، وإلى ليبيا وبلاد النوبة. وكان إدارياً بارعاً ورجلاً مؤسسياً يعمل بروح الفريق، وقد أرسى دعائم الحكم ونظم شؤون البلاد، وبسط الأمن وأحل السلام، وأنشأ العديد من مشروعات التنمية التحتية، مثل منظومة البريد بالخيول والتسليم السريع، ووصول البريد من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام، وأنشأ عدة جسور، وقنوات للري وللملاحة، وطور الموانئ، وبنى المدارس والمستشفيات والمساجد. وكان راعياً للعلوم الإسلامية، مثل مساعدة البحوث الطبية وتطويرها لطبيبه العربي ابن النفيس الدمشقي. أسس المدرسة الظاهرية وهي بجوار ضريحه في دمشق. هذا والمكتبة الظاهرية تزخر بنفائس المخطوطات في شتى المعارف، وما زالت موجودة إلى اليوم في دمشق.



صورة فنية تظهر الملك الظاهر بيبرس، وهو يقاتل المغول والصليبيين في معارك الجهاد

إقامة الخلافة العباسية في مصر: ولما أخذ التتار بغداد، وقتل الخليفة، وجرى ما جرى، أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة؛ وذلك من يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦هـ، وهو يوم قتل الخليفة المستعصم - رحمه الله - إلى سنة ٦٥٩هـ؛ فلما كان رجب من هذه السنة، قدم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله، وهو عم الخليفة المستعصم وأخو المستنصر، وقد كان معتقلاً ببغداد ثم أطلق، فكان مع جماعة من الأعراب بالعراق، ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه ملكه، فقدم عليه الديار المصرية صعبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا. وكان دخوله إلى القاهرة في ثاني رجب فخرج السلطان للقائه، ومعه القاضي تاج الدين والوزير والعلماء والأعيان والشهود والمؤذنون فتلقوه، وكان يوماً مشهوداً، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأصحبلهم، ودخل من باب النصر بابه عظيمة.

فلما كان يوم الإثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ، جلس السلطان والخليفة في الإيوان بقلة الجبل والقاضي والوزير والأمراء على طبقاتهم، وأثبت نسب الخليفة على القاضي تاج الدين؛ فلما ثبت قام قاضي القضاة قائماً، وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة. ثم كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ثم السلطان الملك الظاهر، ثم القاضي تاج الدين، ثم الأمراء والدولة، وركب في دست الخلافة بمصر والأمراء بين يديه، والناس

حواله، وشق القاهرة، وكان يوماً مشهوداً، ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه، وخطب له على المنابر، «ضرب اسمه على السكة، وكتبت بيعته إلى الأفاق، وأنزل بقلعة الجبل هو وحشمه وخدمه، فلما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، ركب في أبهة السواد، وجاء إلى الجامع بالقلعة فصعد المنبر، وخطب خطبة ذكر فيها شرف بني العباس، ودعا للسلطان، ثم نزل فصلى بالناس، وكان وقتاً حسناً ويوماً مشهوداً.

ثم ركب الخليفة والسلطان والقاضي والوزراء والأمراء في يوم الإثنين ٤ شعبان ٦٥٩ هـ، وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء، ووقف في عنقه من ذهب، وقيداً من ذهب في رجليه. وهوض إليه الأمور في البلاد الإسلامية، وما سيفتحه من بلاد الكفر. ولقبه بـ (قسيم أمير المؤمنين)، وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الكتاب منبراً، فقرأ عليه تقليد السلطان.

دعوة المغول إلى الإسلام:

جلب الإسلام انتباه المغول، بعد أن استولى جنكيز خان على أفغانستان. وفي أثناء رجوعه إلى منغوليا عام ١٢٢٢م، زار بخاري في ترائس - أوكسيانا. ويعتقد أنه سأل عن الإسلام، وثم وافق على وجود ذوي العقائد الإسلامية - إضافة إلى النصارى، والطوايين، والبوذييين - ولم يوافق على فريضة الحج؛ لأنه رأى غير ضروري ولكنه استمر في عبادته آلهة (تانكري) كما فعل أسلافه.

يرجع أول ظهور للإسلام في منغوليا إلى ١٢٥٤م، عندما زار الفرانسيسكي (وليم من روبريك) بلاط الخن الأعظم مونغا في قراقوروم. احتفل هو بعيد الفصح إيستر والنصارى النسطوريين في الكنيسة، لكنه لاحظ أيضاً ٧ معابد للوثنيين (ربما يقصد المعابد البوذية والطاوية)، مع مسجدين للمسلمين. من هنا يورخ المؤرخون تاريخ وصول الإسلام إلى منغوليا في المدة ما بين ١٢٢٢م-١٢٥٤م.

لكن الفضل الأكبر يعود (بعد الله) إلى الملك الظاهر بيبرس حاكم المماليك، الذي قام بفعل مهم جداً في اعتناق الكثير من مغول القبيلة الذهبية الإسلام. طور بيبرس علاقات قوية مع مغول القبيلة الذهبية، واتخذ خطوات في ترحيل مغول قبيلة الذهبية إلى مصر. وأدى وصول وفود المغول من القبيلة الذهبية إلى مصر ودعوته إلى الإسلام وتعايشهم في البيئة الإسلامية إلى دخول أعداد كبيرة من المغول إلى دين الإسلام، وبالتالي انتشار الإسلام الكاسحة والعديدة ضد المغول منذ عيين جالوت أدى إلى دخول المغول بالآلاف المؤلفة. واعتقت بحلول ١٢٢٠م ثلاثة من الخانات الأربعة العظمى (التي تصنع إمبراطورية المغول) دين الإسلام، وهي القبيلة الذهبية، وأولوس هولاقو، وأولوس شاغاتاي، فضلاً على أنها احتضنت إمبراطورية يوان (الخانة الرابعة) العديد من المسلمين في أقاليمها. مثلاً قبائل يوغورز، والفرس (للمزيد انظر فيما سيأتي: اعتناق المغول الإسلام).

جهاد الملك الظاهر بيبرس:

وأخبار غزواته تفوق الوصف: إذ انتصر على الصليبيين في أكثر من ٢٠ موقعة، استولى فيها على كثير من حصونهم ومدنهم ودوَّخهم، فلم يقدروا عليه. حاصر الظاهر بيبرس في ١٢٦٣م عكا عاصمة ما تبقى من مملكة القدس، فلم يستطع فتحها، لكنه دحر الصليبيين في جميع المعارك اللاحقة (أرسوف، أثليت، حيفا، عصف، يافا، عسقلان، قيصرية). بدأ حصاره على دويلة طرابلس في ١٢٧١م، ثم طلبوا الصلح فقبله في آيار ١٢٧١.

ولعل من أعماله العسكرية: غزوه مملكة أرمينيا المعادية في الشمال والمحالفة للمغول، وهزم عاصمتها سيس، واستيلائه على مدن قيصرية وأرسوف ١٢٦٥م، ويافا في ١٢٦٨م، وفتح في آيار/ مايو ١٢٦٨ دويل أنطاكياء، أعنى المدن الصليبية (قمة أعماله العسكرية ضد الصليبيين - ولم يستطع صلاح الدين الأيوبي فتح أنطاكياء)، ثم

صافيتا وحصن الخروب، ومعظم القلاع الصليبية على الساحل السوري. وحارب الباطنية الملاحدة في شمال سوريا وقضى عليهم، ثم قام بتوظيف الحشاشين تحت المراقبة؛ للقيام بأعمال فدائية معينة مقابل أجر ثابت لكل عملية. وأعاد فتح مملكة أرمينيا وتاديبها مجدداً؛ لنقضها العهد السابقة، ولما ساندتهم المغول في حملاتهم على الشام، وتكرر صده وتدميره للهجمات المغولية العديدة على سوريا، ولعل من أعظم المعارك ضد المغول (بعد عين جالوت) هي معركة حمص الأولى، وتحرير حلب، ثم دحره الجيش المغولي وإلحاق الهزائم به في موقعة القرات، وفي موقعة أبلستين (ضد التحالف المغولي - الصليبي).



المماليك بقيادة بيبرس يدحرون حلفاء المغول النصارى الأرمن في معركة ماري عام ١٢٢٦م، ويقتلون أحد أبناء هيثوم الأول ويقبضون على ابنه الثاني (صار من بعد ذلك الملك ليون الثاني)، ثم قام المماليك بتدمير بلاد أرمينيا الصغرى

ثم إنه أرسل حملة تأديبية إلى بلاد النوبة في الجنوب، وتوفي عام ١٢٧٩ م في أثناء انهماكه في جولة تفقدية لجند المرابطين في الثغور، إذ أعيد جثمانه إلى دمشق ودفن في المدرسة الظاهرية التي سبق له أن أنشأها في مدينة دمشق، تلك التي لا تزال قائمة حتى اليوم. وقد عمت سيرة هذا السلطان المجاهد الشجاع الأفاق في العالم الإسلامي؛ تقديراً لانتصاراته الباهرة وبطولاته الكبيرة في الذود عن حياض الإسلام وديار المسلمين، حتى أصبحت سيرة حياته أسطورة شعبية كبيرة، تتأقلمها السنة الرواة بالحب والإعجاب من جيل إلى جيل، منافسة بذلك السير البطولية الأسطورية الشعبية لعنترة بن شداد، وأبي زيد الهلالي، والمهمل النزيل سالم، وغيرهم.

الحملة الصليبية الثامنة (١٢٧٠م) والحملة الصليبية التاسعة (١٢٧١-١٢٧٢م)؛

انطلق لويس التاسع ملك فرنسا عام ١٢٦٩هـ / ١٢٧٠م، مع عدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيين، إذ إن إخفاق الحملات الصليبية وانحطاط سمعتها صدهم عنها، حتى إن مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع الذي رافقه في حملته السابقة، رفض الانضمام إليه هذه المرة، ويروي هذا المؤرخ أن نبال الحملة الجديدة كان مفاجئاً جداً بالنسبة إليه شخصياً، وبالنسبة إلى الأشخاص الآخرين المقربين من الملك، وأنه أهش البارونات، وكانت المعارضة مُجمَع عليها تقريباً، واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال، ونذر الملك الصليبي أبناءه الثلاثة وبعض تابعي الملك الآخرين، وانفقوا على توجه الحملة نحو تونس، بوصفها قاعدة لقزو مصر. بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس، ولما نزل الصليبيون في تونس، وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود، وعندها انضم شارل الأول كونت أنجو، الأخ الأصغر للويس وملك مملكة نابولي، واستولوا على قلعة قرطاجا القديمة، ولكن وباء الطاعون دب في صفوف فرسان الفرنجة، توفي على إثرها الملك وأفراد الأسرة المالكة المرافقة له، باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذي شفي، ووصل في اليوم نفسه لوفاة الملك في ٢٥ آب ١٢٧٠م، أخوه شارل الأول، وخاضت قواته برفقة قوات لويس بقيادة خلفه فيليب، بضغ معارك ضد قوات أمير تونس، ووقعت معاهدة صلح مع المستنصر في أول

تشرين الثاني ١٢٧٠، ألزمته دفع جزية مضاعفة إلى ملك الصقليين، وشملت حقوقاً تجارية متبادلة، وبعد ١٧ يوماً من التوقيع، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

ثم قام إدوارد الأول بالحملة الصليبية التاسعة ضد السلطان بيبرس عام ١٢٧١م، وكانت بمنزلة ردة فعل لسقوط دولة أنطاكية الصليبية، وكان إدوارد (قبل أن يصبح ملكاً) قد لحق متأخراً ليصبح لويس التاسع في حملته الصليبية الثامنة على تونس عام ١٢٧٠م، فأهلكه الله هناك بالطاعون هو وابنه، وخابت حملته (وقد جيش له الملك بيبرس حملة مضادة عبر ليبيا، فلما علم بموته رجع).

إدوارد الأول ملك إنكلترا، هو الملك الإنجليزي عديم الرحمة، الذي قتل الثائر الإسكتلندي وليام والاص (كما في الفيلم العالمي: القلب الشجاع Brave Heart). وتعد الحملة الصليبية التاسعة خاسرة أيضاً، وفي آخر حملة صليبية على الشرق الأوسط.

كانت آمال الصليبيين في السنوات الأخيرة، وأمام خطر المماليك في مصر معلقةً بالتحالف الصليبي الفرنسي - المغولي. وكان المغول الإيلخانيون متعاطفين ومتعاونين مع النصرانية، بل إن الأمراء الفرنجة تمكنوا من تفعيل تحالفهم وترجمة تعاونهم بفاعلية في عدة حملات مشتركة على الشرق الأوسط عدة مرات، وعلى الرغم من أن المغول استطاعوا بنجاح الهجوم جنوباً في حملات وصلت إلى دمشق، لكن القابلية للتسيق مع الصليبيين في الغرب كانت محبطة ومخيبة لآمال الصليبيين عدة مرات، خصوصاً ضياع الفرصة لمثل هذا التحالف في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م. وتمكن المماليك أخيراً بالإبقاء بوعودهم الصادقة في تطهير الشرق الأوسط كله عن الفرنجة وبعد سقوط دولة أنطاكية (١٢٦٨م على يد الظاهر بيبرس)، ودولة طرابلس (١٢٨٩م على يد الناصر قلاوون)، وأخيراً مملكة عكا (١٢٩١م على يد الأشرف خليل بن قلاوون)، صار الفرنجة الصليبيون الذين يرفضون الخروج من بلاد المسلمين معرضين للقتل أو للعبودية بوصفهم رقيقاً أبيض، ومن ثم اختفت آخر آثار الحكم الصليبي النصراني في المشرق تماماً.

فتوجه إدوارد يصاحبه أخو الملك لويس التاسع (شارلس من أنجو) إلى مملكة الصليبيين في عكا وقبرص، بوصفهما قاعدتي انطلاق لمساعدة طرابلس الصليبية، وفيها أمير أنطاكية المخلوع مع رئيس طرابلس في أثناء حصار الملك الظاهر بيبرس لمدينة طرابلس.



غزوات أبو الفتح الملك الظاهر بيبرس في حربه ضد الفرنجة (الأخضر) والمغول (الأحمر) في أثناء الحملة الصليبية التاسعة

بمجرد وصول إدوارد إلى عكا، بدأ بمحاولته للتخالف الفرنجي - المغولي، وأرسل سفيراً إلى إيلخان المغول "آيغا بن هولاكو" الذي وافق على التعاون العسكري. وبوصول قوات إضافية من قبرص، بدأ إدوارد بالإغارة على ققون، أغار المغول على سوريا في نهاية تشرين الأول ١٢٧١م ونهبوا حلب وما حولها، ولاشتغال آيغا ابن هولاكو بصراعاته في تركستان، لم يستطع إرسال أكثر من ١٠ آلاف فارس مغولي بقيادة سماغار، وأزحل المسلمون بالآلاف لكن المغول لم يثبتوا أمام جيش البطل بيبرس الذي جاءهم من مصر وقارعهم في ١٢ تشرين الثاني ١٢٧١م هزمهم شر هزيمة فتقهقروا إلى ما وراء الفرات.

وتحسباً هجوم بري وبحري على مصر، أنشأ الظاهر بيبرس أسطولاً بحري، وأخذ زمام المبادرة بهجوم بحري لنزال في قبرص في ٢٧١م: من أجل استدراج العدو وسحب قواته من عكا إلى قبرص، لكن العملية البحرية لم تنجح. أراد إدوارد توقيع هدنة مدة ١١ سنة مع بيبرس؛ وذلك بسبب اختلافات الصليبيين الداخلية بين فرسان الهيكل وبين أسرة الصليبيين في قبرص، لكن بيبرس حاول اغتيال الملك إدوارد بإرسال رجال من فرقة الحشاشين تخفوا كتنصاري يطلبون التعميد (وهذا من ذكاء بيبرس)، فاستطاع إدوارد وقرسانه كشمهم وقتلهم. وفتت هذه المحاولة في عضد الملك إدوارد، وثبتت عزائمه للهجوم على القدس، وجاءت الأنباء بوفاة والده الملك هنري الثالث، فوقع الهدنة مع بيبرس على عجل للخروج من معصية حملته الخاسرة، والرجوع إلى بلاده ليتزوج ملك إنكلترا عام ١٢٧٢م. وهذه مقتطفات للتوثيقات العربية لفتوحات بيبرس، من كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لابن تغري بردي:

أرسل الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤هـ عسكرياً، مقدمه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي؛ للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكا وصور وطرابلس وحسن الأكراد، وسبوا وغنموا ما لا يحصى. ونزل الملك الظاهر بنفسه على صفد، ثم رحل إلى دمشق، ولما كان الملك الظاهر تازلاً بصفد وصل إليه رسول صاحب صهيون بهدية جليلة ورسالة عضمونها الاعتذار من تأخيره عن الحضور، فقيل الملك الظاهر الهدية والعذر.

ثم وصلت رسل صاحب سيس (عاصمة مملكة الأرمن) أيضاً بهدية، فلم يقبلها ولا سمع رسالتهم. ثم رحل الملك الظاهر من دمشق يوم السبت ثالث ذي القعدة، وأمر العساكر بالتقدم إلى بلاد سيس للإغارة عليها، وقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماه، وتدير الأمور راجع إلى الأمير آق سنقر الفارقاني، فساروا حتى وصلوا إلى الدرب الذي يخلون منه إليها. وكان صاحبها قد بنى عليها أبرجة فيها مقاتلة، فلما رأوا العسكر تركوها ومضوا، فأخذها المسلمون وهنموها ودخلوا بلاد سيس فنهبوا وأسروا وقتلوا، وكان فيمن أسر ابن صاحب سيس وابن أخته وجماعة من أكابرهم. ودخلوا المدينة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة، وأخذوا منها ما لا يحصى كثيرة، وعادوا نحو دمشق. فلما قاربوها، خرج الملك الظاهر لتلقيهم في ٢ ذي الحجة واجتاز بقارة في ٦ ذي الحجة، فأمر بنهبها وقتل من فيها من الفرنج، فإنهم كانوا يخيفون السبيل ويستأسرون المسلمين، فأراح الله منهم وجعلت كنيسيتها جامعاً، ورتب بقارة خطيباً وقاضياً، ونقل إليها الرعية من المسلمين، ثم التقى العساكر وخلع عليهم وعاد معهم، فدخل دمشق والغنائم والأسرى بين يديه في يوم الإثنين ١٥ شهر ذي الحجة فأقام بها مدة.

ثم خرج عنها طالياً الكرك في مستهل المحرم سنة ٦٦٥هـ، ثم عاد الملك الظاهر إلى ديار مصر، وعند عوده إليها وصل إليه رسل صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، ومعهم فيل وحمار وحش أبيض وأسود وخيول وصيني وتحف، وطلب معاضدة الملك الظاهر له، وشرط له أن يخطب له ببلاده.

ثم خرج السلطان في يوم السبت في ٢ جمادى الآخرة إلى بركة الحب عازماً على قصد الشام على حين غفلة. وجعل نائب السلطنة على مصر الأمير بيليك الخازندار، ورحل في سابع الشهر فوردت عليه رسل صاحب يافا في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بليس آلة الحرب ليلاً، وسار فأصبح يافا وأحاط بها من كل جانب فهرب من كان فيها من الفرنج إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة وطلب أهل القلعة الأمان، فآمنهم وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عكا، وكان أخذ قلعة يافا في الثاني والعشرين من الشهر المذكور وأمر بهدمها.

فلما فرغ السلطان من هدمها، رحل عنها يوم الأربعاء ١٢ رجب طائلاً الشقيف فنزل عليه يوم الثلاثاء وحاصرها حتى تسلمها يوم الأحد ٢٩ رجب، وكان الملك الظاهر أيضاً ملك الياشورة بالسيف في ٢٦ منه.

ثم رحل الملك الظاهر عنها بعد أن رتب بها عسكراً في عاشر شعبان وبعث أكثر أثقاله إلى دمشق، وسار إلى طرابلس فشن عليها الغارة، وأخرب قراها وقطع أشجارها وغور أنهارها.

ثم رحل إلى حصن الأكراد، ونزل بالمرج الذي تحته فحضر إليه رسول من فيه بإقامة وضيافة غردها عليه وطلب منهم دية رجل من أجناده كانوا قتلوه مئة ألف دينار فأرضوه. فرحل إلى حمص ثم إلى حماه ثم إلى أفايا ثم سار ونزل منزلة أخرى.

فتح أنطاكيا: ثم رحل ليلاً وأمر العسكر بليس آلة الحرب، ونزل أنطاكيا في غرة شهر رمضان فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان، وشرطوا شروطاً لم يجب إليها وزحف عليها فملكها يوم السبت رابع الشهر ورتب على أبوابها جماعة من الأمراء: ثلثا يخرج أحد من الحرافشة بشيء من النهب ومن يوجد معه شيء يؤخذ منه. فجمع من ذلك ما أمكن جمعه وفرقه على الأمراء والأجناد بحسب مراتبهم. وحصر من قتل بأنطاكيا فكانوا فوق ٤٠ ألفاً وأطلق جماعة من المسلمين. كانوا فيها أسرى من الحلبيين وكتب البشائر بذلك إلى مصر وإلى سائر الأقطار.

وأنطاكيا: مدينة عظيمة مشهورة مسافة سورها اثنا عشر ميلاً وعدد أبراجها مئة وستة وثلاثون برجاً، وعدد شرفاتها أربع وعشرون ألفاً. ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله رحمة واسعة - في حين فتح، فكم ترك الأول للأخر.

ولما ملك الملك الظاهر أنطاكيا، وصل إليه قُصَاد من أهل القصير يطلبون تسليمها إليه، فسير السلطان الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني بالعساكر إليها فوصل إليها، ووجد أكثر أهلها قد برح منها فتسمهم في ثالث عشر شهر رمضان، وكان قد تسلم دزكوش بواسطة فخر الدين الجناحي في تاسع شهر رمضان، وعاد إلى دمشق فدخلها في ٢٧ رمضان وعيّد السلطان بقلعة دمشق. ثم عاد إلى القاهرة.

تهديد المغول وجواب بيبرس: ولما صار للملك الظاهر بدمشق، وصلت إليه كتب التتار ورسولهم وأرسل: محب الدين دولة خان وسيف الدين سعيد ترجمان وآخر، ومعهم جماعة من أصحاب سييس، فأنزلهم السلطان بالقلعة وأحضرهم من الغد وأدوا الرسالة ومضمونها:

أن الملك أبغا بن هولاكو، لما خرج من الشرق ملك جميع البلاد ومن خالفه قتل وأنت؛ يعني للملك الظاهر له صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا، فالصلحة أن تجعل بيننا صلحاً وأنت مملوك أبعث في سيواس، فكيف تشاق ملوك الأرض وأولاد ملوكها، فأجابه في وقته، بأنه في طلب جميع ما استولوا عليه من العراق والجزيرة والروم والشام، وسفرهم إليه بسرعة.

حج الظاهر بيبرس ودعوته عند الحرمين بالنصرة تصديق في المدينة بصدقات كثيرة، وخرج منها متوجهاً إلى مكة، فوصل إليها في ثامن ذي الحجة، فخرج إليه أبو ثمي وعمره إدريس صاحباً مكة وبذل له الطاعة، فخلع عليهما وساراً بين يديه إلى عرفات فوقف بها يوم الجمعة ثم عاد إلى منى ثم إلى مكة وحطاف بها طواف الإفاضة، وصعد الكعبة وغسلها بماء الورد وطيبها بيده وأقام يوم الاثنين، ثم ركب وتوجه إلى المدينة الشريفة فزار بها قبر النبي ﷺ ثانياً.

ثم توجه إلى الكرك، فوصل إليه في يوم الخميس، التاسع والعشرين من ذي الحجة فمضى به الجمعة. ثم توجه إلى دمشق، فوصل يوم الأحد ثاني المحرم سنة ٦٦٨هـ في السحر، فخرج الأمير جمال الدين آقوش فصادقه في سوق الخيل واجتمع به، ثم سار إلى حلب فوصل إليها في سادس المحرم، ثم خرج منها في عاشره، وسار إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى مصر، وبصحبته الأمير عز الدين الأقرم، فدخلها يوم الأربعاء رابع صفر واتفق ذلك اليوم ودخول ركب الحاج، وكانت العادة يوم ذلك بدخول الحاج إلى القاهرة بعد عاشر صفر، فأقام الملك الظاهر بالقاهرة أياماً، وخرج منها في صفر المذكور إلى الإسكندرية، ومعه ولده الملك السعيد وسائر الأمراء فتصيد أياماً، وعاد إلى نحو القاهرة في يوم الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأول، وخلع في هذه السفرة على الأمراء، وفرق فيهم الخيل والحوادث الذهب والسيوف المحلاة والذهب والدراهم والقماش وغير ذلك. فلم يبق بالقاهرة إلا مدة يسيرة، وخرج منها متوجهاً إلى الشام في يوم الإثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول في طائفة يسيرة من أمرائه وخواصه، فوصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، ولقي أصحابه في الطريق مشقة شديدة من البرد، ثم خرج عقيب ذلك إلى الساحل، وأسر ملك عكا وقتل وأسر وسبي.

في سنة ٦٦٩هـ (بداية الحملة الصليبية التاسعة من قبرص إلى عكا) خرج من مصر إلى عسقلان، في يوم السبت عاشر صفر، في جماعة يسيرة من الأمراء والأجناد، فوصل إلى عسقلان، وهدم من سورها ما كان أهمل هدمه في أيام الملك الصالح، ووجد فيما هدم كوزان مملوءان ذهباً مقدار ألفي دينار، ففرقها على من صحبه وورد عليه الخبر وهو بعسقلان أن عسكر ابن أخي بركة خان المغولي كسر عسكر أبيغا بن هولاكوا، فسُر الملك الظاهر بذلك سروراً زائداً.

وعاد إلى مصر يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول. وانتهى، في هذه السنة، القناطر والجسر الذي عمل على بحر أبي المتجا ووقف عليه الملك الظاهر وفقاً يُعْمَرُ منه ما اندثر منه على طول السنين، بنى الملك الظاهر، في هذه السنة أيضاً جامع أنشئية وأقيمت فيه الخطبة يوم الجمعة ثامن عشرين شهر ربيع الآخر من سنة ٦٦٩هـ.

ويوم الإثنين سابع عشر ذي الحجة ٦٦٩هـ أمر الملك الظاهر بإراقة الخمر في سائر بلاده، وأوعده من يعصمها بالقتل، فأريق على الأجناد والعوام منها ما لا تحصى قيمته، وكان ضمان ذلك في ديار مصر خالصة ألف دينار، في كل يوم، وكتب بذلك توقيع قارئ، وفي العشر الأخير من ذي الحجة اهتم الملك الظاهر بإنشاء شوان (بناء لأسطول المرة الثانية) عوضاً عما ذهب على قبرص، وانتهى العمل من الشواني في يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة سبعين، وركب السلطان إلى الصناعة لإلقاء الشواني في بحر النيل، وركب السلطان في شينين معها الأمير بدر الدين بيك الخازندار. فلما صار الشيني في الماء، مال بمن فيه فوق الخازندار منه إلى البحر، فنهض بعض رجال الشيني ورمى بنفسه خلفه، فأدركه وأخذ بشعره وخلصه، وقد كاد يهلك فخلع عليه الملك الظاهر وأحسن إليه، وخرج الملك الظاهر، في ليلة السبت السابع والعشرين منه، من الديار المصرية إلى الشام في نفر يسير من خواصه وأمرائه، ودخل حصن الكرك وخرج منه وصحب معه نائبه الأمير عز الدين أيدير وسار إلى دمشق، فوصل إليه يوم الجمعة ثاني عشر صفر فعزل عنها الأمير جمال الدين آقوش النجيب، وولى مكانه الأمير عز الدين أيدير لمعزول عن نيابة الكرك.

انتصار بيبرس الساحق على جيش المغول في موقعة الفرات عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م، ثم خرج منها إلى حماه في ٦ صفر ثم عاد منها في ٢٦. وفيها أمر ملك التتار أبقا بن هولأكو عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج عسكره في عدة عشرة آلاف فارس وعليهم الأمير صمغرا والبرواتان، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشم أرسلوا ألفاً وخمسة مئة من المغول ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مقدمهم أمال بن بيجو نوين، ووعلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطنطين ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكيا، فاستأصلوهم، ثم تقدم الملك الظاهر بتجفيف البلاد ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم.

وبعث إلى مصر بخروج العساكر، فخرجت ومقدمها الأمير بيبرس فوصلوا إلى السلطان في خامس شهر ربيع الآخر، وخرج بهم في السابع منه فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم، وكان الظاهر لما مر بحما، استصحب معه الملك المنصور صاحب حماه، ونزل الظاهر حلب يوم الإثنين ثاني عشر شهر ربيع الآخر من سنة ٦٧٠هـ وخيم بالميدان الأخضر، ثم جهز الأمير شمس الدين آق ستمر القارقاني في عسكر، وأمره أن يمضي إلى بلاده حلب الشمالية ولا يتعرض لبلاد صاحب سيس، وجهز الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري في عسكر وأمره بالتوجه إلى حران. فأما القارقاني، فإنه سار خلف التتار إلى مرعش فلم يجد منهم أحداً ثم عاد إلى حلب فوجد الملك الظاهر مقيماً بها. ثم عاد إلى دمشق في خامس المحرم من سنة ٦٧١هـ. وخرج الملك الظاهر من دمشق في المحرم عائداً إلى الديار المصرية فأقام بالقاهرة إلى ليلة الجمعة ثم توجه إلى دمشق فدخل قلعتها ليلة الثلاثاء رابع صفر فأقام بدمشق إلى ٥ جمادى الأولى.

واتصل به أن فرقة من التتار قصدت الرحبة، فبرز إلى القصير فبلغه أنهم عادوا من الرحبة ونزلوا على البيرة، فسار إلى حمص وأخذ مراكب الصيادين على الجمال ليحوز عليها ثم سار حتى وصل إلى الباب من أعمال حلب، وبعث جماعة من الأجناد والعربان لكشف أخبارهم وسار إلى متبج فعادوا وأخبروا أن طائفة من التتار مقدار ثلاثة آلاف فارس على شط الفرات مما يلي الجزيرة، فرحل عن متبج يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ووصل إلى شط الفرات وتقدم إلى العسكر بخوضها، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيبرس في أهل الناس، ثم تبعهما هو بنفسه وتبعته العساكر فوقعوا على التتار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا تقدير مئتي نفس، ولم ينج منهم إلا القليل وتبعهم بيبرس إلى قريب سروج ثم عاد.

وكان على البيرة جماعة كثيرة من عسكر التتار، وكانوا قد أشبهوا على أخذها، فلما سمعوا بقدمه هربوا وتركوا أموالهم وأثقالهم، ودخل السلطان إلى البيرة في أبهة عظيمة، وفرق في أهلها أموالاً كثيرة، ثم عاد إلى دمشق في ثالث جمادى الآخرة ومعه الأسرى وخرج منها نحو الديار المصرية، فخرج ولده الملك السعيد تلقية في يوم الثلاثاء ٩ عشر جمادى الآخرة فاجتمع به بين القصير والصالحية في يوم الجمعة ثاني عشر رجب فترجلاً واعتنقا طولاً ثم ركبا وسارا جميعاً إلى القلعة بالقاهرة، وبين يديهم أسارى التتار ركاباً على الخيل، وكان يوماً مشهوداً. وأخذت اللغة العربية هذا النصر ومما قاله القاضي شهاب الدين أبو الشاء محمود الكاتب، في حوض السلطان الفرات بالجيش:

واحكم قطوع مرادك الأقدارُ
يا ركنه عند الأعادي ثارُ
من مطريات قسليك الأوتارُ
موج الصبا من فعله الآثارُ

سر حيث شئت لك المهيمن جار
لم يبق للدين الذي أظهرته
لما تراقضت الرروس وحركت
خضت الفرات بسابح أفضى به

حملتك أمواج الفرات ومن رأى
وتقصعت فرقاً ولم يك طودها
رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر
شكرت مساعيك المعقل والورى
هذي منعنت وهؤلاء حميتهم
فلأملأن الدهر فيك مدائحاً
بحراً سواك تقلبه الأنهار
إذ ذاك إلا جيشك الجرار
منهم على الجيش السعيد غبار
والسرب والأسناد والأطيار
وسقيت تلك وعمّ ذا الأسار
تبقى بقيت وتذهب الأعصار

وقال الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري رحمه الله وأجاد:

الملك الظاهر سلطاننا
أقبحتم الماء ليطفئ به
تفديده بالأموال والأهل
حرارة القلب من المقل

وقال بعض من شاهد ذلك:

ولما تراءينا الفرات بخيلنا
فاوقعت التيار عن جريانه
سكربنا منا بالقتل والصوارم
إلى حين عدلنا بالغنى والغنائم

انتصار الظاهر بيبرس الساحق على تحالف سلاجقة الروم مع المغول، في موقعة أبلستين والاستيلاء على قيصريا عام ٦٧٢هـ / ١٢٧٧م: جلس الملك الظاهر بدار العدل، في يوم الإثنين سابع المحرم سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٧م، وحكم بين الناس ونظر في أمور الرعية: فأنصف المظلوم وخلص الحقوق ومال على القوي. وفي العاشر منه هدمت عرفة على باب قصر من قصور الخلفاء الفاطميين بالقاهرة.

وفيهما قبض على ملك الكرج: ذلك أنه كان قد خرج من بلاده قاصداً زيارة القدس الشريف متكرراً في زي ترهبان، ومعه جماعة يسيرة من خواصه، فسلط بلاد الروم إلى سيس فركب البحر إلى عكا ثم خرج منها إلى بيت المقدس: فاطلع الأمير بدر الدين الخازندار على أمره وهو على باقا، فبعث إليه من قبض عليه، فلما حضر بين يديه بعثه مع الأمير ركن الدين منكورس إلى السلطان، وكان السلطان قد توجه إلى دمشق فوصل إلى دمشق في رابع عشر جمادى الأولى، فأقبل عليه السلطان وسأله حتى اعترف، فحبسه في برج من أبراج قلعة دمشق، وأمره أن يحث من جهته إلى بلاده من يعرفهم بأسره فبعث نفرين.

ثم ورد الخبر على الملك الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البرزواناج اجتمعوا على نهر جيحان، فلما صعد عسكر الجبل، أشرف على صحراء أبلستين فشاهد التتار قد زنبوا عساكرهم أحد عشر طلياً، في كل طلي ألف فارس وعزلوا عسكر الروم عنهم: خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج طلياً واحداً، فلما تراءى الجمعان، حملت ميسرة التتار حملة واحدة، وصدموها سحق الملك الظاهر، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه ثم لاحت منه التفاتة فرأى لميسرة قد آنت عليها ميمنة التتار، فأمر الملك الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها، ثم حمل هو بنفسه - رحمه الله - فلما رآه العساكر، حملت نحوه برمتها حملة رجل واحد، فترجل التتار عن خيولهم وقاتلوا قتالاً لوت، فلم يعن عنهم ذلك شيئاً، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يكبر في القوم كالأسد الضاري، ويقتحم الأهوال بنفسه ويثجع أصحابه ويطيب لهم الموت في الجهاد، إلى أن أنزل الله تعالى نصره عليه، وانكسر التتار قبح كسرة وقتلوا وأسروا وفر من نجا منهم، فاعتصموا بالجبال، فقصدهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم.

فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقتل منهم جماعة كثيرة، وقتل ممن قاتلهم من عساكر المسلمين الأمير ضياء الدين بن الخطير وكان من الشجعان الفرسان، والأمير شرف الدين قيران العلائي، والأمير عز الدين أخو المحمدي، وسيط الدين قفجاق الجاشنكير والأمير أيلك الشقيفي - رحمهم الله تعالى وأسكنهم الجنة.

وأسر من كبار الروميين مهذب الدين بن معين الدين البرواناه، وابن بنت معين الدين المذكور، والأمير نور الدين جبريل بن جاجا والأمير قطب الدين محمود أخو مجد الدين الأتابك، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير سيف الدين سنقرجاه الزوباشي، والأمير نصرة الدين بهمن أخو تاج الدين كيوي يعني الصهر صاحب سيواس، والأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، والأمير حسام الدين كاوك، والأمير سيف الدين بن الجاويش، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركماني، فوبخهم السلطان الملك الظاهر لكونهم هاتلوه في مساعدة التتار الكفرة ثم سلمهم إلى من احتفظ بهم.

وأسر من مقدمي التتار على الألوف والمئين بركة صهر أبقا بن هولاكو ملك التتار، وسرطق، وحيز كدوس، وسركده، وتماديه.

ولما أسر من أسر وقتل من قتل، نجا البرواناه وسائق حتى دخل قيصرية يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة، واجتمع بالسلطان غياث الدين والنصاحب فخر الدين والأتابك مجد الدين والأمير جلال الدين المستوفي والأمير بدر الدين ميكائيل النائب، فأخبرهم بالكسرة وقال لهم: إن التتار المنهزمين متى دخلوا قيصرية فتكوا بمن فيها حتى على المسلمين، وأشار عليهم بالخروج منها فخرج السلطان غياث الدين بأهله وماله إلى توقات وبينها وبين قيصرية أربعة أيام.

ورصدت اللغة العربية وشعراء الإسلام النصر المبين في هذه الواقعة، فيما قاله العلامة شهاب الدين أبو الشاء محمود الحلبي كاتب المرج في قصيدته:

والأفلا تجفرو الحفون الصوارم
مخلفة تكي عليها الغمائم
احتوت عليه وسوراه الطبا واللاهزم
على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
إذا ما تهدأى موجه المستلطم
له النصر والتأييد عبد وخادم
بركن له الفتح المبين دعائم
حنين كذا تهوى الكرام الكرائم
بشائر الكفار منها مقام
تغورا يكي الشيطان وهي بواسم
وشقتها عنه الإكمام الطواسم
ودا واقع عجزاً ودا بعد حائم
ومن دونه سد من الصخر عاصم
إليه، فلا تقوى عليها القوام

كذا قلتكن في الله تمضي العزائم
عزائم حاذتها الرياح، فأصيحت
سرت من حمى مصر إلى الروم ف
بجيش تطل الأرض منه كأنها
كتائب كالبحر الخضم حيادها
تحيط بمتصور اللواء مظفر
ملك يلود الدين من عزماته
ملك لا يكار الأقاليم نحوه
ملك به الدين في كل ساعة
جلا حين أقدى ناظر الكفر للهدى
إذا رام شيئاً لم يعقه لبعدها
فلو نازع النسرين أمراً لناله
ولما رمى الروم المنيع بخياله
يروم عقاب الجو قطع عقابه

لها النصر طوع والزمان مسالم
بسمير العوالي، ماله الدهر هادم
شموس، وأما في الوغى فضرغام
تبيد الليالي والعدا وهو دائم
كانهم العشاق وهي المباسم
على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم

وسالت عليهم أرضهم بمواكب
أدارت بهم سوراً متيعاً مشرفاً
من الترك أما في المغاني، فإنهم
غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم
فأهوا إلى لنثم الأسنة في الوغى
فلا زلت منصور اللواء مؤيداً

ثم جرد الملك الظاهر الأسير سنقر الأشقر لإدراك ما فات من الترك والتوجه إلى قيصريا، وكتب معه كتاباً يتأمين أهلها وإخراج الأسواق والتعامل بالدرهم الظاهرية.

ثم رحل الملك الظاهر بكرة السبت حادي عشر ذي القعدة قاصداً قيصريا، فمر في طريقه بقرية أهل الكهف ثم إلى قلعة سمندو فنزل إليه واليها مدعياً للطاعة ثم سار إلى قلعة درندا وقلعة قالو، ففعل متولياً كذلك ثم نزل بقرية من قرى قيصريا فبات بها فلما أصبح رتب عساكره، وخرج أهل قيصريا بأجمعهم مستبشرين ببقائه، وكانوا لزولة نصبوا الخيام يوطاة، فلما قرب الظاهر منها ترجل وجوه الناس على طبقاتهم ومشوا بين يديه إلى أن وصل إليها.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر الشهر، ركب السلطان للجمعة فدخل قيصريا ونزل دار السلطنة وجلس على التخت يحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفية والقراء وجلسوا في مراتبهم على عادة ملوك السلجوقية، فأقبل عليه السلطان ومد لهم سماًطاً فأكلوا وانصرفوا، ثم حضر الجمعة بالجامع وخطب له وحضر بين يديه الدراهم التي ضربت له باسمه.

وكتب إليه البرواناه يهنئه بالجلوس على تخت الملك بقيصريا، فكتب الملك الظاهر إليه بعوده ليلوئية مكانه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً وكاد مراد البرواناه يصل أبفا ويحثه على المسير ليدرك الملك الظاهر بالبلاد فاجتمع تتاوون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وعرفه مكر البرواناه في ذلك، فكان ذلك سبباً لرحيل الملك الظاهر عن قيصريا مع ما انضاف إلى ذلك من قلق العساكر، فرحل يوم الإثنين، وكان على اليزك عز الدين آييك الشيخي، وكان الملك الظاهر ضربه بسبب سبقه الناس فغضب وهرب إلى التتار.

وكان أولاد قرمان قد رموا أخاهم الصغير علي بك بقيصريا، فأخرجه الملك الظاهر وأنعم عليه وسأل السلطان في توافيق وسناجق له ولإخوته فأعطاه وتوجه نحو إخوته بجبل لارندا.

وعاد السلطان وأخذ في عوده أيضاً عدة بلاد إلى أن وصل مكان المعركة يوم السبت، فرأى القتلى فسأل عن عدتهم فأخبر أن المغول خاصة ستة آلاف وسبع مئة وسبعون نفساً، ثم رحل حتى وصل أفعجاربند وبعث الخزانة والدهليز والسناجق بصحبة الأمير بدر الدين بيبيك الخازندار ليعبر بها الدريند، وأقام السلطان في ساقية العسكر بقية اليوم ويوم الأحد ورحل يوم الاثنين فدخل الدريند.

ليذكر ابن دقماق في "الجوهر الثمين" في سير الملوك والسلطين تحت أحداث عام ٦٧٥هـ، انتقام التتار الجبان لهزيمتهم النكراء في أبلستين: إذ أمر قائدهم أبفا بمجزرة أهالي قيساريا العزل انتقاماً: (وفيها سافر السلطان إلى دمشق ثم إلى حلب ثم قطع الدريند، وكان على جاليشه سنقر الأشقر، فلقى ثلاثة آلاف من التتار فكسرهم، ثم طلعوا إلى الجبل، فأشرفوا على صحراء أبلستين فعابنوا التتار فد تعبوا أحد عشر كردوساً، كل كردوس ألف، وانعزلوا عز عسكر الروم خوفاً من مخامرهم. فالتقى الجمعان، فترجل التتار ورموا الشباب وهاتلوا أشد قتال.

فقتل منهم النصف وأنهزم الباقون وتبعهم المسلمون، وأرسل السلطان إلى قيساريا أماناً لأهلها، ثم دخل قيساريا، وكان يوماً مشهوداً، ونزل بدار السلطنة وصلى بها الجمعة، فبلغ الملك الظاهر حركة التتار، فخرج منه ورجع، وأسرع أبغا إلى صحراء أبلستين فرأى القتلى، فغضب ورجع إلى قيساريا فقتل من أعيانها جماعة، ثم أمر التتار بالقتل والنهب، فقتلوا من الرعية خلقاً كثيراً فوق مئة ألفاً).

ثم سار إلى أن وصل إلى دمشق، في سابع المحرم سنة ست وسبعين وست مئة، ونزل بالجوسق المعروف بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر، وتواترت عليه الأخبار بوصول أبغا ملك التتار إلى مكان الوقعة، فجمع السلطان الأمراء وضرب مشورة فوقع الاتفاق على الخروج من دمشق بالعساكر وتلقيه حيث كان، فأمر الملك الظاهر بضرب الدهليز على القصر. وفي أثناء ذلك وصل رجل من التركمان وأخبر أن أبغا عاد إلى بلاده هارباً خائفاً ثم وصل الأمير سابق الدين بيسري أمير مجلس الملك الناصر صلاح الدين وهو غير بيسري الكبير وأخبر بمثل ما أخبر التركماني، فعند ذلك أمر الملك الظاهر برد الدهليز إلى الشام.

وكان عود أبغا من الطاف الله تعالى بالمسلمين، فإن الملك الظاهر في يوم الجمعة نصف المحرم من سنة ست وسبعين ابتداء به مرض الموت.

وفاة الملك الظاهر بيبرس (رحمه الله): لما كان يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة ٦٧٦هـ، جلس الملك الظاهر بالجوسق الأبلق بميدان دمشق يشرب الخمر، وبات على هذه الحالة، فلما كان يوم الجمعة خامس عشره وجد في نفسه فتوراً وتوعكاً فتسكا ذلك إلى الأمير شمس الدين سنقر الألفي السلحدار، فأشار عليه بالقيء فاستدعاه فاستعصى عليه القيء، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب من الجوسق إلى الميدان على عادته والألم مع ذلك يقوى عليه وعند الغروب عاد إلى الجوسق.

فلما أصبح اشتكى حرارة في بطنه، فصنع له بعض خواصه دواء ولم يكن عن رأي طبيب فلم ينفع وتضاعف ألمه، فأحضر الأطباء فأنكروا استعماله الدواء وأجمعوا على استعمال دواء مسهل، فسقوه فلم ينفع، فحركوه بدواء آخر كان سبب الإفراط في الإسهال ودفع دماً، فتضاعفت حماه وضعفت قواه، فتخيل خواصه أن كبده يتقطع وأن ذلك عن سم سقيه فعولج بالجواهر، وأخذ أمره في انحطاط وجهه المرض وتزايد به إلى أن قضى نحبه يوم الخميس بعد صلاة الظهر ٢٧ المحرم، فاتفق رأي الأمراء على إخفائه وحمله إلى القلعة؛ لئلا تشعر العامة بوفاته ومنعوا من هو داخل من الممالك من الخروج ومن هو خارج منهم من الدخول.

فلما كان آخر الليل حمله من كبار الأمراء سيف الدين قلاوون الألفي وشمس الدين سنقر الأشقر وبدر الدين بيسري وبدر الدين بيليك الخازندار وعز الدين أقوش الأفرم وعز الدين أيبك الحموي وشمس الدين سنقر الألفي الظاهري وعلم الدين سنجر الحموي أبو خرص وجماعة من أكابر خواصه.

وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه مهتازة الشجاع عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المتيجي، والأمير عز الدين الأفرم ثم جعل في تابوت، وعلق في بيت من بيوت البحرية بقلعة دمشق إلى أن حصل الاتفاق على موضع دفنه. وكانت مدة ملكه ١٩ سنة وشهرين ونصفاً.

وأما صدقاته، فكان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف إردب قمح في الفقراء والمساكين وأرياب اقزوايا.

وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم.

ووقف وقفاً على تكمين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر.

ووقفاً ليشتري به خبز ويفرق في فقراء المسلمين.

وأصلح قبر خالد بن الوليد ؓ بحمص.

ووقف قفاً راتباً على من هو فيه من إمام ومؤذن وغير ذلك.

ووقف على قبر أبي عبيدة بن الجراح ؓ.

ووقفاً مثل ذلك، وأجرى على أهل الحرمين والحجاز وأهل بدر وغيرهم ما كان انقطع في أيام غيره من الملوك.

وأما عمائره: من المدارس والجوامع والأسبلة والأريطة، فكثيرة وغالبها معروفة به وكان يخرج كل سنة جملة مستكثرة يستفك بها من حبسه القاضي من المقلين، وكان يرتب في أول شهر رمضان بمصر والقاهرة مطابخ لأنواع الأطعمة وتفرق على الفقراء والمساكين.

وأما حرمة ومهابته، فمنها: أن جماعة من التجار خرجوا من بلاد العجم قاصدين مصر، فلما مروا بسييس منعهم صاحبها من العبور، وكتب إلى أبغا ملك التتار فأمره أبغا بالحوطة عليهم وإرسالهم إليه، وبلغ الملك الظاهر خبرهم فكتب إلى نائب حلب بأن يكتب إلى نائب سييس: إن هو تعرض لهم بشيء يساوي درهماً واحداً أخذت عوضه مراراً، فكتب إليه نائب حلب بذلك فأطلقهم وصانع أبغا بن هولاءكو على ذلك بأموال جلييلة حتى لا يخالف مرسوم الظاهر وهو تحت حكم غيره لا تحت حكم الظاهر.

ومنها: أن تواقيعه التي كانت بأيدي التجار المترددين إلى بلاد القبحاق بإعفائهم من الصادرات والوارد، كان يعمل بها، حيث حلوا من مملكة بركة خان ومنكوتمر وبلاد فارس وكرمان.

وكان الملك الظاهر يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يخف عليه من أحوالهم شيء، وكان يقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب، وكانت ترد عليه الأخبار وهو بالقاهرة بحركة العدو، فيأمر العسكر بالخروج وهم زيادة على ثلاثين ألف فارس فلا يبيت منهم فارس في بيته، وإذا خرج من القاهرة لا يمكن من العود إليها ثانياً.

ومن حزمه ومهابته أنه في بداية حكمه في عام ٦٦٢ هـ، كثر الحريق بمصر والقاهرة، فقالوا للسلطان: هذا الحريق من التتار، فأمر السلطان بجمع التتار من مدينتي مصر والقسطنطين والقاهرة، فلما اجتمعوا أمر بحريقهم، فجمعت الأحطاب والحلفاء، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتابك العسكر، على أن يلتزموا الأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار. الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق.

والذي افتتحه من أيدي الفرنج - خذلهم الله - قيساريا وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف وأنطاكية وبغراس والتصير وحسن الأكراد وعكار والقرين وصافيا ومرقيا. وناصفهم على المرقب وبانياس وبلاد أنطوطوس وعلى سائر ما بقي في أيديهم من البلاد والحصون وغيرها، واستعاد من صاحب سييس دريساك ودركوش وربعان وكرتيان وبلاداً آخر.

والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دمشق وعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبة ودلوياء وتل بشر، وهذه البلاد انتقلت إليه عن الملك الأشرف صاحب حمص في سنة اثنتين وستين مئة. وصهيون وبلاطس وبرزيه وهذه منتقلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد وعمه عز الدين، وحصون إسماعيلية وهي: الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابي والرصافة ومصيف والقلعة والشوبك والكرك.

وما انتقل إليه عن التتار: بلاد حلب الشمالية بأسرها وشييزر والبيرة. وأما ما افتتحه من البلاد وصار إليه من أيدي المسلمين فعدة بلاد وقلاع. وفتح الله على يديه بلاد النوبة، وفيها من البلاد مما يلي أسوان جزيرة بلاق ويلي هذه البلاد بلاد العلا وجزيرة ميكائيل وفيها بلاد وجزائر الجنادل وهي أيضاً بلاد، ولما فتحها أنعم بها على ابن عمه المتأخوذة منه ثم ناصفه عليها ووضع عليه عبيداً وجواري وهجنأ وبقراً وعن كل بالغ من رعيته ديناراً في كل سنة. وكانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات.

مبانيه: وأما مبانيه فكثيرة؛ منها ما هدمه التتار من المعقل والحصون. وجدد جامع الأتور - أعني جامع الظاهر العبيدي - المعروف الآن بجامع الفاكهيين والجامع الأزهر. وبنى جامع العافية بالحسينية وأنفق عليه فوق الألف ألف درهم. وأنشأ قريئاً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرنأ وعمر بالمقياس قبة رقيقة مزخرفة، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية، وجدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين ببرقة وقلعة السويس.

وعمر جسرأ بالقليوبيا والقناطر على بحر أبي المنجا وقنطرة بمنية السيرج وقنطرتين عند القصير على بحر إبراش بسبعة أبواب، مثل قنطرة بحر أبي المنجا، وأنشأ في الجسر الذي يسلك فيه إلى دمياط ست عشرة قنطرة، وبنى على خليج الإسكندرية قريئاً من قنطرتها قنطرة عظيمة يعقد واحد، وحضر خليج الإسكندرية وكان قد ارتدم بالطين، وحضر بحر أشموم وكان قد عمي. وحضر ترعة الصلاح وخورسخا وحضر المحامدي ولكافوري، وحضر في ترعة أبي الفضل ألف هصبية وحضر بحر الصمصام بالقليوبيا وحضر بحر سردوس.

وتمم عمارة حرم رسول الله ﷺ وعمل منبره وجعل بالضريح النبوي درايزناً، وذهب سقوفه وجدد لها وبيض حيطانه وجدد البيمارستان بالمدينة النبوية، ونقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة، وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية.

وجدد في الخليل عليه السلام قبته، ورم شعثه وأصلح أبوابه وميضأته وبيضه وزاد في راقبه. وجدد بالقدس الشريف ما كان قد تهدم من قبة الصخرة، وجدد قبة السلسلة وزخرفها، وأنشأ بها خاناً للسبيل نقل يه من دهلز كان للخلفاء المصريين بالقاهرة وبنى به مسجداً وطاحوناً وفرنأ وبستاناً.

ووسع عمارة مشهد جعفر الطيار عليه السلام، ووقف عليه وقفأ زيادة على وقفه على الزائرين له والوافدين عليه. وعمر جسرأ بقرية دامية بالغور على نهر الشريعة، ووقف عليه وقفأ برسم ما عساه يتهدم منه. وأنشأ جسرأ كثيرة بالغور والساحل.

وأنشأ قلعة قاقون وبنى بها جامعأ، ووقف عليه وقفأ وبنى على طريقها حوضأ للمسبيل. وجدد جامع مدينة الرملة، وأصلح جامعأ لبني أمية ووقف عليه وقفأ. وعدة جوامع ومساجد بالساحل.

وكل ذلك من كثرة عدله وإضافه للرعية والنظر في أمورهم، وإنصاف الضعيف من المستضعف. الذب عنهم من العدو المخدول. رحمه الله وعفا عنه.

يقول الذهبي في ترجمته في تاريخ الإسلام:

(السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح البندقداري الصالح النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام. ولد في حدود ٦٢٠هـ، قبلها بقليل أو بعدها. وأصله من صحراء القفجاق فأبيع بدمشق ونشأ بها، فيقال: كان مملوكأ للعماد الصائغ الذي كان يسكن عند المنكلانية... ثم اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالح، فطلع بطلاً شجاعاً نجيباً لا ينبغي أن يكون إلا عند ملك. فأخذ الملك الصالح إليه وصدر من جملة

البحرية، وشهد وقعة المنصورة بدمياط، وصار أميراً في الدولة المعزية، وتقلبت به الأمور... واشتهر بالشجاعة والإقدام، وبعد صيته. ولما سارت الجيوش المنصورة من مصر لحرب التتار، كان هو طليعة الإسلام، وجلس على سرير الملك بعد قتل المظفر، وذلك في ١٧ ذي القعدة من سنة ٦٥٨هـ بقلعة الجبل. وكان أستاذة البندقدار من بعض أقرانه، وكان غازياً، مجاهداً، مرابطاً، خليفاً للملك، لولا ما كان فيه من الظلم والله يرحمه ويغفر له ويسامحه، فإن له أياماً بيضاء في الإسلام، ومواقف مشهودة، وفتوحات معدودة، وله سيرتان كبيرتان لابن عبد الظاهر ولابن شاداد رحمهما الله، لم أقف عليهما بعد.

وقد دخل الروم، قبل موته بشهرين، وكسر التتار، ودخل مدينة قيسرياً، وجلس بها في دست الملك، وصلّى بها الجمعة، وخطبوا له، وضربت السكة باسمه، وذلك في ذي القعدة، ثم رجع وقطع الدربند، وعبر النهر الأزرق، ودخل دمشق في سابع المحرم مؤيداً منصوراً، فنزل بالقلعة، ثم انتقل إلى قصره الأبلق، فمرض في نصف المحرم، وانتقل إلى عمه الله وسعة رحمته يوم الخميس بعد الظهر ٢٨ من المحرم بالقصر، وحمل إلى القلعة ليلاً مع أكابر أسرته، وغسله وصبره المهتار شجاع الدين عنبر، والكمال علي بن المنيحي الإسكندراني المؤذن، والأمير عز الدين الأفرم، ووضع في تابوت، وعلق في بيت بالقلعة، وهو في أول عشر الستين، وخلف عشرة أولاد: الملك السعيد محمد، وسلامش، وخضر، وسبع بنات. قال ذلك الشيخ قطب الدين، وقال: كان له عشرة آلاف مملوك إكنا يشتريهم يعلمهم الإسلام ويديريهم على الانضباط والعسكرية، ويعتقهم ليكونوا من فرسانه ومن أبطال الإسلام.

وحكى الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري الحموي، قال: كان الأمير علاء الدين البندقدار الصالحي، لما قبض وأُخِذَ إلى حمام واعتقل بجوامع قلعتها، اتفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر، وكان الملك المنصور إذ ذاك صبيّاً، فأراد شراء رقيق تبصره صاحبة والدته، فأخضر بيبرس هذا وخشداشه، فرأتهما من وراء الستر، فأمرت بشراء خشداشه، وقالت: هذا الأسير لا يكن بينك وبينه معاملة، فإن في عينيه شراً لا تحب، فردهما جميعاً، فطلب البندقدار الغلامين، فاشتراهما وهو معتقل، ثم أفرج عنه، وسار بهما إلى مصر، وأل أمر ركن الدين إلى ما كان. وقد سار غير مرة في البريد حال سلطته، وعمل في حصارات المدائن التي أخذها من الفرنج في بديل نفسه وقرط هدامه على المخاوف ما يقضى منه العجب، فيه يضرب المثل، وإليه المنتهى في سياسة الملك وتقصد أحوال جنده، فهو كما قيل: لولا نقص عدله، لكان أحوثاً نسيج وحده وقد أمد للأمر أقرانها، أقامه الله وقت ظهوره هولاكو بأبنا فهاياه، واتجما عن البلاد، انتهى.

السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون بن عبد الله الصالحي الألفي (٦٧٨-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م)

من سلاطين المماليك البحرية العظام، واسمه قلاوون الألفي: لأن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتراه بألف دينار لبراعته القتالية الفريدة، ثم تولى تربيته وتدريبه فكان من أكابر الأمراء عنده وبعده. أبلى بلاءً حسناً في معركة المنصورة في الحملة الصليبية السابعة، وكان مقدم الجيوش والبطل المغوار المجاهد عند السلطان الظاهر بيبرس.

ولما تزوج الملك السعيد بن الظاهر بيبرس بابنته غازية خاتون، عظم شأنه جداً عند الظاهر، وما زال يترفع في الدولة حتى صار أتاك ولد من بعده. وفي عام ٦٧٨هـ اتفق وقوع الخلاف بين الممالك كلها، فاختلف التتار فيما بينهم واقتتلوا فقتل منهم خلق كثير، واختلف الفرنج في السواحل وصال بعضهم على بعض وقتل بعضهم بعضاً، وكذلك وقع الخلاف بين الأمراء الظاهرية: لأن السلطان الملك السعيد بن الظاهر بيبرس لما بعث الجيش إلى سيس عاصمة أرمينية) أقام بعده بدمشق، وأخذ في اللهو واللعب والانبساط مع خاصته، الذين تمكنوا من الأمور، وأبعد عنه الأمراء الكبار، الذين قالوا: (الملك لا ينبغي له أن يلعب ويلهو، إنما همّة الملوك في العدل، ومصالح المسلمين،

والذبح عن حوزتهم، كما كان أبوه). وصدقوا فيما قالوا، فإن لعب الملوك والأمراء وغيرهم دليل على زوال النعم، وخراب الملك، وفساد الرعية؛ فحدث خلاف داخلي سرعان ما انتهى باتفاق الجميع مع الأمير سيف الدين قلاوون الأتقي الصالح على أن يترك الملك السعيد الملك ويخلع نفسه (دام حكمه سنتين)، ويعوض بإمارة الكرك والشوبك، ويكون في صحبته أخوه نجم الدين خضر، وتكون الملكة لأخيه الصغير بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس (عمره يومئذ ٧ سنين)، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه (أي: المشرف عليه).

ثم بعد أشهر قلائل، وأمام التحديات الكبيرة في الأمة الإسلامية، اتفق المماليك والقضاة والأعيان على خلع سلامش ابن الظاهر، وأخرجوه من بين، واتفقوا على بيعه الملك المنصور قلاوون الصالح، ولقبوه الملك المنصور (انظر "البداية والنهاية" لابن كثير ١٣ ج/ص ٢٣٧). واستقل قلاوون بالملك عام ٦٧٨هـ حتى توفي عام ٦٨٩هـ وكانت مدة حكمه ١١ سنة.

جاهد هذا السلطان على افتداء الأسرى الأتراك لدى المغول، حيث يجري تحريرهم من عبودية الأسر ودفع الفدية المطلوبة عنهم من أموال السلاطين، أو الأمراء الخاصة، أو من أموال خزينة الدولة؛ لتجنيدهم بصفة تلاميذ عسكريين يتلقون التربية والتعليم الكافيين أولاً، ثم يتلقون التدريبات العسكرية المختلفة بأجود المقاييس؛ ليتخرجوا فرساناً أكفاء قادرين على خوض الحروب وكسب المعارك وإحراز الانتصارات.

ومن أهم أعماله: قيادته الجيوش الإسلامية إلى بلاد الشام؛ لمحاربة المغول في ملحمة حمص الثانية، حيث استطاع هزيمتهم وجرح/قتل قائدهم منكوتمر، ثم قاد جيشه وفتح حصن المرقب المنيع عام ٦٨٢هـ. وقم بإنشاء دار صناعة (ترسانة) جديدة في الإسكندرية، وطور صناعة المجانيق الجبارة؛ لفتح الحصون المستعصية ثم سار إلى دولة طرابلس الشام الصليبية واستطاع تحريرها عام ٦٨٨هـ من أيدي الصليبيين الذين احتلوها مدة ١٩٥ عاماً (من ٥٠٣ حتى ٦٨٨هـ)، ومن ثم عزم على فتح عكا، وبرز إليها، فعاجلته المنية في ٢٦ ذي القعدة، عام ٦٨٩هـ. وأكمل المشوار ابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، والجدير بالذكر أن الناصر صلاح الدين الأيوبي له يستطع فتح حصن المرقب، ولا فتح دولة طرابلس.

ملحمة الإسلام بقيادة سيف الدين قلاوون والانتصار على المغول في معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م.

وثق ابن تغري بردي تفاصيل هذه الواقعة الفاصلة الرهيبة في تاريخ الإسلام، في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(وكان سبب حركة التتار أنهم لما سمعوا اختلاف الكلمة، وظنوا أن سنقر الأشقر بمن معه يتفق معهم على قتال الملك المنصور قلاوون لاختلاف سنقر الأشقر مع قلاوون على طريقة وصوله إلى الحكم، ثم اصطلحا، لكن حاول المغول استغلال الموقف وبتأثر الفرقة بينهما، ففشلوا).

فأرسل أمراء العساكر المصرية إلى سنقر الأشقر يقولون له: (هذا العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلاف بيننا، وما ينبغي هلاك الإسلام، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه)، فامتثل سنقر ذلك، وأنزل عسكره من صهيون وأمر رفيقه الحاج أزدمر أن يفعل كذلك من شيزر، وخيّم كل طائفة تحت قلعتهما ولم يجتمعا بالمصريين، غير أنهم اتفقوا على اجتماع الكلمة ودفع العدو المخذول عن الشام...

وبينما السلطان في ذلك ورد عليه مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق، فتهيأ لقتالهم وأرسل يطلب عساكر الحضرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصر إلى دمشق، واجتمعت العساكر عند السلطان ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف.

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف بلاد حلب، فحلت حلب من أهلها وجندوها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص، وتركوا الغلال والحواصل والأمتعة وخرجوا جرائد على وجوههم، ثم ورد الخبر بوصول منكوتمر بن هولاكو ملك التتار إلى عين تاب وما جاورها في يوم الأحد ٢٦ جمادى الآخرة أوكان فيهم ملك التتار إيفا مختفياً يتظر ماذا يفعل أصحابه، وكيف يقاتلون أعداءه، فخرج الملك المنصور قلاوون بعساكره في يوم الأحد المذكور لوقت الخطباء والأئمة في الجوامع والمساجد في الصلوات وغيرها، وخيم بالمرج، ووصل التتار إلى بقراس، فقدم تلك المنصور عسكره أمامه، ثم سافر هو بنفسه في سلخ جمادى الآخرة المذكور وسار حتى نزل السلطان بعساكره على حمص في يوم الأحد ثالث عشرين شهر رجب، وأرسل سنقر الأشقر بالحضور إليه بمن معه من الأمراء والعساكر، وكذلك الأمير أيتمش السعدي الذي كان هرب من عند السلطان لما قبض على الأمراء الظاهرية، فقامت سنقر الأشقر أمر السلطان بالسمع والطاعة وركب من وقته بجماعته وحضر إلى عند الملك المنصور قلاوون واستخلفه لأيتمش السعدي يميناً ثانية؛ ليزداد طمأنينة، ثم أحضره وتكامل حضورهم عند السلطان، وعمل السلطان سنقر الأشقر بالاحترام التام والخدمة البالغة والإقامات العظيمة والرواتب الجلية.

شرعت التتار تتقدم قليلاً قليلاً بخلاف عاداتهم، فلما وصلوا حماة أقسدا بنواحيها وسعتوا وأحرقوا بستان ملك المنصور صاحب حماة وجوسقه وما به من الأبنية. واستمر عسكر السلطان يظهر حمص على حاله إلى أن وصلت التتار إليه يوم الخميس رابع عشر شعبان، فركب الملك المنصور بعساكره وصافى العدو والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عدد التتار على ما قيل مئة ألف فارس أو يزيدون، وعسكر المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتوافقوا من ضحوة النهار إلى آخره وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهما.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: وكانت وقعة عظيمة لم يشهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة، وكان الملتقى فيما بين مشهد خالد بن الوليد عليه السلام إلى النرسن والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها وانهمز من كان بها، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر وثبت الملك المنصور سيف الدين قلاوون رحمه الله تعالى في جمع قليل بالقلب ثباتاً عظيماً، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحرق جماعة من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب وبذلوا نفوسهم بسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسوقة والعلماء والرجال المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة. وأشرف الإسلام على خطة صعبة، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرهم وشجعانهم مثل: سنقر الأشقر المقدم ذكره، وبدر الدين يسري، وعلم الدين سنجر الدواداري، وعلاء الدين طيبرس الوزيري، وبدر الدين بيليك أمير سلاح، وسيف الدين أيتمش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، والأمير حسام الدين طرنطاي وأمثالهم، لما رأوا ثبات السلطان ردوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة وجرح منكوتمر مقدم التتار، وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عريه عرضاً، فتمت هزيمتهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تجاوز الوصف. واتفق أن ميسرة المسلمين كانت انكسرت كما ذكرنا والميمنة سافت على العدو، ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير والأمير حسام الدين طرنطاي قدماه بالسناجق، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به وفي ذلك النفر تحت السناجق - يعني الملك المنصور قلاوون - والكوسات تضرب.

قال: ولقد مررت به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف فارس إلا دون ذلك فلما مروا به - يعني ميمنة

النتار التي كانت كسرت ميسرة المسلمين للإجهاز على القلب وقتل السلطان - ثبت لهم ثباتاً عظيماً ثم ساق عليهم بنفسه ، فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء وكان ذلك تمام النصر. كان انهزامهم عن آخره قيس الغروب واقتربوا فرقتين: فرقة أخذت جهة سلمية والبرية ، وفرقة أخذت جهة حلب والفرات.

ولما انقضت الحرب في ذلك النهار عاد السلطان إلى منزلته وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب، جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان ومقدمهم الأمير بدر الدين بيلىك الأيدمرى، وكان لما لاحت الكسرة على المسلمين نهب لهم من الأقمشة والأمتعة والخزائن والسلاح ما لا يحصى كثرة، وذهب تلك كله أخذته الحرافشة من المسلمين مثل الفلمان وغيرهم.



انتصار المسلمين بقيادة قلاوون (إلى اليمين)

وهزيمة المغول وهروبهم (إلى اليسار) في معركة حمص في ٢٩ تشرين الأول ١٢٨١م

وكتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد، وحصل للناس السرور الذي لا مزيد عليه، وعملت القلاع وزيت المدن، وأما أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولاً بكسرة المسلمين ووصل إليهم جماعة ممن كان انهزم، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملقى النتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد وأكثروا من الابتهاال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترقون عن ذلك حتى ورد عليهم هذا النصر العظيم ولله الحمد وطابت قلوب الناس ورد من كان نزح عن بلاده وأوصانه وأطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك.

وقتل في هذه الواقعة من النتار ما لا يحصى كثرة، وكان من استشهد من عسكر المسلمين دور المئين على ما قيل، ومن قتل الأمير الحاج أرذمر وسيف الدين بلبان الرومي وشهاب الدين توتل الشهرزوري وشيخ الدين بن النصرة من بيت الأتابك صاحب الموصل وكان أحد الشجعان المشرطين في الشجاعة رحمهم الله تعالى أجمعين.

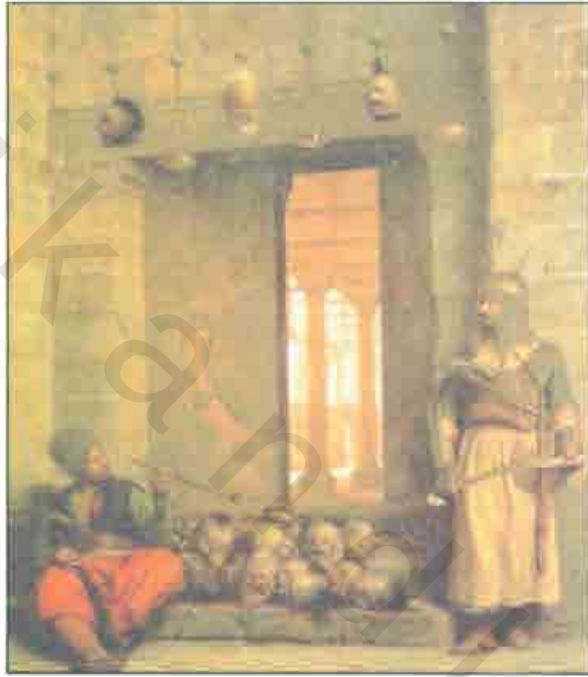
ثم إن السلطان انتقل من منزلته بظاهر حمص إلى البحيرة التي بخص: ليبعد عن الحيف، ثم توجه عائداً إلى دمشق فدخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان قبل الصلاة، وخرج الناس إلى ظاهر البلد للقائه فدخل دمشق وبين يديه جماعة من أسرى النتار وبأيديهم رماح عليها رؤوس القتلى منهم، فكان يوماً مشهوداً.

ودخل السلطان الشام وفي خدمته جماعة من الأعيان منهم:

سنقر الأشقر الذي كان تسلطن وتلقب بالملك الكامل، وآيتمش السعدي، والأمير علم الدين سنجر الدواداري، ولبان الهاروني، ثم قدم بعد ذلك الأمير بدر الدين الأيدمرى بمن معه من العسكر عائداً من تتبع النتار

بعد ما أنكى فيهم نكايه عظيمه ، ووصل إلى حلب وأقام بها وسير أكثر من معه يتبعونهم . فهلك من التتار خلق كثير غرقوا بالفرات عند عبورهم . وعندما عدوه نزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم جمعاً كثيراً وتفرق جمع التتار وأخذت أموالهم . وانهزموا في أسوأ حال وأتعبه يتخطفون من كل جانب ، ويقتلون من كل فج ، حتى وصلوا إلى الفرات ففرق أكثرهم ، ونزل إليهم أهل البيرة فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا آخرين وجيوش في آثارهم يطردونهم عن البلاد حتى أراح الله تعالى منهم الناس .

وقد استشهد في هذه الوقعة جماعة من سادات الأمراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين أرذمر جمدار ، وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر ، فإنه خاطر بنفسه وأوهم أنه مقفر إليه وقلب رمحه حتى وصل إليه فطعته فجرحه فقتلوه رحمه الله تعالى ، ودفن بالقرب من مشهد خالد .



أباد المماليك المسلمون في عين جالوت، وحمص الأولى،
والفرات، وأبلستين، وحمص الثانية، وشحجب، جيوش المغول
الغازية التي أشيع أنها لا تقهر، وقام أبطال المماليك بإذكاء
روح الجهاد وعسكرة العالم الإسلامي، وقاموا بتصيب رؤوس
المغول المقطوعة على أبواب المساجد لرفع همم المسلمين.

وأقام السلطان بدمشق إلى ثاني شهر رمضان خرج منه عائداً إلى الديار المصرية ، وخرج الناس لوداعه مبتهلين بالنداء له . وسار حتى دخل الديار المصرية يوم ثاني عشرين الشهر بعد أن احتفل أهل مصر لملاقاته وزينت الديار لصورة زينة لم ير مثلاً من مدة سنين ، وعملت بها القلاع ، وشق القاهرة في مروزه إلى قلعة الجبل حتى طلع إليها ، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة وتضاعف سرور الناس بسلامته وبنصر المسلمين على العدو المخدول . انتهى

وقد جاء إيقاع ملك التتار نفسه ، فنزل قريباً من الفرات : ليرى ماذا يكون من الأمر ، فلما جرى عليهم ما جرى ساء ذلك ومات غماً وحزناً . ولم يكن بعد هولاكو في التدبير والحزم مثله ، ولم تكن وقعة حمص هذه برأيه ولا عن مشورته ، ولكن أخوه منكوتمر أحب ذلك ، فلم يخالفه . توفي بين العيدين من هذه السنة ، وقام بالملك بعده ولده

السلطان أحمد المسلم، وسر السلطان قلاوون بخير إسلام أحمد بن هولاكو. وأرسل ملك التتار أحمد المسلم في ٦٨١هـ إلى الملك المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم، وجاء في الرسالة الشيخ قطب الدين الشيرازي أحد تلامذة النصير الطوسي، فأجاب المنصور إلى ذلك، وكتب المكاتبات إلى ملك التتار بذلك.

لكن في ٦٨٢هـ اختلف التتار فيما بينهم على ملكهم السلطان أحمد فعزلوه عنهم وقتلوه، وملكوا عليهم السلطان أرغون بن أبغا، ونادوا بذلك في جيشهم، وتأطدت أحوالهم، ومشت أمورهم على ذلك. وبدأت دولة السلطان أحمد، وقامت دولة أرغون بن أبغا ملك التتار، وكان سفاكاً للدماء: قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو، فعظم في أعين المغول، مات عام ٦٩٠هـ من شراب شربه فيه سم، فاتهمت المغول اليهود به - وكان وزير سعد الدولة ابن الصفي يهودياً - فقتلوا من اليهود خلقاً كثيراً، ونهبوا منهم أموالاً عظيمة جداً في جميع مدائن العراق، ثم اختلفوا فيما بينهم يقيمونه بعده، فمالت طائفة إلى كيخسرو فأجلسوه على سرير المملكة فيقي مدة، قيل سنة وقيل أقل من ذلك، ثم قتلوه وملكوا بعده بيدرا.

وجاء الخير بوفاء أرغون إلى الملك الأشرف وهو محاصر عكا ففرج بذلك كثيراً، وكانت مدة ملك أرغون ٨ سنين، وقد وصفه بعض مؤرخي العراق بالعدل والسياسة الجيدة.

فتح حصن المرقب المنيع ومدينة مرقية عام ٦٨٢هـ:

وكان في نفس السلطان من أهل المرقب: لما فعلوا مع عسكرهم ما فعلوا في السنين الماضية، فنازل السلطان حصن المرقب في يوم الأربعاء ١٠ صفر، وشرع العسكر في عمل الساتر والمجانيق، فلما انتهت الساتر التي للمجانيق حملتها المقاتلة لباب الحصن، فسقطت الساتر إلى بركة كبيرة كان عليها جماعة من أصحاب الأمير علم الدين سنجر الديوبداري منهم: شمس الدين سنجر أستاذاره وعدة من هماليكه فاستشهدوا جميعهم رحمهم الله تعالى.

ثم حضر رسل الفرنج في يوم الأحد ١٤ من الشهر من عند ملكهم الإسبتار، وسألوا السلطان السِّلح والأمان لأهل المرقب على نفوسهم وأموالهم ويسلمون الحصن المذكور، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك.

وأكمل نصب المجانيق ورمى بها وشعث الحصن وهدم معظم أبراجه، واستمر الحال إلى ١٦ شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان على الحصن فأذعن من فيه بالتسليم، وحصلت المراسلة في معنى ذلك.

فلما كان يوم الجمعة ١٨ شهر ربيع الأول المذكور سلم، ورفعت عليه الأعلام الإسلامية، ونزل من به بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهز معهم من أوصلهم إلى أنطوطوس. وبالقرب من هذا الحصن مرقية، وهي بلدة صغيرة على البحر وكان صاحبها قد بنى في البحر برجاً عظيماً لا يرام ولا تصله النشاب ولا حجر المنجنيق وحصنه.

واتفق حضور رسل صاحب طرابلس إلى السلطان بطلب مراضيه، فاقترح عليه خراب هذا البرج وإحضار من كان فيه أسيراً من الجبيليين الذين كانوا مع صاحب جبيل، فأحضر من بقي منهم أحياء واعتذر عن هدم البرج بأنه ليس له ولا هو تحت حكمه، فلم يقبل السلطان اعتذاره وصمم على طلبه منه، فقيل: إنه اشتراه من صاحبه بعدة قرى وذهب كثير. ودفعه إلى السلطان فأمر بهدمه فهدم واستراح الناس منه. وحصل الاستيلاء في هذه الغزوة على المرقب وأعماله، ومرتبة.

والمرقب من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وهو كبير جداً، ولم يفتح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح، فأبقاه السلطان الملك المنصور بعد أن أشير عليه بهدمه ورغم شعته واستتاب فيه بعض مراثيه ورتبه أحواله.

وكتبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار. ولما كان السلطان الملك المنصور على حصار المرقب جاءت به البشيرة بولادة ولده الملك الناصر محمد بن قلاوون، فمولد الملك الناصر محمد هذه السنة... وهو أعظم ملوك الترك بلا مضافة.

ولما فتح لسلطان الملك المنصور المرقب عملت الشعراء في ذلك عدة قصائد، فمن ذلك ما قاله العلامة شهاب الدين أبو الشَّاء محمود:

هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
شوقاً منابرها وأرتاحت السرر
فطال عنه وما في باعه قصر
كانت لدولتك الغبراء تلخر
إسعاده منجدك القمر والقدر
لأشقر البرق من تحيلها غرر
معنى العواصف لا تبقى ولا تذر
ماء الجيرة في أرجائها نهر
وهنم تمثله في طيها الفكر
منه مكان اللالي الأنجم الزهر
أدنى زياه ويأتي وهو معتذر
إليه من فيه إلا وهو منحدر
من السيوف ومن تبل الوغى شرر
قراش الأسد في أظفارها الطفر
اكثرت يا قلبها أحديد أنت أم حجر
تشير سقماً ولا يبدو له أثر
نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر
والنصر يتلوك منه جندك الآخر
وخر أعلاه نحو الأرض بيتدر
لديك من مضمرات النصر ما ستروا
يداك فالله والأملك قد شكروا

الله أكبر هذا النصر والظفر
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت
فانهض وسير وأملك الدنيا فقد تحلت
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك
وكيف تمنحه الأيام مملكة
وكيف يسمو إليها من تأخر عن
غير العدا منك حلم تحته همم
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى
أوردتها المرقب العالي وليس سوى
كانه وكان الجو يكتفه
يختال كالغداة العذراء قد نظمت
ويومض البرق يهفو تحوه ليرى
وليس يروى بماء السحب مصعدة
واضرمت حوله نار لها لهب
كانها ومجائيق القرنج لها
وكم شكا الحصن ما يلقي فما
وللنقوب ديبب في مفاصله
أضحى به مثل صلب لا تبين به
ركبت في جندك الأولى إليه ضحاً
قد زال تجلى قواه عن قواعد
وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا
إن لم يوف الوري بالشكر ما فتحت

ثم سار الملك المنصور قلاوون من المرقب إلى دمشق وأقام بها أياماً، ثم خرج منها عائداً إلى نحو الديار المصرية في بكرة الإثنين ثاني عشر جمادى الأولى، فدخل الديار المصرية في أوائل شهر رجب.

فتح دوية طرابلس الصليبية عام ٦٨٨ هـ بعد ١٨٥ عاماً، أطول احتلال صليبي: برغم التكوين النصراني لدوية طرابلس الصليبية، إلا أنها صارت دويلة تابعة ذليلة للإمبراطورية المغولية منذ ٦٦٠م، عندما خضع أميرها بوهيمند

السادس (تحت تأثير والد زوجته هيثوم الأول، ملك أرمينية) وسلم للاجتياح المغولي، ومنذ ذلك الحين وطرابلس تمتد قاعدة عسكرية للتقدم المغولي في الشام الإسلامي، مما أدى إلى زيادة النعمة الإسلامية منها.

لكن المغول لم يتمكنوا من الدفاع عن ولايتهم الذليلة هذه، وإيلخان المغول (أيقا خان) أرسل رسله إلى أوروبا لتكوين جبهة التحالف الفرنسي - المغولي ضد المسلمين، لكنه سرعان ما توفي عملاً؛ بسبب انتصار جيوش الإسلام بقيادة البطل قلاوون على جيوش المغول بقيادة منكوتصر، فمات في ١٢٨٢م. ثم جاء بعده تيكودر بن هولاكو الذي أسلم وضار اسمه أحمد. رفض تحت قيادة أحمد بن هولاكو المغولي التحالف مع الصليبيين، والدفاع عن المقاطعات الصليبية ضد الزحف الإسلامي، مما خفف العبء على المماليك في تركيز جهادهم ضد المدن الساحلية التي كانت تحت السيطرة الصليبية. لكن تيكودر أو أحمد المسلم قتل، حيث اغتاله ابن أخيه: أرغون بن أيقا خان بن هولاكو عام ١٢٨٤م، واستحل العرش بذل عمه، وكان أرغون هذا متعاطفاً مع النصارى، واستج على تواصى والده بأوروبا؛ لاحتمال تكوين تحالف مستقبلي، ولكنه لم يكن يتعمس للدفاع عن دولة طرابلس الصليبية، وقت استمر المماليك في أثناء ذلك بالجهاد وفتح المرقب في ١٢٨٥م، واللاذقية في ١٢٨٧م.

ولم يزل السلطان قلاوون ملتزماً بالهدنة مع دولة طرابلس الصليبية، لكنهم هم الذين نقضوا العهد وأعطوا الحجة لحصارهم. ولم يسلك النصارى الطريق الحكيم، فهدب الخلاف بينهم في معارك، من أشهرها ما حصل بين المملكتين التجاريتين: جنوة والبندقية. فقامت لوسيا أميرة طرابلس الصليبية بالتحالف مع الجنوبيين، مما أكسبها عدوة تجار البندقية. ويقال: إن تجار البندقية أرسلوا مبعوثهم إلى الإسكندرية لاستئثار المماليك بالتدخل ضد تجار جنوة الذين يريدون الهمنة على تجارة المشرق، وتغويق أو تدمير تجارة المماليك إن هم سيطروا على صرابلس. وهذا الزعم - أن تجار البندقية هم الذين أثروا في قلاوون لتحريك جيشه شمالاً لحصار طرابلس - لا ينفق تماماً مع شخصية قلاوون الجهادية، ولا مع ما جاء في المصادر العربية كما سنرى.



كان لتجار البندقية دور كبير في تمويل الحملات الصليبية

تحرك السلطان قلاوون بجيش كبير مع العديد من المجانيق الكبيرة، وبدأ بحصار طرابلس في آذار/ مارس ١٢٨٩م. بالمقابل، أعطى كبار رجال الدين والتبلاء الأميرة لوسيا السلطة المطلقة. كان في ميناء طرابلس آنذاك سفن حربية من جنوة، مع سفينتين حربييتين من البندقية، مع العديد من المراكب الصغيرة، وجاءت الإمدادات العسكرية إلى طرابلس من فرسان المعبد الذين أرسلوا قوة بقيادة جيفري من فينداك، وأرسل فرسان الإسبتارية قوة بقيادة ماثيو من كليرمونت، وأرسل فوج فرنجي (فرنسي) من عكا بقيادة جون من غريلي، وأرسل هنري الثاني (ملك قبرص) أخاه الشاب أمالريك بصحبة الفرسان والسفن حربية، وارتحل العديد من المدنيين غير المقاتلين من طرابلس إلى قبرص.

أطلق المماليك تيرانهم وقذائفهم عبر مجانيقهم الجبارة، وسرعان ما انهار لهم برجان من أبراج قلاع السور تحت وابل القذائف، وبدأ المدافعون يتهيئون للهروب

أسرع. غير المماليك ثغرات الأسوار المهدمة، واستولوا على المدينة في ٢٦ نيسان/ أبريل، مُنهيين بذلك الاحتلال الصليبي لمدينة طرابلس بعد أكثر من ١٨٠ سنة، وهي أطول مدة احتلال فرنجي لأي مدينة في المشرق الإسلامي. استطاعت الأميرة لوسيا الهرب إلى قبرص مع اثنين من مارشالات تنظيمات الفرسان، ومع أماليك، وقتل قائد فرسان الهيكل هناك بيتر من مونتكادا، مع بارثولوميو إمبريكاكو. دخل المماليك وقتلوا سكان المدينة المقاتلين، وحرر بعضهم في سفينة. أما الذين التجؤوا إلى الجزيرة المحاورة سانت - توماس فسرعان ما قبض عليهم المماليك في ٢٩ نيسان/ أبريل، فأخذ النساء والأطفال سبائاً أرقاء، وأما الـ ١٢٠٠ أسير فقد أرسلوا إلى الإسكندرية؛ ليعملوا في دار الصناعة (الترسانة) الجديدة للسلطان. قازن بين معاملة الإسلام الإنسانية للنصارى، وبين معاملة النصارى الصليبيين الوحشية بقتل جميع المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً دون تمييز.

وفي التوثيق العربي يقول ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(ثم في سنة ثمان وثمانين وست مئة فتحت طرابلس، وهو أن صاحب طرابلس كان وقع بينه وبين (سير تلمية) الفرنجي وكان من أصحاب صاحب الحصن الذي أخربه صاحب طرابلس: رضاً للملك المنصور قلاوون حسب ما تقدم ذكره.

فحصلت بينه وبين صاحب طرابلس وحشة بسبب ذلك، واتفق موت صاحب الحصن وسأل (سير تلمية) من السلطان الملك المنصور المساعدة وأن يتقدم للأمير بليان الطياخي السلحدار أن يساعده على تملك طرابلس على أن تكون مناصفة، وبذل في ذلك بذولاً كثيرة فسوعد إلى أن تم له مراده، ورأى أن الذي بذله للسلطان لا يوافقه الفرنج عليه فشرع في باب التسوية والمغالطة ومدافعة الأوقات، فلما علم السلطان باطن أمره عزم على قتاله قبل استحكام أمره، فتجهز وخرج من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس وسار حتى وصل دمشق وأقام بها، ثم نهياً وخرج منها ونازل طرابلس في مستهل شهر ربيع الأول ونصب عليها المجانيق وضايقها مضايقة شديدة إلى أن ملكها بالسيف في الرابعة من نهار الثلاثاء رابع شهر ربيع الآخر، وشمل القتل والأسر سائر من كان بها وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة، ونهب من الأموال والذخائر والمتاجر وغير ذلك ما لا يوصف، ثم أحرقت وخرب سورها وكان من أعظم الأسوار وأمنعها.

ثم تسلم حصن أنفة، وكان أيضاً لصاحب طرابلس، فأمر السلطان بتخريبه. ثم تسلم السلطان البترون وجميع ما هناك من الحصون.

وكان لطرابلس مدة طويلة بأيدي الفرنج من سنة ٥٠٢هـ إلى الآن. لاحتلها الصليبيون ١٨٥ عاماً من ٥٠٣ حتى ٦٨٥هـ.

قلت: وكان فتح طرابلس الأول في زمن معاوية بن أبي سفيان ؓ، وتقلت في أيدي الملوك وعظمت في زمن بني عمار قضاة طرابلس وحكامها.

فلما كان في آخر المئة الخامسة ظهرت طوائف الفرنج في الشام واستولوا على البلاد، فامتعت عليهم طرابلس مدة حتى ملكوها بعد أمور في سنة ثلاث وخمس مئة واستمرت في أيديهم إلى أن فتحها الملك المنصور قلاوون في هذه السنة.

وقال شرف الدين محمد بن موسى المقدسي الكاتب في السيرة المنصورية: إن طرابلس كانت عبارة عن ثلاثة حصون مجتمعة باللسان الرومي، وكان فتحها على يد سفيان بن مجيب الأزدي، الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان ؓ لحصاره في خلافة عثمان بن عفان ؓ. انتهى كلام شرف الدين باختصار.



هجوم المماليك

وسقوط دولة طرابلس الصليبية عام ١٢٨٩م

قلت: وأما طرابلس القديمة فقد كانت من أحسن المدن وأطيبها، ثم بعد ذلك اتخذوا مكاناً على ميل من البلدة وبنوه مدينة صغيرة بلا سور فجاء مكاناً رديء الهوى والمزاج من الوحْم، انتهى.

ولما فتحت طرابلس كتبت البشائر إلى الأفاق بهذا النصر العظيم، ودقت البشائر والتهاني، وزينت المدن وعملت القلاع في الشوارع، وسر الناس بهذا النصر غاية السرور. وأنشأ في هذا المعنى القاضي تاج الدين ابن الأثير كتاباً إلى صاحب اليمن بأمر الملك المنصور يعرفه بهذا الفتح العظيم، وبالبشارة به.

وأوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، أعز الله نصر المقام العالي السلطاني الملكي المظفري الشمسي).

ثم استطرد وحكى أمر الفتح وغيره إلى أن قال فأحسن فيما قال: (وكانت الخلفاء والملوك في ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه، مكب على مجلس أنسه، يرى السلامة غنيمه، وإذا عن له وصف الحرب لم يسأل منها إلا عن طرق الهزيمة، قد بلغ أمله من الرتبة، وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة. أموال تنهب وممالك تذهب، لا يبالون بما سلبوا، وهم كما قيل: (عن البحر البسيط)

إن قاتلوا قُتلوا أو طاردوا طردوا أو حاربوا حُربوا أو غلبوا غلبوا

إلى أن أوجد الله تعالى من نصر دينه وأذل الكفر وشياطينه). انتهى. قلت: والكتاب هذه خلاصته والذي أعجني منه). انتهى

وجاءت العربية لتخلد هذا النصر المبين على هذه الدولة الصليبية، وعمل الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد فمن ذلك ما قاله العلامة شهاب الدين أبو النشاء محمود كاتب الدرج يمدح الملك المنصور قلاوون ويذكر فتحه طرابلس، والقصيدة أولها:

عليها لمن أولاك نعمته الشكر
والله في إعلاء ملكك في السور
الأكبر يا وارث الملك فليكن
نهضت إلى عليا طرابلس التي
لأنك للإسلام يا سيفه زحر
مراد وفي التأيد يوم الوغى سر
جهد العدا لا ما توالى به الدهر
أقل عنها أن خندقها البحر

وفاة الملك المنصور قلاوون: خرج السلطان قلاوون مجاهداً لفتح عكا: أهم معقل صليبي (وتوفي بهذه النية - يرحمه الله). وجاء البريد يعمل مجانيق لحصار عكا، فركب القادة إلى أراضي يعلبك: لما هنالك من الأخشاب العظيمة التي لا يوجد مثلها في دمشق، وهي تصلح لعمل المتجنقات، وكلفوا الناس تكليفاً كبيراً، وأخذوا أخشابهم وحملت إلى دمشق بكلفة عظيمة وكثيرة. وبينما الناس في ذلك إذ ورد البريد، فأخبروا بوفاة الملك المنصور يوم السبت ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، بالمخيم ظاهر القاهرة، ثم حمل إلى قلعة الجبل ليلاً وجلس بعده ولده

للكل الأشرف خليل بولاية العهد له، وحلف له جميع الأمراء، وخطب له على المنابر، وركب في آبهة الملك، والعساكر كلهم في خدمته مشاة من قلعة الجبل إلى الميدان الأسود الذي هو سوق الخيل، والخلع على الأمراء والمقدمين، وعلى القضاة والأعيان. ودهن السلطان قلاوون في تربته بمدرسته الهائلة التي أنشأها بين القصرين، التي ليس بديار مصر ولا بالشام مثلاً. وفيها: دار حديث ومارستان، وعليها أوقاف دارة كثيرة عظيمة. مات عن قريب من ٦٠ سنة، وكانت مدة ملكه ١١ سنة، رحمه الله تعالى.

الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٦٦-٦٩٣ هـ / ١٢٦٧-١٢٩٣ م): تحرير عكا وإنهاء الاحتلال الصليبي:

ومن السلاطين المشهورين السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الذي تولى الحكم بعد والده سلطان قلاوون عام ٦٩٠ هـ - ١٢٩٠ م. واستمر في حمل راية الجهاد، فقاد جيشه في حملة عسكرية ضخمة على مدينة عكا عاصمة ما تبقى من مملكة بيت المقدس وأخر حصون الصليبيين المستعصية، فنجح الأشرف خليل في دكها وطرد الصليبيين منها برغم إمدادهم بالنجدة من القبارصة. وقد دبّ الرعب في نفوس الصليبيين بعد هذا الفتح، فتركوا حصونهم وقلاعهم في كل من بيروت وصيدا وصور وغيرها، وعاد السلطان إلى القاهرة منتصراً مظفراً ومعه الآلاف من أسرى العدو الصليبيين. وفتح حصن الروم المنيع، ثم اتجه لقتال المغول في حلب ومنها إلى آسيا الصغرى، ثم اتجه إلى أرمينيا، وفتح بلاد أرض الروم، ورجع إلى القاهرة حيث تعرض للاغتيال عام ١٢٩٣ م.

ومن الجدير بالذكر أن الناصر صلاح الدين الأيوبي لم يفتح مدينة صور، ولم يستطع استرداد عكا بعد أن فترعها منه الملك ريشارد قلب الأسد قائد الحملة الصليبية الثالثة، بعد إعطاء الأمان، ولكن حين دخل عكا، غدر بأهلها وقتل ٢٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال.

فتح عكا الأسطوري عام ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م، عاصمة ما تبقى من مملكة بيت المقدس الصليبية:

في عام ١٢٨٩: قضى السلطان قلاوون على دويلة طرابلس الصليبية، وحرر طرابلس من قبضة الصليبيين، ثم قرر في العام الآتي تحرير ثغر عكا، أي بقايا مملكة بيت المقدس الصليبية، إلا أنه - ولفرحة سكانها الصليبيين - توفي في شهر تشرين الثاني / نوفمبر قبل أن يبدأ بالمسير.

فلما تولى الأشرف خليل السلطنة قرر المسير إلى عكا: لفتحها وإنهاء الاحتلال الصليبي لها، فأرسل إلى وليام أوف بوجيه رئيس طائفة فرسان المعبد (الدأوية) بعكا يعلمه بأنه قد قرر الهجوم عليها، وطلب منه عدم إرسال رسل أو هدايا إليه؛ لأن ذلك لن يشبه عن مهاجمة المدينة. إلا أن عكا أرسلت إلى القاهرة وقدأ محملاً بالهدايا يرأسه فيليب ماينوف لاسترجاء الأشرف بالعدل عن خطته وضرورة الحفاظ على المعاهدة، فرفض الأشرف خليل مقابلتهم وقام بحبسهم.

قام الأشرف بتعبئة جيوشه من مصر والشام، التي كانت تضم أعداداً كبيرة من المتطوعين وآلات الحصار التي كانت تشمل اثنين وتسعين منجنيقاً. كانت بعض العرارات الضخمة تحمل أسماء مثل "المنصوري" و"الغاضية"، وكانت هناك مجانيق أصغر حجماً ولكن ذات قوة تدميرية هائلة اسمها "الثيران السوداء". أحشدت الجيوش عند قلعة الحصن في جبال الساحل السوري، ثم انضم إليها جيش مصر الذي خرج به الأشرف خليل من القاهرة. انضمت أربعة جيوش يقودها نواب السلطان: جيش دمشق يقوده حسام الدين لاجين، وجيش من حماة يقوده المظفر تقي الدين، وجيش من طرابلس يقوده سيف الدين بلبان، أما الجيش الرابع فقد كان من الكرك وكان على رأسه الأمير المؤرخ بيبرس الدوادار: وقد كان في جيش حماة أمير مؤرخ آخر هو أبو القداء.

كان الصليبيون في عكا يدركون منذ مدة خطورة موقفهم، وكانوا قد أرسلوا إلى ملوك أوروبا وأمراثا يطلبون منهم العون والمساعدة إلا أنهم لم يصلهم من أوروبا دعم يذكر، حيث قام ملك إنكلترا إدوارد الأول بإرسال

بعض الفرسان. والدعم الوحيد الذي كان ذا أهمية جاء من هنري الثاني ملك قبرص الذي قام بتعصين أسوار عكا وأرسل قوة عسكرية على رأسها أخوه "أمالريك". كانت عكا محمية براً عن طريق سورين مزدوجين سميكتين، وأثنى عشر برجاً شيدها الملوك الأوروبيون وبعض أثرياء حجاج بيت المقدس. كانت الأسوار مقببة على الطوائف والفرق الصليبية بحيث تكون كل طائفة (فرسان المعبد، والإسبائرية، وفرسان التيوتون الألمان وغيرهم) مسؤولة عن حماية قسمها.

غادر الأشرف خليل القاهرة في السادس من آذار/مارس عام ١٢٩١م، وبحلول الخامس من نيسان/أبريل كان جيشه يقف بمواجهة عكا. نصب الأشرف دھليزه الأحمر فوق تلة مواجهة لبرج المندوب البابوي على مسافة غير بعيدة من شاطئ البحر، وانتشر جيش مصر من نهاية سور مونتوسارت حتى خليج عكا، واتخذ جيش حمام مواقعه عند البحر وعلى ساحل عكا. وانطلقت في اليوم اللاحق عرارات جيش المسلمين ومناجيقه تلقي بالأحجار الضخمة والنييران على أسوار عكا، وراح رماة السهام من المسلمين بإمطار المدافعين من الصليبيين المتحصنين فوق أبيها الأبراج وأقاريزها بسهامهم.

وبعد ثمانية أيام من الدك والمناوشات والاشتباكات تقدم الفرسان والمهندسون المسلمون وقد تغضا بالدروع في موجات متلاحقة نحو سور عكا حتى سيطروا على حافته دون أن يتمكن المدافعون الصليبيون من إيقاف موجات زحفهم؛ لكثرة أعدادهم وتلاحق موجاتهم بامتداد الأسوار. استخدم المسلمون سلاحاً يدوياً صغير يطلق نيراناً كثيفة وسريعة أطلق عليه الصليبيون اسم "كارابوها"، وقد أحدث هذا السلاح أضراراً بالغة بالمقاتلين الصليبيين وصعب عليهم التقدم نحو المهاجمين المسلمين، وتمكن المسلمون من إحداث أضرار وبعض النقب في الأجزاء الضعيفة من الأسوار، وأخذ الأمير سنجر الشجاع ومقاتلوه على عاتقهم نقب سور برج جديد يسمى برج الملك وكان أمام البرج الملعون، فقام الصليبيون بإشعال النار فيه وتركوه ينهار.

على الرغم من استمرار وصول الإمدادات والتعزيزات العسكرية من قبرص إلى عكا عن طريق البحر إلا أن الصليبيين المحاصرين فيها كانوا يدركون أنهم غير قادرين على التصدي لجيش المسلمين. قامت في ١٥ من نيسان/أبريل، وتحت ضوء القمر قوة صليبية من فرسان المعبد بقيادة "جين غريللي Jean Grailly" وأوتو أوف غرانديسون Otto of Grandson بغارة مفاجئة على معسكر جيش حماه بهدف إحراق إحدى عرادات المسلمين إلا أنه، ويحمد الله، تعثرت أرجل خيولهم في حبال خيام المقاتلين المسلمين مما أدى إلى انكشاف أمرهم، وقتل العديد منهم وأسروهم.



خريطة مدينة عكا عام ١٢٩١م، ومحاولة فرسان المعبد الفاشلة الإغارة على المسلمين

وتمكن عدد منهم من الفرار ببعض طبول المسلمين ودروعهم. ثم شن فرسان الإسبتارية بعد بضعة أيام غارة أخرى على معسكر للمسلمين، هذه المرة في الظلام الدامس، ولكن غارتهم انتهت هي الأخرى بالقسئل بعد أن اكتشف أمرهم وأشعل المسلمون المشاعل وتصدوا لهم، فلادوا بالفرار بجرحاهم.

استرد الصليبيون المحاصرون في الرابع من شهر أيار/مايو بعض الثقة والأمل حين وصل الملك هنري الثاني من قبرص، وبصحبه أربعون سفينة محملة بالمقاتلين والعتاد. تولى هنري قيادة الدفاع، ولكن سرعان ما أدرك هنري فلة حيلته في مواجهة الأشرف خليل، فأوفد إليه فارسين من فرسان المعبد هما "وليم أوف كافران" William of Caffran و"وليم أوف فيليب" William of Villiers: لطلب السلام وإعادة الهدنة، وسألها الأشرف عما إذا كانا قد أحضرنا معهما مقاتلي المدينة، فلما أجابا بالنفي قال لهما إن كل ما يهيمه هو امتلاك المدينة، وأنه لا يهيمه مصير سكانها، ولكن تقديراً منه لشجاعة الملك هنري ولصغر سنه وقدمه لتقديم المساعدة وهو مريض، فإنه على استعداد أن يقي على حياة السكان في حال تسليم المدينة له دون قتال، فأجابا بأنهما لم يأتيا إليه للاستسلام، ولكن لطلب رحمته على السكان فقط. وبينما الفارسان يستعطقان الأشرف إذ بعمرارة صليبية تلقى من داخل عكا بحجر يسقط بالقرب من دهليز الأشرف، فظن أنها مؤامرة صليبية لقتله وأراد قتل الفارسين، إلا أن الأمير سنجر الشجاعى شفع فيهما، فسمح الأشرف لهما بالعودة إلى عكا.

فتح عكا: بدأت أبراج عكا منذ ٨ أيار/مايو تصاب بأضرار بالغة: نتيجة لدكها المستمر بالمناجيق وتنقيبها عن طريق المهندسين المسلمين، فانهار برج الملك هيو وتبعه البرج الإنجليزي وبرج الكونتيسة دو بلوا، وقام المسلمون في ١٦ أيار/مايو بهجوم مركز على باب القديس أنطوان تضدى له فرسان المعبد والإسبتارية. سمع صليبيو عكا في فجر يوم الجمعة ١٨ مايو/أيار (١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ) دقات طبول المسلمين، وبدأ المسلمون بالنزحف الشامل على عكا باقتداد الأسوار، تحت هدير دقات الطبول التي حُمِلت على ثلاث مئة جمل: لإنزال الرعب في صدور الصليبيين داخل عكا.

اندفع جنود جيش الأشرف وجيش حماه وهم يكبرون (الله أكبر) لمهاجمة تحصينات المدينة تحت قيادة الأمراء المماليك الذين ارتدوا عمائم بيضاء. ووصل المقاتلون إلى البرج الملعون وأجبروا حاميته على التراجع إلى جهة باب القديس أنطوان، واستمات فرسان المعبد وفرسان الإسبتارية في الدفاع عن البرج والباب، ولكن المقاتلين المسلمين، الذين كانت نار الإغريق من ضمن أسلحتهم، تمكنوا من الاستيلاء عليهما، وراحت قوات جيش المسلمين تتدفق على شوارع المدينة حيث دار قتال عنيف بينهم وبين الصليبيين. وقتل مقدم فرسان المعبد "وليم أوف بوجوه"، وتبعه "ماتيو أوف كليرمونت" Matthew of Clermont، وجرح مقدم الإسبتارية "جون فيليب" جرحاً بالفاً حُمِل إلى سفينته وبقي فيها.

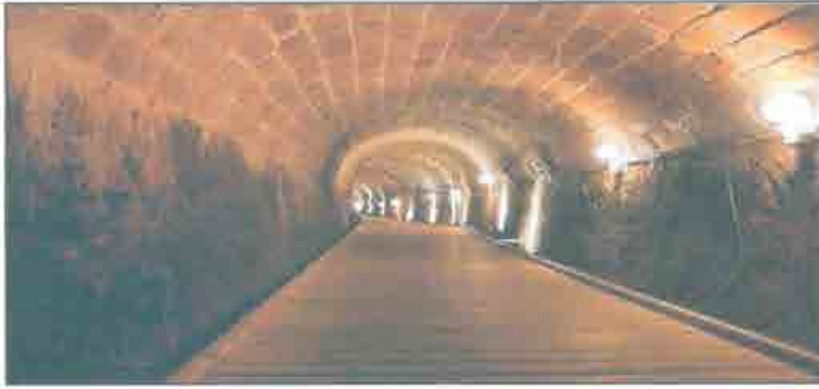
رفعت المناجيق الإسلامية على أسوار عكا، وأيقن الملك هنري أنه لا طاقة للصليبيين بجيش الأشرف وأن عكا ستسقط في يد الأشرف لا محال، فأبحر عائداً إلى قبرص ومعه "جون فيليب" مقدم الإسبتارية، وقد تعرض الملك هنري فيما بعد للاثام بالتخاذل والجبن.



حصار عكا الأسطوري وفتحها عام ٦٩٠هـ - ١٢٩١م (يشبه إلى حد ما فتح القسطنطينية ١٤٥٣م)



انفاق فرسان الهيكل أو المعبد تحت مدينة عكا: بداية الأنفاق تحت الأرض تتشعب
للاتساع وللذهاب والمجيء، ثم تتحد لتكون نفقاً واحداً يتصل بالبحر



انفاق فرسان الهيكل تحت مدينة عكا؛ وسط النفق المتحد الذي يربط قبلاع عكا تحت الأرض بالبحر مباشرة كمنبر سري للهروب



نهاية النفق تحت الأرض يرتبط بالبحر مباشرة
(انظر مياه البحر على جانبي الممر السري)

سادت عكا حالة من القوضى العارمة والرعب الهائل، واندفع سكانها المدعورون إلى الشواطئ؛ بحثاً عن مراكب تنقلهم بعيداً عنها، ولا يدري أحد بالتحديد كم منهم قتل على الأرض، أو كم منهم ابتلعه البحر. وقد تمكن بعض الأثرياء من النجاة، من الفرار من عكا في مراكب الكاتلاتي "روجر فلور Roger de Flor"، مقدم المرتزقة وقائد المعبد، مقابل أموال دفعوها له، وقد تمكن "روجر دو فلور" من استغلال الموقف فابتز الأثرياء والنبيلات وكون ثروة طائلة.

كانت مدينة عكا قبل أن يحل الليل قد صارت في يد المسلمين، غداً حصن فرسان المعبد الذي كان مشيداً على ساحل البحر في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، عادت عكا إلى المسلمين بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً، وبعد أن احتلها الصليبيون مئة عام.

تفاوض السلطان خليل بعد أسبوع من فتح عكا مع "بيتر دو سيفري Peter de Severy" رئيس حصن فرسان المعبد، وجرى الاتفاق على تسليم الحصن مقابل السماح بإبحار كل من في الحصن إلى قبرص.

بعد وصول رجال السلطان إلى الحصن: للإشراف على تدابير الإخلاء، تعرضوا لبعض النسوة في الحصن أو أرادوا أخذهن مما أدى إلى غضب فرسان المعبد، فانقضوا عليهم وقتلوه وأزالوا صنجق المسلمين الذي كان قد رفع على الحصن من قبل، واستعدوا لمواصلة القتال.

غادر "تيبالد غودين" Theobald Gaudin مقدم فرسان المعبد الجديد في الليل تحت حنج الظلام الحصن إلى صيدا في صبحية عدد من المقاتلين ومعه أموال الطائفة. وذهب "بيتر دو سيفري" في اليوم التالي إلى السلطان خليل ومعه بعض الفرسان: للتفاوض من جديد، فقبض الأشرف عليهم وأعدمهم انتقاماً لرحاله الذين قتلهم الفرسان في الحصن، فلما رأى بقية الفرسان المحاصرين في الحصن ما حدث لبيتر دو سيفري ورفاقه وأصلوا القتال دفع الأشرف في ٢٨ من أيار/مايو، بعد أن حضر المهندسون نقباً تحت الحصن، بالفي مقاتل للاستيلاء عليه، وبينما هم يشقون طريقهم داخله أنهار البناء وهلك كل من كان بداخل الحصن من مدافعين ومهاجمين.

وصلت أنباء انتصار جيش المسلمين وتحريره عكا إلى دمشق والقاهرة، ففرح الناس وزينت لندن، ودخل السلطان خليل دمشق ومعه الأسرى الصليبيين مقيدين بالسلاسل، وقوبل جيش المسلمين بالاحتفالات ورفع رايات النصر وزينت دمشق وعمت البهجة بين الناس. وبعد أن دخل القاهرة وزينت وفرشت فيها الشقق الحربية تحت حافر فرسه، وبعد أن زار قبر أبيه الملك المنصور، صعد إلى قلعة الجبل وخلع على الأمراء، أمر الأشرف بإطلاق سراح "فيليب ماينيف" وزملائه الصليبيين الذين كان قد قبض عليهم قبل مسيرهم إلى عكا، وقام بنقل براءة كنيسة القديس أندرياس من عكا إلى القاهرة: لاستخدامها في استكمال مسجد.

تحرير ساحل الشام:

كان ثغر صور من أمنع المعاقل الصليبية على ساحل الشام، وقد حاول صلاح الدين الأيوبي تحريره مرتين ولكنه لم ينجح. كانت سيدة صور "مرجريت أوف لوسيجنان" Margaret of Lusignan أرملة "جون أوف مونتمورت" John of Montfort قد تنازلت لابن أختها "أمالريك" عن صور منذ مدة قصيرة قبل فتح الأشرف عكا. أرسل الأشرف في ١٩ أيار/مايو، وهو ما زال في عكا، فريقاً من المقاتلين تحت قيادة الأمير سنجر الشجاعي لتعرف حال الصليبيين في صور. ارتعب آدم أوف كافران Adam of Cafran، نائب "أمالريك" في صور، عندما رأى قوات الشجاعي وفر إلى قبرص، فاستولى الشجاعي على صور من دون قتال.

أرسل الأشرف خليل الأمير الشجاعي إلى صيدا، فقرر فرسان المعبد اللوذ بقلعتهم، التي كانت مشهدة على جزيرة صغيرة قرب الشاطئ؛ إذ إن ثروتهم كانت قد نقلها زعيمهم الجديد "تيبالد جودين" إلى صيدا وقت حصار حصنهم في عكا. ثم فر "تيبالد جودين" بالثروة إلى قبرص بعد أن وعد فرسان حامية صور بإرسال إمدادات إليهم من قبرص، وهو ما لم يفعله، فاضطر الفرسان إلى مناوشة قوات الشجاعي بعض الوقت حتى تمكنوا ذات ليلة من الفرار إلى طرطوس بعدما لاحظوا أن المسلمين يبثون جسراً بين الشاطئ والقلعة.

توجه الشجاعي بعد أن حرر صيدا إلى بيروت، التي كان بها حامية صليبية صغيرة وكانت مرفأً جازياً مهماً للصليبيين. كانت سيدة بيروت "إيشيفا أوف إيبيلين" Eschiva of Ibelin تظن أنها بمان من المسلمين: بسبب توقيعها هدنة مع السلطان قلاوون والد الأشرف خليل. طلب الشجاعي عندما وصل إلى بيروت من مقدمي الحامية المشول أمامه، فلما أتوه قبض عليهم، ففر المقاتلون الصليبيون عن طريق البحر. تحررت بيروت من الصليبيين في ٣١ تموز/يوليو، وأمر الشجاعي بتدمير قلاعها وأسوارها وتحويل كاتدرائيتها إلى مسجد.

تحررت حيفا من دون مقاومة صليبية تذكر، وقام الأمير سيف الدين بليان بمحاصرة طرطوس، فقرر الصليبيون إلى جزيرة أرواد مقابل الساحل السوري والقريبة من طرطوس. وتحررت طرطوس في الثالث من آب، وبعدها عثليت في ١٤ من آب.

فقد الصليبيون بهذا معاقبتهم كافة على ساحل الشام، عدا جزيرة أرواد التي بقيت اثنتي عشرة سنة في أيدي فرسان المعبد إلى أن قام المسلمون بمحاصرتها وتحريرها في عام ١٣٠٢م.

كان الأشرف يدرك أنه بطرد الصليبيين من سواحل الشام فإن قبرص قد صارت مصدر الخطر الأساسي على المسلمين، فمك قبرص كان يعد بالنسبة إلى الصليبيين من الناحية الاسمية ملكاً لبيت المقدس حتى بعد تحريرها. أصبحت حكومة قبرص بعد تحرير ساحل الشام الحكومة الصليبية الأكثر حماسة لمعاودة الاستيلاء على الأرض المقدسة، فقام الأشرف بتدمير كل المواقع والمدن والحصون الساحلية؛ ليحرم الصليبيين من الإفادة منها في حالة مهاجمتهم لها، وفضل أن تبقى منطقة الساحل مهجورة ما دام بقي التهديد الصليبي قائماً.

فتح قلعة الروم وتهديد مملكة أرمينيا الصغرى:

في عام ١٢٩٢م وصل الأشرف خليل ومعه وزيره ابن السلجوس إلى دمشق، وانطلق منها على رأس الجيش إلى حلب ومنها إلى قلعة الروم "هرموغلا" مقر بطريك أرمينيا. حاصر الأشرف قلعة الروم بـ ٢٠-٣٠ منجنيقاً، وعمل الأمير الشجاعي سلسلة وشبكها في شراريف القلعة، فصعد الأجناد وقاتلوا قتالاً شديداً إلى أن استولوا على القلعة بعد ٣٣ يوماً. وأمر السلطان خليل بتغيير اسمها من قلعة الروم إلى قلعة المسلمين، وطلب من الأمير الشجاعي عمارتها، وعاد إلى دمشق بالأسرى المكيلين بالأغلال، وكان من ضمنهم بطريك الأرمن. وقام أهل دمشق باستقبال الجيش بألاف الشموع المضئية وتزييت المدينة احتفالاً بالنصر. وتوجه الأشرف من دمشق إلى القاهرة التي تزييت له من باب النصر، وصعد إلى قلعة الجبل من باب زويلة، واستقبلته رعيته المحتشدة والمبتهجة بألاف الشموع.

كانت مملكة أرمينيا الصغرى، أو مملكة قيليقيا، من أعداء الدولة المملوكية؛ حيث شاركت في الحروب الصليبية ضد المسلمين، وتحالفت مع المغول عليهم، وكان لها قوات شاركت في صف المغول في معركة عين جالوت. وقد أصبحت تلك المملكة الصليبية بعد هزيمة المغول، التي أدت إلى نقص قدرتهم على حمايتها، هدفاً للماليك يفترون عليها من حين إلى آخر منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس. أصبحت سيس عاصمة مملكة أرمينيا الصغرى بعد فتح قلعة الروم مقراً للكنيسة الكاثوليكية الأرمنية.

تجهز الجيش في دمشق بقيادة الأمير بيدرا نائب السلطنة، ثم لحق به الأشرف بعد أن توقف في الكرك؛ لترتيب أحوالها، وأمر بالتجهيز لأخذ بهنسا من الأرمن. لما علم الأرمن بنية الأشرف أرسلوا إليه الرسل يرجون منه عدم مهاجمة مملكتهم، فجرى الاتفاق على تنازل الأرمن عن بهنسا ومرعش وتل حمدون في مقابل عدول الأشرف عن مهاجمتهم، فأرسل الأشرف الأمير طوغان والي البر بدمشق مع رسل الأرمن إلى تلك المناطق لتسلمها، فصارت في حوزة المسلمين بغير قتال.

وللتوثيق العربي يقول ابن كثير: (وفيها جاء البريد إلى دمشق في مستهل ربيع الأول لتجهيز آلات الحصار عكا، ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله إلى عكا، وقد كان أهل عكا في هذا الحين عدواً على من عندهم من تجار المسلمين فقتلواهم وأخذوا أموالهم، فأبرزت المناحيق إلى ناحية الجسورة، وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء، وتولى ساقها الأمير غلم الدين الدويداري، وخرجت العساكر بين يدي نائب الشام وخرج هو في آخرهم، ولحقه صاحب حفاء الملك المظفر وخرج الناس من كل صوب، واتصل بهم عسكر طرابلس، وزكب الأشرف من الديار المصرية بعساكره قاصداً عكا.

فتوافقت الجيوش هنالك، فنزلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر ونصبت عليها المناجيق من كل ناحية يمكن نصبها عليها، واجتهدوا غاية الاجتهاد في محاربتها والتضييق على أهلها، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري، فقرأه الشيخ شرف الدين الفراري، فحضر القضاة والفضلاء والأعيان. وصمم السلطان على الحصار فرتب الكوسات ثلاث مئة حمل، ثم زحف يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس، وطلع المسلمون على الأسوار مع طلوع الشمس، ونصبت السناجق الإسلامية فوق أسوار البلد، فقلت الفرنج عند ذلك الإذبار، وركبوا هاربين في مراكب التجار. وقد كان لها في أيدي الفرنج من سنة ٥١٨هـ وأما عكا فقد كان الملك الناصر يوسف بن أيوب أخذها من أيدي الفرنج، ثم إن الفرنج جاؤوا فأحاطوا بها بجيوش كثيرة، ثم جاء صلاح الدين ليمنعهم عنها مدة ٣٧ شهراً، ثم آخر ذلك استملكوها وقتلوا من كان فيها من المسلمين، كما تقدم ذلك). (البداية والنهاية ج ١٢، ص ٣٧٨-٣٧٩)

ويوثق ابن تغري بردي تفاصيل هذا الفتح الأسطوري الملحمي في تاريخ الإسلام في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

(ولما استهلكت سنة ٦٩٠هـ أخذ الملك الأشرف في التجهز للسفر إلى البلاد الشامية وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وأرسل إلى البلاد الشامية، وجمع العساكر، وعمل آلات الحصار، وجمع الصناع إلى أن تم أمره وخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين المذكورة. وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر ووافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة.

وكان المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجية خمسة عشر منجنيقاً، منها ما يرمي بقنطار دمشق وأكبر، ومنها دونه لو تسمى المنصوري نسبة إلى الملك المنصور قلاوون).

وأما المجانيق الشيطانية وغيرها فكثيرة، ونقب عدة لقوب وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بنفسه وفي ليلة قدمه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلاً لها؛ فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم ما دهمهم ولم يزل الحصار عليها وأنجد في أمر قتالها إلى أن انحلت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلف كلمتهم. هذا والحصار عمال في كل يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلما كان سحر يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحس عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها ولأسوار هرب الفرنج وملككت المدينة بالسيف، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فنبهتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل، ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح، وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها، وعصى الديوية والإستبار، واستقر الأرمن في أربعة أبراج شواهي في وسط البلد فحاصروا فيها.

فلما كان يوم السبت ١٨ الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الديوية فطلبوا الأمان، فأمنهم السلطان وسير لهم صنجاناً فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم. فلما صاروا عندهم تعرض بعض الجند والعوام للنهب، ومدوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر، فغلق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف فقتلوا جماعة من المسلمين ورموا الصنجان وتمسكوا بالعصيان وعاد الحصار عليهم.

وفي اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإستبار الأرمن بالأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد

١٢٠ مير زين الدين كتبنا المنصوري، وجرى القتال على برج الديوية ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى
١٢١ ولى طلب الديوية ومن بقي في الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجهوا حيث
شاؤوا، فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدهليز النساء والصبيان، وكان من
جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير أقبغا المنصوري أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من
طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم إزهايه، فتزايد الحنق عليهم وأخذ
الجند وغيرهم من السبي والمكاسب ما لا يحصى، ولما علم من بقي منهم ما جرى على إخوانهم تمسكوا بالعصيان
وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشد قتال واحتفظوا خمسة نفر من المسلمين وزمومهم من أعلى البرج، فسلم منهم
نفر واحد ومات الأربعة.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذي تأخر بعكا وأنزل من فيه بالأمان وكان قد
عق من سائر جهاته، فلما نزلوا منه وحولوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرجين ومضى قصد
أقرب فهلكوا عن آخرهم، ثم بعد ذلك عزل السلطان النساء والصبيان ناحية، وضرب رقاب الرجال أجمعين
وكانوا خلائق كثيرة.

والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه ومثل الساعة التي أخذوها
فيها؛ فإن الفرنج كانوا استولوا على عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين وخمس مئة
في الساعة الثالثة من النهار، وأمنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدراً، وقدر الله تعالى أن المسلمين
استرجعوها منهم في هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى،
وأمّنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم، وكان السلطان عند منازلته
عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى صور؛ لحفظ الطرق
وتعرف الأخبار، وأمره بمضايقة صور، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء
التي لصور، فتحال بينها وبين الميناء، فطلب أهل صور الأمان فأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور، هاجبوا
إلى ذلك فتسبها.

وتعد صور من أجل الأماكن ومن الحصون المنيع، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح
من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكاناً وأمّنهم أوصلهم إلى صور هذه؛ لحصانتها ومنعتها، فالتقى الله
تعالى في قلوب أهلها الرعب حتى سلموها من غير قتال ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها
الكبت. وعندما تسلمها جهز إليها من أحرابها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير.

ولما تيسر أخذ صور على هذه الصورة قري عززم الملك الأشرف على أخذ غيرها، ثم رحل الملك الأشرف عن
عكا في بكرة نهار الإثنين خامس جمادى الآخرة، ودخل دمشق يوم الإثنين ثاني عشره بعد أن زينت له دمشق غاية
الزينة، وعملت القباب بالشوارع من قريب المصلى إلى الباب الجديد، وحصل من الاحتفال لقدمه ما لا يوصف،
دخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول وفي أرجلهم القيود، ومنهم الحامل من سناجق الفرنج المنكسة،
بهنيهم من حمل رمحاً علمه من رؤوس قتلى الفرنج، فكان لقدمه يوم عظيم.

وأقام الأشرف يدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وعاد إلى الديار المصرية فدخلها يوم الإثنين
تاسع شعبان، فاحتفل أيضاً أهل مصر لملاقاته احتفالاً عظيماً أضعاف احتفال أهل دمشق، وعند دخوله إلى مصر
طلق رسل صاحب عكا الذين كانوا معوقين بالقاهرة.

ثم إن الأمير علم الدين سنجر الشجاعى نائب الشام فتح صيدا - بعد حصار كبير - بالأمان في يوم السبت خامس عشر شهر رجب. ولما أخذت هذه البلاد في هذه السنة أمر السلطان أن تخرب قلعة جبيل وأسوارها بحيث يلحقها بالأرض، فخرت أصلاً، ثم أخذت عثلت بعد شهر.

وأما أهل أنطربطوس لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بلان الطياخي عسكراً، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس ٥ شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها، فندب إليها السعدي بها كان أحضره من المراكب والشواتي، فأخلوها. وكان فتح هذه المدن الست في ٦ شهور. ويذكر ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج ١٢، ص ٣٨١-٣٨٢) مواكبة اللغة العربية لتخليد هذا الانتصار التاريخي، فقال:

(وعمل أهل دمشق ختمة عظيمة بالميدان الأخضر إلى جانب القصر الأبلق، فقرئت ختمات كثيرة، ثم خطب الناس بعدها الشيخ عز الدين القاروني، ثم ابن البزوري، ثم تكلم من له عادة بالكلام، وجاءت البيديّة بالتهنؤ لغزو العراق، ونودي في الناس بذلك، وعملت سلاسل عظام؛ بسبب الجسورة على دجلة بغداد، وحصلت الأجور على المقصود وإن لم يقع المقصود، وحصل لبعض الناس أذى بسبب ذلك).

وكان للغة العربية دور ريادي في تخليد هذه الملحمة التاريخية، وقد نظم الشيخ شهاب الدين محمود قصيدة في فتح عكا:

وَعَزَّ بِالْأَرْكَانِ دِينَ الْمَصْطَفَى الْعَرَبِي	الْحَمْدُ لِلَّهِ زَالَتْ دَوْلَةُ الصُّلَاطِ
رُؤْيَاهُ فِي النَّوْمِ لَأَسْتَحْيَتِ مِنَ الصُّلَاطِ	هَذَا الَّذِي كَانَتْ الْأَمَالُ لِنَوْ طَلِبَتِ
فِي الْبَحْرِ لِلشَّرِكِ عِنْدَ الْبَرِّ مَنْ أَرَبَ	مَا بَعْدَ عَكَا وَقَدْ هَدَّتْ قَوَاعِدَهَا
فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ مَا يَنْجِي سِوَى الْأَرْبِ	لَمْ يَبْقَ مِنْ بَعْدَهَا لِلْكَفْرِ إِذْ خَرِبَتْ
شَابَ الْوَلِيدُ بِهَا هَوْلًا وَلَمْ تَثْبِ	أَمْ الْحُرُوبُ فَكَمْ قَدْ أَنْشَأَتْ فِتْنًا
بِهِ الْقَتُوحُ وَمَا قَدْ خَطَّ فِي الصَّبِّ	يَا يَوْمَ عَكَا لَقَدْ أَنْسَيْتِ مَا سَبَقَتْ
عَسَى يَقُومُ بِهِ ذُو الشَّعْرِ وَالْأَدَبِ	لَمْ يَبْلُغِ النَّطْقُ حَدَّ الشُّكْرِ فَبِكَ فَمَا
لِلَّهِ أَيُّ رَضَى فِي ذَلِكَ الْعُظْبِ	أَعْضَيْتِ عُبَادَ عَيْسَى إِذْ أَبَدْتَهُمْ
مَا أَسْلَفَ الْأَشْرَفُ السُّلْطَانُ مِنْ قَرِيبِ	وَأَشْرَفَ الْمَصْطَفَى الْهَادِي الْبَشِيرَ عَلَى
بِشْرِهِ الْكَعْبَةِ الْفَرَاءَ فِي الْحَجِّ	فَقَرَّ عَيْنًا لِهَذَا الْفَتْحِ وَابْتَهَجَتْ
فَالْبَرِّ فِي طَرْبِ وَالْبَحْرِ فِي حَرْبِ	وَسَارَ فِي الْأَرْضِ سَيْرًا قَدْ سَمِعَتْ بِهِ

فتح قلعة الروم بعد الحصار:

يقول ابن كثير في البداية والنهاية (ج ١٢، ص ٣٨٦-٣٨٨): (وفي ربيع الأول من ٦٩٠ هـ توجه السلطان الأشرف بالعساكر نحو الشام، فقدم دمشق ومعه وزيره ابن السلجوس، فاستعرض الحيوش وأنفق فيهم أموالاً جزيلاً، ثم سار بهم نحو بلاد حلب، ثم سار إلى قلعة الروم فافتتحها بالسيف قهراً في يوم السبت حادي عشر رجب، وجاءت البشارة بذلك إلى دمشق وزينت البلد سبعة أيام وبارك الله لجيش المسلمين في سعيهم، وكان يوم السبت إلباً على أهل يوم الأحد، وكان الفتح بعد حصار عظيم جداً مدة ثلاثين يوماً).

وكانت المنجنقيات تزيد على ثلاثين منجنقاً، واستشهد من الأمراء شرف الدين بن الخطير، وقد قتل من أهل البلد خلق كثير، وغنم المسلمون منها شيئاً كثيراً، ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك الشجاعى بقلعة الروم يعمرون ما وهى منها؛ بسبب رمي المنجنقيات عليها وقت الحصار، وكان دخوله إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان، فاحتفل الناس لدخوله ودعوا له وأحبوه، وكان يوماً مشهوداً بسط له كما يسط له إذا قدم من الديار المصرية.

وكان ملك قلعة الروم مع السلطان أسيراً، وكذلك رؤوس أصحابه، فدخل بهم دمشق وهم يحملون رؤوس أصحابهم على رؤوس الرماح، وجهر السلطان طائفة من الجيش نحو جبل كسروان والجزر؛ بسبب ممالأتهم الفرنج قديماً على المسلمين، وكان مقدم العساكر يندار وفي صحبته سنقر الأشقر...

وقد امتدح الشهاب محمود الملك الأشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة هائلة فاضلة أولها:

لنك الراية الصفراء يقدمها النصر	فمن كيقباد إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت في الأفق هذب بنودها	هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلي الثغر

هائج فتح عكا الأسطوري:

١. نهاية الوجود الصليبي على أرض الإسلام: أنهى الأشرف خليل الوجود الصليبي على أرض الإسلام. كان الجهاد لتقويض الحلم الصليبي عملية تراكمية ابتدأها الناصر صلاح الدين وأكملها الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وأنهى مشوارها الطويل الأشرف خليل، وتساقطت بسقوط عكا المراكز الصليبية على ساحل الشام الواحدة بعد الأخرى، وتبخر الحلم الصليبي الذي عمل الصليبيون في مثي عام على تحقيقه بكل جد ودون كلل وكلفهم المال والرجال. ولم يبق للصليبيين من قاعدة لشن الحملات على سواحل الشام ومصر إلا من جزيرتي: أرواد وقبرص في البحر الأبيض المتوسط (انظر فيما سيأتي: فتح السلطان محمد بن قلاوون جزيرة أرواد، وفتح السلطان الأشرف برسباي جزيرة قبرص).

شدت الحملات الصليبية أعصاب أوروبا وجعلتها في حالة اضطراب وفوران دائم مدة قرنين من الزمان، وكلفت العالم النصراني، مباشرة أو بوجه غير مباشر، العديد من ملايين الضحايا (فقد فقد مليونان إلى ٦ ملايين من الأوروبيين أرواحهم حسب الإحصائيات المختلفة)، زيادة على النفقات التي لا تعد ولا تحصى في الأموال وفي المعاناة، وصاحبت ذلك كله الفوضى والفجور والجرائم التي تصاحب الحروب دوماً، وصديق الله تعالى إذ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْقَهُونَ أَمْوَالَهُمْ لَيْصَدُوا عَنْ مِيلِ اللَّهِ فَيَسْبِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الَّذِينَ هُمْ أَلْحَبٌ مِنَ الْأَشْبِ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ هُمْ أَلْحَبٌ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦-٣٧).

يقول الإمام أبو جعفر الطبري في تفسير الآية ٣٦: (يقول تعالى ذكره: إن الذين كفروا بالله ورسوله ينفقون أموالهم، فيعطونها أمثالهم من المشركين؛ ليتقووا بها على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين به؛ ليصدوا المؤمنين بالله ورسوله عن الإيمان بالله ورسوله، فيسبِقون أموالهم في ذلك، ثم تكون نفقتهم تلك عليهم: "حسرة"، يقول: تصير ندامة عليهم؛ لأن أموالهم تذهب، ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله تعالى وإعلاء كلمة الكفر على كلمة الله تعالى؛ لأن الله مَعْلِي كلمته، وجاعل كلمة الكفر السفلى، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا به ورسوله إلى جهنم، فيعذبون فيها، فاعظم بها

حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك! أما الحي، فحرم ماله وذهب باطلاً في غير ذلك نفع، ورجع مغلوباً مقهوراً محروباً مسلوباً. وأما الهالك، فقتل وسلب، وعُجل به إلى نار الله يخلد فيها، تعود بالله من غضبه).

٢. **قدوم الفرنجة للحج أو زيارة بيت المقدس دون سلاح**: حاول بابا الكاثوليك "نيقولا الرابع" بعد سقوط عكا فعل شيء يعيد إلى الصليبيين مكانتهم وهيبتهم، وقام فور سماعه بسقوط عكا بتحميل عشرين سفينة بالمقاتلين في أنقونا وجنوه وأرسل بها إلى قبرص. وقامت تلك السفن بعد أن انضمت إليها سقر الملك هنري بغارة فاشلة على حصن تركي على ساحل الأناضول، وغارة كثر وفرّ على مدينة الإسكندرية في مصر غلاً وحقدًا على انتصارات الأشرف وجيش المسلمين، ولكن البابا نيقولا مات في سنة ١٢٩٢م دون تحقيق أكثر من ذلك. ويفشل الحروب الصليبية، صار المجيء إلى بيت المقدس من دون سلاح، للحج أو الزيارة أمناً أكثر من ذي قبل، وبرعاية إسلامية مسؤولة.

٣. **تنامي التجارة بين الشرق والغرب**: أحدثت الحملات الصليبية طلباً مستمراً لضرورة نقل الرجال والمعدات والتجهيزات، فشجعت بناء السفن، وامتدت أسواق البضائع الشرقية إلى قلب أوروبا، وُحُمت منتوجات دمشق والموصل والإسكندرية والقاهرة والمدن الكبرى الأخرى عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الموانئ الإيطالية، ومن هناك تجد طريقها إلى جميع البلاد الأوروبية. كان بريق الشرق بحريه، وأحجاره النفيسة، وعطوره، وتوابله، ولأنه، وعاجه ساحراً للعون؛ حتى إن الصليبيين المتحمسين كانوا يسمون الشرق "الدهليز إلى جنة الفردوس". ويرغم فشل السيامي والحربي للحملات الصليبية فإن هذه الحروب كان لها نتائج بالغة الأثر، منها اتساع تجارة أوروبا خاصة جنوه و"البندقية" و"بيزا" مع موانئ الشام.

ولم يقتصر هذا الاتساع على المدة التي سيطر فيها الصليبيون على الأراضي المقدسة، بل استمر حتى بعد أن أجلوا عن الإقليم كله. وحصلت تجار السلاح والبضائع والنقل مدة الحروب الصليبية على أموال هائلة فازدهرت تجارة التجار الأوروبيين في إيطاليا وفرنسا، وخصوصاً تجار البندقية، وبيزا، وجنوه.

٤. **تنامي سلطة ملوك أوروبا**: كان للحملات الصليبية تأثير سياسي؛ فقد ساعدت على تقويض الأرستقراطية الإقطاعية، وأبرزت دور الملوك والشعوب. فقد رهن الآلاف من البارونات والفرسان أو باعوا أراضيهم لأجل استحصال مال لتزويد الحملات الصليبية، وقضى الآلاف نحبهم في سوريا، وتحولت ملكية أراضيهم (بسبب فشل الورثة) إلى الدولة وسلطة الملك، وفقد الكثيرون ثروتهم لأجل الصرف على معيشتهم في حلهم وترحالهم وحملاتهم.

إضافة إلى ذلك، فإن الحروب الخاصة التي كانت سائدة في العصور الوسطى بدأت تموت مع رحيل العديد من أرباب الإقطاعية المشاغبين إلى الأرض المقدسة. إن تناقص هؤلاء في أعدادهم وفي تأثيرهم صاحبه تنامي السلطة الملكية، ويمكن تتبع آثاره في التغيرات التي حصلت في فرنسا، البلد الأصلي للحركة الصليبية. حصلت المدن على العديد من الأفضليات السياسية على حساب البارونات والأمراء الصليبيين. كان المال في القرنين الثاني عشر والثالث عشر متوافراً غالباً في أيدي الطبقة الكادحة العامة من الشعب؛ بمقابل إسهامات وديون قدموها لأسيادهم الإقطاعيين، واستلموا بالمقابل أفضلية قيمة وخاصة، إن تنامي سلطة الملوك في أوروبا أدى إلى عاملين: أحدهما تحجيم البابوية، والآخر تنامي الوطنية القومية ودخولهم في صراعات داخلية، كالحرب المبررة التي نشبت بين فرنسا وإنكلترا في عام ١٢٨٢م، ولم يعد في استطاعتهم تنظيم حملات صليبية جديدة.

٥. تحجيم البابوية الكاثوليكية في روما: كان قانون الإرث المطبق في أوروبا ينص على أن يرث الابن الأكبر عقارات والده وعبيده بعد موته، وتوزع المنقولات بين أبنائه، ونشأت بسبب هذا القانون طبقة من النبلاء أو الأسياد الذين لم يكونوا يملكون إقطاعيات، فشاعت بينهم القاب مثل "بلا أرض" و"المعدم"؛ دلالة على عدم ملكيتهم قطعة أرض، ورأى الكثير من هؤلاء فرصتهم في الحملات الصليبية للحصول على أراضٍ في الشرق، ورأى آخرون فيها فرصة لتوسيع أملاكهم بضم أملاك جديدة، كذلك كان الفقراء يجدون فيها فرصة لحياة جديدة أفضل، ووسيلة تخرجهم من حياة العبودية التي كانوا يعيشونها في ظل نظام الإقطاع السائد في ذلك الوقت.

هجمات الكنيسة وزجت الملايين من البشر للمقتال في الشرق، ونمت سلطة الكنيسة بداية حتى طغت على سلطة ملوك أوروبا وآباطرتها، وعاشت على أموال الضحايا، فتضخمتم أموالها وممتلكاتها من بيع صكوك العفوان ومن رهن الأموال والأملاك للفرسان المقاتلين الذين رحلوا ولم يعودوا، ثم أدت ممارسات الكنيسة غني الربانية وغير الأخلاقية في أوروبا نفسها من الحملات الصليبية ضد الهرطقة ومحاكم التفتيش إلى ردة فعل أوروبية، وإلى ازدياد الاستياء الشعبي من استغلال الكنيسة البشع، وبتنامي سلطة الملوك، واحتكاك الغرب بالشرق الإسلامي، كل هذا مهد للإصلاحات البروتستانتية للكنيسة الكاثوليكية، فتحجمت البابوية الكاثوليكية ومنعت من الهيمنة على ملوك أوروبا، بل العكس صار صحيحاً حيث هيمنت ملوك أوروبا على البابوية.

٦. التغيير الثقافي والحضاري: زود الاحتكاك بثقافة الشرق تأثيراً عاماً في صقل الثقافة الغربية وتحسينها، وساعدت على انتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا وبداية حركة الفكر الحر والنهضة الأوروبية، وتسربت مع لغة الفرنجة مفردات اللغة العربية إلى أوروبا، مع التجار ومع الصليبيين.

٧. نهاية فرسان الهيكل: كانت نهايتهم مأساوية في أوروبا بعد أن تورطوا في مشكلات مالية مع ملك فرنسا فيليب الرابع، واتهمهم البابا كليمينث الخامس بالهرطقة، فجرى الاستيلاء على ثرواتهم ولعنوا وألقيت سديتهم وكبارهم في النار. ومن ثم هربوا إلى إسكتلندا، وتخفوا هناك بحركة البنائين الأحرار السرية (فري - ماسون أو الماسونية)، وصاروا يمتنون مهنة القانون في بريطانيا.



فرسان الهيكل يحرقون بالنار في فرنسا وأوروبا (راجع الفصل الخامس من المقدمة)، ثم هرب الكثير منهم إلى إسكتلندا بثرواتهم، وتخفوا هناك بإنشاء حركة الماسونية، وغالبيتهم اليوم محامون قانونيون (Barristers) في المحاكم العليا.

٨. لعل التأثيرات السياسية الأخرى للصليبيين (في الرديئة الأوروبية) تكمن في تأخير تقدم العشائين وإسقاط القسطنطينية ثلاثة قرون أخرى، وهذا ما أعطى دول أوروبا الوقت لتجميع قواها في مناهضة الزحف الإسلامي عندما بدأ يتوغل في قلب أوروبا في القرن الخامس عشر.

٩. حملات صليبية عبر المحيطات: ثم إن أوروبا بعد اندحار حملاتها الصليبية على ديار الإسلام حاولت تجميل صورتها، وتلميع نتائجها مما حفرها على حملات صليبية أخرى عبر البحار يسمونها - زوراً - بالاكشافات الجغرافية (ويعنون بذلك الحملات العسكرية الاستكشافية)، قادهما الكثير من الرحالة بداية، خصوصاً مشاهير الإيطاليين، مثل ماركو بولو، والرجل الإنجليزي المغمور سير جون مانديفل. لاستكشاف البلاد النائية من آسيا، بل إن حب المغامرة العسكرية الاستعمارية (تحت المظلة التجارية) قد حولت القرن الخامس عشر إلى قرن شهير مستلهماً رحلات أدميرال البحرية الإسباني كولوموس، وأمير البحار البرتغالي فاسكو دي جاما، والبرتغالي ماجلان. ويمكن تتبع نشأتها جميعاً كامتداد لحملات الصليب إلى المشرق!!!

١٠. تركت فرنسا أثراً لا يُمحى من ذاكرة التاريخ الإسلامي بقيادتها الحملات الصليبية الأولى حتى صار العرب والمسلمون يطلقون كلمة فرنجة على جميع الأوروبيين والغربيين، وفسروا كل حملات الغرب الاستعمارية على أنها صليبية في روحها، فسمي الغزو الأمريكي على العراق بقيادة بوش الابن عام ٢٠٠٣م بالحملة الصليبية العاشرة على ديار الإسلام!!! وعُدَّ احتلال فرنسا للجزائر في القرن التاسع عشر حملة صليبية، وبعد جثوم ثقل ١٢٠ سنة، قدمت فيه الجزائر مليون شهيد أو يزيد، تحررت الجزائر وفشلت كل محاولات فرنسا لطمس هويتها الإسلامية وتهميشها، وكان أول نشيد فرح بتحرير الجزائر من فرنسا أو من فرنجة الصليبيين الحديثة:

يا محمد مبروك عليك الجزائر رجعت إليك

ولا عجب أن يكون النشيد الوطني الجزائري نشيد من أناشيد الجهاد والتحرير الخالدة التي ألهمها الملايين من العرب والمسلمين، رسالة موجهة إلى فرنسا الحديثة (قائدة الحملات الصليبية القديمة)، كتب النشيد شاعر الثورة مفدي زكريا، حيث نظمه بسجن بريروس في الزنزانة رقم ٦٩ بالجزائر، بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٥٥م، ولحنه الموسيقار المصري محمد فوزي:

قسماً بالآزلات الماحقات	والدماء الزاقيات الطاهرات
والبنود اللامعات الخافقات	في الجبال الشامخات الشاهقات
نحن نرثنا حياة أو ممات	وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

نحن جند في سبيل الحق نرثنا	والى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يصق لنا لما تطقنا	فاتخذنا زنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش نحن	وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب	وطويناه كما يطوى الكتاب
----------------------------	-------------------------

يا فرنسا إن ذا يوم الحساب
فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا فصل الخطاب
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

نحن من أبطالنا ندفع جنداً
وعلى أشلائنا نبعث مجدداً
وعلى أرواحنا نضع خلداً
وعلى هاماتنا نرفع بندا
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...

صرخة الأوطان من ساح الفداء
واصغروها بدماء الشهداء
قد مددنا لك يا مجديداً
فاشهدوا... فاشهدوا... فاشهدوا...



صورة "الصليبي الأخير أو الصليبي المهزوم"
أدت انتصارات المسلمين المتعاقبة، وهزائم الصليبيين المتوالية،
وعداوات الأوروبيين بينهم وخطاياهم، إلى نهاية الحملات الصليبية

الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون (٦٨٤-٧٤١هـ/١٢٨٥-١٣٤١م) ونهاية المغول:

ولد بالفاخرة وتوفي فيها، وقد ولد ووالده على حصار المرقب، تاسع سلاطين الدولة المملوكية البحرية، ومن
سلاطين الذين حكموا مدة طويلة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى العرش منذ عام ١٢٩٣م،

واستمر حكمه ٢٣ عاماً مع أنه خلع في أول عهده ثم أعيد إلى الحكم، وخلع نفسه والتجأ إلى قلعة الكرك بعد سنوات من مدة حكمه الثانية، ثم عاد للاستمرار في الحكم. ومن أهم أعماله انتصاره على المغول في بلاد الشام مرتين، ومحاصرة عاصمة أرمينيا سيس، وإجبار أهلها على دفع كل ما تأخر عليهم من الجزية للمسلمين. وهو من أبرز سلاطين الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية. خاض حروباً ضد الصليبيين والمغول، وحروباً إصلاحية في الداخل ضد الفساد. شهدت مصر في مدة حكمه الثالثة نهضة حضارية وعمرانية لم تشهدها في عهد أي سلطان آخر من سلاطين الدولة المملوكية. جلس على تخت السلطنة ثلاث مرات: الأولى وعمره ٩ سنوات، وثانيه وعمره ١٤ سنة، والثالثة وعمره ٣٥ سنة.

١. من ٦٩٣-٦٩٤هـ (١٢٩٣-١٢٩٤م)، تلاه السلطان العادل كتيبا (حكم ١٢٩٤م-١٢٩٥م)، والسلطان حسام الدين لاجين (حكم ١٢٩٦-١٢٩٩م).
٢. من ٦٩٨-٧٠٨هـ (١٢٩٩-١٣٠٩هـ) ثم خلع نفسه بسبب تحكّم الأميرين سلالر وبيبرس الجاشنكير ومؤامرتهم، فتسلط الملك المظفر بيبرس الجاشنكير عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، ولم يثنّ هيبها من الفتن، ثم رجع محمد بن قلاوون إلى السلطنة بمساندة الجيش والشعب، فهرب المظفر من مصر حتى دخول الملك الناصر. قال بعض الأدباء:

تثنى عطف مصر حين وافى	قدوم الناصر الملك الخبير
فذلّ الجاشنكير بلا لقاء	وأسمى وهو ذو جاشن كبير
إذا لم تعضد الأقدار شخصاً	فالول ما يُراع من النصير

٣. ومن ٧٠٩هـ/١٣٠٩م حتى وفاته عام ٧٤١هـ/١٣٤١م:

معركة وادي الخرندار أو معركة حمص الثالثة عام ٦٩٩هـ-١٢٩٩م:

خلفية المعركة: بعد موت جنكيز خان عام ١٢٢٧م قسمت إمبراطورية المغول بين أبنائه الأربعة وكانت الأجزاء التي تهم الدولة المملوكية جزأين هما: الجزء الغربي من دولة جنكيز خان من نصيب حفيده "ياتو بن جوجي"، وعرف هذا الفرع باسم "القبيلة الذهبية" (خانات القفجاق) وشملت حدودها أجزاء مما يُعرف اليوم باسم (روسيا، أوكرانيا، مولدوفيا، كازاخستان)، والجزء الآخر بلاد فارس وكان من نصيب "تولوي"، وعرف هذا الفرع باسم دولة "الإلخانات" (مغول فارس المتوحشون). وقد توسّع الإلخانات في آسيا الصغرى، واقتحموا حدود العالم الإسلامي، وفي عام ٩٢٥٨م استولوا بقيادة "هولاكو" على بغداد ودمروها، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وقضوا على الخلافة العباسية، ثم استولوا على دمشق، وبذلك فقد المسلمون مركزين مهمين من مراكز الثقافة في العالم الإسلامي.

أما القبيلة الذهبية في الجزء الغربي، فقد اعتنقت الإسلام، وصارت عضداً وحليفاً للمسلمين في حربهم ضد مغول فارس. وبعد الاستيلاء على بغداد ودمشق أرسل هولاكو إلى سيف الدين قطز سلطان مصر المملوكي بهندة ويأمره بالخضوع له. فخرج قطز من القاهرة بجند مصر. ومن انضم إليه من مسكر الشام والعرب التركمان. وأصطدم بجيش المغول في ٢ أيلول ١٢٦٠م وهزمه هزيمة ساحقة في معركة عين جالوت الكبرى.

بانتصار قطز على مغول فارس ثم تحرير دمشق من المغول، وتلاشت الدولة الأيوبية نهائياً، وامتدت الدولة المملوكية الناشئة إلى الشام. إلا أن معركة عين جالوت لم تنه مطامع مغول فارس في الشام، بل صار المغول يترصدون ويعتدون العدة لأخذ ثار هزيمتهم على أيدي المماليك. لم يكف يعلم المغول بموت السلطان قطز حتى أغاروا بقيادة "بيدرا" على مدينة البيرة وبعد ذلك هاجموا حلب واستولوا عليها.

أدرك السلطان بيبرس الذي خلف قطز خطورة مغول فارس على دولة المماليك والعالم الإسلامي، فهادن الصليبيين وعقد حلفاً مع "بركة خان ابن جوجي" ملك مغول القبيلة الذهبية الذي أشهر إسلامه، حتى يتفرغ لمواجهة خطر مغول فارس. وتمكن بيبرس من استرداد البيرة ووقف للمغول والصليبيين بالمرصاد، وهزمهم في وقعة حمص الأولى، والقرات وإبلستين.

بعد وفاة الظاهر بيبرس جدد السلطان قلاوون (الذي خلف بيبرس وابنيه السعيد بركة خان وسلامش)، الهدنة مع الصليبيين ليتفرغ هو الآخر لمواجهة الخطر المغولي، حيث اجتاحت "أياقا بن هولابكو" الشام، فتصدى له السلطان قلاوون وهزم جيوش المغول هزيمة نكراء عند حمص سنة ١٢٨١م (معركة حمص الثانية). وبعد وفاة أياقا خلفه أخوه "تكودار" الذي أشهر إسلامه وسمى نفسه (أحمد) مما أدى إلى تحسن العلاقات بين مغول فارس والمماليك، إلا أن تحسن العلاقات لم يدم طويلاً، إذ قتل تكودار على يد ابن أخيه "أرغون بن أياقا" الذي ولي عرش مغول فارس مكانه في عام ١٢٨٤م وعرف بكراميته وعدائه للمسلمين. بعد صراعات داخلية بين مغول فارس أطاح "غازان بن أرغون" بابن عم أبيه "بايدو بن طرقاي" عام ١٢٩٥م ليصبح بذلك سابع الخانات فارس، وقام بتبديل لقبه من إلخان إلى سلطان.

ونشأ غازان نصرانياً وقامت بتربيته "ديسينا خاتون" زوجة "أياقا"، التي كانت صديقة للصليبيين وعدوة لدودة للمسلمين. إلا أن غازان اعتنق الإسلام وسمى نفسه محموداً، وجعل الإسلام الديانة الرسمية لدولة مغول فارس، لكنه ظل فاسد العقيدة ومارس الشامانية سراً، وكان أقرب إلى المجوس والروافض. ولم يؤد إسلامه إلى تلاشي أحقادته على المماليك وأطماعه في السيطرة على بلاد المسلمين. وبقي غازان صديقاً وحليفاً للصليبيين.

عندما استولى غازان على عرش الإلخانات كان السلطان العادل كتيبا (حكم ١٢٩٤م-١٢٩٥م) يجلس على عرش المماليك بقلعة الجبل بالقاهرة، وكان كتيبا ذاته من أصل مغولي، وفي عهده وفد إلى الشام ومصر عدد كبير من المغول الوافدية من طائفة الأويراتية.

وفيما بين عامي ١٢٩٦م-١٢٩٩م حكم البلاد السلطان حسام الدين لاجين، وبعد وفاته نصب الناصر محمد بن قلاوون مرة ثانية سلطاناً على البلاد، وكان عمره حينذاك ١٤ عاماً. وفي عهد السلطان لاجين فر الأميران فيجق المنصوري نائب دمشق ويكتمر السلاح دار إلى المغول وأقاما عند غازان، فلما نصب الناصر سلطاناً أغرى فيجق غازان بسهولة الزحف على الشام؛ نظراً إلى صغر سن السلطان الناصر وانشغال الأمراء في خلافاتهم. فما كاد الناصر محمد يستقر على تخت السلطنة عام ١٢٩٩. حتى وردت الأنباء بزحف المغول بقيادة غازان على الشام.



معركة وادي الخزندار ١٢٩٩ تصور انكسار المسلمين (اليمين) أمام جيش المغول (اليسار).

الحقيقة أن المسلمين وإن انكسروا لكنهم قتلوا من المغول قرابة ١٤٠٠٠ منهم. ولهذا لم يقيم المغول بملاحقة المسلمين.

زحف المغول على الشام: في سنة ٦٩٩هـ-٢٩٩م وردت أنباء عن زحف مغولي من حلب على الشام بقوة محمود غازان سلطان مغول فارس، وأن طلائع المغول قد وصلت إلى البيرة. جمع الناصر محمد الأمراء للتشاور واتفقوا على خروج بيبرس الجاشنكير أستاذار السلطان إلى حلب على رأس جيش صغير قوامه خمسين مئة مملوك، على أن يلحق به الناصر ببقية الجيش. في ١٥ صفر خرج الناصر من القاهرة على رأس جيشه متوجهاً إلى دمشق. وفي صحبة الخليفة العباسي الإمام أحمد الحاكم بأمر الله، والقضاة الأربعة، وسائر الأمراء.

تأمر المغول الأويراتية: عند وصول جيش الناصر محمد إلى تل العحول من غرة تأمر المغول الأويراتية الذين وفدوا إلى مصر وأقاموا فيها في عهد السلطان المخلوع كتبغا، مع بعض المماليك السلطانية على اغتيال الأميرين سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستاذار السلطان بهدف الانتقام وإعادة كتبغا - وهو مغولي الأصل - إلى الحكم. وأقمت بيبرس من القتل بعد أن هاجمه أحد المماليك السلطانية ويدعى برنطاي ولكنه نجى. قتل برنطاي بعد أن تبادرته السيوف ظن سلار أن المؤامرة قد تمت بمعركة الناصر فأرسل إلى أمير جانداز يقول: "ها هذه الفتنة التي تريدون إثارتها في هذا الوقت ونحن على لقاء العدو وقد بلغنا أن الأويراتية قد وافقت المماليك السلطانية على قتلنا، وكان هذا برايك ورأي السلطان، وقد دفع الله عنا.

إن كان الأمراء كذلك فنحن ممالك السلطان وممالك أبيه الشهيد، ونحن نكون فداء للمسلمين، وإن لم يكن الأمر كذلك فابعثوا إلينا غرماً لنا. فلما سمع الناصر هذا الكلام بكى، وأقسم أنه لم يكن يعلم. وأقسم أمير جانداز أيضاً وذكر أنه ظن أن السلطان كان هو هدف المتآمرين.

وتم الصلح بين أمير جانداز والأمراء البرجية. وقبض على الأويراتية، فأقروا بما كانوا قد عزموا عليه من قتل بيبرس الجاشنكير وسلار وإعادة العادل كتبغا إلى الحكم. وشلق نحو الخمسين من الأويراتية، ونودي عليهم بهذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين ويتجاسر على الملوك.

في ٨ ربيع الأول وصل الناصر إلى دمشق على رأس جيشه، ووردت الأنباء بالبريد ومع القادمين من حلب وغيرها بعبور غازان نهر الفرات بجيش ضخم. في ١٧ ربيع الأول خرج عسكر دمشق وتبعه الناصر بجيشه وتولوا يحمض وأرسل الناصر العريان لمعاينة وضع المغول، فبلغه أنهم يحتشدون عند سلمية. وفي سحر ١٨ ربيع الأول خرج الناصر من حمص لملاقاة المغول، وقد أمر الجنود بالتخلي عن الرماح والاعتماد على السيوف والديبوس. ووصل الناصر إلى مجمع المرج - الذي عرف فيما بعد باسم وادي الخزندار - وقام الأمراء بترتيب الجنود وتنظيم الصفوف. وروح الفقيه يعطون المقاتلين ويقوون عزائمهم حتى بكوا من وقع الكلمات وشدة التأثير.

تطور المعركة الميدانية: كانت عدة جيش المسلمين نحو ٢٠ ألفاً فارس وكان جيش غازان في نحو ٢٠ ألفاً. وكان يضم قوات متحالفة من مملكة قليقية Cilicia الأرمنية. وقف الأمير عيسى بن مهنا في المعركة على رأس العريان، يليه الأمير بلبان الطباخي نائب حلب على رأس عسكر حلب وحماة. ووقف على رأس الميسرة أقرش قتال السبع والحاج كرت نائب طرابلس والأمير بدر الدين يكتاش في عدة من الأمراء. أما في القلب فقد وقف بيبرس الجاشنكير وسلار وأبيك الخازندار في عدة من الأمراء. ووقف الناصر محمد على بعد مع حسام الدين لاجين الأستاذار. وقد اضطرب بيبرس الجاشنكير إلى الاعتزال بسبب إصابته بمنفص شديد مفاجيء منعه من الثبات على فرسه.

أمر غازان مقاتليه بالثبات وعدم الحركة إلى أن يتحرك هو حتى يتمكنوا من مهاجمة جيش الناصر هجمة رجل واحد. فلما انطلقت طلعية جيش الناصر (الزراقون) بالنفط المشتعل تجاه جيش المغول، لم يتحرك غازان

يعكس ما تدفع المسلمون، وظل غازان على ثباته حتى اقتربت طليعة المسلمين منه وقد خمدت نيران النفط، فهجم جيشه حملة واحدة، انطلقت سهام عشرة آلاف مغولي من رماة الشباب نحو العربان وضغطت ميمنة جيشهم عليهم قولى العربان مدبرين وخلفهم جيش حلب وحماه فهزمت ميمنة جيش المسلمين، أما ميسرة جيش الناصر فقد تمكنت من صدم ميمنة غازان صدمة قوية قرقت جمعها ودحرتها عن آخرها، وفقد المغول في تلك الصدمة نحو خمسة الآلاف. وعرف الناصر محمد ذلك فابتهج.

كاد غازان أن يولي الأدبار فاستدعى قبيجق نائب دمشق فشجعه وثبته حتى تماسك ونظم صفوفه وحمل حملة واحدة على قلب جيش المسلمين فلم يصمد سلالر وسائر الأمراء البرجية وتولوا أمام جيش غازان الذي تبعهم وراح يرمي السهام على أقبعتهم. رأى الملك الناصر جيشه يولي الأدبار وخلفه جيش غازان يمطره بالسهم، فراح يبكي ويبتهل قائلا "يا رب لا تجعلني كعبا تحسا على المسلمين". لم يبق مع الناصر من الممالك غير اثني عشر مملوكا.



الحليقان المغولي والنصراي: غازان إيلخان المغول (وهو جالس في الخيمة)
وهيثوم ملك أرمينية الصغرى (راكع على الأرض اليسار)

عاد مقاتلو ميسرة جيش المسلمين التي هزمت ميمنة غازان إلى حمص بالغنائم بعد العصر، فإذا بهم يرون الأمراء البرجية يؤتون منهزمين وفي أعقابهم المغول يتبعونهم فبهتوا. إلا أن غازان أمر مقاتليه بالانسحاب خشية أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمينا فتجوا.

وصل بغية المنهزمين إلى حمص وقت الغروب بلا عتاد ولا سلاح، بعد ما غنم المغول سائر ما كان معهم، فصرخ فيهم أهل حمص "الله الله في المسلمين"، ثم توجهوا إلى دمشق.

وبلغ السلطان أن التتار قد نزلوا بالقرب من سلمية وأنهم يريدون الرجوع إلى بلادهم لما بلغهم من كثرة الجيوش واجتماعهم على قتالهم - وكان هذا الخبر منكبة من التتار - فركب السلطان بعساكره من حمص يكرة يوم الأربعاء وقت الصبح ٢٧ شهر ربيع الأول وساقوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم وهم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادي الخازندار، فركب التتار للقائهم وكانوا تهيؤوا لذلك، وكان الملتقى في ذلك المكان في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور. وتصادما وقد كلت خيول السلطان وعساكره من السوق والتعم القتال بين الفريقين، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فكسرتهم أقبح كسرة وقتلوا منهم جماعة كثيرة نحو ٥٠٠ أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير.

ثم حملت القلب أيضاً حملة هائلة، وصدمت العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثابتاً عظيماً، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض - بلاء من الله تعالى - فانهزمت ميمنة السلطان بعد أن كان لا ح لهم النصر فلا قوة إلا بالله. ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كان وراء السناجق السلطانية من غير قتال وألقى الله تعالى الهزيمة عليهم، فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر وساق السلطان في طائفة يسيرة من أمواله ومدبري مملكته إلى نحو بعلبك وتركوا جميع الأثقال ملقاة فيقبت العدد والسلاح والغنائم والأثقال ملأت تلك الأراضي حتى بقيت الرماح في الطرق كأنها القصب لا ينظر إليها أحد، ورمى الجند خوذهم عن رؤوسهم وجواشهم وسلاحهم تخفيفاً عن الخيل لتوجيههم بأنفسهم وقصد الجميع دمشق. وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك.

ولما بلغ أهل دمشق وغيرها كسرة السلطان عظم الضجيج والبكاء وخرجت المخبرات حاسرات لا يعرفن أين يذهب والأطفال بأيديهن وصار كل واحد في شغل عن صاحبه، إلى أن ورد عليهم الخبر أن ملك التتار قازان مسلم وأن غالب جيشه على ملة الإسلام وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد انقصال الواقعة لم يقتلوا أحداً ممن وجبوه وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويطلقونه فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلاً، ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهله وحواصله وتوجه إلى جهة مصر وبقي من بقي بدمشق في خدمة وحيرة لا يدرون ما عاقبه أمرهم، فطائف تغلب عليهم الخوف وطائفة يترجون حقن الدماء وطائفة يترجون أكثر من ذلك من عدل وحسن سيرة.

واجتمعوا في يوم الأحد بعشده علي من الجامع الأموي واشعروا في أمر الخروج إلى ملك التتار عما أن أخذهم أمناً لأهل البلد، فحضر من الفقهاء قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وهو يومئذ خطيب جامع هل دمشق، والشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ تقي الدين بن تيمية، وقاضي قضاة دمشق نجم الدين بن صصري، ولصاحب فخر الدين بن الشيرجي، والقاضي عز الدين بن الرزكي، والشيخ وجيه الدين بن المتجا، والشيخ عز الدين بن القلاسي، وابن عمه شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحراسي، والشريف زين الدين بن عدنان، ولصاحب شهاب الدين الحنفي، والقاضي شمس الدين بن الحريري، والشيخ محمد بن قوام النابلسي، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين القزويني - وقد خرج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلاً إلى مصر - وجلال الدين بن القاضي حسام الدين الحنفي، وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء.

وأما السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصه بعد الواقعة إلى جهة الكسوة وأما العساكر المصرية والشامية فلا يمكن أن يعبر عن حالهم: فإنه كان أكبر الأمراء يرى وهو وحده وقد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته وهو مسرع في السير خائف متوجه إلى جهة الكسوة لا يلوي على أحد قد دخل قلوبهم الرعب والخوف، تشتمهم العامة وتوبخهم بسبب الهزيمة من التتار وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاضمون عليهم، وقد صار أحدهم الآن أضعف من الهزل. وأمعن العامة في ذلك وهم لا يلتفتون إلى قولهم ولا ينتقون من أحد منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني: مع أن الله تعالى لطف بهم لطفاً عظيماً إذ لم يسق عدوهم خلفهم ولا تبعهم إلا حول المعركة وما قاربها، وكان ذلك لطفاً من الله تعالى بهم، وبقي الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر فوصل أربعة من التتار ومعهم الشريف القمي وتكلموا مع أهل دمشق فلم ينبرم أمر. ثم تقدم من الغد آخر ومعه فرمان يعني مرسوماً من قازان بالأمان وقرئ بالمدرسة البادرانية، ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق وعرفهم أنه يحب العدل والإحسان للرعية وإنصاف المظلوم من الظالم وأشيء من هذا التماس فحصل للناس بذلك سكون وطمأنينة.

الخصائر: استناداً إلى المقريري، قتل في المعركة العديد من الأمراء، ونحو أربعة عشر ألفاً من المغول. وتجدر الإشارة إلى أن المعاليك كانوا عادة يحصون عدد الأمراء المقتولين مع عدم الإشارة إلى المقتولين من عوام الجنود والمتطوعين. ويذكر ابن إياس أن عدد القتلى من الجانبين كان ضخماً.

دخول المغول دمشق: ما كاد المنهزمون يصلون إلى دمشق حتى وصل خبر بقدم غازان، فسارعوا بمغادرة المدينة. وصل غازان إلى أطراف دمشق بعد أن نهب الخزائن السلطانية وعتاد جيش المسلمين في معركة حمص، فقامت ضجة عظيمة وهرب الناس من المدينة في فرع، وهرب نحو مئتي سجين من السجون لومات من الزحام في الأبواب العديد من الناس، وفر إلى جهة مصر كثير منهم. واجتمع من بقي في المدينة بالجامع الأموي، وانتقموا على إرسال قاضي القضاة بدر الدين محمد والفقير تقي الدين أحمد بن تيمية، في عدة من شيوخ وقضاة دمشق، إلى غازان لطلب الأمان، فذهبوا إليه ومنهم من قبل له الأرض، وطلبوا منه الأمان عن طريق مترجم، فقال لهم: "قد بعث إليكم الأمان" وصرفهم، فعادوا إلى دمشق، وفي يوم الجمعة قرأ الأمير إسماعيل التتري الضرمان، الذي حمل الأمان لأهل دمشق. ولم يخطب في مساجد دمشق لأحد من الملوك في ذلك اليوم. وبعد يومين دخل غازان دمشق ومعه قبچق نائب دمشق.

ثم دخل الأمير قبچق المنصوري الذي كان نائب دمشق قبل تاريخه وهرب من الملك المنصور لاحقاً إلى غازان ومعه رفقة الأمير بكتمر السلاح دار وغيره إلى دمشق. وهرب القادة المسلمين خوفاً وهو أهم أسباب الفروقة والهزيمة، ومن ثم عمل السلطان محمد بن قلاوون على توحيد الصف داعياً إلى رجوع هؤلاء القادة من غازان إلى جيش الإسلام، خصوصاً بعد أن اكتشف الجميع أن محمود غازان الذي يدعي الإسلام كان فاسداً ديناً ودنياً.

استمرار جهاد البطل أرجواش في قلعة دمشق: رفض الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان، وتحصن في قلعة دمشق، معلناً بذلك عدم سقوط دمشق، ورأى بعض الأمراء تسليم القلعة للتار حماية للسكان، فوقف ابن تيمية أمامهم وطلب من صاحب القلعة عدم تسليمها لو لم يبق فيها إلا حجر واحد، فأخذ صاحب القلعة برأي ابن تيمية وكان فيه مصلحة للمسلمين.

فلما كلم قبچق وبكتمر الأمير أرجواش المنصوري خشداشهم نائب قلعة دمشق في تسليمها إلى غازان وقالوا له: دم المسلمين في عنقك إن لم تسلمها، فأجابهم: (دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها). ثم وبخهم ولم يسلم قلعة دمشق وتهدى للقتال والحصار واستمر على حفظ القلعة. فذهب الأمير إسماعيل التتري إلى قضاة دمشق وأعيانها يحذرهم من مغية عدم استسلام أرجواش وتسليمه القلعة إلى المغول، وهددهم بنهب دمشق وقتل الجميع. فأرسلوا إليه الرسل يطلبون منه الاستسلام فرفض ورد عليهم بالشتائم.

ودخل غازان دمشق في يوم الجمعة ١٤ ربيع الآخر ٦٩٦هـ، وخطب لغازان على منبر دمشق بالقائه وهي: السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان. وقرئ على الناس تقليد قبچق دمشق وحلب وحماد وحمص وغيرها، وللايتة للقضاة والخطباء وغيرهم، ونشرت الدنانير على الناس ففرحوا بها. ونهب المغول وأرمن مملكة قتيقية المدن وأحرقوا المساجد والمدارس وقتلوا الناس، قام الأرمن بتخريب الصالحية (قرب دمشق، سوريا) وقتلوا وأسروا نحو ١٠٠٠٠ من أهلها. وفر من تمكن منهم إلى دمشق.

وانتهز الأرمن فرصة هزيمة المسلمين فاستولوا على تل حمدون وغيرها، وخرج ابن تيمية إلى غازان بتل راهط للشكوى من النهب والتخريب وقتل الناس برغم منح الأمان، فلم يتمكن من لبقائه لاتشفائه بشرب الخمر، فاجتمع بالوزيرين سعد الدين ورشيد الدين فتصحاها بدفع المال. تصب المغول المنجنيق على القلعة بالقرب من جامع دمشق.

الكبير فلما بلغ أرجواش ذلك بعث بعض رجاله فأهبطوا ما وضعه المغول، ولكن المغول أعادوا وسع المنجنيق وقاموا بحراسته، وحولوا الجامع إلى حانة، واستباحوا حرمة وشربوا فيه الخمر وفجروا بساء المسلمين، ولم تقم به صلاة العشاء في هذا الوقت، فأرسل أرجواش رجلاً لقتل المنجنيقي فهجم عليه بسكين وقتله وهو في وسط المغول، وهرب إلى القلعة، ثم قام أرجواش بهدم ما حول القلعة وحرقه لئلا يستتر به المغول.

رحيل غازان والمغول بعد السرقة والفساد: راح المغول يجيئون الأموال من أهل الشام وينقلونها إلى خزانة غازان، فلما انتهت الحياة غادر غازان دمشق إلى فارس بعد أن أقام الأمير قبيجق نائباً على دمشق، والأمير بكتمر نائباً على حلب وحمص وحماء، والأمير الألبكي نائباً على صفد وطرابلس والساحل تحت حماية نائبه قطلوشاه، ووعد بالعودة لغزو مصر كاتباً: "أنا قد تركنا نواباً بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف، والدخول إلى الديار المصرية وفتحها". بعد رحيل غازان استمر نهب دمشق وتخريبها، وكسر المغول أبواب البيوت ونهبوا ما فيها وأحرقوا الكثير من الدور والمدارس واحترقت المدرسة العادلية، ونهب المغول الأغوا حتى بلغوا القدس، ووصلوا إلى غزة حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها، وحين بدأ بعض التتار ببعض أعمال القتل والنهب والسبي، خرج ابن تيمية مع جماعة إلى ملك التتار قازان ولم يحصل لهم الاجتماع به، واستعصت القلعة على قازان، فعاد إلى العراق وترك نائبه بولاي في الشام في ستين ألف مقاتل، ثم توجه جماعة من التتار جهة الغور فعاثوا فيه الفساد، فخرج ابن تيمية إلى بولاي وكلمه في أسارى المسلمين الذين معه، ففك أسرى كثير منهم.

ولابن قاضي شهابية:

رمتا صرروف الدهر حقاً بسبعة
فما أحداً هنا من السبع سالم
غلاء وغازان وغزو وغارة
وغدر وإغبان وعقم ما لزوم

ودامت هذه الشدة على أهل دمشق، والحصار حاصل في كل يوم على قلعة دمشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرجواش (كان عنده سلامة باطن).

وجرى جبي المال، وأخذ غازان وسافر من دمشق في يوم الجمعة ثاني عشر جمادى الأولى بعد أن ولي الأمير قبيجق المنصوري نيابة الشام على عاداته أولاً وقرر بدمشق جماعة آخر يطول الشرح في ذكرهم.

وأقام الأمير قطلوشاه مقدم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخذ ما بقي من الأموال ولحصار قلعة دمشق، ودام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقية التتار في يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى، وخرج الأمير قبيجق نائب الشام لتوديعه ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه وانقطع أمر المغول من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد وذهبت أموالهم.

قال ابن المنجا: إن الذي حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف وست مئة ألف سوى ما حقق عليهم من التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك، بحيث إن الصقي السنجاري استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم وللأمير إسماعيل مئتي ألف درهم وللوزير نحو أربع مئة ألف وقرر على هذا، واستقر بدمشق ورسم أن يتأدى فيها أن أهل القرى والحواضر يخرجون إلى أماكنهم: رسم بذلك سلطان الشام حاج الحرمين سيف الدين قبيجق وصار قبيجق يركب بالعصابة والشاويشية بين يديه وجمع الناس عليه.

كل ذلك والقتال والمباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وبين قبيجق المذكور ونواب قازان والرسول تمشي بينهم في الصلح، وأرجواش يأبى تسليم القلعة له؛ فلهذا الرجل ما كان أثبت جناحه مع تغفل كان فيه حسب ما يأتي ذكره، هذا وقبيجق غير مستبد بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنواب قازان مثل بولاي وغيره.

وصلت الأخبار بقُدوم الجيوش المصرية إلى الشام، فخرج بولاي ومن معه من التتار من دمشق وبقيت دمشق بلا جند ولا حرس، فتوَدَّى في أهلها أن يخرجوا بأسلحتهم ويبيتون على الأسوار والأبواب يحرسون البلد، فخرجوا على الأسوار، وكان ابن تيمية يدور على الأسوار كل ليلة، يحرض الناس على الصبر والقتال، ويثلو عليهم آيات الجهاد والرباط، وهكذا يكون تفاغل الأمة المؤمنة مع الأزمات).

ثم سافر بولاي من دمشق بمن كان بقي معه من التتار في عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب ومعه قبحق وقد أشيع أن قبحق يريد الانفصال عن التتار، وبعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد.

وفي يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون وللخليفة الحاكم بآمر الله على العادة ففرح الناس بذلك، وكان أسقط اسم الملك الناصر محمد من الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر فالمدة مئة يوم، ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة في البلد فزينت.

ولما عادت الحياة إلى دمشق دار ابن تيمية وأصحابه على الخانات فكسروا أنية الخمر وأباريق، ثم خرج ابن تيمية مع الأقرم نائب دمشق إلى بلاد جبيل وكسروا لتأديبهم على دعمهم التتار وإغاثتهم على المسلمين، فخرج رؤسائهم إلى ابن تيمية فأظهروا الطاعة والندم وردوا كل ما أخذوا.

ثم عاد الأقرم إلى دمشق وصدرت الأوامر أن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين، وأن يتعلموا الرمي، فبليت الإمامجات (وهي معسكرات التدريب) في دمشق، وأمر الفقهاء أن يتعلموا الرمي استعداداً لأي ظرف طارئ، وهكذا يجب أن تستعد الأمة في أوقات الرخاء، حتى إذا نزلت الشدائد انبرى من أبنائها من يدافع عنها ويرد عنها كيد الأعداء.

وحاول جواسيس المغول النكاية بابن تيمية في حادثة يرويها ابن كثير في "البداية والنهاية" (ج ١٤/ص ٢٧): (وفي جمادى الأولى وقع بيد نائب السلطنة كتاب مزور فيه أن الشيخ تقي الدين بن تيمية والقاضي شمس الدين بن الحريري وجماعة من الأمراء والخوارج الذين بباب السلطنة يناصحون التتر ويكاتبونهم، ويريدون تولية قبحق على الشام، وأن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني يعلمهم بأحوال الأمير جمال الدين الأقرم، وكذلك كمال الدين بن تعطار. فلما وقف عليه نائب السلطنة عرف أن هذا مقتعل، فمحص عن واضعه فإذا هو فقير كان مجاوراً بالبيت الذي كان مجاور محراب الصحابة، يقال له اليعقوري، وآخر معه يقال له أحمد الغناري، وكانا معروفين بالشر الفضول. ووجد معهما مسودة هذا الكتاب، فتحقق نائب السلطنة ذلك فعززا تعزيراً عنيفاً، ثم وسطا بعد ذلك، قطعت يد الكاتب الذي كتب لهما هذا الكتاب، وهو التاج المناديلي. وفي أواخر جمادى الأولى انتقل الأمير سيف الدين بلبان أجوكندار المنتصوري إلى نياحة القلعة عوضاً عن أرجواش).

أخبار عودة التتار إلى الشام: فلما استهل سنة ٧٠٠هـ كثرت الأراجيف بالشام ومصر بحركة قازان، وكان قازان قد تسمى محموداً وصار يقال له السلطان محمود غازان، وكان شامانياً بوزياً ثم أسلم عام ٦٩٤هـ وأسلم معه ٧٠ ألفاً من التتار، ولكنه إسلام فيه فساد في العقيدة وموالة للتتار وقتال للمسلمين.

ثم وصلت في أول المحرم من سنة ٧٠٠هـ الأخبار والقصاص من الشرق وأخبروا أن قازان قد جمع جموعاً كثيرة وقد ناس في جميع بلاد الغزاة إلى مصر، وأنه قاصد الشام، فحضل أهل الشام من دمشق وتفرقوا في السواحل وقصدوا الحصون وتشتت غالب أهل الشام إلى البلاد من الفرات إلى غزة، فعند ذلك تجهز الملك الناصر وجهاز عساكره وتهاى وخرج بجميع عساكره وأمراه من القاهرة إلى مسجد النين في يوم السبت ثالث عشر صفر وسافر حتى قارب دمشق.

وأقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر وتوجه هو وعساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية بعد أن لاقوا شدة ومثقة عظيمة من كثرة الأمطار والثلوج والأحوال وعدم المأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد والمطر وعدم جلب المأكول لهم ولدوابهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دمشق، وكان طلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعه الجبل يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى.

وقبل عود السلطان إلى مصر كان جهاز السلطان الأمير يكتمر السلاح دار الأمير بهاء الدين يعقوبيا إلى دمشق أمامه فدخلوا دمشق، ثم أشيع بدمشق عود السلطان إلى القاهرة فجفل غالب أهل دمشق منها، ونائب الشام لم يمنعه بل يحسن لهم ذلك، وقيل إن والي دمشق بقي يجفل الناس بنفسه وصار يمر بالأسواق ويقول في أي شيء أنتم قعوداً وما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادى المناداة بدمشق: من قعد قدمه في رقبته ومن لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة، فسافر في ذلك اليوم معظم الناس.

انتقام الله من جيش قازان المغولي: وأما قازان فإنه وصل إلى حلب ووصل عساكره إلى قروون حماه وإلى بلاد سمرين وسير معظم جيشه إلى بلاد أنطاكية وغيرها فتهبوا من الدواب والأغنام والأبقار ما جاوز حد الكثرة، وسبوا عابداً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان.

ثم أرسل الله تعالى على غازان وعساكره الأمطار والثلوج بحيث إنه أمطر عليهم ٤١ يوماً وقت محر ووقت ثلج فهلك منهم عالم كثير، ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين وقد تلفت خيولهم وهلك أكثرها وعجزهم الله تعالى وخذلهم وزدهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَنَنَالَهُنَّ خَيْرًا وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْمُؤْمِنِينَ النَّوَالُ﴾ (الأحزاب: ١٢٥).

ابن تيمية الإمام العالم العامل ودوره في الجهاد:

للظروف التاريخية والسياسية دور في توضيح شخصية ابن تيمية، وشهرتها، وقد كان له بصماته الواضحة في أحداث تاريخية وسياسية مفصلية في التاريخ الإسلامي، ولعل أشهر أدواره تصديه لحملة التتار ونجاحه في تحريض عوام المسلمين وأمرائهم على جهادهم بحسنة إدارية ودبلوماسية شجاعة، وقد تجلت هذه الشجاعة والحسنة الدبلوماسية في أثناء رئاسته وهذا من أبناء دمشق وذهابه إلى الملك "قازان" ملك التتار وطلب الأمان لأهل دمشق، وتحذيره من ممارسة العيب والفساد، وذهابه إلى قائد التتار "بولاي" وإقناعه بالإفراج عن الأسرى من أهل دمشق، ثم سقره إلى سلطان المماليك وإقناعه بضرورة إرسال جيشه لمواجهة التتار.

وكانت دمشق في عصر ابن تيمية تعيش حالة فراغ دستوري وإداري، ونجح ابن تيمية في سد هذا الفراغ، وتحديداً من بعد موت الظاهر بيبرس، وكان الناس يلوثون به عندما تدلهم الخطوب ويقزع الناس وير عسكر نائب السلطان في دمشق. ومن يقرأ التاريخ يجد أن ابن تيمية كان أشبه ما يكون بالحاكم الحقيقي، وأن وجود نائب السلطان كان وجوداً رمزياً، ولهذا توسع ابن تيمية في مفهوم فقه الحسبة، وكان أحياناً يقود الجيش بنفسه ليحارب بهم بعض فرق الشيعة التي تواطأت مع التتار، واتهمه خصومه باستغلال هذا النفوذ في إقصائهم، وقاموا بتخليم عدد من الفاعليات الاحتجاجية للمطالبة برفع ولاية ابن تيمية عليهم، وجلب له الحضور السياسي عداوات فقهاء المذاهب الأخرى.

وفي صفر سنة ٧٠٠هـ جاءت الأخبار بعودة التتار إلى بلاد الشام فاضطرب الناس وزادت أجرة القل، وبيعت الأمتعة والثياب بأرخص الأثمان. وجلس ابن تيمية في مجلسه في الجامع في الثاني من صفر، وحرص المؤمن على القتال وبذل الأموال، ونهاهم عن الفرار، فسكن الناس وهدأت الأوضاع. ثم قام ابن تيمية بأعمال جلية في هذه

الزّمة فخرج إلى نائب الشام والحيش المراتطين، فثبّتهم وطيب قلوبهم، ووعدهم بنصر الله، وبات عندهم ليلة، وعاد إلى دمشق.

ثم جاءت الأخبار برجوع السلطان الناصر محمد وجيشه إلى مصر، فسأل أمير الشام ابن تيمية أن يسير إليه، فركب الشيخ حتى وصل إلى السلطان وطلب منه النصرة، وخوّفه بالله، وهدده بأنه إذا تأخر فإن أهل الشام سيجمعون عليهم سلطاناً غيره يدافع عنهم. ثم أقام شيخ الإسلام بمصر ثمانية أيام يحث الناس على الجهاد والخروج. وقد اجتمع الشيخ تقي الدين بن تيمية بشيخ مصر تقي الدين بن دقيق العيد قاضي الديار المصرية ومشيخة دار الحديث الكاملية منذ ٦٩٥هـ، فقال له تقي الدين بن دقيق العيد لما رأى تلك العلوم منه: (ما أظن بقي يُخلق مثلك). واستجاب السلطان والناس لدعوة الشيخ ابن تيمية، وتحرك الجيش المصري إلى الشام، واستعد المسلمون للحرب، ثم جاءت الأخبار بانسحاب التتار إلى العراق وكفى الله المؤمنين القتال.

رسالة ابن تيمية في جهاد التتار وجهاد عملاء التتار من منافقي الأمة الإسلامية:

رسالة ابن تيمية الشيخ العالم العامل في جهاد المغول من البدائع اللغوية والوثائق التاريخية، فهي نموذج لجهاد هذا العالم الباضل في سبيل الله، فقد كان يحول بسيفه في ساحات الوغى مع أعظم الفرسان الشجعان، الذين شاهدهم في القتال في أثناء فتح عكا فعجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو، خاصة بعد أن بدأ التخاذل من قبل منافقين يسري بين الناس (وما أشبه اليوم بالبارحة)، فكتب ابن تيمية الرسالة هذه سنة ٧٠٠هـ يُعيد انكسار المسلمين أمام التتار في معركة الخازندار (٦٩٩هـ) واحتلالهم دمشق (٧٠٠هـ) وخروجهم منها بسرعة، ثم حاول التتار التقدم ثانية، لكن قدر الله تعالى أن يرد كيد التتار في ذلك العام، فقد أرسل الله تعالى عليهم برداً شديداً ممطراً شديداً متصلاً لأكثر من ٤٠ يوماً، ففرق الله به جموعهم، وأهلك أعمامهم، ورد كيدهم عن المسلمين سنة ٧٠١-٧٠٠هـ. نشر ابن تيمية رسالته هذه (قبيل موقعة شقحب ٧٠٢هـ-١٣٠٣م)، يستثير الهمم لقتال التتار بكل قوة وحماس، حتى قال في ذلك: (إذا رأيتموني في ذلك الجانب - أي في جانب العدو - وعلى رأسي مصحف فهاقتلوني)، وأدت الرسالة بفعولها، حين انتصر المسلمون بفضل الله في وقعة شقحب انتصاراً مؤزراً عظيماً ونهائياً على المغول، الذين أسلموا من بعد ذلك، ودخلوا دار الإسلام طائعين مسلمين ومؤمنين بدين الله: دين الإسلام الخالد. الرسالة من أبدع ما كتب للتدبر بمعانيها (مذكورة في مجموع الفتاوى لابن تيمية: ج ٢٨، ص ٤١٠-٤٦٧، والعقود الدرية: ص ١٢٦-١٩١):

[بسم الله الرحمن الرحيم]

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين:

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل، وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على صفيوته من حليفته وخيرته من بريته محمد عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وسلم تسليماً.

أما بعد: فقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَظِيمِهِمْ لَمَّا بَلَغُوا خَبَرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب: ٢٥).

والله تعالى يحقق لنا التمام بقوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فِرَيقًا قَتَلُوا وَفِرَيقًا قَبَضُوا وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَنْوَارَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٦-٢٧).

وكان من الناس من أقصى همته التجارة بنفسه، لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشفييع المطاع، وهم درجات عند الله في المنفعة والدفاع، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى، إلا الإيمان والعمل الصالح والبر والعقوى، وبلبت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكتها الضمائر، وتبين أن الهرج من الأقوال والأعمال، يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المال، وذم سادته وكبرائه من أطاعهم، فأصلوه السبيل، كما حمد ربّه من صدق في إيمانه، فأتخذ مع الرسول سبيلاً، ويان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخيار بما يكون، وواطأ قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون، وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة، على الدين الذين لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم إلى يوم القيامة.

حيث تحزبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام، وانقسم الناس ما بين مأجور ومعدور، وآخر قد غره بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ١٢٥).

ووجه الاعتبار في هذه الحادثة العظيمة: أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرع له الجهاد إباحة له أولاً، ثم إيجاباً له ثانياً: لما هاجر إلى المدينة، وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله، فغزا بنفسه ﷺ مدة مقامه بدار الهجرة، وهو نحو عشر سنين: بضعا وعشرين غزوة، أولها غزوة بدر وأخرها غزوة تبوك: أنزل الله في أول مغاربه (سورة الأنفال) وفي آخرها (سورة براءة). وجمع بينهما في المصحف: لتسابه أول الأمر وآخره، كما قال أمير المؤمنين عثمان: لما سئل عن القرآن بين السورتين من غير فصل باليسمعة.

وكان القتال منها في تسع غزوات، فأول غزوات القتال: بدر وأخرها حنين والطائف، وأنزل الله فيها ملائكته كما أخبر به القرآن: ولهذا صار الناس يجمعون بينهما في القول، وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً ومكاناً: فإن بدرًا كانت في رمضان في السنة الثانية من الهجرة، ما بين المدينة ومكة شامي مكة، وغزوة حنين في آخر شوال من السنة الثامنة، وحنين واد قريب من الطائف شرقي مكة، ثم قسم النبي ﷺ غنائمها بالجعرانة واعتمر من الجعرانة، ثم حاصر الطائف، فلم يقاتله أهل الطائف زحفاً وصفوها، وإنما قاتلوه من وراء جدار، فأخر غزوة كان فيها القتال زحفاً واصطفافاً: هي غزوة حنين.

وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صنديد الكفار، وقتل الله أشrafهم وأسرى رؤوسهم مع قلة المسلمين وضعفهم؛ فإنهم كانوا ثلاث مئة وبضعة عشر ليس معهم إلا فرسان، وكان يعقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد، وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات في قوة وعدة وهيئة وخيلاء، فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة، وفيها النبي ﷺ وأصحابه، فخرج إليهم النبي ﷺ وأصحابه في نحو من ربع الكفار، وتركوا عيالهم بالمدينة لم ينقلوهم إلى موضع آخر.

وكانت أولاً الحكة للمسلمين عليهم ثم صارت للكفار، فانهزم عامة عسكر المسلمين، إلا نفرًا قليلاً حول النبي ﷺ منهم من قتل ومنهم من جرح، وحرصوا على قتل النبي ﷺ، حتى كسروا ربابيته، وشجوا جبينه، وهشموا البيضة على رأسه، وأنزل الله فيها شطراً من سورة آل عمران من قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ﴾ (آل عمران: ١٢١)، وقال فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مَتَى يَأْتِي الْجُنُودُ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (آل عمران: ١٥٥)، وقال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُمُ بِإِذْنِهِ﴾ (آل عمران: ١٥٥)، وقال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُمُ بِإِذْنِهِ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

ثُمَّ مَكَرَ فِكْمُ عَنْهُمْ لِئَبْغِلَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥٢﴾ لَقَدْ عَمِرَانُ: ١١٥٢، وقال فيها: ﴿وَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَتَابَهَا فَلْتُمْ أَنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٥٥﴾﴾ لَقَدْ عَمِرَانُ: ١١٥٥.

وكان الشيطان قد نفع في الناس: أن محمداً قد قتل، فمنهم من تزلزل لذلك فهرب، ومنهم من ثبت فقاتل. فقال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١٥٦﴾﴾ لَقَدْ عَمِرَانُ: ١١٥٦.

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي، وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة: من فساد النيات والفخر والخيلاء والظلم والفواحش والأعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله والبقاء على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والبروم، وكان عدوهم في أول الأمر راضياً منهم بالموادعة والمسالمة، سارعاً في الدخول في الإسلام، وكان مبتدئاً في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاههم بما ابتلاههم به: ليمحص الله الذين آمنوا وينبئوا إلى ربهم. وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والتكيد والخروج عن شرائع الإسلام. فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدهم ما يستوجب به الانتقام، فقد كان في نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيته من الشر الكبير ما لو يقترب به ظفر بعدوهم - لذي هو على الحال المذكورة - لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أن نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين. فإن النبي ﷺ قال: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبّر كان خيراً له».

فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد، وكان بعد أحد بأكثر من سنة - وقيل بستين - قد ابتلي المسلمون عام الخندق، كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنجو ما ابتلي المسلمون مع النبي ﷺ عام الخندق وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها (سورة الأحزاب)، وهي سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التي نصر الله فيها عبده ﷺ وأعز فيها جنده المؤمنين وهزم الأحزاب - الذين تحزبوا عليه - وحده بغير قتال، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم، ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمة أهل بيته: لما كان هو القلب الذي تنصو به الله فيها بغير قتال، كما كان ذلك في غزوتنا هذه سواءً، وظهر فيها سر تأييد الدين كما ظهر في غزوة الخندق، وانقسم الناس فيها كأنقسامهم عام الخندق.

وذلك أن الله تعالى منذ بعث محمداً ﷺ، وأعزه بالهجرة والنصرة صار الناس ثلاثة أقسام: قسم مؤمنين وهم الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً، وقسماً كفاراً، وهم الذين أظهروا الكفر به، وقسماً منافقين، وهم الذين آمنوا ظاهراً لا باطناً، ولهذا افتتح (سورة البقرة) بأربع آيات في صفة المؤمنين، وأيتين في صفة الكافرين، وثلاث عشرة آية في صفة المنافقين، وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب، كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة، وكما فسره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، في الحديث المأثور عنه في الإيمان ودعائمه وشعبه.

فمن النفاق ما هو أكبر ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار! كنفق عبد الله بن أبي وغيره: بأن يظهر تكذيب الرسول، أو جحد بعض ما جاء به أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً في زمن رسول الله ﷺ وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده: لتكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها - وكان التفاف معها موجوداً - فوجوده فيما دون ذلك أولى.

وكما أنه كان يعلم بعض المنافقين، ولا يعلم بعضهم، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِثْقَاءِ لَا تَعْلَمُهُمْ مَّنْ قَلْبُهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٠)، كذلك خلفاؤه بعده وورثته: قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم، وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة، ويسمون (الزنادقة)، وقد اختلف العلماء في قبول توبيتهم في الظاهر؛ لكون ذلك لا يعلم إذ هم دائماً يظهرون الإسلام، وهؤلاء يكثرون في المتفلسفة من المنجمين ونحوهم، ثم في الأطباء، ثم في الكتاب أقل من ذلك، ويوجدون في استصوفة والمتفقهة، وفي المقاتلة والأمراء، وفي العامة أيضاً، ولكن يوجدون كثيراً في نحل أهل البدع: لا سيما الرافضة، فبهم من الزنادقة والمنافقين ما ليس في أحد من أهل النحل، ولهذا كانت الخرمية والباطنية والقرامطة والاسماعيلية والنصيرية، ونحوهم من المنافقين الزنادقة: منتسبة إلى الرافضة، وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار؛ لكونهم لا يلزمونهم بشريعة الإسلام؛ بل يتركبونهم وما هم عليه، وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم في الدنيا، واستيلائهم على الأموال، واجترائهم على الدماء والسبي؛ لا لأجل الدين، فهذا ضرب النفاق الأكبر.

وأما النفاق الأصغر: فهو النفاق في الأعمال ونحوها: مثل أن يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا أعتن، أو يفر إذا خاصم، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «أية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية صحيحة: «إن صلي وصام وزعم أنه مسلم».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ومن هذا الباب: الإعراض عن الجهاد، فإنه من خصال المنافقين، قال النبي ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق»، رواه مسلم، وقد أنزل الله (سورة براءة) التي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، أخرجاه في الصحيحين عن ابن عباس قال: هي الفاضحة ما زالت تنزل: (ومنهم ومنهم حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها).

وعن المقداد بن الأسود (رضي الله عنه) قال: «هي سورة البحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين»، وعن قتادة (رضي الله عنه) قال: «هي المشيرة؛ لأنها أثار مخازي المنافقين»، وعن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: «هي المبعثرة»، والمبعثرة والإثارة متقاربان، وعن ابن عمر (رضي الله عنه) أنها المفسقة، لأنها تبرئ من مرض النفاق، يقال: تقشقر المريض إذا برا؛ قال الأصمعي: وكان يقال لسورتي الإخلاص، المفسقتان؛ لأنهما يبرتان من النفاق.

وهذه السورة نزلت في آخر مغازي النبي ﷺ غزوة تبوك عام تسع من الهجرة، وقد عز الإسلام وظهر، فكشف له فيها أحوال المنافقين، ووصفهم فيها بالجن واليهود، وترك الجهاد، ووصفهم بالبخل عن النفقة في سبيل الله والشح على المال، وهذان داءان عظيمان: الجن والبخل، قال النبي ﷺ: «شر ما في المرء شح هائع وجبن خالع» حديث صحيح؛ ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار، كما دل عليه قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَّهُمْ آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ سَرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ سَرَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (ال عمران: ١٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتِهِم مِّنْ دُونِهِ إِلَّا مُتَحَدِّثًا يُقَالُ أَوْ مَتَحَدِّثًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ يُفْضَىٰ بِهَا وَفَضٍ مِّنْ اللَّهِ وَمَا وَدَّ اللَّهُ وَيُفْسِدُ الْعَصِيرُ﴾ (الأنفال: ١٦).

وأما وصيهم بالجبن والفرع فقال تعالى: ﴿وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْقَهُونَ ۚ﴾^{٥٦} **يَحْدُوثُ** مَلْجَأًا أَوْ مَفْزَعًا أَوْ مَدْعًا لَوْلَا إِلَهِهِ وَهُمْ يَحْمِلُونَ ﴿التوبة: ٥٦-٥٧﴾، فهاخبر سبحانه أنهم وإن حلسوا إناهم من المؤمنين فما هم منهم؛ ولكن يضرعون من العدو: ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلْجَأًا﴾ يلجؤون إليه من المعادل والحصول التي يضر إليها من يترك الجهاد، أو «مَفْزَعًا» وهي جمع مغارة، ومفارات

سميت بذلك: لأن الداخل يقور فيها أي يستتر: كما يقور الماء: ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾، وهو الذي يتكلف الدخول إليه، إما لضيق بابه أو لغير ذلك. أي مكاناً يدخلون إليه. ولو كان الدخول بكلفة ومشقة: لولوا عن الجهاد ﴿إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ﴾ أي يسرعون اسراعاً لا يردهم شيء، كالفرس الجموح الذي إذا حمل لا يزده اللجام. وهذا وصف منطلق على أقوام كثيرين في حادثتنا، وفيما قبلها من الحوادث وبعدها.

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي (سُورَةِ مُحَمَّد) ﴿١٠﴾: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّصُوحًا وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَسٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَنَظَرَ الْمُعْتَنِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ (محمد ١٠) أَي فَبَعْدَ اإِهْمِ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورَ قُلُوا سَلَامًا إِنَّهُمْ لَكَانُوا حَبِيبًا لَهُمْ﴾ (محمد ٢١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥) فَحَصَرِ الْمُؤْمِنِينَ قِيَمِينَ آمَنَ وَجَاهَدَ.

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عِلْمُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ۝ إِنْ لَا يَسْتَفِيدُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزْوَاجٌ قَلِيلَةٌ فَمَهْ فِي رَبِّهِمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ (النساء: ٩٤-٩٥) فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول في ترك الجهاد، وإنما يستأذنه الذي لا يؤمن، فكيف بالتارك من غير استئذان.

ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متصافرة على هذا المعنى، وقال في وصفهم بالشح: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّدَقَةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُفْقِنُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ﴾ (التوبة: ١٥٤) فهذا حال من أنفق كآرها، فكيف بمن ترك النفقة رأساً، وقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (التوبة: ١٥٨).

وَقَالَ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُم مِّن فَضْلِهِ لَتَصَّدَّقُوا وَلَئِنْ كُنُوا مِّنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِمْ وَتَوَلَّوْا ۖ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿النَّبِيَّةُ ٧٥-٧٦﴾.

وقال في السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرَّهْيَانِ فَيَا كُنُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَيْمَانِ وَهُمْ عَنْ
كَيْدِ اللَّهِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَعْصُوهُنَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقْتُلُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ نَحْنُ عَلَيْهِمْ تِلْكَ جَهَنَّمَ
فَتَكُونُ فِيهَا حِيَاهُهُمْ وَجُودُهُمْ وَيَطْهَرُ لَهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْ تَعْمَلُوا فذُرُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (النوبة: ٣٥-٣٦) فانطلقت هذه الآية
حال من أخذ المال بغير حق، أو منعه من مستحقه من جميع الناس؛ فإن الأحبار هم العلماء والرهيان هم العبياد، وقد أخبر
أن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون - أي يعرضون ويمتنعون، يقال: صد عن الحق صدوا - وصند غيره
صداً - وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالناس بالباطل: من وقف أو عطية على الدين كالصلاة والنذور التي تنذر لأهل الدين ومن
الأموال المشتركة كأموال بيت المال ونحو ذلك، فهذا قيم من يأكل المال بالباطل بشبهة دين.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالنِّقْمَ وَلَا يُمْسِكُوهُ بِسَبِيلِ اللَّهِ﴾، فهذا يندرج فيه من كنز المال عن اللقمة الواجبة في سبيل الله، والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله، سواء كان ملكاً أو مقدماً أو غنياً أو غير ذلك، وإذا

دخل في هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب، فما كنز من الأموال المشتركة التي يستحقها عموم الأمة - ويستحقها: مصالحهم - أولى وأحرى.

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق، فإذا قرأ الإنسان (سورة الأحزاب)، وعرف من المنقولات في الحديث والتفسير والفقه والمغازي: كيف كانت صفة الواقعة التي نزل بها القرآن، ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك: وجد مصداق ما ذكرنا، وأن الناس انقسموا في هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة، كما انقسموا في تلك، وتبين له كثير من التشابهات، افتتح الله السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وذكر في آئتها قوله: ﴿وَيَنْبَغِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ هُمْ مِنْ اللَّهِ فُضِّلُوا كَثِيرًا﴾ [٢]، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١٧-١٨]، ثم قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكَ إِلَهٌ كَانَتْ إِلَهًا كَذَرْتُمْ مَا عَمِلْتُمْ خَيْرًا﴾ [٣]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢-٣]، فامر به باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة - التي هي سنته - وبأن يتوكل على الله، هب الأولى يحقق قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وبالثانية يحقق قوله: ﴿وَيَنْبَغِ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومثل ذلك قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

وهذا وإن كان مأموراً به في جميع الدين: فإن ذلك في الجهاد أؤكد؛ لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين: وذلك لا يتم إلا بتأييد قوي من الله: ولهذا كان الجهاد سنام العمل وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة، ففيه سنام المحبة كما في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُعَاهِدُونَكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ رِيسَةً لَا تَمُرُّ﴾ [النساء: ٥٥] وفيه سنام التوكل وسنام الصبر: فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل: ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ عَدَا مَا عَمِلُوا لَتَنُوَيْدَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسْرَةٌ وَلَآخِرَةُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١١] الَّذِينَ هَاجَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤١-٤٢].

وقال موسى لقومه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَأَسْمِعُوا لِكُلِّ الْأَرْضِ لِلَّهِ يُؤْخِذُهَا مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، ولهذا كان الصبر واليقين - اللذين هما أصل التوكل - يوجبان الإمامة في الدين كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا مَنَعُوا وَكَانُوا بَيْنَ يَدَيْنا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التي هي محيطة بابواب العلم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [الأنعام: ٦٩].

فجعل لمن جاهد فيه هداية جميع سبله تعالى: ولهذا قال الإمامان عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهما: إذا اختلف الناس في شيء، فانظروا ماذا عليه أهل الثغر فإن الحق معهم: لأن الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [الأنعام: ٦٩]، وفي الجهاد أيضاً: حقيقة الزهد في الحياة الدنيا، وفي الدار الدنيا: وفيه أيضاً: حقيقة الإخلاص، فإن الكلام فيمن جاهد في سبيل الله لا في سبيل الرياسة، ولا في سبيل المال، ولا في سبيل الحمية، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا، وأعظم مراتب الإخلاص: تسليم النفس والمال إلى المعبود: كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتُمْ لَهُمْ الْكَفَّةُ يُعْطُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، والجنة: اسم للدار التي حوت كل نعيم، أعلاه النظر إلى الله إلى ما دون ذلك مما تشتهي النفس وتلد الأعين مما قد نعرفه وقد لا نعرفه كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله ﷺ: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السورة بهذا . ثم إنه تعالى قال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩] . كان مختصر القصة : أن المسلمين تحزب عليهم عامة المشركين الذين حولهم ، وجاؤوا بجمعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين ، فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بني أسد وأشجع وهزارة وغيرهم من قبائل نجد ، واجتمعت أيضاً اليهود : من قريظة والنضير ، فإن بني النضير كان النبي ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك ، كما ذكره الله تعالى في (سورة الحشر) ، فجاؤوا في الأحزاب إلى قريظة وهم معاهدون للنبي ﷺ ، ومجاورون له قريباً من المدينة ، فلم يزالوا بهم حتى نقضت قريظة العهد ، ودخلوا في الأحزاب ، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة ، وهم بقدر المسلمين مرات متعددة ، فرفع النبي ﷺ الذرة من النساء والصبيان في أطلام المدينة ، وهي مثل الجواسق ، ولم ينقلهم إلى مواضع أخرى ، وجعل ظهرهم إلى سلع - وهو الجبل القريب من المدينة من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقاً ، والعدو قد أحاط بهم من العالي والسافلة ، وكان عدواً شديداً العدو ، لو تمكن من المؤمنين لكانت نكايته فيهم أعظم النكايات .

وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مغول ، وغيرهم من أنواع الترك . ومن فرس ومستعربة ونحوهم من أجناس المزدقة ، ومن نصارى الأرمن وغيرهم ، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين ، وهو بين الأقدام والأحجام ، مع قلة من إزارتهم من المسلمين ، ومقصودهم الاستيلاء على الدار واضطلام أهلها ، كما نزل أولئك بنوحي المدينة بإزاء المسلمين ، ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعاً وعشرين ليلة ، وقيل : عشرين ليلة ، وهذا العدو عبر القرات سبع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعاً عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قاتزان بمن معه : يوم الإثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة ، واجتمع بهم الداعي وخاطبهم في هذه القضية ، وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم : ألقى الله في قلوب عدوهم الروع والانصراف ، وكان عام الخندق برد شديد وريح شديدة منكرة بها صرف الله الأحزاب عن المدينة ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩] .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد على خلاف أكثر العادات ، حتى كره كثير الناس ذلك ، وكنا نقول لهم : لا تكرهوا ذلك ، فإن الله فيه حكمة ورحمة ، وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله به العدو : فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد ، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله ، وهلك أيضاً منهم من شاء الله ، وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز يسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه يقتال ، حتى بلغني عن بعض كبار المقدمين في أرض الشام أنه قال : لا يبيض الله وجوهنا : أعدونا في الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لا نأخذهم ؟ حتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين لو يصطادونهم ؛ لكن في تأخير الله اضطياهم حكمة عظيمة ، وقال الله في شأن الأحزاب : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴾ [١١] هَالِكِ ابْنِ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠-١١] .

وهكذا هذا العام ، جاء العدو من ناحيتي علو الشام وهو شمال القرات ، وهو قبلي القرات ، فزاعمت الأبطال ريعاً عظيماً ، وبلغت القلوب الحناجر : لعظم البلاء ؛ لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وقرب العدو وتوجهه إلى دمشق ، وظن الناس بالله الظنونا ، هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام ، حتى يصطلموا أهل الشام ، وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة ، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر . وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن ، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام ، وهذا يظن أنهم يأخذونها ، أنه يذهبون إلى مصر فيستولون عليها فلا يقف قدامهم أحد فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها ، وهذا - إذا أحسن ظنه -

قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين، ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستقدها منهم، كما خرج ذلك العام، وهذا ظن خيارهم.

وهذا يضمن أن ما أخبر به أهل الآثار النبوية وأهل التحديث والمبشرات، أماني كاذبة وخرافات لاغية، وهذا قد استولى عليه الرعب والفرع، حتى يمر الظن بفؤاده من السحاب ليس له عقل يفهم ولا لسان يتكلم. وهذا قد تعارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات: لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب، ولا يميز في التحديث بين المخطئ والصائب، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء: بل إما أن يكون جاهلاً بها، وقد سمعها سماع العير، ثم قد لا يتقطن لوجوه دلالتها الحقيقية، ولا يهتدي لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الروية، فلذلك استولت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء، وتراجعت به الأراء تراجم الصبيان بالحصباء: ﴿هَٰذَا الَّذِي آتَىٰ الْمُؤْمِنُونَ وَزَلُّوا زَلًّا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ١١) ابتلاهم الله بهذا الابتلاء الذي يكفر به خطيئاتهم، ويرفع به درجاتهم، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ما استوجبوا به أعلى الدرجات، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب: ١٢).

وهكذا قالوا في هذه الفتنة، فيما وعدهم أهل الورثة النبوية والخلافة الرسالية وحزب الله المحدثون عنه، حتى حصل لبؤلاء الناسي برسول الله ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُتُوهُ حَكَّةٌ﴾ (الأحزاب: ١٢). فأما المنافقون فقد مضى التنبيه عليهم، وأما الذين في قلوبهم مرض، فقد تكرر ذكرهم في هذه السورة، فذكروا هنا وفي قوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (الأحزاب: ١٦)، وفي قوله: ﴿وَقَطَّعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب: ٢٢) وذكر الله مرض القلب في مواضع، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ شَرُّ حَزَلَةٍ أَوْ نَجْوَى﴾ (الأنفال: ١٤)، والمرضى في القلب كالمرض في الجسد، فكما أن هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت: فكذلك قد يكون في القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه، أم أفسد عمله وحركته، وذلك - كما فسروه: هو من ضعف الإيمان: إما بضعف علم القلب واعتقاده، وإما بضعف عمله وحركته، فيدخل فيه من ضعف تصديقه، ومن غلب عليه الجبن والفرع: فإن أدواء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك كلها أمراض.

وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التي فيه، وعلى هذا فقول: ﴿وَقَطَّعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب: ٢٢) هو إرادة الفجور وشهو، الزنا كما فسروه به، ومنه قول النبي ﷺ: «وأي داء أدوا من البخل؟»، وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما في الصدور، وقال النبي ﷺ: «إنما شفاء العي السؤال»، وكان يقول في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء»، ولن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه كما ذكرنا أن رجلاً شكاً إلى أحمد بن حنبل غوفه من بعض الولاء فقال: لو صححت لم تخف أحداً، أي خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك.

ولهذا أحب الله على عباده أن لا يخافوا حزب الشيطان: بل لا يخافون غيره تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا دَلَّكُمْ الشَّيْطَانُ عَلَىٰ خِطَايَهِ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (ال عمران: ١٧٥) أي يخوفكم أوليائه، وقال لعموم بني إسرائيل تنبيهاً لنا: ﴿وَأَنِّي فَازَهُمُ﴾ (البقرة: ١٤٠)، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَآخِثُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ مِنْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخِثُونَ﴾ (البقرة: ١٥٠)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ لِدِينِهِمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخِثُونَ﴾ (البقرة: ١٥٠)، وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ أُمَّةٍ وَاللَّهُ وَالْيَوْمُ الْآخِرُ وَأَقَامُ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ (البقرة: ١٧٢).

(التوبة: ١١٨). وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رَسَلَتِ اللَّهُ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ١٢٩)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ نَعْلَمُونَ قَوْمًا نَكُورًا أَتَمَنَّهُمْ وَهُمْ يُكْفَرُونَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (التوبة: ١٦).

فدلت هذه الآية - وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ (الأنفال: ٤٩) - على أن المرضى والنفاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة، التي توجب أمن الإنسان من الخوف حتى يظنوا أنها كانت غروراً لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقَالُ تِلْكَ بَلِ الْفُلُوفُ غَيْرُكَ لَا تَقَالُ تِلْكَ بَلِ الْفُلُوفُ غَيْرُكَ﴾ (الأحزاب: ١٢). وكان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو، فقالت طائفة منهم: لا مقام لكم هنا؛ لكثرة العدو، فارجعوا إلى المدينة، وقيل: لا مقام لكم على دين محمد فارجعوا إلى دين الشوك، وقيل: لا مقام لكم على القتال، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو، كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار، وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكن؛ بل تنتقل عنها إما إلى الحجاز واليمن وما إلى مصر وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما قد استسلم لهم أهل العراق والدخول تحت حكمهم، فهذه المقالات الثلاث قد قبلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك، وهكذا قال طائفة من المنافقين، والدين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة؛ لا مقام لكم بهذه الأرض، ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام، وإن كانت قد قرئت بالضم أيضاً، فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به؟

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَعِذُّنَ قَرِيبٌ مِّنْهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّا بِيُتُونَا عَوْرَةً وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٢). وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبي ﷺ عند سلع داخل الخندق والنساء والصبيان في آصام المدينة: يا رسول الله إن بيوتنا عورة، أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل - وأصل العورة: الخالي الذي يحتاج إلى خض وستر، يقال: أعور مجلسك إذا ذهب ستره أو سقط جداره، ومنه عورة العدو - وقال مجاهد والحسن: أي ضائعة تحلى عليها السراق، وقال قتادة: قالوا، بيوتنا مما يلي العدو، فلا تأمن على أهلنا فاندن لنا أن نذهب إليها لحض النساء والصبيان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ (الأحزاب: ١٢)؛ لأن الله يحفظها ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب: ١٢)، فهم يقصدون الفرار من الجهاد ويحتجون بحجة الأسرة.

وهكذا أصاب كثيراً من الناس في هذه الغزاة صاروا يفرّون من الثغر إلى المعقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟ قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ عَلِيمًا مِّنْ أَفْقَارِهِمْ سِئْلُوا الْقِسْمَةَ لَآتَوْهَا وَمَ تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا بَيْرًا﴾ (الأحزاب: ١١)، فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوائبها، ثم طلبت منهم القسمة - وهي الافتتان عن الدين بالكفر أو النفاق - لأعطوا القسمة، ولجروها من غير توقف.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام - وتلك فتنة عظيمة - لكانوا معه على ذلك، كما ساعدتهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ما بين ترك واجبات وفعل محرمات، إما في حق الله وإما في حق العباد، صترك الصلوات وشرب الخمر، وسب السلف وسب جنود المسلمين والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين وحریمهم، وأخذ أموال الناس وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم إلى غير تلك من أنواع

صاروا يعوقون من أراد الغزو وأقواماً بعثوا من المعازل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلم إلينا قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾ (الأحزاب: ١٨-١٩)، أي: بخلاء عليكم بالقتال معكم والنفقة في سبيل الله. وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة، وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله، و شح عليهم بمفضل الله: من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره، فإن أقواماً يشحون بمعروفهم وأقواماً يشحون بمعروف الله وقضله، وهم الحساد.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ وَانْتَهَمَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَنى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (الأحزاب: ١٩)، من شدة الرعب الذي في قلوبهم يشبهون المغصى عليه وقت النزاع، فإنه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره ولا يطرف، فكذلك هؤلاء: لأنهم يخافون القتل: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالْأَيْسَرِ جِدَاوُ ۝٢٠﴾ (الأحزاب: ٢٠)، ويقال في اللغة (سلفوكم) وهو رفع الصوت بالكلام المؤذي، ومنه (الصاqqة): وهي التي ترفع صوتها بالمصيبة، يقال: سلفه وسلقه، وقد حرا طائفة من السلف بها: لكنها خارجة عن المصحف - إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً، ويقال: خطيب مسلاق: إذا كان بليغاً في خطبته: لكن الشدة هنا في الشر لا في الخير، كما قال: ﴿بِالْأَيْسَرِ جِدَاوُ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ (الأحزاب: ٢٠) وهذا السلق بالألسنة الحادة يكون بوجوه: تارة يقول المنافقون للمؤمنين: هذا الذي جرى علينا يشؤمكم: فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين، وقاتلتم عليه وخالفتموه: فإن هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة

وتارة يقولون: أنتم الذين أشرتم علينا بالمقام هنا، والثبت بهذا الثغر إلى هذا الوقت، وإلا فلو كنا سافرننا قبل هذا لما أصابنا هذا، وتارة يقولون - أنتم مع قتلكم وضعفكم - تريدون أن تكسروا العدو وقد غرركم دينكم، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَسْأَلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ عَنْ هَؤُلَاءِ ذِيهِمْ وَمَنْ يَقُولُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٩)، وتارة يقولون: أنتم مجانين لا، عقل لكم تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم، وتارة يقولون: أنواعاً من الكلام المؤذي الشديد، وهم مع ذلك أشحه على الخير، أي حراس على الغنيمة والمال الذي قد حصل لكم، قال قتادة: إن كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم، يقولون: أعطونا فلستم بأحق بها منا، فأمّا عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق، وأما عند الغنيمة فأشح قوم.

وقيل: أشحه على الخير أي بخلاء به، لا ينفعون لا بنفوسهم ولا بأموالهم، وأصل الشح: شدة الحرص الذي يتولد عنه البخل والظلم: من منع الحق وأخذ الباطل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح: فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»، فهؤلاء أشحاء على إخوانهم: أي بخلاء عليهم، وأشحاء على الخير أي حراس عليه، فلا ينفقونه، كما قال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (الأنبياء: ٨٨).

ثم قال تعالى: ﴿يَحْسَبَنَّ الْأَحْزَابُ لَمْ يَذْهَبُوا وَلَٰكِن يَأْتِي الْأَحْزَابُ بَوْدُوا لَوْ أَنَّهُمْ يَادْرُوكُنَّ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝٢١﴾ (الأحزاب: ٢٠)، هو صفهم بثلاثة أوصاف:

أحدها: أنهم لقرط خوفهم يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب بوؤوا لو أنهم يادروك في الأعراب يسألون عن أخباركم، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخير المخوف وتكذيب خبر الأمن، الوصف.

الثاني: أن الأحزاب إذا جاؤوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم، بل يكونون في البادية بين الأعراب يسألون عن أنباءكم: إيش خبر المدينة؟ وإيش جرى للناس؟

والوصف الثالث: أن الأحزاب إذا أتوا - وهم فيكم - لم يقاتلوا إلا قليلاً.

وقد ذكر أهل المغازي - منهم ابن إسحاق - أن النبي ﷺ قال في الخندق: «الآن نغزوهم ولا يغزونا»، فما غزت قريش ولا غطفان ولا اليهود المسلمين بعدها: بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة.

كذلك - إن شاء الله - هؤلاء الأحزاب من المغول وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة والنصارى، وتحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزونا، ويتوب الله على من يشاء من المسلمين الذين خالط قلوبهم مرض أو تفاق، بأن ينكبوا إلى ربهم ويحسن ظنهم بالإسلام وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم، فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار كما قال: ﴿وَرَأَى اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُعَذِّبُهُمْ لَزِيزًا مُؤَلِمًا﴾ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿الأحزاب: ١٢٥﴾

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا: ريح شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيراً، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابه، كما كان هم هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على من بها من المسلمين فردهم الله يغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم، وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة، وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرة عظيمة، وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه، فكان من حكمته، أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنوده حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل: سبب رحيلهم. وابتلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله، وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه، وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يوم الإثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلت مصر عقيب العسكر، واجتمعت بالسلطان وأسراء المسلمين، وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه.

فلما ثبت الله قلوب المسلمين، صرف العدو جزءاً منه وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة يُلْصِقُ الله بها، وإن لم يقع الفعل وإن تباعدت الديار، وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود، كما ذكر ذلك أهل المغازي، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق، بل من طالعها علم صحة ذلك كما ذكره أهل المغازي: مثل عمرو بن الزبير والزهرى وموسى بن عقبة وسعيد بن يحيى الأموي ومحمد بن عائذ ومحمد بن إسحاق والواقدي وغيرهم.

ثم تبقى بالشام منهم بقايا سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم مضافاً إلى عسكر حماه وحلب وما هنالك، وثبت المسلمون بأزائهم، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير: لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماه وأذلهم الله تعالى، فلم يقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقهم غيره، فجرت مناوشات صفار كما جرى في غزوة الخندق، حيث قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها عمرو بن عبدود العامري، لما اقتحم الخندق هو وتفر قليل من المشركين، كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين، وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهِرين عليهم، وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يدركوهم إلا عند عبور الثغرات، وبعضهم في جزيرة فيها، قراوا أوائل المسلمين فهربوا منهم وخالطوهم: وأصاب المسلمون بعضهم، وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب بعد أن جرى - ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور - رجفات ووقعات صفار وعزمنا على الذهاب إلى حماه غير مرة لأجل العزاة: لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا، وثبت بأزائهم المقدم الذي بحماه ومن معهم من العسكر ومن آتاه من دمشق، وعزموا على لقائهم، نالوا أجراً عظيماً، وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمائنات: إما ثلاثة أو أربعة.

فكان من المقرر: أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله، يلقي في قلوب عدوهم الرعب، فيهربون لكن أصابوا من البلديات بالشمال مثل (تيزين) و(الفوعة) و(معرة مصرين) وغيرها ما لم يكونوا وظنوه في العام الماضي، وقيل: إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم؛ بسبب الرفض وأن عند بعضهم فرامين منهم؛ لكن هؤلاء ظلمة ومن أعان ظالماً بلي به، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٨)، وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب من أهل (سيس) والأفرنج، فنحن نرجو من الله أن ينزلهم من صياصيصهم، وهي الحصون - ويقال للقرون: الصياصي - ويقذف في قلوبهم الرعب، وقد فتح الله تلك البلاد، ونغزوهم إن شاء الله تعالى، فتفتح أرض العراق وغيرها وتعلو كلمة الله ويظهر دينه.

فإن هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس، وخرجت عن سنن العادة، وظهر لكل ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين، وعنايته بهذه الأمة، وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين - بعد أن كاد الإسلام أن ينثلم وكرر العدو كفة فلم يلو عن، وخذل الناصرون فلم يلبوا على، وتحير المسائرون فلم يدروا من... ولا إلى...، وانقطعت الأسباب الظاهرة، وأهبطت الأحزاب القاهرة، وانصرفت الفئة الناصرة، وتخاذلت القلوب المتناصرة، وثبتت الفئة الناصرة، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة، واستجرت من الله وعده العصابة المنصورة الظاهرة، ففتح الله أبواب سمواته لجنوده القاهرة، وأظهر على الحق آياته الباهرة، وأقام عمود الكتاب بعد ميله، وثبت لواء الدين بقوة وحوله، وأرغم معاطس أهل الكفر والنفاق، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق، فإله يتم هذه النعمة بجمع قلوب أهل الإيمان على جهاد أهل الطغيان، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منحة كريمة وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة، ويشفي صدور المؤمنين من أعاديهم، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

قال الشيخ رحمه الله:

كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده، لما رجعت من مصر في جمادى الآخرة، وأشاعوا أنه لم يبق منهم أحد، ثم لما بقيت تلك الطائفة اشتغلنا بالاهتمام بجهادهم وقصد الذهاب إلى إخواننا بحماه، وتحريض الأمراء على ذلك، حتى جاءنا الخبر بانصراف المتبقين منهم، فكتبته في رجب والله أعلم.

والحمد لله وحده، وصلى الله على أشرف الخلق محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. انتهى

العدل الثاني أساس النصر والتمكين: وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإن عودته إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ١٢ ربيع الآخر وتبعته العساكر المصرية والشامية متفرقين. وتهيأ السلطان إلى لقاء غازان ثانياً وجهز العساكر وقام بكلفهم أتم قيام على صغر سنه.

بدأ **الناصر** فور عودته إلى القاهرة بتنظيم الجيش وتجهيزه: لأخذ الثار من المغول، واستدعى صناع السلاح وجمعت الأموال والخيل والرمح والسيوف من كل أرجاء مصر. ورسم للجنود العائدين بالنفقة فمنحوا أموالاً كثيرة أصلحوا بها. حوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم. ونودي بحضور الأجناد البطلان ووزعوا على الأمراء، استدعى مجدي الدين عيسى نائب الحسبة: ليأخذ فتوى الفقهاء بأخذ المال من الناس للنفقة على الحرب. فأحضر فتوى قديمة كان السلطان قطز قد استخدمها في أخذ دينار من كل شخص قيل معركة عين جالوت. ولكن الشيخ تقي الدين محمد بن دقيق العيد امتنع عن إصدار فتوى بهذا الخصوص قاتلاً: "لم يكتب ابن عبد السلام للملك المظفر قطز حتى أحضر سائر الأمراء ما في ملكهم من ذهب وقضه وحلي نسائهم وأولادهم وراة. وحلف كل منهم أنه لا يملك سوى هذا، وكان ذلك ليس بكاف؛ فعند ذلك كتب يأخذ الدينار من كل واحد. وأما الآن فيبلغني أن كلا من



خريطة موقع معركتي وادي الخزندار وشحب بين المماليك والمغول في عهد الناصر محمد بن قلاوون ومحمد غزان

الأمراء له مال جزيل، وفيهم من يجهز بناته بالجواهر واللآلئ، ويعمل الإناء الذي يستجي منه في الخلاء من فضة، ويرصع مجاس زوجته بأصناف الجواهر، عندئذ تقرّر النظر في أموال التجار والأغنياء، وأخذ مايمكن أخذه من كل منهم بحسب قدرة كل واحد. وفرض على كل فرد من التجار والأغنياء من عشرة دنانير إلى مئة دينار، وطلب من أعيان التجار مالا على سبيل القرض، فجري جمع مبالغ كبيرة، على الرغم من الشكايف الباهظة والأعداد الكبيرة من نارحي الشام إلا أن ذلك لم يؤثر كثيراً في اقتصاد مصر، إذ ارتفع سعر السلاح ولكن هبطت أسعار الغداء ولم يحدث نقص في الأسواق.

في أثناء ذلك وردت إلى القاهرة أنباء رحيل غازان عن دمشق وإقامة قبيق نائباً عليها، فأرسل الناصر إلى قبيق ويكثر يدعوهما للولاء له، فاستجابا له وخرج قبيق من دمشق متوجهاً إلى مصر، فاستولى الأمير أرجواش على دمشق وأعاد الخطبة باسم الملك الناصر بعد انقطاعها مئة يوم.

وسار بيبرس الجاشنكير وسار إلى دمشق وأرسل العسكر إلى حلب فقتلوا من كان فيها من أتباع غازان. وفر بعضهم إلى غازان وعرفوه بغدر قبيق به. وأقيم العادل كتيفاً نائباً على حماه، وخلع على أرجواش وأمن عليه. وأقيم قبيق على نيابة الشوبك. وزحف جنود الناصر على جبل الدروز والزموا الدروز بعد أن طلبوا الأسان، بإعادة العتاد والأموال التي نهبوها من الجنود وقت انسحابهم إلى مصر.

اللغة العربية في أزوع تواصل بين ملك المغول الدجال محمود غازان، وبين سلطان الإسلام البطل محمد بن قلاوون.

ووصل الخبر برجعهم في جمادى الآخرة وقد خلت دمشق وجميع بلاد الشام من سكانها. وفيها في تاسع ذي القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أنس يخبر بحركة التتار وأن التتار قد أرسلوا أمامهم رسلاً وأن رسلهم قد قاربت الضرات. ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك. بعدة إلى الديار المصرية في ليلة الإثنين خامس عشر ذي الحجة وأعيان القصاد ثلاثة نفر: قاضي الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعي، وآخر عجمي، وآخر تركي.

ولما كان عصر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء والمقدمين إلى القلعة وعملت الخدمة ولبسوا المماليك أغخر الثياب والملابس، وبعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع تحواً من ألف شمعة ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر ثم أحضروا الرسل وحضر القاضي بجلتهم وعلى رأسه طرحة، فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة وذكر آيات كثيرة في معنى الصلح واتفق الكلمة ورغب فيه، ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ومن بعده للسلطان محمود غازان ودعا للمسلمين والأمراء وأدى الرسالة.

ومضمونها: إنما قصدتهم السلاح ودفعوا إليهم كتاباً محتوماً من السلطان غازان فأخذ منهم الكتاب ولم يعرفوه تلك الليلة وأعيد الرسل إلى مكانهم.

فلما كن ليلة الخميس فتح الكتاب وقرئ على السلطان وهو مكتوب بالغولي وكتب الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشر ذي الحجة حضر جميع الأمراء والمقدمين وأكثر العسكر وأخرج إليهم الكتاب وقرئ عليهم وهو مكتوب بخط غليظ في نصف قطع البغدادى ومضمونه:

[بسم الله الرحمن الرحيم،

ونتهي بعد السلام إليه، أن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة، وشرعنا بدين الإسلام، وأيدنا وتديننا لنقامته مناره، وسددنا وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم وما الله بظلام للعبيد.

وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على مازدين وبلادها في شهر رمضان المعظم قدره الذي لم ترل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار، وفيه تغل الشياطين وتغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام وقعلوا ما لم تغفله عباد الأصنام، فأتينا أهل مازدين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم فلادوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا ووقفوا موقف المستجير الخائف يبابنا فهزتنا نخوة الكرام وحركتنا حمية الإسلام، فركبنا على القور بمن كان معنا ولم يسعنا بعد هذا المقام، ودخلنا البلاد وقدمنا النية وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمانة.

وعلمنا أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً والله لا يحب الفساد، وأنه يفضي لهلك الحريم وسبي الأولاد. فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة وقلوب على الحمية للدين موافقة، فمزقناكم كل ممزق، والذي ساقنا إليكم هو الذي نصرنا عليكم، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة - الآية - فوليت الأديار، واعتصمت من سيوفنا بالفرار، فغفونا عنكم بعد اقتدار، ورفعنا عنكم حكم السيف فبتار، وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيتم، وإن يشروا من العفو والعفاف ما طوبيتهم، ولو قدرتم ما عفوتهم ولا عففت، ولم نقلدكم منه بذلك بل حكم الإسلام في قتال البيعة.

كذلك وكان جميع ما جرى في سالف القدم، ومن قبل كونه جرى به في اللوح والقلم، ثم لما رأينا الرعية ضرروا بمقمننا في الشام لمشاركتنا لهم في الشراب والطعام وما حصل في قلوب الرعية من الرعب عند معاينة جيوشنا، التي هي كمطبات السحب، فأردنا أن نسكن تخوفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد والعلو والمزيد، فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تتوأس بهم، وتعود في أمرها إليهم ويحرسونهم، من تعدي بعضهم على بعض بحيث إنكم ضاقت بكم الأرض، إلى أن يستقر جاشكم وتبصروا رشدكم، وتسيروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، وأكرادكم المتمردين، وتقدمنا إلى مقدمي طوامين جيوشنا أنهم متى سمعوا قدوم أحد منكم إلى الشام أن يعودوا إلينا بسلام، فعادوا إلينا بالنصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

والآن، فإننا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل مازدين، وقد أخذنا منكم القصاص وهو جزاء كل عاص، فترجع الآن في إصلاح ائرعائنا، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا، فقد تضررت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها، وتعدت سفر التجار، وتوقف حال المعاش لانقطاع البضائع والأسفار، ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك

ونحاسب عليه، وأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن جميع ما كان وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وأنت تعلم أيها الملك الجليل أنني وأنت مطالبون بالحقير والجليل، وأنت مسؤولون عما جناه أقل من ولينا، وأنت مصيرنا إلى الله، وإنا معقدون الإسلام قولاً وعملاً وتياً؛ عاملون بقروضه في كل وصية.

وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الإسلام بقية السلف كمال الدين موسى بن محمد آيا عبد الله أعزه الله تعالى مشافهة يعيدها على سمع الملك، والعمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسير لنا هدية الديار المصرية؛ لتعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية. ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، والسلام الطيب منا عليكم. إن شاء الله تعالى.

فلما سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء في ذلك، وبعد أيام طلبوا قاضي الموصل أعني الرسول المقدم ذكره من عند قازان وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين، فنحن ما نقاتل إلا لقيام الدين، فإن كان هذا الأمر قد فعلوه خيلة ورهاء فتحن تحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى ورغبوه غاية الرغبة، فحلف لهم بما يعتقدونه أنه ما يعم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيتهم وإصلاح الرعية.

ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبصرون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعمدكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم، فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحاً فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقق الدماء فيما بينكم.

فلما سمعوا كلامه ورأوا ما فيه من غرض وهو مصلحة، فشرعوا ليعينوا من يروح في الرسالة، فكتبوا جماعة منهم الأمير شمس الدين محمد بن التيتي والخطيب شمس الدين الجوزي خطيب جامع ابن طولون فتشفع ابن الجوزي حتى تركوه وعينوا القاضي عماد الدين بن السكري خطيب جامع الحاكم، وهو ناظر دار العدل بالدير المصرية، وشخصاً هو أمير أخور من البرجية.

الحرب النفسية وجواب السلطان المسلم البطل محمد بن قلاوون على اقتراءات قازان ملك المغول:

فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة، أدهش عقول الرسل مما رأوا من حسن زي عسكر الديار المصرية بخلاف زي التتار، وأحضروا الرسل في الليل إلى الدهليز إلى بين يدي السلطان. وقد أوقدوا شموعاً كثيرة ومشاعل عديدة وفوانيس وأشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد، بحيث إن البرية بقيت حمراء تلهب نوراً وناراً، فتحدثوا معهم ساعة ثم أعطوهم جواب الكتاب وخلصوا عليهم خلع السفر، وأعطوا لكل واحد من الرسل عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك، ونسخة الكتاب المسير إليهم صورتها:

[بسم الله الرحمن الرحيم،

علمنا ما أشار الملك إليه، وعول في قوله وفعله عليه، فأما قول الملك: قد جمعنا وإياكم كلمة الإسلام، وإنه لم يطرق بلادنا ولا قصدنا إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول بل هو عندنا معلوم، وأن السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على مارددين، وأنهم قتلوا وسبوا وهدموا الحرير، وفعلوا فعل من لا له دين، فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم، وأن من فعل ما فعل من الفساد لم يكن

برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد، بل من الأطراف الطامعة ممن لا يؤبه إليه، ولا يعول في فعل ولا قول عليه، وأن معظم جيوشنا كان في تلك الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا، لثلاً يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، وأنهم أكثر ليالهم سجدوا وأكثر نهارهم صياماً.

وأما قول الملك بن الملك الذي هو من أعظم القان، فيقول قولاً يقع عليه الرد من قريب، ويرغم أن جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب، ولو يعلم أنه لو قلب في مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلاً أو ركباً، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب، أو يتحقق أن أقرب بطائنه إليه هو العين لنا عليه وإن كثر ذلك لديه. ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع ويتصبر بالتابع والمتبوع، وحشد وجمع من كل بلد واعتضد بالنصارى والكرج والأرمن، واستجد بكل من ركب فرساً من فضيح والكن، وطلب من المسومات خيولاً وكاباً وكث سواداً وعند أطلايا، ثم إنه لما رأى أنه ليس له جيوشنا قبل في المجال، عاد إلى قول الزور والمحال، وخديعة الاحتيال، وتظاهر بدين الإسلام واشتهر به في الخاص والعام والباطن، بخلاف ذلك حتى ظن جيوشنا ويطاننا أن الأمر كذلك، فلما التقينا معه كان معظم جيوشنا يمتنع من قتاله ويبعد عن نزاله ويقول: لا يجوز لنا قتال المسلمين ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين! فلماذا حصل منهم القتل، وبتأخيرهم عن قتالكم حصل ما حصل، وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك.

وليس يرى من أصعابك إلا من هو نادم أو باك، أو فاقد عزيزاً عنده أو شاك، والحرب سجال، يوم لك ويوم عليك، وليس ذلك مما تعاب به الحيوش ولا تقهر، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر.

وأما قول الملك إنه لما التقى بجيوشنا مرّتهم كل ممزق، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يكلم به، وهو يعلم وإن كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائع جيوشنا، ومراتع سيوفنا من رقاب آباءه وأجداده، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم، وإن كنت نصرت مرة فقد كسرت آباءك مراراً، وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة، فبلادكم لغارتنا مقام ولجيوشنا قرار، وكما تدين تدان.

وأما قول الملك: إنه ومن معه اعتقدوا الإسلام قولاً وفعلًا وعملاً ونية، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه إلى هذه البنية أعني الكعبة المضية، فإن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس بخفي عنك ولا مكتوم، وليس هذا هو فعل المسلمين، ولا من هو متمسك بهذا الدين، فأين وكيف وما الحجة! وحرم البيت المقدس تشرب فيه الخمر، وبعثك السور، وتقتض البكور، ويقتل فيه المجاورون، ويستأسر خطباؤه أو المؤذنون، ثم على رأس خليل الرحمن تعلق الصلبان وتهتك النسوان، ويغفل فيه الكافر سكران، فإن كان هذا عن علمك ورضاك، فواخيبتك في دنياك وأخرأك، وإياك في مبدتك ومعادك، وعن قليل يؤذن بخراب عمرك وبلادك وهلاك جيشك وأجنادك.

وإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمتك، فاستدرك ما فاتت فليس مظلوماً به سواك، وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام وأنت في قولك صادق في الكلام وفي عقدك صحيح النظام، فاقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الأعمال، وأوقع بهم أعظم النكال، لتعلم أنك على بيضاء المحجة، وكان فعلك وقولك أبلغ حجة. ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة احبروسة وتحققوا أنكم تظاهرتكم بكلمة الإخلاص، وخدعتم باليمين والإيمان، وانتصرتهم على قتالهم بعيدة الصلبان، اجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بعزيمات محمدية، وقلوب بدرية، وهمم عليّة، عند الله مرضية، وجدوا أسير في البلاد ليتشفوا منكم غليل الصدور والأكياد، فما وسع جيشكم إلا الفرار، وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار، فاندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام، فخشينا على رعيّكم تهلك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مسلك، فأمرناهم بالمقام ولزوم الأهبة ولاهتمام، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأما ما تحمله قاضي القضاة من المشاهدة، فإننا سمعناه ووعيناه وتحققنا تضمنته مشاهدة، ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور وزهده في دار الغرور، ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم لم يطلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهر له خفي مستوركم، فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح، وأنتم أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك من ولا يشوه تميمي، نفلدك سيف البغي ومن سل سيف البغي قتل به - ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله - فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فصل حكماً انتهيتم إليه، أو جرم أمراً عولت عليه، يكون له في أول دولتكم حكم وتمكين، وهو فيما يقول عليه ثقة أمين، لتتكلّم معه فيصالح فيه الصلح لذات البين، وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين.

وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية، فليس تبخل عليه ومقداره عندنا أجل مقدار، وجميع ما يهدي إليه دون قدره، وإنما الواجب أن يهدي أولاً من استهدى لتقابل هديته بأضعافها، ونتحقق صدق نيته وإخلاص سريرته، ونفعل ما يكون فيه رضا الله عز وجل، ورضا رسوله في الدنيا والآخرة، لعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة، والله تعالى الموفق للصواب، انتهى.

خديعة الدجال قازان

ثم في صفر هذا وصل الخبر إلى السلطان بأن قازان على عزم الركوب وقصد الشام، وأن مقدم عساكره الأمير بولاي قد قارب الفرات، وأن النذير أرسله من الرسل خديعة فعند ذلك شرع السلطان في تجهيز العساكر وتهيباً للخروج إلى البلاد الشامية، ثم في أثناء ذلك ورد على السلطان قاصد الأمير كتبنا المنصوري ناقد صرخد - وكتبنا هذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لأجبن المقدم ذكرهما - وأخبر أنه وقع بين حمله وحمص وحصن الأكراد برد، وفيه شيء على صورة بني آدم من الذكور والإناث، وصور قروذ وغير ذلك، فتعجب السلطان وغيره من ذلك.

ثم في ليلة الجمعة ١٨ جمادى الأولى سنة ٧٠١ هـ في وقت السحر: توفي الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن علي الهاشمي العباسي بمسكنه بالكبش ظاهر القاهرة، وحمل إلى تربته بجوار السيدة نفيسة ودفن بها، بعد أن أوصى بولاية العهد إلى ولده أبي الربيع سليمان: وتقدير عمره فوق العشرين سنة.

وكان السلطان طلبه في أول نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، وأشهد عليه أنه ولي الملك القاصر محمد بن قلاوون جميع ما ولاه والده وفوضه إليه، ثم عاد إلى الكبش فلما فرغت الصلاة على الخليفة رد وندم المذكور وأولاد أخيه من جامع ابن طولون إلى دورهم، ونزل من القلعة خمسة خدام من خدام السلطان وقعدوا على باب الكبش صفة الترسيم عليهم، وسير السلطان يستشير قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد الشافعي في أمر سليمان المذكور: هل يصلح للخلافة أم لا، فقال: نعم يصلح وأشي عليه.

وبقي الأمر موقوفاً إلى يوم يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور، فلما كان بكرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة، فطلع هو وأولاد أخيه بسبب المبايع، فأماضى السلطان ما عهد إليه والده للمذكور بعد فصول وأمر يطول شرحها بيته وبين أولاد أخيه، وجلس السلطان وخلع على أبي الربيع سليمان هذا خلعة الخلافة، ونعت بالمستكفي وهي جبة سوداء وطرحة سوداء، وخلع على أولاد أخيه خلع الأمراء الأكابر خلعاً ملوفاً.

وبعد ذلك بايعه السلطان والأمراء والقضاة والمقدمون وأعيان الدولة ومددوا السماط على العادة، ثم رسم له السلطان بنزوله إلى الكبش وأجرى راتبه الذي كان مقرراً لوالده وزيادة، ونزلوا إلى الكبش وأقاموا به إلى يوم

الخميس مستهل جمادى الآخرة، إذ حضر من عند السلطان المهنديار ومعه جماعة وصحبته جمال كثيرة، فنقلوا الخليفة وأولاده وأخيه ونسائهم وجميع من يلوذ بهم إلى قلعة الجبل وأنزلوهم بالقلعة في دارين: الواحدة تسمى بالصالحية والأخرى بالظاهرية، وأجروا عليهم الرواتب المقررة لهم.

وكان في يوم الجمعة ثاني يوم المبايعة خطب بمصر والقاهرة للمستكفي هذا، ورسم بضرب اسمه على سكة الدينار والدرهم، انتهى.

في جمادى الآخرة عام ٧٠٢هـ - ١٣٠٣م:

وصلت أخبار من حلب بأن جيش المغول أوشك على الزحف على الشام مرة أخرى، فخرج جيش الناصر بجيش مصر، وانضم إليه عسكر الشام، والتقى الجمعان في ٢ رمضان سنة ٧٠٢هـ - ٢٠ نيسان ١٣٠٣م قرب دمشق، في معركة تعرف باسم معركة "شقيج" أو معركة "مرج الصفر". وفيها أبلى جيش المسلمين بلاءً حسناً، وانتصر فيها على جيش المغول نصراً كبيراً غسل غار هزيمة وادي الخزندار.

في رجب عام ٧٠٢هـ - ١٣٠٣م:

قدم البريد إلى القاهرة من حلب بأن غازان على وشك التحرك إلى الشام، فخرج إلى دمشق الأمير بيبرس الجاشنكير على رأس ثلاثة آلاف من الأجناد.

وأرسل غازان قائده ونائبه قطلوشاه إلى الشام بجيش قوامه ٨٠ ألف مقاتل، ولما عرف قطلوشاه أن الناصر لم يخرج من مصر بعد، وأن ليس بالشام غير العسكر الشامي، توجه توجاً إلى حماة.

انتصار المسلمين على التحالف الثلاثي: الأرمني - الصليبي - المغولي:

١. هاجم جيش من المسلمين بلاد الأرمن (حليف المغول والصليبيين).

وتوجهوا إلى بلاد سيم، وأحرقوا الزروع ونهبوا ما قدروا عليه، وحاصروا مدينة سيم وتعمموا من سفح قلعتها شيئاً كثيراً من جبال الأرمن، وعادوا من الدربند إلى مرج أنطاكيا. ثم قدموا في تاسع عشر ذي القعدة.

٢. إنشاء أسطول بحري ومهاجمة قاعدة الصليبيين في أرواد.

ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس أن الفرنج أنشؤوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة أرواد وعمروها بالعدد والآلات وكثر فيها جمعهم وصاروا يركبون البحر ويأخذون المراكب.

فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوان حربية في محرم سنة ٧٠٢هـ، ففعل ذلك ونجرت عمارة الشواني وجهزت بالمقاتلة والآلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارئ العلاني وإلى البهتسا، واجتمع الناس لمشاهدة لعب الشواني في يوم السبت ١٢ المحرم، ونزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لا يحصى إلا الله تعالى، حتى بلغ كراء المركب التي تحمل عشرة أنفس إلى مئة درهم. وامتلاً البر من بولاق إلى الصناعة حتى لم يوجد موضع قدم، ووقف العسكر على برستان الخشاب وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة، وبرزت الشواني تجاه المقياس تلعب كأنها في الحرب، فلعب الشيني الأول والثاني والثالث وأعجب الناس إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط والآلات الحرب، وتقدم الرابع وفيه الأمير آقوش فما هو إلا أنه خرج من الصناعة بمصر وتوسط في النيل إذا بالريح حركته فمال به ميلة واحدة فانقلب وصار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها الجبال وتكدر ما



هجوم التحالف المغولي (أحمر) الصليبي
(أخضر) الأرمني (أزرق) واندحارهم
المسلمين في شحجب (١٣٠٠-١٣٠١)

كانوا فيه من الصقو، فتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا ما سقط منه في الماء، فلم يعدم منه سوى الأمير أقوش وسلم الجميع، فتكبر السلطان والأمراء بسببه وعاد السلطان بأمراته إلى القلعة وانقض الجمع...

ثم شرع العمل في إعادة الشيني الذي غرق حتى نجس وتذب السلطان الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري إلى السقر فيه عوضاً عن أقوش الذي غرق رحمه الله تعالى، وتوجه الجميع إلى طرابلس ثم إلى جزيرة أرواد المذكورة وهي بالقرب من أنطربطوس، فأخربوها وسبوا وغنموا، وكان الأسرى منها مشتين وثمانين نفرًا، وقدم الخبر بذلك إلى السلطان فسر وسر الناس قاطبة ودقت البشائر لذلك أيامًا.

٣. خروج أمة الإسلام لقتال التتار في ملحمة شحجب في رمضان ٧٠٢هـ.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب أن قازان عزم الحركة إلى الشام، فوقع الاتفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، وعين من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير وطغريل الإيغالي وكراي المنصوري وحسب الدين لاجين أستاذار بمضاهيهم وثلاثة آلاف من الأجناد، وساروا من مصر في ثامن عشر شهر رجب وتواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات ووصل عسكره إلى الرحبة، وبعث أمانه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفًا، وكتب إلى الأمير عز الدين أيبك الأقرم نائب الشام يرغبه في طاعته.

ودخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق في نصف شعبان وليث يستحث السلطان على الخروج وأقبل الناس من حلب وحماه إلى دمشق جافلين من التتار، فاستعد أهل دمشق للفرار ولم يبق لا خروجهم فتودي بدمشق، من خرج منها حل ماله وعمه.

انتصار الطلائع الإسلامية على طليعة التتار

وخرج الأمير بهادر أمص والأمير قطلوبك المنصوري وأنص الجمدار في عسكر إلى حماه، ولحقهم عساكر طرابلس وحمص فاجتمعوا على حماه عند نائبها الملك العادل كتيف المنصوري. وبلغ التتار ذلك فبعثوا طائفة كثيرة إلى القرين فأوقعوا بالتركمان، فتوجه إليهم أنص الجمدار وكرجي نائب طرابلس وبهادر أمص وكجكن وعزلوا العادلي وتمر الساقلي وأنص الجمدار ومحمد بن قرا سقتر في ١٥٠٠ فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض في ١١ شعبان على غملة، فافترقوا عليهما أربع فرق وقتلوهم قتلاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأقتوهم - وكانوا التتار فيما يقال ٤ آلاف - واستنقذوا التركمان وحریمهم وأولادهم من أيدي التتار وهم نحو ٦ آلاف أسير، ولم يفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد بن باشقرد الناصري وستة وخمسون من الأجناد، وعاد من انهزم من التتار إلى قطلوشاه، وأسر العسكر المصري ٢٨٠ من التتار وكتب إلى السلطان بذلك ودقت البشائر بدمشق.

مقدم التتار: ففي شهر رجب من سنة ٧٠٢ هـ قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام، فأنزعج الناس لذلك، واشتد خوفهم جداً كما يقول الحافظ ابن كثير، وقت الخطيب في الصلوات، وقرأ صليح البخاري، وعده عادة كانوا يستعملونها في مواجهة الأعداء فيعمدون إلى قراءته في المسجد الجامع، وشرع الناس في الهرب إلى الديار المصرية والكرك والحصون المنيع، وتأخر مجيء العساكر المصرية عن إبانها فاشتد لذلك الخوف.

قال ابن كثير: (وفي يوم السبت ١٠ شعبان ضربت البشائر بالقلعة - أي قلعة دمشق - وعلى أبواب الأمراء، وخروج سلطان من مصر لمناجزة التتار المخدولين... وفي ١٨ شعبان قدمت طائفة كبيرة من جيش المصريين، فيهم كبار الأمراء من أمثال ركن الدين بيبرس الجاشنكير وحسام الدين لاجين وسيف الدين كراي، ثم قدمت بعدهم طائفة أخرى فيهم سر الدين أمير السلاح وأبيك الخزندار. قويت القلوب في دمشق، واطمأن كثير من الخلق، ولكن الناس في الشمال سيطر عليهم الذعر، واستبد بهم الفرع، فنزع عدد عظيم منهم من بلاد حلب وحماه وحمص...

ثم خافوا أن يدهمهم التتار فنزلوا إلى المرج، ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعانوا في تلك البلاد فساداً، وقلق الناس قلقاً عظيماً لتأخر قدوم السلطان ببقية الجيش، وخافوا خوفاً شديداً، وبدأت الأراجيف تنتشر، وشرع الملبطون يوهون عزائم المقاتلين ويقولون: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لقلة المسلمين وكثرة التتار. وزئوا للناس التراجع والتأخر عنهم مرحلة مرحلة. ولكن تأثير العلماء ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية كان يصدى لهؤلاء المرجفين الملبطين، حتى استطاعوا أن يقنعوا الأمراء بالتصدي للتتار مهما كان الحال.

خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون مع الخليفة المستكفي بالله بالجيش المصرية: وكان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره وأمراؤه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية في ثالث شعبان، وخرج بعده الخليفة المستكفي بالله واستتاب السلطان بديار مصر الأمير عز الدين أبيك البغدادي.

وجد قتلوشاه مقدم التتار بالعساكر في المسير حتى نزل قرون حماء في ثالث عشر شعبان، فاندفعت العساكر المصرية التي كانت بحماه بين يديه إلى دمشق، وركب نائب حماء الأمير كتبغا (الذي كان تسليطاً وتلقب بالملك العادل في محفة لضعفه)، واجتمع الجميع بدمشق واختلف رأيهم في الخروج إلى لقاء العدو أو انتظار قدوم السلطان، ثم خشوا من مفاجأة العدو فنادوا بالرحيل وركبوا في أول شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم واشتروا الحمار بست مئة درهم والجمل بألف درهم، وترك كثير منهم حريمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة، فلم يأت الليل إلا وبوادر التتار في سائر نواحي المدينة.

شيخ الإسلام ابن تيمية يحرض المؤمنين على القتال: واجتمع الأمراء وتعاهدوا وتحالفوا على لقاء العدو وشجعوا رعاياهم، وتوذي بالبلد دمشق أن لا يرذل منه أحد، فسكن الناس وهذات نفوسهم وجلس القضاء بالجامع يحلفون جمعة من الفقهاء والعامّة على القتال، وتوقدت الحماسة الشعبية، وارتفعت الروح المعنوية عند العامة والجند. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم التأثير في ذلك الموقف، فقد عمل على تهدئة النفوس، حتى كان الاستقرار الداخلي عند الناس والشعور بالأمن ورياسة الجاش. ثم عمل على إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماسها وتهيتها لخوض معركة الخلاص... ثم توجه ابن تيمية بعد ذلك إلى العسكر النواصل من حماء فاجتمع بهم في القلعة، فعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكربة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ، ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُضْرَّ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ١٦٠).

وقد ظهرت عند بعضهم شبهات تفتت في عضد المحاربين للتتار من نحو قولهم: كيف نقاثل هؤلاء التتار، وهم يظهرون الإسلام وليسوا بقاء على الإمام... فإبهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه؟

فردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية هذه الشبهة قائلاً: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما، وراوا أنهم أحقُّ بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحقُّ بإقامة الحق من المسلمين، وهم متلبسون بالمعاصي والظلم. فأنجلي الموقف وزالت الشبهة وتقطن العلماء والناس لذلك، ومضى يؤكد لهم هذا الموقف قائلاً: إذا رأيتموني في ذلك الجان - يريد جانب العدو - وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقويت قلوبهم.

وامتلات قلعة دمشق والبلد بالناس الوافدين، وازدحمت المنازل والطرق، وخرج الشيخ تقي الدين بن تيمية من دمشق صبيحة يوم الخميس من باب النصر بمسقة كبيرة، وصحبته جماعة كبيرة يشهد القتال بنفسه ويمن معه، فظن بعض الرعا أنَّهُ خارج للفرار، فقالوا: أنت منعتنا من الجفل وها أنت ذا هارب من البلد... فلم يردَّ عليهم إعراضاً عنهم وتواضعاً لله، ومضى في طريقه إلى ميدان المعركة.

وخرجت العساكر الشامية إلى ناحية قرية الكسوة، ووصل التتار إلى قنطرة، وقيل: إنهم وصلوا إلى القطيفة فأنزعج الناس لذلك، وخافوا أن تكون العساكر قد هربوا، وانقطعت الآمال، وألج الناس في الدعاء والابتهال في الصلوات وفي كلِّ حال. وذلك في يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان... فلما كان آخر هذا اليوم، وصل أحد أمراء دمشق، فبشر الناس بأن السلطان قد وصل وقت اجتماع العساكر المصرية والشامية. وتابع التتار طريقهم من الشمال إلى الجنوب، ولم يدخلوا دمشق بل عرجوا إلى ناحية تجمع العساكر، ولم يشغلوا أنفسهم باحتلال دمشق وقالوا: إن غلبنا فإن البلد لنا وإن غلبنا فلا حاجة لنا به.

ووقفت العساكر قريباً من قرية الكسوة، فجاء العسكر الشامي، وطلبوا من شيخ الإسلام أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق، فسار إليه، فحثه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر. فجاء وإياه جميعاً، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ ابن تيمية: السنة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم.

وخرض السلطان على القتال، وبشره بالنصر، وجعل يخلف بالله الذي لا إله إلا هو: إنكم منصورون عليهم في هذه المرة. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وأفتى الناس بالفطر مدة قتالهم، واقطر هو أيضاً، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده ليعلمهم أن إفطارهم ليتقووا به على القتال أفضل من صيامهم.

ولقد نظم المسلمون جيشهم في يوم السبت ٢ رمضان أحسن تنظيم، في سهل شتخب الذي يشرف على جبل غياغب. وكان السلطان الناصر في القلب، ومعه الخليفة المستكفي بالله والقضاة والأمراء. وقبل بدء القتال اتخذت الاحتياطات اللازمة، فمر السلطان ومعه الخليفة والقراء بين صفوف جيشه، يقصد تشجيعهم على القتال وبث روح الحماسة فيهم. وكانوا يقرؤون آيات القرآن التي تحض على الجهاد والاستشهاد، وكان الخليفة يقول (دافعوا عن دينكم وعن حريمكم).

الإلحاح بالدعاء وقراءة القرآن في المعركة: وسار العسكر مخفياً، ويات الناس بدمشق في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله تعالى، فلما أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة. وبلغ الأمراء قدوم سلطان فتوجهوا إليه من مرج راهط فلقوه على عقبة الشحورا في يوم السبت ٢ رمضان وقبلوا له الأرض.

ثم ورد عند لقائهم به الخير بوصول التتار في ٥٠ ألفاً مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على قتال التتار بشجوب (تحت جبل غياغب) وكان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر فصفت العساكر الإسلامية: فوقف السلطان في القلب وبجانبه الخليفة والأمير سلاز النائب والأمير بيبرس الجاشنكير وعز الدين أيك الخازندار وبكتمر الجوكندار وأقوش الأفرم نائب الشام والأمير برلغي والأمير أيك الحموي وبكتمر الأبوبكري وقطلوبك ونوغاي السلاح دار ومبارز الدين أمير شكار ويعقوب الشهرزوري ومبارز الدين أوليا بن قرمان، ووقف في الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماه والعربان وجماعة كثيرة من الأمراء، ووقف في اليسرة الأمير بدر الدين بكناش الفخري أمير سلاح، والأمير قرا سنقر نائب حلب بعساكرها، والأمير بتخان نائب صفد بعساكرها والأمير ملغريل الأيغاني وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار بمضافيهم.

ومضى السلطان على التتار والخليفة بجانبه، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: "يا مجاهدون، لا تنظروا إلى سلطانكم. قاتلوا عن دين نبيكم ﷺ، وعن حريمكم". والناس في بكاء شديد ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض، وتوأمى بيبرس وسلاز على الثبات في الجهاد، وكل ذلك والسلطان والخليفة يكران في العساكر يميناً وشمالاً، ثم عاد السلطان والخليفة إلى مواقفهما، ووقف خلفه الغلمان والأحمال والعساكر صفاً واحداً، وقال لهم: (من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم عليه).

وحمي وطيس المعركة؛ فلما تم الترتيب، زحفت كراديس التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ١٢ رمضان المذكور.

وأقبل قطلوشاه لقائد جيوش المغول بمن معه من الطوامين وحملوا على الميمنة فثبتت لهم الميمنة، وقاتلوهم أشد قتال، حتى قتل من أعيان الميمنة الأمير حسام الدين لاجين الأستاذار وأوليا بن قرمان والأمير سنقر الكافوري والأمير أيك الشمشي القشاش والأمير أقوش الشمشي الحاجب وحسام الدين علي بن باخل، ونحو الألف فارس، كل ذلك وهم في مقابلة العدو والقتال عمال بينهم.

فلما وقع ذلك أدركتهم الأمراء من القلب ومن اليسرة، وصاح سلاز: "هلك، والله، أهل الإسلام!" وصرخ في بيبرس الجاشنكير وفي البرجية، فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم وصدم بهم العدو وقصد مقدم التتار قطلوشاه وتقدم عن الميمنة حتى أخذت الميمنة راحة، وأبلى سلاز في ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً وسلموا نفوسهم إلى الموت. فلما رأى باقي الأمراء منهم ذلك، ألقوا نفوسهم إلى الموت واقتحموا القتال، وكانت سلاز والجاشنكير في ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين - رحمهما الله تعالى - واستمروا في القتال إلى أن كشفوا التتار عن المسلمين.

وكان جويان وقرمجي، وهما من طوامين التتار، قد ساقا تقوية ليولاي لقائد الفرقة المغولية وهو خلف المسلمين فلما عايتوا الكسرة على قطلوشاه، أتوه نجدة ووقفوا في وجه سلاز وبيبرس، فخرج من عسكر السلطان سندمر والأمير قطلوبك والأمير قبجق والماليك السلطانية، وأردفوا سلاز وبيبرس وقاتلوا أشد قتال حتى أراحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار على الأمير برلغي في موقفه فتوجه الجماعة المذكورون إلى برلغي واستمر القتال بينهم.

وأما سلاز، فإنه قصد قطلوشاه مقدم التتار وصدمه بمن معه وقاتلا وثبت كل منهما. وبالنسبة إلى الميمنة، فإنه لما قتل الأمراء منها، انهزم من كان معهم ومرت التتار خلفهم، فجعل الناس وظنوا أنها كسرة، وأقبل السواد الأعظم على الخزان السلطانية فكسروها ونهبوا ما فيها من الأموال، وجعل النساء والأطفال، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، وكشف النساء عن وجوههن وأسبلن الشعور. وضح ذلك الجمع العظيم بالدعاء، وقد كادت العقول تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة! واستمر القتال بين التتار والمسلمين إلى أن وقف كل من الطائفتين.

معركة جبل غباغب: ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين من المسلمين، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كله عساكر والميسرة السلطانية ثقبة وأعلامها تحفق، فبهت قطلوشاه وتحير وتسمّر بموضعه، حتى كمل معه جمعه وآتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأمير عز الدين أيمن نقيب الممالك السلطانية، فاحضره قطلوشاه وسأله: "من أين أنت؟" فقال: "من أمراء مصر" وأخبره بقدوم السلطان، وكان قطلوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت، فعند ذلك جمع قطلوشاه أصحابه وشاورهم فيما يفعل، وإذا بكوسات السلطان والبوقات قد رُحفت وأزعجت الأرض وأرجفت القلوب بحسها، فلم يثبت بولاي وخرج من تجاه قطلوشاه في نحو ٢٠ ألفاً من التتار ونزل من الجبل بعد المغرب ومر هارباً.

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل والطبول تضرب وتلاحق بهم من كان قد انهزم شيئاً بعد شيء، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات. وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار يبيرس وسلاح وقبحق والأمراء والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد، يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ، ووقف كل أمير في مصافه مع أصحابه والحمل والأثقال قد وقف على بعد وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه ونزلوا مشاء وفرساناً وقتلوا العساكر. فبرزت الممالك السلطانية بمقدمها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا في قتالهم عملاً عظيماً، فصاروا تارة يرمونهم بالسهم وتارة يواجهونهم بالرمح، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من في جبهتهم وصاروا يتناوبون في القتال أميراً بعد أمير. وألحت الممالك السلطانية في القتال، وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والمروسة ما لا يوصف، حتى إن بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل.

قتل التتار النازلين إلى النهر بسبب العطش: وما زال الأمراء على ذلك حتى انتصف نهار الأحد، فصعد قطلوشاه الجبل، وقد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلاً وجرح الكثير واشتد عطشهم. واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان، وعرفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية، وأنهم في شدة من العطش، فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقتيتهم. فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين، ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد. وصاروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين، وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيف ومروا في أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر. وعادوا إلى السلطان، وعرفوه بهذا النصر العظيم، فكثبت البشائر في البطائق وسرحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غرة.

بشائر النصر ومنع المنهزمين من دخول مصر: وكتب إلى غرة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، وتبع من تهب الخزائن السلطانية والاحتفاظ بمن يمسك منهم، وعين السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتح للمسير بالبشارة إلى مصر، ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار.

ودخل، في يوم الإثنين رابع رمضان، شيخ الإسلام بقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من المجاهدين، ففرح الناس به، ودعوا له وهنّؤوه بما يسر الله على يديه من الخير. ثم ركب السلطان في يوم الإثنين من مكان الواقعة وبات ليلته بالكسوة، وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها ومعه الخليفة في عالم عظيم من الفرسان والأعيان والعامة والنساء والصبيان لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضحجون بالدعاء والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المنّة. وتساقطت عبرات الناس فرحاً ودقت البشائر بسائر الممالك. وكان هذا اليوم يوماً لم يشاهد مثله. وسار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق وقد زينت المدينة.

دخل السلطان إلى دمشق، في يوم الثلاثاء خامس رمضان، وبين يديه الخليفة، وزينت البلد، وبقيت في دمشق إلى ثالث شوال، إذ عادوا إلى الديار المصرية. وكان فرح السلطان الناصر محمد بن قلاوون والمسلمين بهذه المعركة فرحاً كبيراً، ودخل مصر دخول الظافر المنتصر، يتقدم موكبه الأسرى المغول يحملون في أعناقهم رؤوس زملائهم القتلى، واستقبل استقبال الفاتحين.

قتل قلوب التتار وجواسيسهم: واستمرت الأمراء وبقيت العساكر في طلب التتار إلى اثني عشر يوماً، وقد كُتِل حيول التتار وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل، والعساكر تقتلهم بغير مداقة، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم، وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها، ثم أدركت عربان البلاد التتار وأخذوا في كيدهم؛ فيجيئ منهم الاثنان والثلاثة إلى العدد الكثير من التتار، كأنهم يهدونهم إلى طريق قريبة من مفازة فيوصلونهم إلى البرية ويتركونهم بها فيموتوا عطشاً، ومنهم من دار بهم وأوصلوهم إلى غوطة دمشق فخرجت إليهم عامة دمشق فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ثم تتبععت الحكام النوبة وعاقبوا منهم جماعة كثيرة، حتى تحصل أكثر ما نهب من الخرازين ولم يفقد منه إلا القليل، ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم، ثم حضر الأمير برلقي، وقد كان انهزم فلم يأذن له السلطان في الدخول عليه وقال: بأي وجه تدخل علي أن تنظر في وجهي؟ فما زال به الأمراء حتى رضي عنه، ثم قبض على رجل من أمراء حلب، كان قد انضم إلى التتار وحاصر يدهم على الطرقات، فسُلم على جمل وشهر بدمشق وضواحيها. واستمر الناس في شهر رمضان كله في مسرات تتجدد، ثم صلى السلطان صلاة عيد الفطر وخرج في ثالث شوال من دمشق يريد الديار المصرية.

ارتفاع ضغط دم غازان ونزفه وإهانة قادة المغول: وأما التتار، فإنه لما قتل أكثرهم ودخل قتلوشاه القرات في قليل من أصحابه، ووصل خبر كسره إلى همدان، ووقعت الصرخات في بلادهم وخرج أهل تبريز وغيرها إلى لتائمهم واستعلام خبر من فقد منهم حتى علموا ذلك، فقامت النياحة في مدينة تبريز شهرين على القتل، ثم بلغ الخبر غازان فاعتزم غماً عظيماً، وخرج من منخرية دم كثير حتى أشفى على الموت واحتجب عن جواسيه فإنه لم يصل إليه من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان انتخبهم من خيار جيشه.

ثم بعد ذلك بمدة، جلس غازان وأوقف قتلوشاه مقدم عساكره وجوبان وسوتاي ومن كان معهم من الأمراء ونكر على قتلوشاه وأمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه وأبعدوه من قدمه حتى صار على مسافة بعيدة، بحيث يراه وقام إليه وقد مسكه الحجاب سائر من حضر - وهم خلق كثير جداً - وصار كل منهم يبصق في وجهه حتى يصبق الجميع، ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاي عدة عصي وأهانته. وفي الجملة، فإنه حصل على غازان بهذه الحسرة من القهر والهجم ما لا مزيد عليه. والله الحمد.

الملك الناصر محمد بن قلاوون يدخل القاهرة منصوراً: وسار السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه حتى حصل إلى القاهرة ودخلها في يوم ٢٣ شوال... وكان نائب القية قد رسم بزيئة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة، وكتب بإحضار سائر مغاني العرب بأعمال الديار المصرية كلها.

وتفاخر الناس في الزينة وتصيبوا القلاع، واقتسمت استدارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، وزينوا ما يخص كل واحد منهم وعملوا به قلعة بحيث تؤدي: من استعمل صناعتاً في غير صنعة القلاع كانت عليه جناية للسلطان.

وتحسن سعر الخشب والقصب وآلات النجارة، وتفاخروا في تزيين القلاع المذكورة، وأقبل أهل الريف إلى القاهرة لمشاهدة قدوم السلطان وعلى الزينة، فإن الناس كانوا قد أخرجوا الخلي والجواهر واللآلئ وأنواع الحرير فزينوا بها. ولم يسلم شهر رمضان، حتى تهيأ أمر القلاع وعمل ناصر الدين محمد بن الشيخ والي القاهرة قلعة

بباب النصر فيها سائر أنواع الجند والبهزّل ونصب عدة أحواض ملأها بالسكّر والليمون، وأوقف مئاليكه بشرى حتى يسقوا العسكر. وقدم السلطان إلى القاهرة في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال، وقد خرج الناس إلى لقائه ومشاهدته، وبلغ كراء البيت الذي يهر عليه السلطان من خمسين درهماً إلى مئة درهم. فلما غسل السلطان إلى باب النصر، ترجل الأمراء كلهم، وأول من ترجل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، وأحد يحمل سلاح السلطان، فامرّه السلطان أن يركب لكبر سنه ويحمل السلاح خلفه فامتّع ومشى.

وحمل الأمير مبارز الدين سوار الرومي أمير شكار القبة والطير على رأس السلطان، وحمل الأمير بكتاش أمير جاندار العصا، والأمير سنجر الجمقاز الدبوس، ومشى كل أمير في منزلته وفرش كل منهم الشقق من قلعة إلى قلعة غير التي أنشأها بالشوارع.

استعراض الأسرى ورؤوس قتلى التتار: وكان السلطان إذا تجاوز قلعة، فرشت القلعة المجاورة له الشقق حتى يمشي عليها بفرسه مشياً هيناً من غير هرج بسكون ووقار: لأجل مشي الأمراء بين يديه، وكان السلطان كلما رأى قلعة أمير، أمسك عن المشي ووقف، حتى يعاينها ويعرف ما اشتملت عليه هو والأمراء حتى يجبر خاطر غايلها بذلك هذا، والأمراء من التتار بين يديه مقيدون، ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم و١٠٠٠ رأس على ١٠٠٠ رمح وعند الأسرى ١٦٠٠ وفي أعناقهم أيضاً ١٦٠٠ رأس، وطولهم قد امهم مخرقة، وكانت القلاع التي نصبت ٧٠ قلعة، بعد موقعة شقحب المباركة هذه، لم تقم للمغول ولا للصليبيين ولا للأرمن قائمة.

ولصني الدين الحلي مديح للسلطان محمد بن قلاوون في مقارعة المغول والانتصار عليهم:

لا يمتطي الجند من لم يركب الخطرا	ولا ينال الغلا من قدّم الحذرا
ومن أراد الغلا عفواً بلا تعب	قضى ولم يقض من إداراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل يمتعه	لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤنة	ولا يتم المنى إلا لمن صبرا

وارتفعت مكانة مصر في العالم الخارجي في عهد الناصر، ووسعت البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء لخطب ودّها، وأصبحت القاهرة قبلة للمتوددين والزوار من شتى الأرجاء. وخطب باسم الناصر على منبر بغداد التي كانت في حوزة مغول فارس، ونقش اسمه على نقودها، وخطب ملوك بني رسول في اليمن للناصر وأرسلوا إليه الهدايا. وخطب للناصر في دولة بني قرمان في آسيا الصغرى، وعلى منابر تونس وطرابلس الغرب وماوردين، وقامت علاقات ودّية بينه وبين ملوك الهند والصين وملوك غرب إفريقيا، وكان الناصر، ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين، يشرف على الحجاز، وينصب أمراء مكة والمدينة. وعقد الملك الناصر اتفاقية سلام مع أبي سعيد إيلخان مغول فارس في عام ١٢٢٢، وكثر وصول السفارات إلى مصر من ملوك أوروبا والعالم المسيحي، فوصلت سفارات من بابا الكاثوليك، وملك فرنسا، وملك أرجونا، وإمبراطور القسطنطينية، وإمبراطور الحبشة وغيرهم.

وصلت، في حزيران ١٢٢٧م، إلى القاهرة سفارة من بابا الكاثوليك جون الثاني والعشرين (John XXII) ومعهم هدية ورسالة من البابا، يرجو فيها من الناصر حماية المزارات المسيحية في الأراضي المقدسة ووقف الحملات على مملكة أرمينيا الصغرى. وكانت هذه أول سفارة باباوية تقبّد إلى مصر منذ عهد السلطان الأيوبي الصالح أيوب وأرسل فيليب السادس ملك فرنسا إلى القاهرة سفارة ضخمة قوامها ١٢٠ رجلاً في عام ١٢٢٠م، طالب من الناصر منحه بيت المقدس وبعض المناطق على ساحل الشام، فأهان الناصر رجال السفارة وملكهم، وقال لهم "لولا أن الرسل لا يقتلون، لضربت أعناقكم"، وطردهم من مصر.

يقول ابن إياس عن الناصر: "خُطب له في أفاكن لم يُخطب فيها لأحد من الملوك غيره، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر. ويذكر المقرئ عن الناصر في الصدد ذاته: "ولم يعهد في أيام ملك قبله ما عهده في أيامه: من مسألة الأيام له، وعدم حركة الأعداء براً وبحراً وخضوع جميع الملوك له ومهاداتهم إياه".

ابن بطوطة: وكان الرحالة الشهير ابن بطوطة من الذين زاروا مصر في سنة ٧٢٥هـ-١٢٢٤م، وهو في طريقه إلى الحج في عهد الناصر محمد، وذكر في كتابه: "تحفة النظار"، مشيداً به: (وكان سلطان مصر على عهد دخولي إليها الملك الناصر أبا الفتح محمد بن المنصور، سيف الدين قلاوون الصالح... وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة. وكفاه شرفاً انتماءه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج، من الجمال التي تحمل الزاد، والماء للمقطعين والضعفاء، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشي في الدربين المصري والشامي).

اعتناق المغول للإسلام:

على الرغم من التنازلات الجسام التي حلت بدار العروبة والإسلام (من مذابح الصليبيين في القدس ومعرة اقمعمان وباقي بلاد الشام)، بقيت جذوة اللغة العربية نارا تحت الرماد، ثم انبثقت من تحت ركام المعارك وضربها واحترابها منصورة مؤزرة بنصر الله، ظاهرة بدين الإسلام على الدين كله، خرجت العربية منصورة بعد معارك حطين، وحضين الثانية (معركة غزة)، وتحرير القدس، وإعادة تحرير القدس، وكسر شوكة الصليبيين في معياد مصر ٣ مرات على الأقل (في أثناء الحملات الصليبية الثانية والخامسة والسابعة). وعلى الرغم من وحشية الغول واكتساحهم عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد، ومن التدمير الهائل لمكتباتها الأخيرة بالعلوم والآداب والفنون، ومن المذابح الدموية لسكانها التي لم يسمع العالم لها نظيراً، واحتياح الشام بحواضره في حلب ودمشق وحماه، على الرغم من كل ذلك خرجت اللغة العربية منصورة بدين الله على وحشية الغول، بعد المعارك القواصل في عين جالوت وحمص والقرات وإبلستين وشقحب.

ولم يقتصر عمل اللغة العربية على رصد حوادث التاريخ الجسام وتوثيق سردها وحسب، بل تعداه في الأشعار الملتهبة للحماس بعد كل واقعة وموقعة، وفي القصائد الروائع بوصفها رمز شموخ ودليلاً على انتصار الإسلام على شرع من العاديات على كل الأعداء. بل تعدى عمل اللغة العربية ذلك؛ في التأثير الحضاري العميق الأثر في وحشية أوروبا ذاتها. إبان الحروب الصليبية في أثناء عصور أوروبا المظلمة، وفي نهضتها الفكرية والعلمية، وفي تأثير الإسلام في إصلاح الكنيسة وتقويض البابوية: المركز العصبي لإعلان هذه الحملات الصليبية على دار الإسلام.

كذلك، فإن لغة العربية أكبر الفضل على العالم كله: بتخليصه من شبح الشيطان المغولي الكاسح لأوروبا النصرانية وآسيا المسلمة. فلقد كان للعربية عمل متميز في التأثير الحضاري العميق الأثر في المغول: في إسلامهم واستعراهم واستيعابهم في حضيرة الإسلام وحضارته، وفي تحويلهم من وحوش بشرية ضارية إلى أناس متحضرين. قبل أن يضرع الغالب عمقيدته على المغلوب، ولم يكن لهؤلاء الوحوش المغول من دين ولا حضارة، فسرعان ما جتديهم الإسلام بعد انتصاراته الساحقة عليهم.

لم يذهب سقوط بغداد سدى، فالوحشية التي استخدمها هولاكو في مذبحه بغداد وفي قتل الخليفة وعلماء الإسلام، سرعان ما استعبدت عليه وجندت له ابن عمه: بركة خان المغولي المسلم ليوقف كالتطود الشامخ، وعدواً له ضد هولاكو ليوقفه عند حده (أنظر فيما سيأتي). ثم أعقب ذلك نصر الله للمسلمين في معركة عين جالوت التاريخية التي قلبت موازين القوى العالمية لمصلحة الإسلام، أعقبه سلسلة انتصارات مباشرة للمسلمين كما في

معركة حمص الأولى، وغيرها. فبدأ المغول إذاً بعد انتكاساراتهم هذه يفكرون جدياً في اعتناق الإسلام، إذ لا يقل الحديد إلا الحديد.

وللقلوب أقبالها ومفاتيحها، فإذا كان الصحابي زكاة لم يُسلم إلا بعد أن صرعه رسول الله ﷺ مرتين. فالمغول لم يسلموا إلا بعد أن صرعه الإسلام عدة مرات: في عين جالوت، وفي معركة حمص الأولى، وموقعة الفرات، وموقعة إبستين، وحمص الثانية، وموقعة شحج.

ثم كانت للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس اليد البيضاء، وأفضل الأثر والتأثير في نصرة دين الله وإسلام المغول عن طريق المصاهرات والزواج والتحالفات مع بركة خان المسلم، وقبل هذا وذلك عن طريق تنصاراته الكاسحة وفتوحاته الدائمة بفضل الله.

ثم كان استرقاق آلاف الأسرى المغول وتعليمهم وتربيتهم على الإسلام، ثم عتقهم من بعد إسلامهم، ليكونوا أمراء مسلمين، بل سلاطين لدار الإسلام يحاربون بأنفسهم أبناء جلدتهم المغول الكفرة. وكانت أعمال بيبرس البطل الأسطوري، سنة اقتدى بها ملوك الممالك من بعده.

ثم بدأت هجرات المغول الكبيرة، جماعات وأفراداً من البيوت ومن القرى، تهاجر من دار الكفر إلى دار الإسلام، لتعتنق دين الله، وتعيش في كنفه في رحاب إخوانهم المسلمين، في مصر والشام، وهذا أئاد ذكرى الإسلام الحبيبة في هجرة المهاجرين من مكة إلى إخوانهم الأنصار في المدينة.

وفيما يأتي إضاءات على هذه البدايات الخالدة والتأثير في تاريخ الإسلام حول اعتناق المغول لدين الإسلام:

١. بركة خان (توفي ٦٦٥هـ/١٢٦٦م): هو زعيم القبيلة الذهبية، وابن عم هولاكو، تحالف وملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام. هو بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان، وهو أحد ٧ أبناء لجوجي هم: باتو، أورد، شويان، بركة، جمشاي، بركجار، توقاتيمر، وكان الابن الأكبر باتو قد ورث منصب أبيه وصبح زعيماً للقبيلة الذهبية، التي تعد أولى قبائل التتار إسلاماً وأكثرها تعاطفاً وتادياً مع المسلمين. وبركة خان هو ابن عم هولاكو، وكانت مملكته عظمى متسعة جداً، وهي بعيدة عن بلادنا وله عساكر وافرة العدد، وكان بركة هذا يعميل إلى المسلمين ميلاً زائداً، ويعظم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويتبرك بهم، ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو العداوة، وفاتله بسبب قتله للخليفة المستعصم بالله وغيره من علماء المسلمين وعامتهم، وكان بينه وبين ملك الظاهر بيبرس مودة ويعظم رسله، وكان قد أسلم هو وكثير من جنده وبنى المساجد، وأقيمت الجمعة ببلاده وكان جواداً عادلاً شجاعاً، ومات ببلاده وهو في آخر الستين، وقام مقامه منكوتمر.

وبسبب تعاطف باتو مع المسلمين في بلاده، أخذ النصاري، خاصة الرهبان والقساوسة في بلاد المغول (وكان لهم فعل وتأثير كبير في الحرب المروعة على بلاد الإسلام) في تحريض الزعيم الكبير للمغول كيوك ين أوغطاي لمحاربة باتو قبل أن ينتشر الإسلام في كل ربوع الشمال، وتوفي باتو سنة ٦٥٠هـ وخلق من بعده في رئاسة القبيلة الذهبية ابنه جرتق الذي لم يعيش طويلاً حتى توفي وانتقلت الرئاسة إلى عمه بركة خان عام ٦٥٢هـ.

دخل بركة خان الإسلام سنة ٦٥٠ هجرية، وكان من قبل مُحِباً ومُتَأَثِراً بالإسلام بسبب امرأة أبيه رسالة وقد التقى بركة خان في مدينة بخاري وأحد علماء المسلمين واسمه (نجم الدين مختار الزاهدي)، إذ كن بركة عائداً التوة من زيارة عاصمة المغول قرا قورم وأخذ بركة في الاستفسار عن الإسلام من هذا العالم المسلم الجليل، وهو يجيبه بكل وضوح وسلاسة، فطلب بركة منه أن يؤلف له رسالة، تؤيد بالبراهين رسالة الإسلام

وتوضح بطلان عقائد التتار والتلث وترد على المخالفين والمنكرين للإسلام، فتألف "الراهندي" الرسالة ودخل "بركة خان" في الإسلام إثر قراءتها عن حب واقتناع وإخلاص ورغبة عارمة في نصرته هذا الدين.

أعماله لم يكن دخول "بركة خان" في الإسلام كدخول أحاد الناس، بل دخل الإسلام بطلا ملكا سلطانا قبيلة مغولية، والمغول وقتها هم الكابوس المفرع للبشرية جمعاء وللمسلمين خاصة؛ لذلك جاءت أعمال هذا البطل العظيم على المستوى نفسه الفائق من المسؤولية والقيادة، وتحول هذا السلطان الوثني إلى جندي من أخلص جنود الإسلام شديد الحب والتفاني في نصرته الدين وأهله، فلقد ضرب أروع الأمثلة في الولاء والبراء، وفيما يأتي طائفة من أهم أعمال "بركة خان" في نصرة الإسلام:

أولاً: مايعبة خليفة المسلمين: بعدما أعلن "بركة خان" إسلامه، كان أول ما فعله أن أرسل ببيعته للخليفة العباسي المستعصم ببغداد، وهذا الإجراء على الرغم من أنه بسيط وعادي؛ لأن خليفة المسلمين وقتها لم يكن له نفوذ فعلي إلا على مساحة ضيقة من الأرض، لكنه يعطي صورة جليلة لولاء "بركة خان" لسلطان المسلمين وانضوائه تحت جماعة المسلمين.

ثانياً: ظهار شعائر الإسلام: بعدما اعتلى "بركة خان" رئاسة القبيلة الذهبية، أخذ في إظهار شعائر الإسلام، وقام "بركة خان" بأكمال بناء مدينة "سراي" وهي مدينة "سراتوف" الآن في روسيا على نهر القولجا، وجعلها عاصمة القبيلة الذهبية، وبنى فيها المساجد والحمامات ووسعها جداً حتى صارت أكبر مدن العالم وقتها، وجعلها على الطراز الإسلامي.

ثالثاً: غيرته على المسلمين: وقد ظهرت هذه العقيدة بوضوح عندما فكر القائد المغولي "هولاكو بن تولي بن جنكيز خان" في الهجوم على بغداد، وكان "مونكو خان بن تولي" أخو "هولاكو" هو خان المغول، وقد نال هذا المنصب بمساعدة قوية من "باتو" الأخ الأكبر لـ "بركة خان".

وحاول "هولاكو" إقناع أخيه الأكبر مونكو خان بهذه الفكرة، وبالفعل وافق على الفكرة، وزحزح بالهجوم على باقي بلاد المسلمين، وبدأ "هولاكو" في الإعداد لذلك، وما إن وصلت الأخبار إلى "بركة خان" حتى التهب مشاعره، وأسرع إلى أخيه "باتو" وألح عليه في منع الهجوم على المسلمين وقال له: (إننا نحن الذين أقمنا "مونكو" خاناً أعظم، وما جازانا على ذلك إلا أنه أراد أن يكافئنا بالسوء في أصحابنا، ويخفر ذمتنا ويتعرض إلى ممالك الخليفة، وهو صاحبنا وبيننا وبينه مكاتبات وعقود ومودة، وفي هذا ما لا يخفى من القبح). وبالفعل اقتنع "باتو" تماماً بكلام أخيه وبعث إلى هولاكو يكفمه عما ينويه من قتال المسلمين، وبالفعل أجل "هولاكو" الهجوم على المسلمين حتى وفاة "باتو".

رابعاً: تفريقه وحدة التتار الوثنيين: فقد استغل "بركة خان" خروج الخان الأعظم مونكو لقتال بعض الخارجين عليه ومعه أخوه "قوبلاي خان"، وترك أخاه الآخر "أرتق بوكا" مكانه لتسيير الأمور لحين عودته، فاستغل "بركة خان" وفاة "مونكو" في الطريق لإثارة الفتنة بين "أرتق بوكا" و"قوبلاي"، إذ اتفق الجند والأمراء على تولية "قوبلاي"، فأرسل "بركة خان" إلى "أرتق بوكا" بقوة عسكرية للمنازعة أخيه "قوبلاي" على منصب الخان الأعظم لشق الفرقة بينهما، وحرض أيضاً أسرة أوقطاي خان على مساعدة "أرتق بوكا" ووقعت الحرب بينهما سنة ٦٥٨هـ، وذلك قبل معركة (عين جالوت) بقليل، وهذا جعل هولاكو يعود مسرعاً من الشام لنقض النزاع.

واستمرت الحروب عدة سنوات، وكان "بركة خان" في الوقت نفسه يفتح ويحت كثيراً من جنود "هولاكو" بالشام على الدخول في الإسلام والانضمام إلى جيش "بيبرس"، وبالفعل أقتنع الكثيرون منهم وتحولوا إلى حرب "هولاكو".

خامساً: محالفته للمماليك، فقد دخل "بركة خان" في حلف مع المماليك الذين بهروا العالم عندما انتصروا على التتار في موقعة (عين جالوت) سنة ٦٥٨هـ، وكثرت المراسلات والاتصالات بينه وبين السلطان بيبيس، وكان لها أثر كبير في توجيهه لحرب "هولاكو".

وبالفعل، اتفق "بركة خان" و"بيبرس" على محاربة "هولاكو"، وكتب "بركة خان" برسالة إلى "بيبيس" يقول له فيها: (قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولاكو بالمسلمين، فأركب أنت من ناحية، حتى آتية أنا من الناحية الأخرى؛ حتى نهزمه أو نخرجه من البلاد، وأعطيك جميع ما كان بيده من البلاد).

سادساً: محاربته هولاكو والتتار: لم يكتب "بركة خان" بمناصرة المسلمين، فلقد انقلب حرباً ضروساً على التتار الوثنيين عموماً، وعلى "هولاكو" خصوصاً، إذ لم ينس "بركة خان" ما فعله "هولاكو" بالخلافة العباسية أبداً، عندها اكتسح هولاكو بحافله بغداد، فقد حاول "بركة خان" بشتى الوسائل أن يوقف هذا اللد الجارف الذي يندب بمحو الإسلام من الوجود، ولكن لأن معظم جنوده كانوا لا يزالون على الوثنية، فقد رفضوا الانصياع لأمره بمحاربة "هولاكو": لأنهم بذلك سيخالفون الخان الأعظم للتتار، والذي قد وافق على الهجوم على بغداد.

فأخذ "بركة خان" في اختلاق الذرائع والحجج لإشعال الحرب ضد "هولاكو"، ووجد ضالته في مسألة الغنائم، فقد كان من عرف "جنكيزخان" القديم أن أسرة "جوجي" لها ثلث الغنائم التي يحصل عليها التتار جميعاً في أي معركة يخوضونها.

والواقع أنه لم تكن الغنائم هي الدافع لـ "بركة خان"، بل اختلاق عذر للحرب مع هولاكو: فأرسل "بركة" رسلاً من طرفه، وأمرهم أن يشتدوا ويغلظوا على "هولاكو" في السؤال، فاستشاط "هولاكو" غضباً وقتل رسل "بركة خان" وسير جيشاً لمحاربة "بركة خان" فانهزم جيش هولاكو شر هزيمة عام ٦٦٠هـ (أي سنين بعد موقعة عين جالوت في ٦٥٨هـ)، فعاود الهجوم مرة أخرى بجيش أكبر، فانهزم جيش "بركة خان" وكان يقوده أحد قواده واسمه "توغاي"، فأراد "هولاكو" أن يجهز تماماً على "بركة خان" فأرسل جيشاً جراراً فيه معظم جنوده، يقوده ابنه أياقا، فخرج لهم "بركة خان" نفسه على رأس الجيش، ومزق جيش هولاكو شر تمزيق عام ٦٦١هـ في منطقة القوقاز، ولم يتج منهم سوى القليل.

مصيب هولاكو، أما "هولاكو" فوجد أن كل البلايا والهزائم التي حاقت به وبالتتار جميعاً كان سببها "بركة خان" فاشتد غيظه وحقدته على "بركة خان" وحاول محاربته عدة مرات، ولكنه هزم شر هزيمة، وهذا أشعل الغيظ في قلبه، حتى وصلت نيران غيظه إلى عقله وجسده، فأصيب بجلطة في المخ بعد وصوله خبر هزيمة ولده "أياقا" أمام "بركة خان" سنة ٦٦١ هجرية، وظل يعاني الصرع حتى هلك سنة ٦٦٣ هجرية، فانتقم "بركة خان" للإسلام والمسلمين من هذا المجرم الطاغية الذي دمر دولة الخلافة الإسلامية، وسفك دماء الملايين من المسلمين أهلكه الله في السنة السادسة من سلطنة الظاهر بيبرس.

ذكر الذهبي في "تاريخ الإسلام" ترجمة هولاكو (وأحياناً يسمى هولاوو) تحت وفيات عام ٦٦٣هـ (هولاكو بن تولي قان بن الملك جنكيزخان: ملك التتار ومقدمهم، ذكره الشيخ قطب الدين، فقال: كان من أعظم ملوك التتار، وكان شجاعاً حازماً مديراً، ذا همة عالية، وسطوة ومنهابة ونهضة تامة، وخبرة بالحروب، ومحبية في العلوم العقلية من غير أن يتعلل منها شيئاً. اجتمع له جماعة من فضلاء العالم، وجمع حكماء مملكته، وأمرهم أن يرصدوا الكواكب. وكان يطلق الكثير من الأموال والبلاد. وهو على قاعدة المقل من عدم التقيد بدين. لكن زوجته تنصرت. وكان سعيداً في حروبه وحضاراته. طوى البلاد واستولى على الممالك في أسير مدة، ففتح بلاد

خراسان، وفارس، وأذربيجان، وعراق العجم، وعراق العرب، والشام، والجزيرة، والروم، وديار بكر، كذا قال الشيخ قطب الدين، والذي افتتح خراسان وعراق العجم غيره، وهو جنكزخان وأولاده، وهذا الطاغية. فافتتح العراق، والجزيرة، والشام، وهزم الجيوش وأباد الملوك، وقتل الخليفة وأمراء العراق وصاحب الشام، وصاحب ميافارقين.

قال لي الظهير الكازروني: حكى لي النجم أحمد، بن البواب النقاش نزيل مراغة، قال: عزم هولأكو على زواج بنت ملك الكرج، قالت: حتى تسلم. فقال: عرفوني ما أقول، فعرضوا عليه الشهادتين، فأقر بهما وشهد عليه بذلك الخواجة نصير الطوسي وفخر الدين المنجم، فلما بلغها ذلك أجابت. فحضر القاضي فخر الدين الخلاطي، فتوكل لها النصير، والسلطان الفخر المنجم، وعقدوا العقد باسم تمار خاتون بنت الملك داود بن إيواني على ثلاثين ألف دينار. قال ابن البواب: وأنا كتبت الكتاب في ثوب أطلس أبيض، وعجبت من إسلامه. قلت: إن صبح هذا فلعله قالها بقمه لعدم تقيده بدين، ولم يدخل الإسلام إلى قلبه، والله أعلم. أو إسلامه مثل إسلام نابوليون بوناپرتا.

قال قطب الدين: كان هلاكه بعلّة الصرع، فإنه حصل له الصرع منذ قتل الملك الكامل صاحب ميافارقين، فكان يعتريه في اليوم المرة والمرة. ولما عاد من كسرة بركة له أقام يجمع العساكر، وعزم على العود لقتال بركة، فزاد به الصرع، ومريض نحواً من شهرين وهلك لمن الواضح أنه مريض بالسكتة الدماغية. والسّلل الحسمي، فيستطيع أن يرى ولكن لا يستطيع الحركة ولا الكلام، تشبه لحد ما سكتة دماغ رئيس وزراء إسرائيل أريئيل شارون عام ٢٠٠٦، فأخضوا موته وصبروه (أي ملحوه)، وحلوه في تابوت، ثم أظهروا موته. وكان ابنه أفعاً غائباً، فطلبوه ثم ملكوه أجلس مكانه في الملك وقيل: إنه لم يدهن وعلق بسلاسل، ومات وله ٦٠ سنة أو نحوها.

وهلك هولأوو وله ستون سنة أو نحوها. وقد أباد أمماً لا يحصيهم إلا الله. ومات في هذه السنة. قيل في سابع ربيع الآخر سنة ثلاث وستين ببلد مراغة. ونقل إلى قلعة تلا، وبنوا عليه قبة. وخلف من الأولاد ١٧ ابناً سوى البنات، وهم: أبغا، وأشموط، وتمشين، وبكشي. وكان بكشي فاتكاً جباراً، وأجاي، ويستز. ومنكوتمر الذي التقى هو الملك المنصور على حمص وانهزم جريحاً، وباكودر، وأرغون، ونغاني دمر، والملك أحمد. قلت: وكان القان الكبير قد جعل أخاه هولأوو نائباً على خراسان وأذربيجان، فأخذ العراق والشام وغير ذلك. واستقل بالأمر مع الانقياد للقان والطاعة له، والبرد واصله إليه منه في الأوقات، وتفاصيل الأمور لم تبلغنا كما ينبغي. وقد جمع صاحب الديوان كتاباً في أخبارهم في مجلدين. ووالد هولأوو هو تولي خان الذي عمل معه السلطان جلال الدين مصاف في سنة ثمان عشرة، فتصر جلال الدين وقتل في الواقعة تولي إلى لعنة الله. وكان القان الأعظم في أيام هولأوو أخاه مونكوقا بن تولي بن جنكزخان، فلما هلك، جلس على التخت بعده أخوهما قبلاي، فامتدت دولته ومالت أيامه، ومات سنة خمس وتسعين بخان بالق أم بلاد الخطا وكرسى مملكة التتار، وكانت دولة قبلاي نحواً من أربعين سنة. في آخر أيامه أسلم قازان على يد شيخنا بدر الدين بن حمويه الجويني. وقال الظهير الكازروني: عاش هولأكو نحو خمسين سنة. وكان عارفاً بغوامض الأمور وتدبير الملك، فاق على من تقدعه. وكان يحب العلماء ويعظمهم، ويشفق على رعيته. ويأمر بالإحسان إليهم. قلت: وهل يسع مؤرخاً في وسط بلاد سلطان عادل أو ظالم أو كافر إلا أن يثني عليه ويكذب، فإله المستعان: قلوا أثني على هولأكو بكل لسان لا اعترف المثني بأنه مات على ملة آيائه، وبأنه سلك دم ألف ألف أو يربون، فإن كان الله تعالى مع هذا وفقه للإسلام فيما سعادته، لكن حتى يصبح ذلك، والله أعلم، انتهى

رحيل بركة خان: بعدما هلك الطاغية "هولاكو" من شدة الغيظ والحقد على ما جرى على يد "بركة خان" ورث مكانه ابنه "أباقا"، وورث عنه أيضاً حقه وحسده على "بركة خان"؛ خاصة لأن "بركة" قد هزمه هزيمة كبيرة سنة ٦٦١ هجرية، لذلك كانت محاربة "بركة" أولى الأولويات في تمكيد "أباقا بن هولاكو".

وبالفعل، أعد "أباقا" جيشاً جراراً لمحاربة "بركة" وأرسل "بركة" أولاً قائده "توغاي"، ولكنه هزم وأصيب بسهم في عينه، وكان "بركة خان" يحب "توغاي" لإسلامه وجهاده معه في كل موطن، فخرج "بركة خان" نفسه للقاء "أباقا" وفي نيته محاربة عدو الإسلام، وإزالة هذا الفرع الخبيث من شجرة التتار التي بدأت تتحول إلى الإسلام شيئاً فشيئاً. وأتاه اليقين في الطريق، وتوفي البطل العظيم مجاهداً مناصراً دين الله عام ٦٦٥ هـ، بعدما قضى من حياته الحقيقية، ١٥ سنة، في خدمة الإسلام ومحبة المسلمين ومحاربة أعداء الإسلام، حتى مات وبلل بالعفرة ثوبه على نية الجهاد، ولم يكن له أولاد ولم يترك ذرية، ولكنه ترك سجلاً حافلاً في العمل للدين والأهمل الصحيح لعقيدة الولاء والبراء، حتى إن السلطان المملوكي الظاهر "بيبرس" قد سمى ولده الأكبر "بركة خان"؛ حباً في شخصية هذا البطل العظيم، ولشديد الأسف لا يعرفه معظم المسلمين الآن، توفي في السنة السابعة من سلطنة الظاهر بيبرس.

٢. دخول أول دفعة من التتار في الإسلام في ذي الحجة ٦٥٩ هـ، مباشرة بعد معركة حمص الأولى (وقعة القيقان)، إذ وصل إلى دمشق نحو المئتين مائتين إلى المسلمين، فأعطوا أخباراً. وهم أول من قر من التتار ودخل في الإسلام، وكانوا بداية الهجرة المباركة إلى دار الإسلام، وبهم قويت شوكة الإسلام ضد كفار التتار أنفسهم. لتاريخ الإسلام للذهبي تحت أحداث سنة ٦٥٩ هـ

٣. بيبرس الداعية في تزوجه ومصاهراته وعلاقاته السياسية بالمغول: وكانت مدة سلطنة بيبرس وملكه ١٩ سنة وشهرين ونصفاً. وكان الملك الظاهر بيبرس (رحمه الله) أباً الفتوح، ملكاً شجاعاً مقداماً غزياً مجاهداً مرابطاً خليفاً بالملك خفيف الوطاة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه. وكان قد نذر نفسه لله تعالى في تزوجه ومصاهراته، فكانت كلها سياسية من أجل نصرة الدين، فزوجاته أم الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان هي بنت الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمي، وزوجاته الأخريات: بنت الأمير سيف الدين توكاي التتاري، وبنت الأمير سيف الدين كراي التتاري، وبنت الأمير سيف توغاي التتاري، وشهرزورية تزوجها لما قدم غرة وحالف الشهرزورية قبل سلطنته فلما تسلطن طلقها، ومن أبنائه: الملك المسعود نجم الدين خضرا أمه أم ولد، والملك العادل بدر الدين سلا مش. وولد له من البنات سبع.

ووفد على بيبرس من التتار زهاء ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أمره طيل خلائه، ومنهم من جعله أمير عشرة إلى عشرين، ومنهم من جعله من السقاء، ثم جعل منهم سلحدارية، وجمدارية، ومنهم من أضافه إلى الأمراء (أنظر ترجمة الملك الظاهر بيبرس الهندقاري، آخر الجزء الثاني، التتار الزاهرة لابن تغري بردي).

٤. اثر انتصارات المسلمين في إسلام المغول: وأثر معركة حمص الثانية سنة ٦٨٠ هـ، والانتصار التاريخي الساحق للسلطان قلاوون وجيوش الإسلام ضد جيوش المغول الكافرة البالغ تعدادها مئة ألف أو يزيد، والهزيمة المنكرة لقائدهم منكوتر وجرحه في المعركة، ورد الخبر في أول سنة ٦٨١ هـ أنه تسلطن في مملكة التتار مكان أبا بن هولاكو، أخوه لأبيه أحمد بن هولاكو، وهو مسلم حسن الإسلام وعمره يومئذ ٢٠ سنة. وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى كلمة الدين وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاء، وأنه أنقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الفقه بلبس الفياض وضرب الحزبة عليهم، ويقال: إن إسلامه كان في حياة والده هولاكو، فسُر السلطان قلاوون بذلك سروراً عظيماً.

٥- تربية الأسرى المغول وعقبتهم بعد إسلامهم: وفيهم من أسير ورثي ثم تسلطن في بلاد المسلمين، فمثلاً: السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصور، وأصله من التتار من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة ٦٥٩هـ، فأخذته الملك المنصور قلاوون وأدبه، ثم أعتقه وجعله من مهاليكه ورقاه حتى صار من أكابر أمراءه، واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية خليل ابن قلاوون إلى أن قتل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٦٩٣هـ، وأقام الناصر في الملك وعمره ٩ سنوات. إلى سنة ٦٩٤هـ ووقع الاتفاق على خلعه وسلطنة كتبغا هذا، فتسلطن بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون الخميس ١٢ المحرم سنة ٦٩٤هـ باتفاق الأمراء، وصار السلطان العاشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وتلقب بالملك العادل وسنه يوم ذلك نحو ٤٠-٥٠ سنة. (وهو غير كتبغا نوبن صهر هولكو الذي قتل، وكان كتبغا هذا من جملة من كان في عسكر هولكو من التتار ممن لا يؤبه له من الأصاغر)، وكسبه قلاوون في الواقعة، فكان بين المدة نحو ٣٥ سنة، حتى قمر الله تعالى سلطنة كتبغا هذا.

٦- هجرة المغول المسلمين (المهاجرين) إلى دار الإسلام: بدأ آلاف التتار بالتحول إلى الإسلام، فمثلاً: بينما السلطان الملك العادل كتبغا فيما هو فيه من أمر الغلاء بمصر، ورد عليه الخبر في صفر سنة ٦٩٥هـ بأنه قد وصل إلى الرحبة عسكر كثير نحو عشرة آلاف ١٠٠٠٠ بيت من عسكر (بيدو) ملك التتار طائبين الدخول في الإسلام: خوفاً من السلطان غازان، ومقدمهم أمير اسمه طرخاي، وهو زوج بنت هولكو، فرسم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري بأن يسافر من دمشق إلى الرحبة حتى يتلقاهم فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سنجر لأعسر شاد دواوين دمشق، ثم ندب الملك العادل أيضاً الأمير قراسنقر المنصورى بالخروج من القاهرة، فخرج حتى وصل إلى دمشق لتلقي المذكورين، ورسم له أن يحضر معه في عوده إلى مصر جماعة من أعيانهم، فوصل قراسنقر إلى دمشق وخرج لتلقيهم ثم عاد إلى دمشق في يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول، ومعه من أعيانهم مئة فارس وثلاثة عشر فارساً. وفرح الناس بهم وبإسلامهم وأنزلوهم بالقصر الأبيض من الميدان وأما الأمير علم الدين سنجر الدواداري، فبقي مع الباقيين وهم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وامرأة، ومعهم ماشية كثيرة ورخت عظيم. وأقام قراسنقر بهم أياماً، ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية. وقدموا القاهرة في آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا ورتب لهم الرواتب.

٧- إسلام ملك التتار غازان: ويقال: غازان وكلاهما يوضح معناه، واسمه الحقيقي محمود بن أرغون بن أبغا بن هولكو. وهو مظهر الإسلام وشعائره الإيمان على الرغم من فساد كبير في عقيدته وعمله، بل قيل: إنه كان يعتقد سرا بدشمانية دين التتار.

تحرير جزيرة أرواد: آخر جيب صليبي بحري عام ١٣٠٢م:

بعد أن حرر الأشرف خليل ساحل الشام بالكامل عام ١٢٩١م، فر فرسان المعبد (الداوية) وبعض الصليبيين إلى جزيرة أرواد مقابل طرطوس، فتحوط الجزيرة إلى قاعدة صليبية لشن الهجمات على سفن المسلمين، وقاعدة ترصد وترصد بطرطوس وساحل الشام. طلب غازان المغولي في أواخر عام ١٣٠٠، من أرمن قليقيا (مملكة أرمينيا الصغرى) والصليبيين في جزيرة قبرص بالقيام بعملية مشتركة ضد المسلمين، فقام الصليبيون في قبرص بشحن مقاتلين من فرسان المعبد والإسبتارية، وقوات يقودها الأمير أمالريك أوف لوزيان (Amalric of Lusignan) ابن ملك قبرص، إلى أرواد.

وحين وصلت الأنباء إلى القاهرة، قرر الملك الناصر محمد بن قلاوون بناء شواني لغزو الجزيرة. وأبحر الأمير كهرداش في سبتمبر ١٣٠٢ من مصر إلى الشام وحاصر أرواد، وفتك بالحامية الصليبية، وأسّر عدداً من فرسان

المعبد، وفرّ بعضهم إلى قبرص، واستسلمت أرواد آخر جيب للصليبيين في الشام في ٢٦ أيلول ١٢٠٢، ودقت بشار النصر في القاهرة. وكان يوم دق البشار هو اليوم نفسه الذي عاد فيه الأمير بكتاش منتصراً على أرمن قليقيا. فالأمير بكتاش كان قد خرج، في عدة من الأمراء من بينهم كتيقا، إلى مملكة قليقيا الأرمنية بسبب تحالفها مع غازان. انتشرت قوات بكتاش في أرجاء كليكليا، وحرقت المحصولات، وأسرت أعداداً من الأرمن وحاصرت عاصمتهم سيم. وعاد إلى القاهرة غانماً في أثناء البشار لتحرير أرواد.



أرواد آخر جيوب الصليبيين في الشام

كان طرد الصليبيين من أرواد، وتوجيه ضربة لمملكة قليقيا انتصاراً مهماً للمسلمين على التحالف الصليبي - الأرمني - المغولي التي كان الصليبيون وأرمن قليقيا يسعون دوماً جاهدين إلى تحقيقه. ذكر في تلك المدة هيثوم الأرمني (Hethum the Armenian) في كتابه، مخاطباً بابا الكاثوليك عن أهمية التعاون مع المغول قائلاً: «هذا هو الوقت المناسب لاستعادة الأرض المقدسة بمساعدة المغول، ومن الممكن احتلال مصر من دون مصاعب أو مخاطر»، ويشرح

في مقبرة أخرى: (يجب طلب شيئين من ملك المغول: أولاً: أن لا يسمح بمرور أي شيء عبر مناطقه إلى أراضي الأعداء، وثانياً: أن يرسل رجاله ورسله لإشغال حرب في أراضي ملاطية، ويدمر ويحرب منطقة حلب. وعندما تقوم نحن الحجاج وقوات قبرص وأرمينيا بغزو أراضي الأعداء بجزراً وبراً. وعلى قواتنا المسيحية أن تحصن جزيرة أرواد؛ إذ إنها تحتل موقعاً رائعاً لضرب سفن الأعداء وإحداث أضراراً جسيمة بهم).



جزيرة قبرص في شرق البحر الأبيض المتوسط

السلطان برسيبي (حكم من ٨٢٥-٨٤١هـ / ١٤٢٢-١٤٣٧م) وفتح جزيرة قبرص، آخر قاعدة صليبية عام ٨٢٩هـ - ١٤٢٦م:

بدأ "برسيبي" حياته مملوكاً للأمير "دقماق الحمدي" نائب "ملاطية" (في تركيا اليوم)، الذي اشغره عن أحد تجار العبيد، ومكث في خدمته، وإليه انتسب اسمه، فأصبح يعرف بـ "برسيبي الدقماقي"، ثم أهداه سيده إلى السلطان الظاهر برفوق سلطان مصر، فأعتقه. وجعله من جملة مماليكه وأمرائه، وبعد وفاة السلطان برفوق، تقلّب في عدة مناصب مستقلاً بين سلطان وآخر، حتى نجح في اعتلاء عرش السلطنة في ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ - ١ نيسان ١٤٢٢م. وصار يلقب بالسلطان الأشرف برسيبي. ومن ألقابه خادم الحرمين الشريفين، وهو السلطان الثامن

في ترتيب سلاطين المماليك البحرية، و ٣٢ في الترتيب العام لسلاطين دولة المماليك. وقد حكم السلطان برسباي مدة ١٣ سنة، نجح فيها في إشاعة الأمن والاستقرار، والقضاء على التمرد والضرب على أيدي الخارجين على النظام. **بعد** مكنه ذلك الاستقرار، الذي نعمت به البلاد، من القيام بغزو جزيرة قبرص.

ولقبرص تاريخ إسلامي يمتد إلى سنة ٢٨/٢٧ هـ. ولقد غزا معاوية رضي الله عنه قبرص أو قبرص (سنة ٢٨ هـ - ٦٤٩ م)، وهي من أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط في أقصى شرقيها، وكانت تابعة للإمبراطورية الرومانية. كتب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه والي الشام إلى الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفان رضي الله عنه يستأذنه في غزو البحر أكثر من مرة، فأجابته عثمان إلى ذلك، وكتب إليه: (لا تتخبط الناس ولا تنفرق بينهم، خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله **وأعنه**) ففعل معاوية، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الفزاري. واتجه الأسطول الإسلامي عام ٢٨ هـ نحو قبرص، وهي الجزيرة المهمة في موقعها في البحر المتوسط؛ فهي المحطة البحرية الاستراتيجية للتجارة والملاحة، ثم إن موقعها مهم عسكرياً؛ لحماية فتوح المسلمين في بلاد الشام وإفريقيا.

اتجه الأسطول الإسلامي من سواحل بلاد الشام، بقيادة عبد الله بن قيس إلى قبرص، وسار إليها أيضاً أسطول إسلامي آخر من مصر، بقيادة عبد الله بن سعد، فالتزعا المسلمون عام ٢٨ هـ من البيزنطيين، إمبراطوره آنذاك كوستانس الثاني. وقد صالح أهل قبرص المسلمين على:

١. ألا يقيموا بغزو المسلمين.

٢. وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم.

٣. مع جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة.

٤. وأن يختار المسلمون بطريق قبرص.

وبذلك يكون أول فتح لجزيرة قبرص على يد معاوية سنة ٢٨ هـ، وغزاها معه جماعة من الصحابة، فيهم أبو بكر، وعبد الله بن الصامت ومعه زوجته أم حرام، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس (رضي الله عنهم أجمعين). قال جبير بن نفير: ولما فتحت قبرص وأخذ منها السبي، نظرت إلى أبي الدرداء يبكي، فقلت: ما يبكيك في يوم أمر الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الكفر وأهله؟ قال: فحضر منكبي بيده، وقال: ثكلتك أمك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى، فسلط الله عليهم السباء، وإذا سلط الله السباء على قوم فليس له فيهم حاجة.

وتوفيت في هذه الغزوة أم حرام بنت ملحان الأنصارية تحقيقاً لنبوة رسول الله ﷺ، وهي أنه تام رسول الله ﷺ في بيتها، فاستيقظ وهو يضحك، وقال: «عرض عليّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسيرة». قالت أم حرام: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال ﷺ: «إنك منهم». ثم تام فاستيقظ وهو يضحك، فقالت أم حرام: يا رسول الله، ما يضحكك؟ فقال: «عرض عليّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسيرة». قالت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال ﷺ: «أنت من الأولين». وقد صاحبها زوجها عبادة بن الصامت رضي الله عنه في غزو قبرص، فلما جاز البحر بها، ركبت دابة فصرعتها فقتلتها، ودفنت هناك، وقبرها يزار حتى يومنا هذا.

ثم إن أهلها النصاري كانوا يشعرون على تبعيتهم إلى الحكم الإسلامي بين الفينة والأخرى؛ فلهذا تكررت الغزوات على قبرص في الأعوام: ١٣٠، ١٥٨، ١٨٤، ١٩٠ هجرية، وقبيل ابتداء الحملات الصليبية وجه ملك لقسطنطينية (نقصور) أسطولاً إلى قبرص عام ٩٦٥ م، فاحتلها، فأصبحت سبباً بالغ الأهمية للصليبيين، وبعد

استرجاع بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي، اتجه زيتشارد قلب الأسد إلى قبرص وجعلها قاعدة له عام ١١٩١م، وأصبحت مملكة في عام ١١٩٨م، وأصبح ملكها موجهاً إلى المغول للقضاء على المسلمين، وصبحت عام ١٢٤٨م قاعدة للملك لويس التاسع عند غزوة مصر.

ووجد ملك قبرص (هيو)، في عام ١٢٦٣م، قبرص وعكا التي كانت لاتزال بيد الصليبيين، فأصبح مسؤولاً عن حماية عكا آخر معاقل الصليبيين في الشرق. وحرر المسلمون عكا في عام ١٢٩١م، وأضحت قبرص بعدها مركز تهديد للشواطئ الإسلامية؛ لذلك كان الملك الأشرف خليل مخبر عكا بنادي دوماً: (قبرص، قبرص، قبرص)، غير أن تهديدات المغول أعاقته عن تنفيذ أهدافه، ووافته المنية بالاغتيال.

وكان المماليك قد اهتموا بالسيطرة على قبرص؛ لكونها تحولت قاعدة للهجوم على السواحل الإسلامية، وكان القبارصة قبل هذه المعركة قد اتخذوا جزيرتهم مركزاً للوثوب على الموانئ الإسلامية في شرق البحر المتوسط، وتهديد تجارة المسلمين، فقاموا بغارة على الإسكندرية في سنة ٧٦٧هـ-١٢٦٥م، وأحرقوا الحوائط والخانات والقنادق، ودنسوا المساجد وعلقوا عليها الصليبان، وفعلوا المنكرات، ومكثوا بالمدينة ثلاث أيام يعيثون فيها فساداً، ثم غادروها إلى جزيرتهم، وتكررت مثل هذه الحملة على طرابلس الشام في سنة ٦٩٦هـ-١٢٩٣م. وظلت غارات القبارصة لا تنقطع على الموانئ الإسلامية، ولم تفلح محاولات سلاطين المماليك في دفع هذا الخطر والقضاء عليه، وبلغت استهانة القبارصة بهيبة دولة المماليك واغترارهم بقوتهم أن اعتدى بعض قراصنتهم على سفينة مصرية سنة ٨٢٦هـ-١٥٢٢م، وأسروا من فيها، ولم تفلح محاولات السلطان برسباي في عقد معاهدة مع جانوس ملك قبرص، تضمن عدم التعدي على تجار المسلمين.

وتماذى القبارصة في غرورهم، فاستولوا على سفينتين تجاريتين، قرب ميناء دمياط، وأسروا من فيهما، وكانوا يزيدون على مئة رجل، ثم تجاوزوا ذلك فاستولوا على سفينة محملة بالهدايا، كان قد أرسلها السلطان برسباي إلى السلطان العثماني "مراد الثاني"، عند ذلك لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر، والرد على هذه الإهانات التي يواظب القبارصة على توجيهها لدولة المماليك، واشتعلت في نفسه نوازع الجهاد، والشعور بالمسؤولية، فأعد ثلاث حملات لغزو قبرص، وذلك في ثلاث سنوات متتالية.

حملات السلطان الأشرف برسباي الثلاث؛ لم يكن أمام برسباي سوى التحرك لدفع هذا الخطر؛ رداً على الحملات الصليبية التي قام بها ملوك تلك الجزيرة على الإسكندرية ودمياط، في أثناء اشتداد حملات تيمورلنك على بلاد الشام، فلما تصدعت دولة تيمورلنك بعد وفاته، قام السلطان الأشرف برسباي بهذا الرد. فخرجت الحملة الأولى في سنة ٨٢٧هـ-١٤٢٤م حملة استطلاعية صغيرة إلى جزيرة قبرص، وهاجمت ميناء ليماسول، وأحرقت ثلاث سفن قبرصية كانت تستعد للقرصنة، وغنموا غنائم كثيرة، ثم عادت الحملة إلى القاهرة، شجع هذا الظفر أن يبادر برسباي بإعداد حملة أعظم قوة من سابقتها لغزو قبرص، فخرجت الحملة الثانية في (رجب ٨٠٨هـ - مايو ١٤٢٥م) مكونة من أربعين سفينة، واتجهت إلى الشام، ومنها إلى قبرص، وكانت جهتها هذه المرة ميناء فاما غوستا، وقد أحرزت النصر، ومكثت ٤ أيام، ثم اتجهت إلى مدينة ليماسول ونجحت في تدمير قلعة ليماسول، وقتل نحو خمسة آلاف قبرصي، وعادت إلى القاهرة تحمل بين يديها ألف أسير، فضلاً على الغنائم التي حُمِلت على الجمال والبغال.

وبعد عام خرجت الحملة الثالثة، واستهدف السلطان برسباي فتح الجزيرة وإخضاعها لسلطانه، فأعد حملة أعظم من سابقتها وأكثر عدداً وعدة، فأبحرت مئة وثمانون سفينة من ميناء رشيد المصري في ٨٢٩هـ-١٤٢٦م، وسارت نحو ليماسول ففتحها في (٢٦ شعبان ٨٢٩هـ - ٢ تموز ١٤٢٦م)، ثم اتجهت نحو الداخل وتحركت الحملة

شعلاً، قاتلت بجيش كبير يقوده ملك قبرص جانوس نفسه، فجرت معركة طاحنة بين الفريقين، انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً، وأسروا الملك، وحملوه معهم، واستولت القوات المصرية على العاصمة "نيقوسيا"، وبدأت الجزيرة في طاعة دولة المماليك.

استولت قوات المماليك على جزيرة قبرص للمرة الثانية في تاريخ الإسلام، في يوم الخميس ١٢ رمضان عام ٨٢٩هـ - ١٤٢٦م، وذلك على يد السلطان المملوكي الأشرف برسباي. ولما بلغ السلطان الأشرف (برسباي) خبر فتح قبرص، بكر من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله، وقرأ الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس.

واحتفلت القاهرة برجوع الحملة الظاهرة التي تحمل أكايل النصر، وشقت الحملة شوارع القاهرة التي احتشد أهلها لاستقبال الأبطال في (٨ شوال ٨٢٩هـ - ١٤ آب ١٤٢٦م). وكانت جموع الأسرى البالغة ٣٧٠٠ أسير قسیر حنف المؤكبة، وكان من بينها ملك قبرص جانوس وأمرأه.

استقبل برسباي بالقلعة ملك قبرص، وكان بحضرته وهود من أماكن مختلفة، مثل: شريف مكة، ورسيل من آل عثمان، وملك تونس، وبعض أمراء التركمان، فقبل جانوس الأرض بين يدي برسباي، واستعطفه في أن يطلق سراحه، فوافق السلطان على أن يدفع مائتي ألف دينار فدية، مع التعهد بأن تظل قبرص تابعة لسلطان المماليك، وأن يكون هو نائباً عنه في حكمها، وأن يدفع جزية سنوية.

وللتوثيق العربي لهذا الفتح المبين، هذه وثيقة من توثيق شاهد العيان ابن تغري بردي المعاصر للسلطان في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ذكره تحت حكم السلطان الأشرف برسباي:

غزوة قبرص على حدتها. ولما كان يوم الإثنين ٢٣ شهر رمضان لعام ٨٢٩هـ ورد الخیر على السلطان بأخذ مدينة قبرص، وأسر ملكها جينوس بن جاك، فذقت البشائر بالقلعة لهذا الفتح ثلاثة أيام. وكان من خبر ذلك أن القرعاء لما ساروا من الثغور المذكورة إلى جهة قبرص، وصلوا إلى مدينة اللمسون اليماسول مجتمعين ومتفرقين، فبلغهم من أهل اللمسون أن مملك قبرص جاءت تجدة كبيرة من ملوك الفرنج، وأنه استعد لقتالهم كما تقدم ذكره.

الاستيلاء على اليماسول: ولما وصلوا إلى اللمسون، نازلوا قلعتها وقاتلوا من بها حتى أخذوها عنوة في يوم الأربعاء ٢٦ شعبان. ونهبوها وسبوا أهلها وقتلوا جماعة كبيرة ممن كان بها من الفرنج، ثم هدموها عن آخرها وساروا منها في يوم الأحد أول شهر رمضان من سنة تسع وعشرين المقدم ذكرها، بعد أن أقاموا عليها نحو ستة أيام وساروا فرقتين: فرقة في البر، وعليهم الأمير تغري بردي المحمودي، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش أحد مقدمي الألوف، ومن انضاف إليهم من أمراء الطليخانات، والعشرات والعساكر المصرية والشامية من الخيالة والرجالة، وفرقة في البحر ومقدمهم الأمير إينال الحكمي أمير مجلس، والأمير قرامراد خجا الشهباني أحد مقدمي الألوف بمن انضاف إليهم من العساكر المصرية والشامية. وكان سبب مسير هؤلاء في البحر مخافة أن يطرق الفرنج المراكب من البحر ويأخذوها، ويصير المسلمون ببلادهم يقاتلونهم على هيئتهم وكان ذلك من أكبر مصالح.

ثم سار من في البر متفرقين، حتى صاروا بين اللمسون والملاحه وهم من غير تعبئة لقتال، بل على صفة المسافرين، غير أن على بعضهم السلاح وأكثرهم بلا سلاح لشدة الحر. وصار كل واحد من القوم يطلب قدماً من خير أن يترى أحدهم لآخر، وفي ظنهم أن صاحب قبرص لا يلقاهم إلا خارج قبرص.

وتأخر الأمراء ساقية العسكر كما هي عادة مقدمي العساكر ، والناس تجد في السير إلى أن يتأربوا قبرس ، ثم يقفوا هناك يريدون خيلهم إلى أن تكتمل العساكر وتتهيأ الأطلاب للقتال ، ثم يسيرون جملة واحدة بعد التعب والمصافقة.

الموقعة البرية الكبرى: وبينما هم في السير ، إذا هم بممتلك قبرس بجيوشه وعساكره ، ومن انضماف إليه من ملوك الفرنج وغيرها ، وقد ملأت القضاء ، وكان الذين أقامهم صاحب قبرس من المسلمين الذين سبقوا طائفة قليلة جداً ، وأكثرهم خيالة من أعيان الممالك السلطانية.

فعندما وقع العين على العين ، لم يتمالك المسلمون أن يصبروا لمن خلفهم حتى يصيروا جملة واحدة ، بل انتهزوا الفرصة وتعرضوا للشهادة ، وقال بعضهم لبعض: هذه الغنمة ، ثم حركوا خيولهم وقصدوا القوم بقلب صادق ، وقد احتسبوا نفوسهم في سبيل الله وحملوا على الفرنج حملة عظيمة ، وصاحوا: (الله أكبر) وقاتلوهم أشد قتال وأردفهم بعض جماعة وتخلف عنهم آخر ، منهم رجل من أكابر الخاصكية ، أقام يستظل تحت شجرة كانت هناك.

وتقاتل المسلمون والفرنج قتالاً شديداً ، قتل فيه السيقي تغري بردي المؤيدي الخازندار ، وكان من محاسن الدنيا ، لم تر عيني أكمل منه في أبناء جنسه ، والسيقي قتلوهما المؤيدي البهلوان ، وكان رأساً في الصراع ، ومج مقولة تغري بردي المقدم ذكره في الشجاعة والفروسية ، والسيقي إينال طار البهلوان ، والسيقي ثاني الشبيكي وهؤلاء الأربعة من الأعيان والأبطال المعدودة ، عوض الله شبابهم الجنة بمنه وكرمه ، ثم قتل من المسلمين جماعة آخر ، وهم مع قتلهم ويسير عددهم في ثبات إلى أن نصر الله الإسلام ووقع على الكفرة الخذلان ، وانكسروا وأسر ممتلك قبرس مع كثرة جموعه وعظم عساكره التي لا تحصر وقلة عسكر المسلمين ، حتى إن الذي كان قد حضر أوائل الواقعة أقل من سبعين نفساً ، قبل أن يصل إليهم الأمير إينال العلاني الناصري ، أحد أمراء الطليخانات ، ورأى نوبة ثالث ، وهو الملك الأشرف إينال والأمير تغري برمش ، ثم تتابع القوم طائفة بعد طائفة ، كل ذلك بعد انكسرت الفرنج ، وأسر صاحب قبرس ، وقتل من قتل من المسلمين ، ولما ترادفت عساكر الإسلام ، ركبوا آفنية الفرنج ووضعوا في السيف وأكثروا من القتل والأسر ، وانتهز من بقي من الفرنج إلى مدينة قبر الأفضس.

قتل الخونة: ثم وجد المسلمون مع الفرنج طائفة من التركمان المسلمين ، قد أمد الفرنج بهم علي بك بن قرمح عليه من الله ما يستحقه ، فقتل المسلمون كثيراً منهم. واجتمع عساكر البر والبحر من المسلمين في الملاحة ، يوم الإثنين ثاني شهر رمضان ، وتسلم الأمير تغري بردي المحمودي صاحب قبرس ، كل ذلك ، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون ، حتى امتلأت أيديهم ، واجهدوا في حمل الغنائم.

وأما القتلى من الفرنج ، فلا تحصر ويستحي من ذكرها كثرة. حدثني بعض ممالك النواذ ممن باشر الواقعة من أولها إلى آخرها وجماعة كبيرة من الأصحاب الثقات ، قالوا: كان موضع الواقعة أزيد من ألفي قتيل من قتل الفرنج ، هذا الموضع الذي كان فيه القتال. وأما الذي قتل من الفرنج بالضياح والأماكن وبطريق قبرس ، فلا حد ولا حساب ، فإنه استمر القتل فيهم أياماً ، واستمر الملاحة إلى يوم الخميس خامس شهر رمضان ، فساروا منها يريدون الأفضس مدينة قبرس.

المعركة البحرية: ولما ساروا ، وأقامهم الخبر بعد أن تقدم منهم جماعة كبيرة من المطوعة والمماليك السلطانية إلى مدينة قبرس بأن أربعة عشر مركباً من مراكب الفرنج مشحونة بالسلاح والمقاتلة أتت المراكب لقتال المسلمين ، منها سبعة أغرية وسبعة مريفة القلاع. فلاقاهم الأمير إينال الحكمي أمير مجلس ، والأمير قرامرادخ الشعباني ، والأمير طوغان السيقي تغري بردي أحد مقدمي دمشق ، والأمير جاني بك رأس نوبة السيقي يلبف.

أصابري، المعروف بالثور، وبمن انضاف إليهم من المطوعة وغيرهم، وهؤلاء الأمراء الذين كانوا مقدمي العساكر في البحر بالمراكب، واقتتلوا مع الفرنج المذكورين أشد قتال، حتى هزموهم، وأخذوا منهم مركباً مريعاً من مواكب الفرنج، بعد أن قتلوا منهم عدة كبيرة تقارب ما ذكرنا ممن قتل بمكان الواقعة الأولى وولت الفرنج الأديار.

دخول قصر ملك الجزيرة، واستمر الذي توجه من الغزاة إلى الأقسيا من الممالك السلطانية، وغيرهم يقتلون في طريقهم ويأسرون إلى أن وصلوا إلى المدينة ودخلوا قصر الملك ونهبوه، ثم عادوا ولم يحرقوا بمدينة قبرس إلا مواضع يسيرة، ولم يدخل المدينة أحد من أعيان العسكر، وغالب الذي دخلها من الممالك السلطانية والمطوعة، وكان دخولهم وإقامتهم بها وعودهم منها في يومين وليلة واحدة، ثم أقام جميع الغزاة بالملاحة وأراحوا بها أبدانهم سبعة أيام، وهم يقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح.

ولله الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم، الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في سنة ثيف وعشرين، ثم ركب الغزاة المراكب عائدين إلى جهة الديار المصرية، ومعهم الأسرى والغنائم، ومن حملتها ممتلك قبرس في يوم الخميس ثاني عشر رمضان، بعد أن بعث أهل الماغوصة يطلبون الأمان. هذا ما كان من أمرهم، انتهى.

وجزيرة قبرس تسمى باللغة الرومية شبرا ليوني سايبروس ICyprus والبحر يحيط بها منتي ميل، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والقرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال، وليريد بهذا القرسخ أربعة فراسخ، وجزيرة قبرس من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة وسلطانها يقال له: أراد شبرا، أي: سلطان الجزيرة. وقبرس مدينة بالجزيرة تسمى الأقسيا. ومسيرة جزيرة قبرس سبعة أيام. بالجزيرة المذكورة اثنتا عشرة ألف قرية كباراً وصغاراً، وبمدينتها وقرائها من الكنائس والديارات (أم الأديار) لأن تدبير جمعه أديار) والقلالي والصوامع كثير. وبها البساتين المشتملة على الفواكه المختلفة، وبها الرياحين العطرة كالخزام والياسمين والورد والنوسن والثرجس والريحان والنسرين والأقحوان وشقائق النعمان وغير ذلك، وبمدين جزيرة المذكورة الأسواق والخانات والحمامات والمباني العظيمة، انتهى.

وأما أمر السلطان الملك الأشرف برسباي، فإنه لما بلغه خبر أخذ قبرس في يوم الإثنين ثالث عشرين رمضان حسبما تقدم ذكره، كان أن يطير فرحاً، ولقد رأيته وهو يبكي من شدة الفرح وبكى الناس لبكائه وصار يكثر من الحمد والشكر لله. ودقت البشائر بقلعة الجبل وبساتين مدن الإسلام لما بلغهم ذلك، وارتجت القاهرة وماجت الناس من كثرة السرور الذي هجم عليهم، وقرئ الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس بالمدرسة لأشرفية بجبل العبريين بالقاهرة، حتى سمعه كل من قصد سماعه وحضر.

وقالت الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد، من ذلك القصيدة العظيمة التي نظمها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية، وأنشدتها بين يدي السلطان بحضرة أرباب الدولة والقصيدة ثلاثة وسبعون بيتاً أولها:

بفتح قبرس بالحسام المشرف
فيا لك أشرف في أشرف في أشرف
من أجله بالتصبر واللفظ الخفي
عادتها التأيد وهو بها حفي

بشر الدنيا ملك المليك الأشرف
فتح شهر الصوم ثم له
فتح تفتح السموات العلا
والله حفاً جوده بملائك

لؤلؤة أنفاس ملكه لم تشرف
قبر الشريف لرائر ومطوف

الأشرف السلطان أشرف مالك
حامى حمى الحرمين بيت الله وال

انتهى

نصر لا يُفسر إلا بتأييد الله المسلمين بملائكته:

قلت: وكل ذلك، والنصارى تكذب هذا الخبر وتستغريه من أسر ممتلك قبرس وهزيمة على هذا الوجه: لأن أمر هذا النصر في غاية من العجب من وجوه عديدة:

• أولها: قلة من قاتل الفرنج من المسلمين، فإنهم كانوا في غاية من القلة، بحيث إن العقل لا يقبل ذلك إلا بعد وقوعه في هذه المرة.

• وثانيهما: أنه لم تتعب عساكر الإسلام ولا وقع مصاف.

• وثالثها: أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرس من المسلمين بعد أيام كثيرة، من وجوه عديدة: طول الشرح في ذكرها لا تحفى على من له ذوق.

• ورابعها: أنه كان يمكن هزيمة الفرنج، ولا يمكن مسك الملك وأسرهم أيضاً من وجوه عديدة.

• وخامسها: أن غالب العسكر، إذا حصل لهم هزيمة يتحابون ويرجعون غير مرة على من هزمهم، لا سيما كثرة عساكر الفرنج، وقلة من حضر الوقعة من عساكر المسلمين في هذه المرة فكان على هذا يمكنهم الكر على المسلمين بعد هزيمتهم غير مرة.

• وسادسها: أن الوقعة والقتال والهزيمة والقبض على الملك وتشنت شمل الفرنج والاستيلاء على وما أرى إلا أن الله سبحانه وتعالى أعز الإسلام وأهله وخذل الكفر وأهله بهذا النصر العظيم، الذي لم يسمع بمثله في سالف الأعصار، ولا فزع بمثله ملك من ملوك الترك.

ولقد صار للملك الأشرف برسباي بهذا الفتح ميزة على جميع ملوك الترك إلى يوم القيامة. اللهم لا مانع لما أعطيت.

احتفال تاريخي: ولما بلغ الملك عود الغزاة المذكورين إلى جهة الديار المصرية، رسم فتودي بالقاهرة ومصر بالزينة، ثم ندب السلطان جماعة كبيرة عن الممالك السلطانية بالتوجه إلى الثغور: لحفظ مراكب الغزاة بعد خروجهم منها: خوفاً من أن يطرقهم طارق من الفرنج مما يأتي صاحب قبرس من تجددات الفرنج. وكان هذا من أكبر المصالح، ثم رسم السلطان لهم أن يأخذوا جميع المراكب من ثغر دمياط ويأتوا بها إلى ثغر الإسكندرية لتحفظ بها، وسبب ذلك أن الغزاة المذكورين كان منهم من وصل إلى ثغر الإسكندرية، ومنهم من وصل إلى ثغر دمياط، ومنهم من وصل إلى الطينة: لكثرة المراكب واختلاف الأرياح. وبينما السلطان في انتظار المحجدين، قدم عليه السيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة منها، وقد استدير بعد موت أبيه، فأكرمه السلطان وخلع عليه بامرة مكة، على أنه يقوم بما تأخر على أبيه من الذهب وهو مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، فإن أباه الشريف حسن بن عجلان كان قد حمل من الثلاثين ألف دينار التي التزمها قبل موته خمسة آلاف دينار. ثم التزم بركات أيضاً حمل عشرة آلاف دينار في كل سنة، وأن لا يتعرض السلطان لما يؤخذ من بندر جدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند وغيره، وأن يكون ذلك جميعه لبركات المذكور. انتهى.

ولما كان يوم عيد الفطر، ابتدأ دخول الغزاة إلى ساحل بولاق أرسلالاً كما خرجوا منها، ووافق في هذه الأيام وهاء النيل ستة عشر ذراعاً، فتنصاعف مسرات الناس من كل جهة، واستمر دخولهم في كل يوم إلى ساحل بولاق، إلى أن تكامل في يوم الأحد سابع شوال، ونزلوا بالميدان الكبير بالقرب من موزدة الجبس.

وأصبحوا من الغد في يوم الإثنين ثامن شوال، وهو يوم فطر السلطان: فإنه كان يصوم الستة أيام من شوال، وطلعوا إلى القلعة على كيفية ما يذكر وهم جميع الأمراء والأعيان من المجاهدين والأسرى والغنائم بين أيديهم وممتلك قبرس الملك جينوس بين جالك أمامهم، وهو منكس الأعلام، وقد اجتمع لرؤيتهم خلانق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، حتى أتت أهل القرى والبلدان من الأرياف للفرجة.

وركبت الأمراء من الميدان ومعهم غالب الغزاة، وساروا من أرض اللوق حتى خرجوا من القبس، ودخلوا من باب القنطرة، وشنقوا القاهرة إلى باب زويلة، وتوجهوا من الصليبية من تحت الخانقاه الشيخونية من سوقة منعم إلى ارميلة، والخلق في طول هذه المواضع تزدهم، بحيث إن الرجل لا يسمع كلام رفيقه من كثرة زغاريد النساء التي صفت على جوانب القاهرة بالشوارع، من غير أن يتدبهم أحد لذلك والإعلان بالتكبير والتهليل ومن عظم التهنائي. هذا مع تخليق الزعفران والزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى في الأزقة. وفي الجملة: كان هذا اليوم من الأيام التي لم نرها قبلها ولا سمعنا بمثلاً.

وساروا على هذه الصفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرج، وهم مع ذلك في ترتيب في مشيهم يذهب العقل، وهو أنهم قدموا أولاً الفرسان من الغزاة أمام الجميع، ومن خلف الفرسان طوائف الرجال من المطوعة وعشيران البلاد الشامية وعربين البلاد وزعم القاهرة، ومن خلف هؤلاء الجميع الغنائم محمولة على رؤوس الحمالين وعلى ظهور الجمال والخيول والبغال والحمير، التي كانت على الرؤوس، فيها تاج الملك وأعلامه منكسة وخيله تقاد من وراء الغنائم، ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفرنج، ثم من بعدهم السبي من النساء والصغار، وهم أزيد من ألف أسير تقريباً، سوى ما ذهب في البلاد والقرى مع المطوعة وغيرهم من غير إذن مقدم العساكر، وهو أيضاً يقارب ما ذكر.

ومن وراء الأسرى جينوس ملك قبرس، وهو راكب على بغل بقيد حديد، وأركب معه اثنان من خواصه، وعن يمينه الأمير **مينال** الحكيم أمير مجلس، وأمامه قرا مراد خجا الشعباني أحد مقدمي الأتوف أيضاً، وعن يسار الأمير تغري بردي المحمودي رأس توبة النوب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش المحمودي رأس توبة ترب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش أحد مقدمي الأتوف أيضاً، وأمامهم أمراء الطلخانات والعشيرات على مراتبهم وأمراء البلاد الشامية.

وساروا على هذه الصفة حتى طلعوا إلى القلعة، فأنزل جينوس عن البغل وكشف رأسه عند باب المدرج، وقد احتاطه الحجاب وأمراء جاتدار، وقد صفت العساكر الإسلامية من باب المدرج إلى داخل الحوش السلطاني. فلما دخل جينوس من باب المدرج، قبل الأرض ثم قام ومشى، ومعه الأمراء من الغزاة والحجاب ورؤوس النوب هو يرسف في قيوده على مهل لكثرة الزحام.

هذا، وقد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذي على باب البحرة المقابل لباب الحوش السلطاني، في موكب عظيم من الأمراء ولخاصكية، وعنده الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، وهو جالس فوق الأمراء، ورسل خوند ككار مراد بن عثمان ممتلك بلاد الروم، ورسل صاحب تويس من بلاد المغرب، ورسول الأمير عذرا أمير العرب بالبلاد الشامية، وقد طال جلوس الجميع عند السلطان إلى قريب الظهر والسلطان يرسل إلى الغزاة رسولاً بعد رسول باستعجالهم، حتى اجتازوا بتلك الأماكن المذكورة، فإنها مسافة طويلة وأيضاً لا يقدرزون على سرعة المشي عن كثرة ازحام الناس بالطرقات.

ثم ساروا من باب المدرج إلى أن دخلوا باب الحوش، فلما رأى مملك قبرس السلطان وهو جالس على المقعد المذكور في موطنه، وأمره من معه بتقبيل الأرض، غشي عليه وسقط على الأرض، ثم أفاق، وقيل الأرض وقام على قدميه عند باب الحوش، تجاه السلطان على بعد، وسارت الغنائم بين يدي السلطان، حتى عرضت عليه بتمامها وكمالها، ثم الأسرى بأجمعهم حتى انتهى ذلك ضلته، فتقدمت الأمراء الغزاة وقبلوا الأرض على مراتبهم إلى أن كان آخرهم الأمير إينال الحكمي مقدم العساكر.

ثم أمر السلطان بإحضار مملك قبرس، فتقدم ومشى وهو بقيوده ورأسه مكشوف، وبعد أن مشى خطوات أمر قبيل الأرض، ثم قام ثم قبل الأرض ثانياً بعد خطوات، وأخذ يغمز وجهه في التراب ثم قام فلم يتمالك نفسه وقد أدهشه ما رأى من هبة الملك وعز الإسلام فسقط ثانياً مغشياً عليه، ثم أفاق من غشوته، وقيل الأرض، وأوقف ساعه بالقرب من السلطان، بحيث إنه يتحقق شكله.

هذا، والجاوشية تصيح، والشبابية السلطانية ترعق، والأزان يضرب على آتته، ورؤوس النوب والحجاب تهول الناس بالعصي، من كثرة العساكر والناس بالحوش المذكور هذا مع ما الناس فيه من التهليل والتكبير بزقاقات القلعة وأطباق الممالك السلطانية وغيرها. ثم أمر السلطان بجينوس المذكور أن يتوجه إلى مكان بالحوش السلطاني، فمروا به في الحال إلى المكان المذكور.

ثم طلب السلطان مقدمي عساكر الغزاة من أمراء مصر والشام والخاصكية المقدم كل واحد عنهم على مركب، وكانوا كثيراً جداً؛ لأن عدة مراكز الغزاة المصريين والشاميين زادت على مئة قطعة، وقيل مائتان، وقيل أكثر أو أقل ما بين أغرية وقراقير وزوارق وغير ذلك.

فأول من بدأ بهم السلطان وخلع عليهم أمراء الألوف بمصر والشام، وخلع على كل واحد منهم أطلسين متمرراً، وقيل له فرساً بقماش ذهب، وهم: الأمير إينال الحكمي أمير مجلس، والأمير تغري بردي الحمودي الناصري رأس نوبة النوب، والأمير قرامرادخا الشعباني الظاهري برقوق أمير جاندان، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش البهسني التركماني، أحد مقدمي الألوف، والأمير طوغان السيفي تغري بردي، أحد مقدمي الألوف بدمشق، ثم أمراء الطليخانات والعشرات من أمراء مصر والشام، على كل واحد فوقاني كمخاً أحمر وأخضر وبنفسجي بطرز زركش على قدر مراتبهم، وكذلك كل مقدم مركب من الخاصكية والأجناد وغيرهم فكان هذا اليوم يوماً عظيماً جليلاً، لم يقع مثله في سالف الأعصار، أعز الله تعالى فيه دين الإسلام، وأيده وحذله فيه الكفر وبدده، ثم انقض الموكب ونزل كل واحد إلى داره.

وقد كثرت التهاني بحارات القاهرة وظواهرها لقدم المجاهدين، حتى إن الرجل كان لا يجتاز بدرب ولا حارة إلا وجد فيها التخليق بالزعران، ثم أصبح السلطان من الغد، وهو يوم الثلاثاء تاسع شوال يجمع التجار لبيع الغنائم من القماش والأواني والأسرى، ثم أرسل السلطان يطلب من مملك قبرس المال، فقال: مالي إلا روحني، وهي بيدكم، وأنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد، من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم؟

وتكرر الكلام معه بسبب ذلك، وهو يجيب بمعنى ما أجاب به أولاً، حتى ظليه السلطان بالحوش، وكان به أسارى الفرنج، فلما حضر بين يدي السلطان وقبل الأرض وأوقف وشاهد الأسرى من الفرنج في تلك الحالة، صرخوا بأجمعهم صرخة واحدة، وحثوا التراب على رؤوسهم والسلطان ينظر إليهم من مجلسه بالمقعد الذي كان جلس به من أمسه.

وسبب حراخ الأسرى وعظيم بكانهم، أنه كان فيهم من لا يصدق أن ملكهم قد أسر؛ لكثرتهم وتفرقهم في التراكب والاحتفاظ بهم، وعدم اجتماع بعضهم على بعض، فكان إذا قيل لبعضهم: إن ملككم معنا أسير، يضحك ثم يقول: أين هو؟ فإذا قيل له: بهذه المركب. ويشار إلى مركب الأمير تغري بردي المحمودي بهذا بذلك ويبتسم.

فلما عاينوه تحققوا أسره وهالهم ذلك. وقيل: إن بعض سبي الفرنج سألت من رجل من المسلمين، لما كسروا صليب الكبير الذي يعرف به جيل الصليب ببلادهم، وكان هذا الصليب معظماً عندهم جداً وقالت: نحن إذا خلف منا رجل أو امرأة على هذا الصليب باطلاً أو ذي في الوقت، وأنتم قد كسرتهم وأحرقتموه ولم يصيبكم بأس ما سبب ذلك؟ فقال لها الرجل: أنتم أطعتم الشيطان، فصار يغويكم ويستخف بعقولكم، ونحن قد هدانا الله للإسلام، وأنزل علينا القرآن، فلا سبيل له علينا، فعندما كسرونا بعد أن ذكرنا اسم الله تعالى عليه، فرمته الشيطان وذهب إلى لعنة الله. فقالت المرأة: هو ما قلته وأسلمت هي وجماعة معها. انتهى

ولما أوقف جينوس المذكور بالحوش بين يدي السلطان، وأوقف معه جماعة من قناصل الفرنج ممن كان بمصر وأعمالها، وتكلم الترجمان معه فيما يقدي به نفسه من المال ولا يقتله السلطان، صمم هو على مقاتلة الأولى، فالتزم القناصل عنه المال لفدائه، من غير تعيين قدر بعينه، ولكنهم أجابوا السلطان بالسمع والطاعة فيما طلبه وعادوا جينوس إلى مكانه من الحوش والترسيم عليه، وكان الذي رسم عليه السيقي أركماس المؤيدي الخاصكي المعروف بأركماس فرعون.

وأقام جينوس بمكانه إلى يوم الأربعاء فرسم له السلطان بيدتين من قماشه وأمر له بعشرين رطل لحم في كل يوم وستة أطيار دجاج وخمس مئة درهم فلوساً يرسم حوائج الطعام، وفسخ له في الاجتماع بمن يختاره من الفرنج وغيرهم، وأدخل إليه جماعة من حواشيه لخدمته، كل ذلك، والسلطان مصمم على طلب خمس مئة ألف دينار منه ضدي بها نفسه ولا يقتله، والرسائل تتردد بينهم من التراجيح والقناصل إلى أن تقرر الصلح بعد أيام، على أنه يحمل مائتي ألف دينار يقوم منها مئة ألف دينار عاجلة، وإذا عاد إلى بلاده أرسل بمئة ألف دينار الأخرى، وضمنه جماعة في ذلك، وأنه يقوم في كل سنة بعشرين ألف دينار جزية.

واشترط جينوس مع السلطان أن يكف عنه طائفة البنادقة وطائفة الكيتلان من الفرنج، فضمن له السلطان ذلك، وانعقد الصلح، ثم أطلقه من السجن بعد أيام كما سبذكره في يومه هذا ما كان من أمر صاحب قبرس وغزوه. انتهى

وتوفي السلطان الأشرف برسباي فاتح قبرص في ذي الحجة ٨٤١ - ٨٤٢ هـ مايو ١٤٢٧ م. واستمرت جزيرة قبرص منذ ذلك الوقت تابعة لمصر، حتى سنة (٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م) التي سقطت فيها دولة المماليك على يد السلطان العثماني سليم الأول. ومن ثم صار المماليك قواداً ونواباً للعثمانيين في مصر. فاستقل النصارى حينئذ بقبرص لبضعة وسبعين عاماً. ثم أعاد العثمانيون فتح قبرص عام ١٥٧٢ م المرة الثالثة في التاريخ الإسلامي. ثم احتلها البريطانيون عام ١٨٧٨ م. ثم أصبحت مستقلة عام ١٩٤٥ م، ومن أيام استقلالها عن البريطانيين وهي مقسومة إلى شطرين شطر مسلم (وهو شكري) وشطرن نصراني (وهو اليوناني).

نسأل الله تعالى أن يعيدها لجميع بلاد المسلمين السليبية إلى حوزة الإسلام، وأن ينعم على أهلها بتحكيم شريعة الغراء.

المراجع

١. تفسير القرآن للقرطبي.
٢. تفسير القرآن لابن كثير.
٣. البداية والنهاية لابن كثير.
٤. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي، تحت أحداث ووقيات العام المذكور.
٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي.
٦. حسن المحاضرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي.
٧. السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك (١٨) للشيخ الدكتور علي محمد الصلابي دار المنارة، ٢٠٠٩/٩/١٠ (الشبكة البيئية).
٨. القاطمية: دولة التقاريج والتبازيح، للدكتور جمال بدوي، دار الشروق، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.
٩. تاريخ القاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، للدكتور محمد سهيل طقوش، دار الفنائس، الطبعة الثانية ٢٠٠٧.
10. Geoffrey Hindley: **A brief history of The Crusades** (Islam and Christianity in the struggle for World Supremacy). Robinson London, 2004.
11. David W. Tschanz and Hamra Abbas: **Histor's Hinge: Ain Jalut**. *Saudi Aramco World* July/August 2007, pages 24-33.
12. Wikipedia, the free encyclopedia, Online research according to subject.

